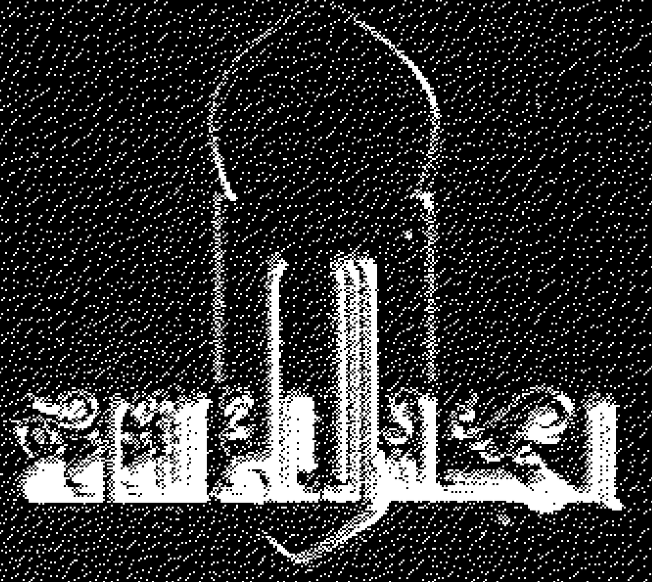


أحمد شوقي

الأعمال الكاملة • المسرحيات

تقديم : عز الدين إسماعيل

طبعة خاصة بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة بالذكرى الخامسة والسبعين لرحيل حافظ وشوقي (١٩٣٢ : ٢٠٠٧)

المجلس الأعلى للثقافة

أحمد شوقى
الأعمال الكاملة
المسرحيات

تقديم : عز الدين إسماعيل

طبعة خاصة بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة
بالذكرى الخامسة والسبعين
لرحيل حافظ وشوقى (١٩٣٢ : ٢٠٠٧)



٢٠٠٧

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شوقى ، أحمد شوقى بن على ، ١٨٦٨ - ١٩٣٢
أحمد شوقى: الأعمال الكاملة المسرحيات/تقديم: عز الدين إسماعيل-
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧
٨٣٢ ص ؛ ٢٤ سم .
(طبعة خاصة بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة بالذكرى الخامسة
والسبعين لرحيل حافظ وشوقى (١٩٣٢ - ٢٠٠٧) .
١ - المسرحيات الغربية ، المسرحيات الشعرية .
(أ) إسماعيل ، عز الدين (مقدم) .
(ب) العنوان ٨١٢,٦

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٢٥٦٥
الترقيم الدولى I.S.BN. 977 - 437 - 499 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.

أحمد شوقي

الأعمال الكاملة

المسرحيات

تقـــديم

يحتل الشاعر أحمد شوقى مكانة مرموقة فى تاريخ الأدب العربى الحديث ، أهله لها عطاؤه الأدبى الغزير والمتنوع ، الذى شغل به الناس فى حياته على مدى نيف وأربعين عاما ، ومازالوا يشغلون به حتى اليوم ، شأنه فى هذا شأن المتنبى .

لقد كان مايزال حيا عندما اتفق النقاد فى أمر شعره واختلفوا ؛ لكنه بعد وفاته صار ملكا للتاريخ ، فتوارت دوافع المعاصرة بوجهيها الإيجابى والسلبى ، وبقى نتاجه الأدبى حيا فى ضمائر الأجيال ، مؤكدا أنه كان أمة وحده ، وأنه كان - بحق - شاعر أمته .

لم يكتف بأن يكون الشاعر المبرز فى زمانه فيقتصر نشاطه الإبداعى على فن القصيد ؛ ولو فعل لكفاه أن يكون شاعر عصره ، كسائر الشعراء الكبار فى تاريخ الأدب العربى ، ولكن طموحه الأدبى كان يجاوز هذه الغاية . كان يكفيه أن يكون الشاعر الذى رسخ دعائم النهضة الشعرية الحديثة ، ولكن إحساسه العميق بمطالب النهضة الأدبية بعامة ، دفعه - منذ صدر شبابه - إلى التطلع إلى آفاق أخرى من الإبداع الأدبى ، كان الواقع - آنذاك - يلح فى طلبها . ولا شك فى أن السنوات الأربع التى قضاها مبعوثا فى فرنسا ، والتى أتيح له فى أثنائها أن يزور إنجلترا ويمضى بها شهرا ، قد قوت فى نفسه ذلك الإحساس ، من خلال ما اطلع عليه من أشكال

أدبية ، وبخاصة فى مجال المسرح والقصة .

وهكذا اجتمعت كل الظروف ، العامة والخاصة ، على دفعه إلى الخروج من إطار القصيدة الغنائية المحدود ، وإلى المغامرة فى عالم المسرح ، فكتب - وهو ما يزال فى بعثته - مسرحيته الأولى المسماة «على بك الكبير» . ويبدو أنها لم تلق القبول من الخديو ، ولكن المؤكد أنها كانت - مثل كثير من الأعمال الأولى - عملا هزيلا ، بدليل أن شوقى نفسه قد عاد فى أخريات حياته فأعاد كتابتها .

والواقع أن إخفاق شوقى فى هذه التجربة الأولى قد صرفه ردحا من الزمن عن الكتابة للمسرح ، ولكنه بعد أن عاد من بعثته واستقر به المقام فى القاهرة ، اتجه إلى معالجة لون آخر من ألوان الإبداع الأدبى ، فكتب عددا من القصص ، فى وقت لم تكن القصة فيه قد أصبحت فنا أدبيا معترفا به ومقدرا من البيئات المثقفة . ولأمر ما لم يشغل أحد من نقاد شوقى المعاصرين له بهذا اللون من النتاج الأدبى ، بل ما تزال العناية بهذه القصص التى كتبها شوقى محدودة للغاية حتى اليوم ، على الرغم من أهميتها التاريخية والفنية .

وهكذا شاءت الظروف أن يظل شوقى مرتبطا بفن الشعر فى إطار القصيدة ، وأن تتحدد مكانته الأدبية على المستويين المصرى والعربى فى ضوء ما أبدع فى هذا المجال ، على مدى نيف وأربعين عاما ، فكان تتويجه أميرا للشعراء فى عام ١٩٢٧ .

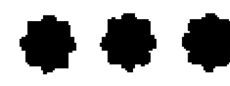
وعند هذا المدى كان شوقى قد استنفد كل الطاقات التعبيرية لإطار القصيدة ، وكانت ظروف المجتمع قد تطورت فحصلت مصر على وعد باستقلالها ، ووضع الدستور وقامت الحياة النيابية ، واستحكمت دعوات التجديد واتضحت فيها الرؤية . عند ذلك عاود شوقى الحنين إلى مغامرته الأولى فى كتابة المسرحية الشعرية ، فإذا هو يتجه إليها بكل طاقته ، وإذا هو فى غضون السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة من حياته يكتب سبع مسرحيات جديدة ، ويعيد كتابة مسرحيته القديمة «على بك الكبير» .

وإذا دل هذا النتاج الغزير فى ذلك الزمن المحدود على شىء فإنما يدل على أن شوقى ظل طوال ذلك الزمن مؤرقا بفكرة المسرح ، وأن هاجس هذه الفكرة لم يكف

فى نفسه ، إلى أن صارت الظروف مواتية فانطلق الشاعر فى الكتابة كأنه يسابق الزمن ، وكأنه وجد أخيرا متنفسا لذلك الهم الثقافى الذى حمله فى قلبه وفى ضميره زمنا طويلا .



وقد كان المسرح فى مصر حتى ذلك الوقت قد غلب عليه تياران استجاب كلاهما لجانب من الذوق العام ، أحدهما تيار الترجمة والتمصير للمسرحيات الكوميدية ، وبخاصة كوميديات «موليير» ، والآخر تيار عربى ، يستمد موضوعاته من الحكايات الشعبية ، وبخاصة من «ألف ليلة وليلة» ، ويمتلىء بمقطوعات الشعر التى تؤدى غناء . ومن خلال النكتة أو الغناء كانت المسرحية تجد طريقها إلى نفوس جمهور المشاهدين . ومع ذلك فإنه إلى جانب هذين التيارين كان تيار ثالث يظهر على استحياء فى أعقاب الحرب العالمية الأولى نتيجة لتزايد الاتصال بين مصر والثقافة الغربية ، وعودة بعض المبعوثين الذين درسوا أصول المسرح وفن التمثيل ، والذين حرصوا على أن يقدموا الأعمال المسرحية الجادة لكبار الكتاب الغربيين ، وفى مقدمتهم شيكسبير وكورنى وراسين . وربما كان هذا المناخ الجديد - بالإضافة إلى عوامل أخرى - هو ما شجع شوقى على معاودة الكتابة للمسرح .



ومهما يكن من شىء فقد استهل شوقى نشاطه المسرحى بمسرحيته المسماة «كليوبترة» ، ثم أعقبها «مجنون ليلى» و «قمبيز» و «على بك الكبير» و «عنترة» و «أميرة الأندلس» و «الست هدى» و «البخيلة» . ولاخلاف فى الترتيب من حيث الزمن حول المسرحيات الثلاث الأوليات ، والمسرحيتين الأخيرتين . وعلى كل فإن المدة القصيرة التى استغرقتها كتابة هذه المسرحيات جميعا تجعل للترتيب الزمنى لصدورها قيمة ثانوية . وما قد يراه بعض النقاد فى مسرحية متأخرة ، مثل «الست هدى» مثلا ، من تطور فى فن الكتابة المسرحية بالقياس إلى مسرحية متقدمة مثل «كليوبترة» أو «مجنون ليلى» يمكن مراجعته فى ضوء حقيقة أن طبيعة الاختلاف بين الموضوع التاريخى المأسوى فى «كليوبترة» ، والموضوع الواقعى الكوميدى فى «الست هدى» قد اقتضت أسلوبين مختلفين للمعالجة .

من أجل هذا آثرنا ، فى هذا المجلد من الأعمال الكاملة لشوقى ، أن نقدم إلى القارىء هذه المسرحيات مرتبة على النحو التالى : عنترة ، مجنون ليلى ، أميرة الأندلس ، ثم قمبيز ، فكليوبترة ، فعلى بك الكبير ، فالست هدى ، فالبخيلة .

وقد آثرنا هذا الترتيب لسبب موضوعى ، يأخذ فى الحسبان نتاج شوقى الشعرى فى مجمله . فقد رأينا كيف أن شوقى قد كتب هذه المسرحيات فى أخريات حياته ، بعد أن كان قد استوفى حظه من كتابة الشعر فى إطار القصيدة . وقد لاح لنا أن ما كتبه شوقى من مسرحيات لا يكاد يخرج فى مضمونه الكلى وفى مغزاه الأخير عما استأثر باهتمامه فى «شوقياته» ؛ فهناك إطاران موضوعيان ارتبط بهما كثير من هذه الشوقيات ، هما الإطار العربى والإطار المصرى . ومن جهة أخرى يشكل التراث العربى مصدرا أساسيا وجوهريا لثقافة شوقى ، فى الوقت الذى يشكل فيه التاريخ المصرى منذ عهد الفراعنة حتى زمنه رافداأساسيا لشعوره الوطنى . ومن أجل هذا وذاك كانت المسرحيات الثلاث الأولى - فى هذا الترتيب - هى ما استمد فيها شوقى من ثقافته العربية ؛ وكانت المسرحيات الخمس الأخيرة هى ما استمد فيها شوقى من التاريخ المصرى القديم والحديث نسبيا ، ومن الواقع المعاصر .

لقد كانت هذه المسرحيات تتويجا لرحلة طويلة فى عالم القصيدة ؛ وهى لذلك لا يمكن أن تنفصل عنها ، بل إنها تفسرها بقدر ما تفسَّر بها . وهذا موضوع دراسة طريف ، ولكن لا مجال له هنا .



وقد يقال إن قدراً لا يستهان به من قصائد شوقى قد تحرك فى إطار آخر غير الإطارين العربى والمصرى ، هو الإطار الإسلامى ، وإن الجزء الأكبر من هذه القصائد قد ارتبط بالترك وبسلاطينهم بوصفهم حماة الإسلام . ولم يكن شوقى يعتقد هذه العقيدة وحده ، بل كان هناك آخرون مثله ، يقودون تياراً سياسياً يصطرع مع غيره من التيارات . ومع ذلك لم يفكر شوقى فى أن يكتب مسرحية يستمد موضوعها من التاريخ التركى فى أى مرحلة من مراحله ؛ وكل ما نعرفه فى هذا الشأن هو ما صرح به ابنه حسين من أن أباه كان قد شرع فى كتابة مسرحية عن محمد على الكبير ، رأس الأسرة المالكة فى مصر . أما القسم الآخر من هذه القصائد فيتعلق

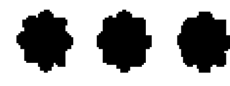
بالإسلام فى قيمه الروحية ومبادئه الأخلاقية . وفى هذا المستوى نستطيع أن ندرك أن هذه القيم والمبادىء كانت تسيطر على رؤية شوقى لسلوكيات بعض شخوصه المسرحيين فى بعض المواقف ، سواء منهم العرب والمصريون . ومن ثم كان من الصعب أن نعزل بعض مسرحياته لكى نصنفها فى إطار إسلامى صرف .

ومرة أخرى يمكننا أن نتمثل تلك العلاقة القوية بين نتاج شوقى المسرحى ونتاجه الشعرى إذا نحن أخذنا فى الحسبان مصادر مادة هذه المسرحيات . فأربع من هذه المسرحيات مستمدة من التاريخ ، وهى قمبيز وكليوبترة وعلى بك الكبير وأميرة الأندلس ؛ واثنتان منها مستمدتان من روايات شبه تاريخية ، هما عنترة ومجنون ليلى ، واثنتان منها تضربان بجذورهما فى قلب الواقع الذى عايشه شوقى ، هما الست هدى والبخيلة . فإذا عرفنا أن المسرحيات الأربع الأولى قد اتصلت بالملوك والأمراء والولاة وحياة القصور اتصالاً وثيقاً ، أدركنا العلاقة الموضوعية والنفسية بين هذه المسرحيات وكثير من قصائد شوقى فى الأسرة المالكة وفى وصف حياة القصور التى خبرها عن قرب . وإذا عرفنا أن المسرحيتين التاليتين قد اتصلتا بشاعرين عربيين كانت عاطفة الحب مدار حياتهما ، أدركنا كذلك العلاقة الموضوعية والنفسية بينهما وبين قصائد شوقى الغزلية ، التى حاول فيها أن يشرح عاطفة الحب ، وأن يسمح لنفسه بالتعبير عن مشاعره الذاتية . ثم تأتى المسرحيتان الأخيرتان فتعلنان - باتصالهما المباشر بالواقع الاجتماعى - عن مرحلة التحول فى شعر شوقى إلى هموم الشعب ومشكلاته . وأيضا فإن الاتصال بين الفكاهة الشعبية الساخرة فيهما وشعر « المداعبة » عنده لا يحتاج إلى بيان .

وهكذا تصبح هذه المسرحيات فى هذا النسق معبرة عن مناح ثلاثة ، هى المنحى التاريخى ، والمنحى الذاتى ، والمنحى الاجتماعى . وهذه المناحى هى نفسها التى يعلن عنها حصاد شوقى الشعرى .

على أنه ينبغى أن يكون واضحاً أننا لم نقصد بهذه المقاربة بين نتاج شوقى المسرحى ونتاجه الشعرى أن نقول إن أحدهما يمكن أن يحل محل الآخر أو يغنى غناءه ؛ وأيضاً فإننا لا نقصد بها أن ندعم النقد القديم الذى ذهب فيه أصحابه إلى أن شوقى قد نقل شعره الغنائى إلى مسرحياته . وكل ما قصدنا إليه هو أن نشير إلى

الأطر الموضوعية العامة لعالم شوقى كماتتمثل فى مسرحه وفى شعره على السواء . ويبقى بعد ذلك أن يتميز الإطار الفنى للمسرحية - حتى عندما تكون شعرية - عن إطار القصيدة .



وقد كتب شوقى مسرحياته شعراً باستثناء مسرحية واحدة كتبها نثراً ، هى مسرحية أميرة الأندلس .

وليس هنا مجال الخوض فى علاقة المسرح بالشعر ، قديماً وحديثاً ، ولكن ما ينبغى تسجيله هنا هو أن شوقى قد وجد نفسه - وقد أقدم على كتابة مسرح شعرى - مطالباً بأن يطوع ذلك القالب الضيق لمقتضيات الأداء المسرحى ، حيث تتباين الشخوص والمشاعر والأفكار فى المواقف المختلفة ، وحيث يبطىء الحوار ويسرع وفقاً لطبيعة كل موقف . ومن ثم فقد كان مضطرا - من أجل تحقيق هذا الأداء - إلى الخروج من قبضة الوزن الشعرى الواحد والقافية الموحدة ، إلى التنويع الدائم للأوزان والقوافى ، على نحو يضمن مرونة الأداء ، ويلائم طبيعة الحوار فى كل موقف ، بل فى كل منعطف شعورى أو فكرى فى داخل الموقف الواحد . ويمكننا أن نلاحظ - بالإضافة إلى كل ذلك - أن بنية البيت الشعرى الواحد صارت تفتت أحياناً - وفقاً لمقتضى الحوار فى مواقف بعينها - بحيث تستوعب مساحة البيت اللغوية حواراً متبادلاً بين شخصيتين ، على نحو ما نرى فى الحوار التالى من مسرحية عنترة :

عبلة : فتى ! وممن الفتى ؟

ناجية : من عامر

عبلة : وما حداه نحو عبس ؟

ناجية : الهوى

فهذه البنيات اللغوية الأربع ، المتمثلة فى سؤالين من عبلة ، وإجابتين من ناجية ، إذا ضمت جميعاً شكلت بنية عروضية لبيت شعرى واحد ؛ لكن ورودها على هذا النحو قد ذهب بالإيقاع الصوتى الحاد لهذه البنية العروضية ، وحقق للحوار

ما يقتضيه فى هذه اللحظة من مرونه وسرعة . وما نحسب أن شاعرنا كان فى مقدوره - وهو يرتاد كتابة المسرح الشعرى فى بيئة ألفت الشعر فى شكل القصيدة - أن يطوع هذا الشكل لمقتضيات الحوار بأكثر مما صنع . ومن ثم يصبح ضرباً من التجنى ما ذهب إليه بعض الدارسين * من أن شوقى لم يستطع تكييف المعجم الشعرى لمقتضيات الأداء المسرحى ، وأنه كان ينزلق فى الاسترسال الغنائى .

حقاً إن هناك مواقف يسترسل فيها الشاعر فيجرى على لسان أحد الشخوص حديثاً قد يطول حتى ليوشك أن يكون قصيدة . ولكن التأمل فى مثل هذه المواقف يدلنا على أن الشخصية لا تسترسل - فى الأغلب الأعم - إلا لأنها فى موقف « مناجاة » . والمناجاة بطبيعتها حديث مع النفس ، أو كشف عن مكنونها ؛ وهى وسيلة من وسائل الأداء المسرحى ، عرفها المسرح منذ القدم ، وما زال يستخدمها حتى اليوم . وكثيراً ما كان شوقى ينص فى توجيهاته المسرحية على أن الشخصية فى موقف مناجاة ، مثلما صنع - على سبيل المثال - فى بداية الفصل الرابع من « مصرع كليوبترة » :

كليوبترة : « كأنما تناجى نفسها »

نام ماركو ولم أنم وتفردت بالألم

إلى أن تقول :

أيها العين أبصرى إنما كنت فى حلم

وفى هذه اللحظة تلتفت إلى « شرميون » التى كانت تقف مع « هيلانة » فى أقصى الحجرة والدموع تنهمر من عينيها فتقول لها :

يا شرميون بلغنا موقفا حرجاً لا الرأى ينفعنا فيه ولا الباس .

ومن الواضح أن تغيير شوقى للوزن والقافية هنا ، فضلا عن المضمون ، يوحى بخروج كيلوبترة من حالة التفرد والاستغراق فى المناجاة إلى حالة الحضور الجماعى .

ويبقى بعد هذا أن بعض الشعر الذى ورد فى مواقف المناجاة مشبع بغنائية تؤهله لأن يلحن ويغنى . وسواء قصد شوقى إلى هذا قصدا أو صدر عنه بطريقة

عفوية فإن هذا المسلك لم يكن بمعزل عن هدف من أهداف المسرح العربى قبل شوقى ، وهو - كما ذكرنا - التأثير فى الجمهور عن طريق الغناء . وفى هذا الصدد يقول الدكتور محمد مندور : «ونحن لا نلوم شوقى لتضمينه مسرحياته بعض المقطوعات الغنائية ؛ وكنا نود لو مثلت - كما قلنا - بعض تلك المسرحيات كأوبرا ، وعندئذ كان لابد أن يختفى ما لاحظه بعض النقاد أو معظمهم من أن هذه المقطوعات الغنائية قد جاءت أحيانا دخيلة على بناء المسرحية ، معوقة لسير أحداثها وتطورها نحو خاتمتها»* .

والواقع أن مواقف المونولوج المشبعة بالغنائية لا تصادفنا فى كل مسرحيات شوقى الثمانى ؛ فعلى الأقل هناك المسرحيتان الأخيرتان ، وهما «الست هدى» و «البخيلة» . هاتان المسرحيتان قد خلتا من الغنائية ، لا لأنهما خلتا من مواقف المونولوج فحسب ، بل لغلبة الواقعية على أحداثهما كذلك . والواقع أن شوقى قد تنبه - بعد تجربته فى «مصرع كيلوبترة» و «مجنون ليلى» ، وبتأثير ما وجه إليه حينذاك من نقد - فخفف فى مسرحياته التالية من مثل هذه المواقف .

* * *

وعلى الرغم من تنوع مسرح شوقى من حيث مصادر مادته ، ومن حيث أساليب معالجته ، فإن القارىء المتأمل لهذا النتاج فى مجموعه يستطيع أن يستشف صدور شوقى فى هذا النتاج كله عن مبدأ أخلاقى ، يحكم نظرته إلى التاريخ أو ما يشبه التاريخ من جهة ، وفهمه لوظيفة المسرح من جهة أخرى . فهو فيما يختار من أحداث تاريخية يدير حولها بعض مسرحياته يكون مدفوعا بمشاعر وطنية ، وأعراف وتقاليد اجتماعية ، يستهدف تعميقها فى نفوس الجماهير وتأكيدها فى ضمائرهم . وهو من أجل ذلك لا يفسر غدر كيلوبترة بأنطونيو على أساس من الانحلال فى سلوكياتها ، أو ميلها إلى النجم الصاعد آنذاك وهو أكتافيو بقصد إغوائه ، وبرغبتها فى تحقيق أمجادها الشخصية ، بل يفسر هذا الغدر فى ضوء سياسة وطنية كانت كيلوبترة - فى رأيه - تتبناها ، مؤداها أن توقع بين قواد الرومان حتى يفنى بعضهم بعضا ، فتتمكن بهذا من بسط نفوذها على مصر وعلى الإمبراطورية الرومانية نفسها ؛ وكأن شوقى قد هدف من هذه المعالجة إلى إحداث نوع من التعاطف بين الجماهير وبينها ، وكسب

* محاضرات عن مسرحيات شوقى - معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٤ ص ٢٠ .

عطفهم عليها . أما أن يكون قد نجح فى تحقيق هذا الهدف أو لم ينجح فهذه مسألة أخرى .

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن موقفه من واقعة زواج «نتيتاس» من قمبيز ؛ فهو يميل إلى جعل إقدامها على الزواج من هذا الملك الغريب موقفا وطنيا منها . لقد كان قمبيز قد هدد وطنها مصر بالغزو عندما رفض فرعون مصر أن يزوجه من ابنته . وقيام نتيتاس بدور البديل هو نوع من التضحية بالنفس فداء للوطن . هكذا أراد لها شوقى ، على الرغم من أن رؤية أخرى للأحداث نفسها قد تنتهى إلى تفسير آخر لسلوك نتيتاس ، مغاير لما رآه شوقى . وفى هذه الحال يمكننا أن نقبل وجهة نظر شوقى أو نرفضها ، ولكن دون أن نذهب إلى تخطئته . فشوقى لم يغير من أحداث التاريخ الكبرى المرصودة ، ولكنه مضى يفسرها فى ضوء مبدئه الأخلاقى ، ويوجه مغزاها توجيها خاصا ؛ وهذا حق مشروع له ولكل الأدباء ، عندما يتجهون إلى التاريخ ليأخذوا منه مادة موضوعاتهم .

ويرتبط بهذا المنزع عند شوقى ما يمكن ملاحظته من اختياره من حياة الأمة الحقب التاريخية التى تكون فيها فى حالة انكسار ، أو تكون قد ألمت بها فيها بعض الكوارث . فالنظرة العجلى قد ترى فى هذا الاختيار تعارضا مع أهدافه الوطنية ، وإلا فقد كان الأولى به أن يختار الحقب التى يبلغ فيها الوطن أوج الازدهار ، والتى يحقق فيها أمجاده . هكذا كان اختياره لأحداث « قمبيز » و« كليوبترة » ؛ فالأحداث الأولى تنتهى إلى سقوط مصر تحت سيطرة الفرس ؛ والأخرى تنتهى إلى وقوعها تحت سيطرة الرومان . فإذا اتجه إلى الأندلس اختار الحقبة التى أخذ فيها حكم « الطوائف » فى الانهيار ، وعلى وجه التحديد حقبة انهيار دولة المعتمد بن عباد فى إشبيلية . أما فيما يتصل بتاريخ مصر الحديث نسبيا فقد اختار - فى « على بك الكبير » - حقبة تصور انحلال الحياة السياسية والاجتماعية على أيدى المماليك فى زمن الحكم العثمانى . لكن المتأمل فى المسرحيات التى دارت أحداثها فى هذه الحقب يدرك أنها أكثر ما تكون ملاءمة لكتابة « المآسى » المسرحية بصفة عامة . لكن شوقى - مدفوعا بأهدافه الأخلاقية - كان يبحث فى قلب هذه الانتكاسات التاريخية عن البطولات التى تكتسب عندئذ قيمة وأهمية خاصة فيبرزها .

هذا فيما يتصل بمسرحياته الأربع ذوات العلاقة الوثيقة بالتاريخ المعترف به . أما فيما يتصل بمسرحيتى « عنترة » و« مجنون ليلى » فالهدف الأخلاقى يتركز فى تأكيد المبادىء والأعراف والتقاليد التى درج عليها المجتمع . فالقيم والأعراف الاجتماعية السائدة تمثل عند شوقى الإطار المرجعى للحكم الأخلاقى على شخوصه . فإذا اصطدمت مشاعر الفرد بأعراف الجماعة كان على الفرد أن يضحى بمشاعره فى سبيل تحقيق هذه الأعراف . وفى هذا يتمثل الصراع الذى كتب على الشخصية المأزومة عنده أن تخوضه . وهذا المنحى يدل على رغبة شوقى فى عدم الاصطدام بالتقاليد والأعراف ، أو إحداث أى هزة لها ، وميله - على العكس - إلى تأكيدها .

إن ليلى حين خيرت فى الزواج بين قيس وورد لم تتردد فى اختيار ورد ، على الرغم من حبها لقيس . على أن رفضها لقيس لم يقم على أساس من مبدأ نابع من ضميرها الشخصى ، بل من ضمير الجماعة التى كانت تأبى للفتاة أن تزف إلى من شبب بها فى شعره ، وكشف عن مشاعر الحب نحوها . فالتقاليد القبلية إذن هى التى اصطدمت برغبة ليلى ، فضحت بحبها أو بالزواج ممن تحب ، إبقاء منها على تلك التقاليد . وكذلك كانت التقاليد القبلية - على نحو آخر - هى المتسلطة فى « عنترة »

وعلى الجملة يمكن أن يقال إن التزام شوقى الأخلاقى بوجهيه الوطنى والعرفى هو المسئول عما يكشف عنه تحليل الصراع فى مسرحياته التاريخية وشبه التاريخية من نجاح أو إخفاق .



وكل من يتأمل مسرحيتى شوقى الأخيرتين ، « الست هدى » و« البخيلة » ، يدرك التطور السريع الذى حققه شوقى فى مجال الدراما الشعرية . وهذا التطور يتمثل فى عدة مستويات .

فعلى مستوى الاتجاه العام خرج شوقى نهائيا من إطار المأساة الكلاسيكية وانتقل إلى الملهاة الواقعية . وقد استتبع هذا انصرافه عن شخوص الملوك والأمراء . وعن الشخوص الذين صنعت الرواية الشعبية من حياتهم أسطورة ، واتجاهه إلى شخوص

عاديين مألوفين من طبقة البرجوازية فى مجتمع المدينة الذى عاصره . والطريف أن الشخصية الرئيسية فى كلتا المسرحيتين شخصية نسائية . فالست هدى امرأة ثرية ودميمة ، يطمع أزواجها الواحد بعد الآخر فى أن يرث ثروتها . والبخيلة كذلك امرأة تكتنز الثروة وتحرم نفسها وكل من حولها منها . ومن ثم كان أساس الدراما فى المسرحيتين هو المفارقة . والمفارقة من شأنها أن تثير الضحك ، ولكنها قد تنطوى كذلك على نقد لاذع . وبهذا تسجل هاتان المسرحيتان تطورا فى إنجاز شوقى الدرامى على مستوى الموضوع والتناول .

وقد استتبع هذا كله تطورا ملحوظا على مستوى الأداء اللغوى والشعرى . فاللغة فى هاتين المسرحيتين قد اقتربت إلى حد كبير من لغة الكلام وإن حافظ الشعر على تماسكها .

ومن جهة أخرى اكتسب الشعر كثيرا من المرونة والحركة نتيجة لتطويعه لمقتضيات الحوار . وسوف يلاحظ قارىء هاتين المسرحيتين إلى أى مدى امتزجت اللغة فيها بالشخوص وصارت دالة عليها ، وإلى أى مدى استوعب الشعر الإيماءات والنكات والتعبيرات الشعبية دون أدنى افتعال أو تكلف .



وبعد فليس الهدف هنا تقديم دراسة أو ما يشبه الدراسة لهذه المجموعة من المسرحيات ؛ وإنما هى كلمة تقديم لها ، لن تحول بحال من الأحوال بين القارىء وما ينتهى إليه من آراء خاصة . وقد اقتضى هذه الكلمة إصدار هذه المسرحيات الثمانى مجتمعة فى مجلد واحد ، بعد أن صدرت كل مسرحية منها فى كتاب على حدة . والحق أن معظم هذه المسرحيات قد طبع خلال الخمسين عاما الماضية عدة طبعات . أما مسرحية البخيلة فلم يسبق نشرها فى كتاب قط ، إلا فى هذه الطبعة التى تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب . وقد كان من أثر الطبعات المختلفة غير المسئولة لتلك المسرحيات أن كثر فيها التحريف والتشويه والأخطاء اللغوية والعروضية ، وتداخلت فيها أحيانا أقوال الشخوص واختلطت على نحو يفسد

المشهد . وكان لابد من تدارك هذه الأخطاء والعيوب جميعا ، وإصدار هذه الطبعة الجديدة من هذه المسرحيات ، محررة ومدققة قدر الطاقة ، ضمن مشروع لإصدار أعمال شوقى الكاملة ، على نحو يليق بمكانته الأدبية فى تاريخنا الحديث ، ووفاء لأجيال المستقبل .

القاهرة فى ١٦/١/١٩٨٤

عز الدين إسماعيل

أحمد شوقي

الأعمال الكاملة

المسرحيات

عنترة

عنـــــترة

تمهيد

زمن الرواية : حوالى منتصف القرن الأول قبل الهجرة

مكان الرواية : بادية نجد — أحياء عبس وعامر وما بينهما

أشخاص الرواية :

عنترة	، فارس بنى عبس ، أسود اللون لأمه .
عبلة	، محبوبة عنترة وابنة عمه .
مالك	، أبو عبلة ، وعم عنترة ، وهو سرى من سراة عبس .
زهير، عمرو	، إخوة عبلة .
صخر	، سرى من سراة عامر يحب عبلة ويتردد على حيها ويخطبها .
ضرغام	، فارس شاب من فرسان عبس يحب عبلة ويخطبها كذلك .

ناجيـــة ، فتاة من عبس تحب صخرا .

شـــدّاد ، أبو عنترة .

داحس ، رفيق عنترة .

مارد
غضبان } ، عبـــدان .

رســـتم ، قائد الفرس .

ســـعاد ، خادم عبلة .

نكرات مسرحية ، رجال وخدم وفتيـات من عبس وعامر
راقصـات ومغنيـات و زامرون ،
ولصوص ...

الفصل الأول

« عين ذات الأصاد فى يمين المسرح وقـد حفت بالنخيـل. »
« وفى اليسار مضارب بنى عبس ، وأظهرها خيمة مالك الحمراء »
« التى يبدو جزء منها حوله ومن ورائه فضاء. فى جبهة المسرح ربوة »
« عالية وكثبان من الرمال تستوى بالأرض من ناحية اليمين. »
« الوقت فى مطلع الشمس وقد وقف عنترة أمام الخيام باديا »
« عليه النَّصَب والكلال . يُسمع نباح كلاب من وراء الخيام »

المشهد الأول

عنـــترة :

سَلِي الصبْحَ عنِّى كيفَ ياعبلَ أُصبِحُ ... وأينَ يرانِى نَجْمُـهُ حِينَ يَلْمَحُ
أفى خيْمَتِى كالنَّاسِ أمْ فى بيُوتِكُمْ ... أَبُثُّ الخيامَ الشـوْقَ وهْو مبرِّحُ
أُقبِّــلُ أطنابَ البيُوتِ ورُبَّمـا ... تلفَّتُّ عن مُنْهَلَّةِ الدمعِ تسـفَحُ
أرَى بِوُقُـــوفِى فى دِيارِكِ راحةً ... كما يَسـتريحُ ابنُ السبيلِ المطَرَّحُ
أبوكِ غَرِيرُ القلبِ لم يعرِفِ الهوَى ... ولم يَدْرِ ما يأسُو القلوبَ ويَجرَحُ

يَخِفُّ لواشٍ يشرَحُ الزورَ سمعُـهُ وفى أُذْنِهِ وقـرٌ إذا جئتُ أشرَحُ
أرَى الغيدَ من حوْلِى وفيهنَّ سلوةٌ فما لِى أردُّ القلبَ عنكِ فيَجمَحُ
فما سرَّنى منهنَّ ما كان يُشتَهى ولا راقَ لى منهنَّ ما كان يَملُحُ
أَحيدُ عن السَّارِى لكى لا يَريبكم وأُقصِى كلابَ الحىِّ عنِّى فتنبَحُ
فياعبلَ قد طالَ التَّنائِى وظلُّهُ متَى بتدانِينا الحوادِثُ تَسمَحُ؟

[يصعد الربوة من اليمين]

ياليت حبَّك عبلَ لى حبُّ القَطَاةِ لِشكلِها
أو حبُّ قُبَّرةِ الصَّفا لأليفِـها ولخِلِّها
أو مثلُ حُبِّ نَجيبَـةٍ مجنونةٍ فى فَحْلِها
ليتَ افتتانَكِ لم يكُن بِشجاعَتِى وبِفَضْلِها
أو ليتَ حبَّك لم يكن لقصائدى ولِنُبلِها

[يهيئ لنفسه مضطجعا وراء نخلتين على الربوة تحجبانه عن سائر المسرح جهد المستطاع ثم يرقد ويعلو نباح الكلاب وثغاء الشاء وصياح الديكة ويمرّ به فتيان سائران على الربوة وقادمان من ناحية الخيام]

المشهد الثانى

أحد الفتيين: ماذاكَ؟ مَنْ؟ قِفُوا، انظُروا جُلمودُ صخرٍ أم جسَدْ؟
الآخر: هـذا الفَتَى عنترةٌ كلُّ الثَّرى له وُسُدْ

قَــدِ الْتوَى كالأُفعُـوا نِ ، وتَمطّى كالأسَـدْ

[يهبط الفتيان الربوة ويختفيان ناحيــة اليمين وراء النخيل ويسمع صوت هاتف من وراء الخيام]

المشهد الثالث

الهاتف : الديكُ عِندَ البُيوتِ صاحَا ... يا حىَّ عبْسٍ عِموا صَبَاحَا

حىِّ هلَا يا رُعاةُ هُبُّــوا ... هاتُوا المَواشِى خُذُوا البِطاحَا

هلُمُّنَ يارَاعياتِ عَبْسٍ ... الرَّعْىَ والحلْبَ والفَلاحَا

[يخرج صبية وجوار من كل ناحيــة فى الحى مارّين بالخيمة الحمراء ومتجهين الى الحظائر و وراء النخيل بينما يجلس جماعة من الجوارى على حفاف العين يملأ ن الجرار ومن بينهن ناجيــة ثم تخرج عبلة من الخيمة الحمراء وتقف أمام بابها تمطى وتتاءب]

المشهد الرابع

عبــلة : وَادِى الصَّفا تجَاوَبتْ ... وزقْزَقَتْ عصَافِـرُهْ

وَٱنتبَهتْ خِيَـامُـــه ... وَٱستيْقَظتْ حَظائِرُه

صاحَتْ هُناكَ شاؤُهُ ... وَهَهُنَــا أَباعِــرُهْ

أوَّلُهُ فى لُجَّـةِ الْـــفَجْـرِ جَرَى وآخِرُهْ
نَبَـــاتُهُ ومَاؤُهُ وظِلُّـهُ وحافِــرُهْ

فتاة تتغنى : جِئْن الصفا يا عَذَارى وآملأْنَ منـهُ الجِرارَا

الأخريات متغنيات :

جِئن الصــفا ... ...

الأولى وحدها :

ماءٌ من الفَجْرِ أصْفَى فرِدْن صـفًّا فصـفَّا
واقعدْن فَاضرِبْن دُفًّا وقُمْنَ فاضرِبْنَ طارَا

الأخريات : جِئْن الصفا يا عذارَى وآملأْنَ مِنه الجِرَارَا

الأولى : تلك دُموعُ الغَوادى جُمِّعْنَ من كلِّ وادِ
فى عينِ ذاتِ الأصادِ ثم انفجَـرْنَ انفِجَارَا

الأخريات : جِئْن الصفا يا عذارى واملأْنَ منـه الجِرَارَا

الأولى : رِدْنَ القَـراحَ الزُّلالا رِدْنَ الرَّحيقَ الحلاَلاَ
فما سـقَى منذُ سَالَا كَمِثْـلِ عبْسٍ دِيارَا

الأخريات : جِئْن الصّفا يا عذَارى وآملأْنَ منـه الجِرَارا

[تدخل عبلة خيمتها و يمرّ صخر أمام الخيام متهاديا
واقفا فى المسرح هنا وهناك بين الحين والحين]

المشهد الخامس

إحدى الفتيات : ناجيةُ اسمَعِي انظُرى مَنِ الفتى يا ناجِيَه؟
ذَاكَ الفتَى المُهَنْدَمُ الـــحُلْوُ الرقيقُ الحاشِيَهْ

ناجيــة : كيف ألم تَرَيْهِ قبْـــلَ هـذِه فى النَّاحِيهْ؟

الفتــاة : للهِ ما أظرفَـــهُ

ناجيــة : أحببتِـــهِ يا غاوِيَه
خلِّيهِ فهْــوَ مغرَمٌ صَبٌّ بأخْرَى سالِيَهْ

الفتــاة : مَنِ الفتَى ؟

ناجيــة : مِن عامِرٍ أبوهُ موفورُ النَّعَـمْ
يقَـالُ فى حِظَـارِهِ ألفانِ من حُمرِ النَّعَمْ

الفتــاة : يحبُّ مَن؟ يعبدُ مَن؟ يا ليتَنِي كنتُ الصَّنَمْ

ناجيــة : إنَّ التى هامَ بها بغيرِ عبدٍ لم تَهِـمْ

الفتــاة : عبلةُ ؟

ناجيــة : لِمْ لا؟ إنها اليـــوْمَ حديثٌ للأُمَمْ
صيَّرهـا عنــترةٌ نارًا على رأسِ علَمْ

[تظهر عبلة على باب الخباء]

المشهد السادس

ناجيــة :

خيمتــكِ الحمــــراءُ يا عبــلَ لعــمْري فاخِــرهْ
تصــلُحُ أن يَســكُنها عقــائــــلُ المنــاذِرَهْ

فتــاة :

مُتِّــعتِ يــا أُختُ بهــا ولا تَــزالُ عامِــــرهْ
وعاشَ أهــلوكِ وعاشَ مالِكٌ وعِشْتِ فى بيْتِكِ ياعبلَ المدى
مَــعْ رَجلٍ كأنه ليثُ الوغَى

صخــر : بل رَجلٍ كأنهُ بدرُ الدُّجَى

عبــلة :

بدرُالدجى؟ لا. ليس ذاكَ بُغْيَتِى نحنُ الغوانى حسبُنا بدرُ السما
إن كان فى الأسْمارِ باتَ عندَنا أو فى الكَرى علَى المضاجِعِ انحنَى
البــدرُ فى بيضِ لياليــهِ مَعِى

صخــر : ماذا تُريدينَ إذنْ ؟

عبــلة : ليثَ الشَّرَى
أريدُ أجلادا شــديدَةَ القُوى وساعِدًا خشْنا كجُلمودِ الصَّفَا

صخــر :

وسِحْنــةً كأنمــا قــد قُلِّبَتْ على هَبابِ القِــدرِ وجْهًا وقَفَا

عبـــلة :

تُرِيدُ أن تسخَرَ من عنترةٍ؟ بيِّن كفى يا صخرُ تعريضاً كفى
إن كنت كالفتيانِ فامْضِ لاقهِ

صخـــر : أنا ؟ أُلاقيــهِ أمجنونٌ أنا؟
لِمْ لاتقولينَ القَ حيّــةَ الصّفا أو أسد الصحْراءِ أو ذئبَ الفلاَ

عبـــلة : خَلِّك منه صخرُ لاتَقْتَس به لا تقْرَنْ صخر بفارِس الوغَى

صخـــر : الحقُّ أنى يـابـنـا ت عبْسَ خَانَنى الصَّبِرْ
سمِعْتُ من عنترةٍ ومن ثَنائِه العَطِرْ
ومن حديثِ بأسِــه ومن نُعوتهِ الأُخَرْ
وفتْنــةِ البَــدوِ بهِ وشأْنِه بينَ الحضَرْ
أكُلُّ ذئبٍ رِئُه وشَـــبْعُه من البَشَرْ
وكُلُّ ليْثٍ فاتِكٍ وكُلُّ حيّــةٍ ذَكَرْ
وكلُّ سيْلٍ لم يدعْ وكلُّ ريحٍ لم تَــذَرْ
عنــدَ الرجالِ والنسا ءِ كائنٌ له خطَرْ؟

عبـــلة : خلِّينَ صخراً دعْنــهُ قد قتلَ الفتَى الحسدْ
إسمعْنَ شاةَ عامرٍ ماذا تقولُ فى الأسَــدْ

صخـــر : شاةٌ أنا يا بنات عبْسٍ إحسبْتَنِى الشاةَ مايضُرُّ؟
فى الشاةِ واللهِ كلُّ خيرٍ وليس فيها أذًى وشرُّ

مِزاجُها هادِئٌ لطيفٌ وشكلُها رائقٌ يَسُرُّ

عبلة [ضاحكة]: اضحكن يا بناتْ العامرىّ شاةْ

[ثم الى صخر]: بُسبُسْ تعالَىْ بُسبُس

أخرى : هُس شاةَ عامرٍ هُسِى

خُذى كُلِى مِن تُرْمُسِى

صخر : شهِدَ اللهُ قد أسأْتُنَّ فهْما

عبلة : نحنُ؟ بل أنتَ قد أسأتَ مَقالاَ

صخر : ما الذى قلت؟

عبلة : قلتَ ماقيمةُ البأ سِ وصغَّرتَ عِندنا الأبطالاَ

صخر : إنما قلتُ تأخذُ الذئبةُ الذئبَ وتُعطَى اللباءةُ الرئبالاَ

وابنةُ الناسِ لابنهمْ فَقدِيمًا سخَّـرَ اللهُ للنِّساءِ الرِّجالاَ

عبلة : لا تريدُ الرِجالَ يا صخرُ إلا جُبَناءً أذلّةً أنذالاَ

صخر : بلْ أريدُ الحياةَ خيرًا وسِلْما ليس شرًّا سبيلُها وقتالاَ

أريد الجمال لهذا الجمالِ وأبغِى الشَّبابَ لهذا الشَّبابْ

ويحزُننى أن تُزَفَّ الظِّباءُ الى أُسُدِ الغابِ أو للذِّئابْ

وأن تُحمَلَ امرأةٌ كالشُّعاعِ عَروسًا الى رجُلٍ كالهَبابْ

وفى البيدِ كلُّ فتىً كالسِّراجِ اذا أظلَمَ الليلُ أو كالشِّهابْ

عبـــلة : جميلٌ وليس يحامِي البيُوتِ ولا مَانِعٍ مِن يَدٍ مَا لَه

اذا ماعوَى الكلبُ ضلّ السلاحَ وبلّ من الخوْفِ سِروَالَه

يجودُ بزوْجتِـــهِ للغُــير ويرْمِي الى الذئبِ أطْفَالَه

صخـــر : ومَن تعْنِينَ يا عبـــلَ؟

عبـــلة : ومَنْ يا صخْـــرُ من تَعْـنِي؟

لقد أسرفْتَ فى التعْرِيضِ باللَيْثِ وفى الطعْنِ

[تسمع ضجة وأصوات استغاثة من ناحية الخيام]

عبـــلة : وَيْحَ جِيرَانِي وَوَيْحِي صرَخاتٌ وصَـفِيرُ

وعلى الخيْمَاتِ أشْـــبَاحٌ وأقْدامٌ تَدُورُ

أتُرى قــد نزَلَ اللِّـــصُّ بعَبْسٍ والمُغِيرُ؟

صخـــر : الحيـــاة الحيـــاه النجـــاة النجـــاه

الفِـــرار الفـــرار الفِفـــار الففـــار

[يفـــر الجميع من هنا ومن هناك وتبقى عبـلة
وحدها فتخرج اليها من الخيمة الخادم سعاد]

المشهد السابع

ســـعاد : ســيِّدتِي هيَّ آهرُبِي جَمْـعُ الشَّياطِينِ اقْتَرَبْ

عبـــلة : أهرُبُ؟ لا! ما فى طِبـــاعِ العَـــرَبِيَّاتِ الهرَبْ

نحنُ ثِنْتَانِ يا سُــــعَــادُ تَعالَىْ بِجَانِبِي
بَلْ قِفِى حيثُ أنت فى طَــرَفِ البابِ رَاقِبِي

سـعاد : ومعى

عبلة : ما الذى حَمَلْتِ ؟

سعاد [وتظهر خنجرها] : خَليـلِي وصاحِـبِي

[تدخل عبلة الخيمة ويسمع صوتها من الداخل وترى من الباب]

عبلة : خنجــرٌ مِثْلُ خنجــرِى جَــرِّدِيهِ تأهَّـبِي
خنجرى أينَ خنجرى اليومَ مِنِّى هُوَ ذا خنجرى تعالَ أُعِنِّى
حُطْ عَفَافِى وحامِ عن قُدْسِ الـــعُزَّى ورُدَّ اللصوصَ عنها وعَنِّى

[تتجه عبلة الى صنم بداخل الخيمة]

عُزَّايَ قَــوِّى يَمِينِى عُزَّايَ لا تخـذُلِينِى
أَبِى تأخَّـرَ عــنِى وإِخْوَتِى تَرَكُونِى
وأين عنــترةُ اليـوْم أين حامِى العَرينِ؟
لوْ كانَ فى أرضِ عبسٍ لجــرّدَ السيفَ دُونِى
عُزَّايَ معبودَ ثَقِيفٍ وإلَهَــةَ العَــرَبْ
إنَّ اللصوصَ طَمِعوا فيما عليْـكِ مِن ذَهَبْ

لن يسلُبوكِ شَـعْرةً وفى عِرقٍ يَضطرِبْ

[تخرج عبلة]

كيم الرِّجال؟ هلُمِّى قُومِى آنظرِى يا سُعادُ

[تدور سعاد حول الخباء فى حذرثم تعود]

سـعاد : سـيِّدتى لا تُراعِى حـوْلَ الخِبـاء ثَلاثَهْ
وجوهُهُـمْ كالحِـاتٌ وبالثِّيـابِ رَثاثـهْ

المشهد الثامن

« يظهر أحد اللصوص فتختفى الفتاتان وراء باب الخباء، حتى إذا حاذى الباب طعنته عبلة فى ظهره »

عبلة [هامسة]: ذِئبٌ؟ تعالَ خُذْ، مُتِ قَتلْتُـهُ بِضَـرْبةِ

المشهد التاسع

« يظهر لص آخر نتطعنه سعاد »

سعاد [هامسة]. وأنتَ أيْضـا يا شَـقِى خُذْ امضِ مُتْ بِهِ الحَقِ

اللص [ممددا على الأرض] :

آهِ من الخنـاجِرْ

الأوّل : شلّت يمينُ الغـادِرْ

[يظهر لصوص آخرون
من هنا وهناك وراء الخباء]

المشهد العاشر

سـعاد : سيّدتِى

عبـلة : سُعادُ ماذا؟ ما الخبَرْ؟

سـعاد : سيّدتى الآنَ نُواجِهُ الخطَرْ
سِرْبٌ من الذئابِ نحوَنا انحدَرْ

عبـلة : بَلْ هُو ذا سُعاد فى البيْتِ انفجر

قِفِى سُـعاد ناحِيـهْ دونَك تـلك الزاوِيَهْ

سـعاد : وأنتِ مِن ورَائيهْ

عبـلة : لا بـلْ مكانى ههُنا فـرَبَّةُ الدّار أنَا
سُـعادُ لَلْنيّـهْ أحْلَى مِنَ الدّنيّـهْ
ولا يَزيدُ فى العمُـرْ شىءٌ اذا الموتُ حضَرْ
هىّ ابنَـتِى تَقَنّعِى وناوِلِيـنِى بُرقُـعِى
وقَاتِلِى الجمعَ معِى

أحد اللصوص : الســلاتُ أكبرُ ما ذاك ؟

عبــلة : خنجَــرْ

[تحاول أن تطعنه فيمسك بذراعها و يمسك لص آخر بذراعها الأخرى و يقبض لصان آخران على سعاد]

الـــص : ما للبرْقعاتِ والخناجرِ يحملنها؟

عبــلة : لردْعِ كلِّ فاجرِ

لص آخر : تعالَيْ اسـفِرى ارفَعِى ما ذَا وراءَ البُرقُــعِ؟
الآنَ تمضينَ معِى !

[يحمل بعض اللصوص عبلة وسعاد الى ما وراء الستار من ناحية اليسار فتسمع استغاثة عبلة من هنـاك بينا يبق فى المسرح سائر اللصــوص]

المشهد الحادى عشر

عبلة [مستصرخة] وَاعنْــترَا وَاعنــترَا لَيْتَكَ عِنْــدى فَترَى
حَلَّ الذئابُ ساحَتِي إلىَّ ياليثَ الشَّــرَى

أحد اللصوص : الخيْمَــةُ الحمْــرَا القُبَّــة الكُبْرَى
هُنـا روائعُ التُّحَفْ هُنا نَفَائسُ الطُّــرَفْ
هُنا عصائِبُ اليَمَنْ ووشْيُها الغَـالى الثَّمَنْ

آخر [ممسكا بخناق أخيه] :

بُشراىَ دعْ يا ابنَ الزنا القُــرْطُ لِى

آخــــر : بَلْ لِى أنَا

الأول : السَّـــيْفُ بَيْنَنَا حَكَمْ

الثانى [ويطعنه] : خُذْها وماشِئْتَ فَنَمْ

الثالث : لا لَكَ القُرْطُ وَلا لَهْ

[ثم يطعن الثانى]

أَعطِنيــهِ يا حُثَالَهْ

[ضجة الغارة مستمرة من وراء الستار . يقدم من يسار الربوة المرتفع شـداد ومالك فيهرب اللصوص ويعثر القادمان بعنــترة وهو نائم]

المشهد الثانى عشر

شــداد : أضجْعَةً يا عَبْدُ والحىُّ سُبِى

عنـــترة : مَنِ المُنادِى؟ سيِّدى : صوتُ أبِى ؟

شـــداد : ماذَا يَقولُونَ غدًا فى العَــربِ !

[يظهر من يمين الربوة بعض الهاربين]

المشهد الثالث عشر

أحد الهاربين :

أُبيحَتِ الحظارُ والخيــامُ واختُطِفَتْ جروةُ يا هُمامُ

مالك : وأفرسًا طارَ بِهــا الطَّغامُ!

مالك[لعنترة]: عنترَ قُمْ ردَّ علىّ جَرْوَتِى

عنــترة [ببرود] : سِرْ أنتَ أنقِذها أوابعثْ إخوَتِى
وخَلِّنى أغنَمْ لذيذَ غفوَتِى

[ويرقد]

هارب آخر : يا سيِّدَ الماء ليْسَ لنا الماءُ
أطرِدَتِ الإبلُ وسِيقَتِ الشّاءُ

شــدّاد : يابنَ شدّادَ

عنترة [بتهكم] : ما أنا ابْنٌ لِشــدّادَ وَلكِنْ عبدٌ يسُومُ و يَسْقِى
لستُ من عبْسَ لا ، ولسْتُ لكَ ابنًا لونُ أمِّى أفاتَنى مِنْك حَقِّى

شــدّاد: قُــمْ يافتى عبسٍ انْهَضْ ذُدْ عنْ حَرِيمِى وعَنِّى
إذا رَدَدْتَ السبَايا فأنتَ عنــترةُ ابْنِى

عنــترة: ياسيِّدَ الحىِّ قُــلْ لى مَتَى فَطِنْتَ لِشــأْنِى
أأَنتَ ذَا تدَّعِيــنِى وكُنْتَ تَبرأُ مِنِّى؟

هارب ثالث: يا سيِّدَ الوادِى هِىَّ آحيــه هِىَّ
عبْــلة ...

عنترة [ناهضا] : !! ما الخطْبُ ؟

الفتى : سُلَّتْ مِنَ الحىِّ

عنـــترة :

أنا كالليثِ ما الهزيمةُ فى طبْعى ولْيس الفِرار لى فى جِبلّهْ

أنا حُرٌّ وإن أبتْ عبْسُ والنا س وآبائىَ السَّراةُ الأجِلّهْ

لا لِحُرِّيَّتى أمــوتُ ولكنْ حبذَا الموتُ فى سَبِيلك عبْلهْ

[يسمع صوت استغاثة من وراء الستار]

المستغيث : عنــترةَ البــأسِ ويا عــزيزَ الجــارْ

تــلك نِســا عبْـسٍ حــلَّ عليها العــارْ

عنــترة : لبيْــك يا عبــسُ يا عبْــس لَبيْــك

عنــترةُ الــروْعِ أمْنَ سِربَيْــك

[يسمع صوت عبلة من بعيد ومن وراء الستار]

عبــلة : واعنــترَتَا واعنــترَتَا

عنــترة : لَبيْك عُبيْلَ الليْثُ أتَى

عبلةُ يا عبــلَ لا تُراعى لبيْــك بالسيْف بالقَناةِ

يا عبلةَ القلْبِ لا تُراعى لبيْــك بالرُّوح بالحياةِ

تأمّلى غضــبَتِى تَريْهــا كغَضبَةِ الليْث لِلّبَــاةِ

[يظهر جماعة من اللصوص من ناحية الخيام
يحملون أسلابا ، ويحاولون الهرب عن
طريق العــين حينما سمعوا صوت عنترة فيهبط
عنترة من الربوة و يقطع عليهــم الطريق]

المشهد الرابع عشر

عنترة : يا سَرَقَهْ يا فَسَقَهْ — اللَيْثُ جَا
رُءُوسَكم نفُوسَكم — أوْ فالنَّجَا
خَلُّوا الحُلى — دَعوا الوُسُدْ
من يختلِسْ — حَبْلَ مَسَدْ
فَوَيْلُهُ — مِنَ الأسَدْ

[يهجم عليهم]

كُونُوا ذِئابَ الفَلَا — إنِّى أنَا القَسْوَرَهْ

أحد اللصوص : عنترةٌ جاءَكُمْ — عنترةٌ عَنْتَرَهْ

عنترة : رُدُّوا الحُرَمَ الى الخِيَمْ — سُوقُوا النَعَمَ الى الحِظَارْ
هلُمُّوا يا ذِئابَ القَفْرِ — لاقُوا السَيْلَ والنارَا
هلُمُّوا جمعَكُمْ واجْرُوا — رِياحًا أجرِ إعْصَارَا
فهذا اليومُ فى البِيدِ — سيبقَى بينَنَا ثَارَا
مَن يتَرِنْ باللَيْثِ مَن؟ — حَذَارِ من بَطْشِى حَذَارْ
هاتُوا القَنَا ألقُوا هُنا — إنى أنَا سَيْلٌ وَنَارْ

أحد اللصوص : زمجرةٌ قَسْوَرَةٌ — عنترةٌ هَيُّوا الفِرَارْ

آخر : بَل اهجموا وأقْدِمُوا — لا تُحجِمُوا فذاكَ عارْ

أسيد : مكانَكُمْ ياقومُ لا تَفَرَّقوا كَمْ ذَا من العَبْدِ الى كَمْ نَفَرَقُ

[لعنترة] : هَلُمَّ عنترَ القَنِي نُسْقَ الرَّدَى أو تَسْقِنِي

عنترة : مَنِ الفَتَى ؟

أسيد : ابنُ حُرةٍ!

عنترة : عرَّضْتَ يا أحمقُ بِي

أنا ابنُ شدّادَ فمَنْ أبوكَ؟ جِئْنِي بِالأبِ

أسيد : أبى مُعَانِقُ الأسَلْ سَلْ عنْ أبى مَنْ شئْتَ سَلْ

عنترة : شدّاد أعلَى وأجَلْ

أحد اللصوص : صَاحِبُكم وعنترَهْ يا عجبًا هيّوا نَرَهْ

أَسَيْدُ شهمٌ أَسَيْدُ باسِلْ

تعالَ ننظُرْ كيفَ يُنازِلْ

ليثَ الصحارَى غولَ القبائلْ

[يطعن عنترة أسيد فيرديه ثم يجرى الى ماوراء الخيام باحثا عن عبلة ووراءه مالك وشداد]

المشهد الخامس عشر

لص : أسيدُ عِش أنتَ أسيدُ يَستاهِلْ

من يَطفر النارَ فليس بِالعاقِلْ

آخـــر : هــذا القـدَرْ مَن يقحمُــهْ
هــذا الصخْرْ مَن يصــدِمهْ

[يفرّ اللصوص من اليمين ويدخل عنترة وعبلة من اليسار ووراءهما داحس وسماد]

المشهد السادس عشر

عنـــترة :
لبيك عبلةُ يا فِداكِ حَيـاتِي — نادِى يُجِبْك مُهنَّدِى وقَنَـاتِى
لو رَنَّ صوتُكِ فى جَوانِبِ حُفرَتِى — لبَّـاكِ من ثَبَجِ الترابِ رُفاتِى
البِيدُ تحتَ يَدِى وتحتَك ضيْعةٌ — أنا لَيْثُ غابَتِها وأنتِ لَبَـاتِي
رُوِّعْتِ بِنتَ العمِّ ؟

عبـــلة : مِمَّ ؟

عنـــترة : ألم يَرُعْ
مَرأَى البُزاةِ حَمامَتِي وقَطَاتِي

عبـــلة :
مَرأى البُزاةِ؟ تَرى اللصوصَ بَوازِيا — همْ دونَ ذلك، هُم حِداَ ُ فَلاةِ
جُبناءُ خَطّافونَ أكبرُ همِّهمْ — عكازُ شـيْخٍ أو حُلِيُّ فَتـاةِ

عنترة : ماذا لقيتِ منَ اللصوص؟

عبلة : بَل امضِ سَلْ

[تشير الى قتيلين على باب الخباء]

هذينِ كيفَ تلقيَّا طَعناتِي

أنا وابنتِي هاتيكَ جندلناهما

عنترة : حقٌّ سعادُ فعلتِ

سعاد : سَلْ مَوْلاَتِي

عنترة :

أجَلْ أرَى جثّـةً وأخرَى داحِسُ ماذا تـرَى؟

داحس : دِماءَ

عنترة : أأنْتُما تقتُلان

عبلة : لِمْ لَا؟

عنترة : من قلّدَ الخنجَرَ الظّبـاءَ؟

عبلة : ذِئابُ قفْرٍ مَشَتْ إلَينَا كَوَالِحًا تُضمِرُ العَـدَاءَ

عنترة : وأيْنَ كَانَ الرجالُ ؟

عبلة : سَلْهُمْ

عنترة : وكيفَ لم يَسْمَعُوا النّداءَ؟

عبلة : لقـد تلفّتُّ لم أجِدْهُمْ ولم أجِدْ حوْلِيَ النّساءَ

عنترة [ملتفتا لداحس] :

دَاحسُ صِحْ وأَسمِع   ونَادِ . عبلةٌ مَعِى
وَأَنَّهَا سَالِمَةٌ   وأنَّهَا لَمْ تُروَعِ

[تدخل سعاد الخباء وينادى
داحس من وراء الخيام]

المشهد السابع عشر

داحس : ياعبسُ بُشْرى لكُمُو   قد وُجِدتْ أختكُمُو
عنترةٌ حيالكُمْ   وعبلةٌ بينكُمُو

عبلة : عنترةٌ ؟

عنترة : عُبيلةٌ

عبلة : مِن   أَينَ ؟

عنترة : مِن طولِ السُّرى
سَرَيْتُ أَبْغِى الحىَّ ليـلِى كلَّهُ حتى دنا
وجِئتُ فى مُنبلَجِ الصّبحِ أسابِقُ الضُّحى
عساىَ أرعَى شاءَكُمْ كعادَتِى فِيمَنْ رَعَى

عبلة : لَا لستَ تَرعى الشاءَ يا   عنترَ بل تَرعى الحِمَى
وأينَ يابنَ العمِ كنتَ لم تَزُرْنا مِن مَدى

عنـــترة : فى عالَمِ الدنيـا وفى وادِى الحياةِ وفى شِعابِهْ
فى البِيدِ عبلةُ فى عَرِيـــــنِ الليْثِ فى سلطانِ غابِهْ

عبـــلة : سعاد

[تخرج ســعاد من الخباء ويعــود داجس من وراء الخيام فيصعد الربوة ويختفى وراء النخيل]

المشهد الثامن عشر

يا بنت اذهــبى جيئى بتمــر ولبن

[تدخل سعاد الخباء]

المشهد التاسع عشر

عنـــترة :

أجِلْ لى ثلاثٌ ألبَسُ البيدَ حائرا | كما يلبَسُ الليـلَ الطويلَ سقيمُ
اذا قمتُ من ذئبٍ عثَرتُ بحيّةٍ | طريقى منايا كلُّه وسُمُـــومُ
أهيمُ على وجْهى وقلبى من الجوَى | على وجْهِهِ بين الضُّـلوعِ يَهيمُ
ويَهـدأُ إلا حينَ تهـتزُّ بانةٌ | ويُطرِقُ إلا حينَ يشخَصُ رِيمُ
أجىءُ حِماكُم من نجومٍ بعيـدةٍ | وتَرجِع بى من حيثُ جئتُ نُجومُ
ويحزُنُنى يا عبـلَ أنى أزورُكم | فيصرِفُ عمّى الوجهَ وهو كريمُ
يكاد يَسُلُّ السيفَ حين أجيئُه | ويوقِد نارَ الطرْدِ حينَ أريمُ
فخاضَ الموالى فى حديثى وأقبلتْ | علىَّ من الوادى الظنونُ تحـومُ

وكم رامَ وُدّى فى القبائل سيدٌ وَوَدّ مكانى فى الديارِ زعيمُ
ولو لم يكنْ يا عبلَ عمًّا ولا أبًا لِعبلَةَ سيمَ الخسفَ وهْو كظيمُ

عبلة :
تَسومُ أبى خسْفاً ؟

عنترة : معاذكِ عبلَتى
معَاذ الهـوَى إنّى إذن للئيمُ
ولكنّ عمّى جارَ

عبلة : هبْ لىَ ذنبَه
وهَبْنى التى جارَتْ أكُنتَ تلومُ؟

عنترة :
عُبيلَةُ جُورى واتركى عمَّنا يجُرْ فإنى على عهـدِ الهـوَى لمقيمُ

[تخرج سعاد من الخباء حاملة قصعة فيها مجيع
وهو طعام يصنعه العرب من التمر واللبن ، فتضع
القصعة على الأرض وتدخل من حيث خرجت]

المشهد العشرون

عبلة : عنترَ خذْ قاسمْنىَ المَجيعا

عنترة : هاتى فقد كدتُ أموتُ جوعا

[يجلسان الى قصعة المجيع فتتناول
عبلة بضع لمحات تعطيها الى عنترة]

عنترة :

حَسْبى النَّوى عبلَ ما فى التَّمر لى أربٌ مُنـاىَ كلُّ نواةٍ خالَطَتْ فاكِ
التمـرُ أطيبُ ما فيـهِ النواةُ اذا مرّتْ بثغرِك أو مسّتْ ثناياكِ
لقد مررْتُ بوادٍ غيرِ ذى شجرٍ نضْرٍ وإن لم يُصبْه الغيثُ ضحّاكِ
مُطيَّبٍ نفَحَتْنى منـه رائحـةٌ كالمسكِ ياعبلَ أو تعْلو على ذاكِ
فقلتُ عبلةُ فى الوادى مشتْ ورمتْ على نَواحيهِ مِن فِيها بِمِسْواكِ

عبلة : لقد أحسنْتَ يا عنتَر . فاقبَلْ من فمى التمْـرا

عنترة : بروحِى فُوكِ يا عبلـةُ هاتِى الشهدَ والخمْرا

عنترة : عبسُ اشهَدوا عبلةُ قدْ قامتْ تَزُقُّ عنـترَهْ
كما تـزُقُّ فرخَهـا على الغُصونِ القُـبَّرهْ

عنترة : عبـلَ

عبلة : لبيْك سَمِىَّ الخيْلِ

عنترة : لاما أناَ لِلخيْـلِ يا عُبيْـلةُ حامِ

عبلة :
من إذن يُمسِك النجيبَـةَ فى الـسَّرْجِ ويَحمى النجيبَ خلفَ اللِّجامِ؟

عنترة : ألهذا أحبَبْتِنى؟

عبلة : ولِشأنٍ كضُحَى الشمْسِ أو كبدْرِ التَّمامِ
كلَّ يومٍ يُقالُ ـ عنترةٌ أرْدَى كَميًّا وقام عن ضِرْغامِ

عنـــترة :

لِمَ لا تَعشـقينَ عبـلَ جَوادي؟ لِمَ لا تَعشقينَ عبلَ حُسامي؟

أوَ ليْسا هُما شَريكَيَّ في الفتْكِ وضربِ الطُّلَى وحصْدِ الهامِ؟

[يظهر داحس على الربوة ثم يهبط منها
حاملا معه فراخ نسر وثلاثة أشبال]

المشهد الحادى والعشرون

عبـلة : مـاذاك؟ مـاتحمـلُ؟ مـاذا عـنترة؟
ما تلكَ عنترَ؟

عنترة [متناولا أفرخ النسر من داحس] :

هَــذِى ... يا عبلَ أفـراخُ نَسْرِ
إغــترَّ بِي أبـوَاها ... وكنتُ بالشِّعبِ أسْرِي
فظلَّلَ الأبُ صدْرى ... وغطَّتِ الأمّ ظَهْرِى
ومشَّــيانِى بكَـرٍّ ... على الجبـالِ وفَــرِّ
توَهَّمـانىَ صـيْدًا ... يهِي الفِراخَ ويمرى
فلم أكنْ غيرَ يُتْمٍ ... لمُبتغِى الصيْدِ مُرِّ

عبـلة : مَاتا؟

عنـــترة : أجلْ لَقِيَا عبلَتى جزاء التجرّى

مُحطّمين بكفي ممزّقين بظُفري

[يدخل جماعة من الماوين فتيانا وفتيات
من ناحية العين و بينهم صخر وناجيــة]

المشهد الثاني والعشرون

صخـــر : عبــلَةُ لم تُنْسبَ

صـــوت : عبــلةٌ في الحَيّ

آخـــر : عنـــــترةٌ ثَمّ لاخوفَ مِن شيءٌ

عبــلة : وما هــذِهِ الأخْرَى؟

عنـــترة : شُبولٌ ثلاثةٌ تُربّى هنا بين البُيوتِ وتُصلَحُ

تعرّضَ لى ليثٌ يُدِلُّ ببأسِــه الى جانِبيْــهِ لبــوةٌ تتبجّحُ

وقد ملأَ البيْداءَ رعْدًا كأنمـا بكلِّ ســبيلٍ ذُو رُعودٍ مُلمِّــحُ

مَشيتُ إليْـه فانْثَنى فطلبتُــهُ فاقبــلَ تيّــاهَ الخُطا يترنّحُ

ظللْنـا مليًّـا أتقيــهِ ويتّقِي ويُحجِمُ في قوْلِ الوَعيدِ وأُفصِحُ

فاغمدتُ سيْفي في قرارَةِ جوْفهِ أليس لسيْفي ذلك الغِمدُ يصلُحُ؟

الى أن تعايَا في يَدى فذبحتُه ومن ذارأى الضِّرْغامَ كالشاةِ يُذبَحُ

وكَمْ من كميٍّ في أعِنّــةِ سابحٍ تركتُ ورائي في الدّمِ الحُرِّ يَسبَحُ

عبــلة :

وما صَنَعتَ باللبــاةِ يابنَ عمْ

عنــترة : عفوْتُ عنها

عبــلة : ذاكَ واللهِ الكَرَمْ

عنــترة : اقتَحَمَتْنِي مرّتينِ وانثنَتْ لم تَرَ من فائدةٍ أن تَقْتَحِمْ

أنثى ضَعيفةُ القُوى تركتُها إنّ الإناثَ عندَ أمثالِي حُرَمْ

صخــر :

شبولٌ تُربّى فى البُيوتِ أغَابةٌ حِمَاكُم ؟

عنــترة : ونحنُ الأسدُ فى الغابِ نَسرح

ومالكَ ياهذا وعبْس ودُورِها وما أنتَ؟ مَنْ هذا الفَتَى المتوقّحُ؟

صخــر :

فتىً زائرٌ من عامرٍ من سَراتِها وما هــو إلا معجَبٌ مُتمــدِّح

عبــلة :

جبانٌ ذليلٌ جاء عبْسا وماءَها يعرّضُ للإفكِ العذَارى ويَفضَحُ

فتــاة :

فتى عامرٍ فى كُربةٍ أينَ عامرٌ؟ يكادُ فتاها فى السراويلِ يَسلَحُ

ناجيــة : أساتَ به ياعنترَ الظنّ

عنــترة : ما أرَى وأَسمعُ؟ أُنثَى عنكَ ياخِلُ تَنْضَحُ؟

صخر [همسا] :

دَعينا دَعيه لا تَزِيديه ثَوْرَةً

ناجية : تنحَّ إذنْ قد أوشك الكبشُ ينطَحُ

[ينصرف الجميع فلا يبقى إلا عبلة وعنترة]

عنترة :

يا عبلَ كم بَيْداءَ جُبتُ مَخُوفةٍ   قَذفتْ إليّ بذئبها والضَّيغَمِ

فلقيتُ كلَّ مُنازِلٍ بسلاحِهِ   وجعلتُ أضربُ باليدَيْنِ وبالفمِ

أنَّحرتُ رُمحي وادّخرتُ مُهنَّدي   وربطتُ سَرْجي للكميِّ المُعْلَمِ

حتى تراءتْ ظبيةٌ فتملَّأتْ   مما رأتْ رُعبا فلم تتقدّمِ

لما رأتني والسِّباعُ تنوشُني   نفرتْ نِفارَكِ من عيونِ المَوْسِمِ

ريمٌ تلفَّتَ لم يفُتْكِ بجيدِهِ   وبمُقلتيهِ وقَدِّهِ بالمِعصَمِ

فمنعتُها من كل ضارٍ ثائرٍ   وأبحتُها الوادي وقلتُ لها اسْلَمي

يا ليتَنا يا عبلَ عُصفورتانْ   في غُصنِ ضالٍ أو على فرعِ بانْ

في روضةٍ غُفْلٍ وراءَ الرُّبا   لم يَسقِها إلا الغوادي يدانْ

على جَناحيْكِ جناحي وفي   فمي مكانَ الحَبِّ هذا الجُمانْ

عبلة : لقد وددتُ فوقَ ما   شئتَ لنا يا قَسْوَرَهْ

من عيشةٍ وادعةٍ   خاملةٍ مُستَتِرَهْ

لا بعيونِ الناسِ أو   ألسُنِهم مُكَدَّرَهْ

عنترة : لو لم تهيمى عبلتى بجملاتى المنكره
وليس بى أنا ولا بسحنتى المحتقره
لقلت إذ دعوتنى يا قمرى يا سكره!

عبلة : هذا السوادُ يا ابنَ عمى مثلُ صبغةِ السَّحَرْ
كالمسكِ والكحلِ هُمَا فى مفرقى وفى البصر
وما يضرُّكَ السوا دُ يابنَ عمى ما يَضُرْ
الكعبةُ الغراءُ من أحسنِ ما فيها الحجر
البدْوُ فى إجلاله وفى وقاره الحضَرْ

عنترة : ماذا وددتِ يا عُبيلَ يا حياةَ عنتره؟

عبلة : وددتُ أنّى صدفٌ وأنتَ فيه جوهرة
فى زاخرٍ لم يدرِ بعدُ الغائصونَ خبره
وموضعٍ لم يسمعِ الفلكُ به ولم يَره

عنترة : بى أنتِ يا عبلةُ بى لا بل بأمى وأبى
لا بل بعبسٍ بل بنجدٍ بل بملكِ العربِ

ستار

الفصل الثاني

المنظر الأول

« المكان كما كان فى الفصل الأوّل إلا أن خيمة مالك قريبة »
« جدّا تملأ المسرح أو تكاد ، ويبدو بابها كأنه ستر مسدول »
« ولا أثر لعين ذات الأصاد ولا لسائر خيام بنى عبس ، »
« ويرى مقدم المسرح كأنه طريق عام أمام الخباء . »
« الوقت فى الأصيل وقد وقفت عبلة وناجية توصوصان »
« من ثقوب فى باب الخباء ثم تتحدثان ... ... »

المشهد الأوّل

عبلة : مَن يا تُرى الرجالُ منْ؟ أتى الحِمَى يا ناجيةْ؟
ناجية : ضيوفُكُمْ من عامرٍ من السَّراةِ العاليةْ

عبـلة : وفِيمَ يا أختُ جاءوا

ناجيـة : لا أدرِ... ما يطلبونا

عَساهُمُو رُسْل خيرٍ لعلّهم خاطِبونا

عبـلة :

من عامرٍ أجلْ عرفتُ بعضَهم ويَخطبونَ عِندنا مَن ياتُرى؟

ناجيـة :

أظنُّ بنتَ مالِكٍ عالمـةً بكلِ ماجَرى ويجْرِى فى الحَى

ومَن عسى يُخَطَبُ فى الحىِّ سِوَى عبلةَ ربّةِ السَّناءِ والسنَا؟

عبـلة : هازلةٌ ياأختُ أمْ مجنونةٌ أنتِ؟أجاءَالقومُ من أجْلِ أنَا؟

ناجيـة : لا تُنكِرِى عبلةُ لا تَجاهَلِى لم يبقَ سِرّا أمرُ ذلك الفتَى

عبـلة : فتًى ومَنِ الفتَى ؟

ناجيـة : مِن عامرٍ

عبـلة : وما حداهُ نحوَ عبسٍ؟

ناجيـة : الهوَى

عبـلة : وما اسمُهُ

ناجيـة : صخـرٌ

عبـلة : لعلّه الذى فى كل مَغربٍ علَى الماءِ يُرى

ناجيـة : كيف أما تهوينَه ياعبلَ

عبـلة : لا أخطَاكِ ما حسِبتِ يا نَاجِىَ لَا

ناجيــة : يافرحا خليّه لى عبلَ

عبــلة : اذهبى به متى أخذْتِه منـــك متى

[تنصرف عبلة من اليسار غير عابئة ، وتعود ناجية الى الوصوصة من ثقوب الخباء ، وبعد لحظات يقدم صخر من اليمين متأبطا صرة فيها ثياب]

المشهد الثانى

ناجيــة :

عِمْ صَباحا ياعامِرىُّ إلى أين؟

صخــر : إلى عبــلَةٍ

ناجيــة : أيمكن ذا كا؟

صخــر : لِمَ لَا

ناجيــة : عبلةٌ تَرى الذئبَ فى جَوْزِ القَيافى لكنَّها لا تَرا كَا

صخــر : ما تقولينَ ؟

ناجيــة : لم أَقُلْ غيرَ حقٍّ هى ياعامِرىُّ تَهوَى سِوا كَا

صخــر : عبلةٌ لى غدًا

ناجيــة : خُدِعْتَ ولم يصدُقْـــكَ شيطانُك الذى منَّا كَا

صخرُ دعْ عبلةً وخلِّ هواها وتحوَّلْ إلى التى تَهْوَا كَا

صخـــر : أنا أهوَى سِواكِ يا أُخْتَ عبْسٍ

ناجيـــة : إمضِ لا نِلْتَ يا غبيُّ مُناكا

[ينصرف صخر من ناحية اليسار، ثم تتبعه ناجية بعد قليـل من التفكير ثم يتجـاب الســتار المسـدول عن داخل الخبـاء]

المنظر الثانى

« داخل خيمة مالك وتبدو النعمة على كل ما فيها وقد جلس »
« مالك القرفصاء فى جانب ، وجلس فى جواره وفى الجانب الآخر »
« رجال من بنى عامر — خدم وقوف بباب فى صدر الخباء »

المشهد الأوّل

مالك :
أَلجزورَ، الجزورَ ؛ أَلنارَ، أَلنارَ ؛ قِرى الضَّيْفِ ضيفنا اليومَ عامرْ

[ينصرف الخدم]

المشهد الثانى

يا مَرْحبًا بعامرٍ العِلْيَــةِ ٱلأَكابِرِ
حظٌّ لعَمْرى عظيم

الضيفان : لَنَحنُ أعظمُ حظًّـا

مالك : سَراةُ عامرَ عنــدى

أحد الضيوف : فى دارِ سيِّدِ عبْسِ

آخــــر : فى البِيدِ يا مالكُ قولٌ شائعٌ نُرِيدُ أن نعــلَمَ منكَ خبرَهْ
ثمّ نخُوضَ فى الذى جئْنا له

مالك : هاتُوا اسألُونى راشدِين بَرَرَهْ
ماذاكَ ؟

الضيف : إنّ الناس قد تحدّثوا أنَّك لن ترضَى بغيْرِ عنترهْ

مالك : صِهْرًا

الضيف : أَجَـــلْ

مالك : مَن قال؟ ذاكَ كذِبٌ أيطمعُ الأسودُ أن أُصاهِرَهْ؟

الضيف :

ذلك يا مالكُ ما قلتُ لَهُمْ

[ثم يتلفت حوله]

لا يسمعَنَّ ابنُ الإماءِ لا يَرَهْ!

آخـــر :

عبلةُ لا تُهدَى الى ابنِ أَمَةٍ يَرْعَى الشُّويْهاتِ ويَسْقِى الأبْعِرَهْ

آخـــر :

أبا عبلةٍ جِئْناكَ نخْطبُ عبـلةً

مالك : لِمنْ ؟

الأول : لنجيبٍ سيدٍ وابنِ سيّدِ
لأبيَضَ من فِتْيان عامرَ ماجـدٍ وليْسَ لعبدٍ عند شــدادَ أسودِ

مالك : ماأسمُ الفتَى

الأوّل : صخْــرُ مِنْ ولدِ الأشْــتَر

مالك : وهل رأى عبلةَ؟

آخـــر : ألفَ مرّه وسَمِعَ الحُــرُّ حديثَ الحُرّه

مالك :

أَصيخُوا لى ... أصاحِبُكُم شجاعٌ؟ فعبلةُ تُبغِضُ الرَّجُلَ الجَبـانَا

أحــدهم :

كلَيْثِ الغابِ إقداماً وكرًّا اذا اعتقلَ المهنَّــدَ والسِّنانَا

مالك :

أَصيخُوا لى أَصاحِبُكم جَوادٌ فعبــلَةُ تُبغِض الرجلَ البَخيلَا

أحــدهم :

يكادُ نَدَى يديْهِ حين يَهْــمِى يُنَسِّى حاتمَ السَّــمْحَ المُنِيــلَا

مالك :

أَصيخُوا لى أصاحِبُكُم جميلٌ؟ فعبـــلَةُ تُبغِضُ الرجل الدَّميمَا

أحــدهم :

ألم تَــرهُ ألم تنظــرْ اليـــهِ اذن لم تُبصِرِ المَلَكَ الكَــرِيمَا

مالك

أَصيخُوا لى أصاحِبُكُم فَصيحٌ؟ فعبــلَةُ تُبغِضُ الرجلَ العَيِيَّــا

أحــدهم :

ألم تَرقُبْ قُسًّا فى عُكـاظٍ؟ وسَحْبانًا اذا شهِــدَ النَّــدِيّا؟

مالك :

أَصِيخُوا لى أصاحبُكُم رَشِيقٌ؟ فعبلَةُ تُبغِض الرجلَ العَنِيفَا

أحــدهم :

ســتُلفيهِ اذا حُمِلتْ إليــهِ وَديعًـا مثــلَ نعجَتِهـا أَلُوفا

مالك :

أصيخُوا لى أصاحبكُم غَنِيٌّ؟ فعبــلَةُ طِفْـلةٌ تَهوَى الـثَّراءَ

أحــدهم :

سنُسكِنُها القصورَ كبنْتِ كسْرى ونُلْبِسُها الجواهِرَ والفِــراءَ

آخـــر :

ذكرْنا شيخَ عبْسٍ كلَّ شيء ولم تَذكُرْ لنـا مهرَ الفَتــاةِ

آخـــر :

فَهَيَّ سل اقترِحْ ما شئْتَ هيَّ أألفُ نجيبَــةٍ أم ألفُ شـاةِ؟

مالك :

عَلِمْتُمْ أنّنِي مُثرٍ غَــنِيٌّ فلا أبغِى النِّعـاجَ ولا النِّياقَا

ولستُ بجـاعِلٍ مَهرًا لبِنْتِى هِجـانَ الإبْلِ والخيْلَ العِتاقَا

أحــدهم : ولكن ما تُريدُ ؟

مالك : أريدُ شيْئا لو ابتُـلِيَ الحـديدُ به لَضَاقَا

أحـدهم : إذنْ فاذكُرْهُ قُلْهُ

مالك : وما انتِفَاعى ولو حَمَّلتُ صخـراً ما أطاقَا
أَصيخُوا لى اذهبُوا قولُوا لصخرٍ يُقـدِّمْ رأسَ عنترةٍ صدَاقَا

أحـدهم :
نَقولُ له انتزِعْ قُلَلَ الرَّوابى؟ نقولُ له اهدِمِ السبعَ الطِّباقَا؟
نقـولُ له تُطالبُـهُ بمَهْـرٍ تَضيقُ به القبـائلُ أن يُساقَا

آخـر :
ولِمْ لَا؟ ما هُنالك مُستحيلٌ هُنـاكَ دمٌ سئِلْنا أن يُراقَا
أليسَ المـالُ يصنعُ كلَّ شيءٍ؟ ويَرشُو السُّمْرَ والبِيضَ الرِّقاقَا
ولو هَبطَ الأباطِحَ مالُ صخـرٍ لغطَّى الشـامَ أو غَمـرَ العِراقَا
اذا أعياهُ رأسُ العبدِ أغرَى موالِيَ بيْتِـهِ ورَشَـا الرِّفاقَا

مالك :
ألانَ فهِمتُمُو قد ضِقْتُ ذَرْعًا بعنـترةٍ وضِـقْتُ به خِنَـاقَا
أريدُ العبـدَ ميْتـاً ما أُبالِى قضى بالسيْفِ أم ماتَ اخْتِناقَا
أُريدُ فِراقَهُ وأريدُ حـرّا مِنَ الأصْهارِ يُبْلِغُنِى الفِراقَا
إذا ذاقَ الهلاكَ لنـا عدوٌّ أنسألُ عنـه أينَ وكيفَ ذاقَا؟

أحد الضيوف :
فى غـدٍ نحـرٌ وقِـدرٌ فى غـدٍ دُفٌّ وزامِـرْ

انهضوا بورِكَ في الصِّـهرِ لعبْـسٍ ولِعَا مـرْ

[يهمون بالقيام]

مالك : مكانَكُمْ ياضيوفَ عبْسٍ هُنيْهَـةً تَطعَمُـوا المَجِيعَا
مَجيعُ البِيدِ من لَبنٍ وتمْـرٍ ولا تلْقاهُ إلا عنْـدَ عبْسِ
إذا الغِلمانُ للأضيافِ قامُوا فإني خادمٌ ضـيْفي بِنفْسِي

[ثم يخرج ليأتيهم بالطعام]

المشهد الثالث

أحدهم للآخر: لقـد كذَبتَ كثـيرا وقُلتَ واللهِ زُورا
قـد زِدتَ للشاةِ شاةً وللبَعـيرِ بَعـيرا
وقـد صنعْت لصخْرٍ مخالبًا وزئـيرا
ورُبما طـارَ صخْـرٌ إذا رأى عُصـفورا!

الآخـر : أجـلْ كذَبْتُ وما ضرَّ لستُ أوّلَ كاذِبْ
وكلُّنـا قـد كذبْنـا لكَيْ نَقـومَ بِواجبْ
لقـد خَطبْنا لصخْرٍ والكِذْبُ فنُّ الخواطِبْ!

ثالث : ومالكٌ كيف نسِـيتمْ كلماتٍ قالهَـا
مُباهِيًـا ببنْتِـهِ ومُظهِـرا كمالهَـا
سمِعْناهُ يقولُ ولا يُبالي فعبلةُ تبغِضُ الرجلَ الدَّميما

ولم نر قبلَ عبلةَ في البَوادِي فتــاةً عُلِّقتْ عبدًا زَنيما

سمِعْناهُ يقــولُ ولا يُبــالي فعبلةُ تُبغِضُ الرجلَ العَنيفا

ولم نَر قبلَ عبلةَ في البوادِي فتــاةً علِّقتْ ذِئبًا مَخُــوفا

[يدخل مالك حاملا قصــعة فيها طعام ومن ورائه غلمـان يحملون مثلها ، توضع القصاع على الأرض ، وينصرف الغلمان]

المشهد الرابع

مالك : الجيعَ الجيعَ يا ضيفَ عبْس إطعَمُوهُ اطعَمُوا هنيئًا مَرِيئًا

[يقبل الحاضرون كلهم على القصاع]

أحــدهم : ألبانُ عبْسٍ تفضلُ العُقارا

آخــر : وتَمْــرُها كلَمِ العــذارَى

آخــر : أُفديهِــما من لبَنٍ وتمــرِ

آخــر : [هامسا] لا أَشــتَريهِمَا بزِقِّ خمْــرِ

مالك : ألانَ اســتَعمِلوا الحــزْمَ فــا نعــلَمُ ما يَطْــرا
بنى عامرٍ لا تُجْــرُوا لِـما كانَ هُنــا ذِكْرًا

أحــدهم : أبا عبــلَةَ لا تَخْشَ سيبْقَى ما جَرَى سِرًّا

آخــر : وما ضرَّ اذا نَحنُ أذعْنــا الأمرَ ماضِرًا؟
ولِمْ لا نذكُرُ الخِطْبَةَ أو لا نُعلنُ البُشْرَى؟

إذنْ أنت تخافُ العبْدَ أو تخْشى له شَــرا؟

مالك : أليس الحزْمُ أنْ نأخذَ مِن عنـترةَ الحِـذْرا؟

فقـد يقتلني وحْدى وقـــد يقتُلُنـا طُرًّا

ولا يُبــقِ لنـا شاةً على المْرعى ولا بَكْرا

أحـدهم : أبو عَبلَةَ بالعبْــدِ وما يَفْعــلُه أدْرى

فَســيروا بالذى قالَ ولا تَعْصـوا له أمْرا

[يقومون عن الطعام ثم يحيون مالك ويبدأون في الانصراف فاذا انصرفوا وقف مالك بباب الخباء]

أحـدهم : فى ذمّةِ الله وفى حِفْظِه... مالكْ

مالك : محْروسينَ بالله

المشهد الخامس

مالك : عَبــلَ

عبلة [من وراء الستار] : أَبى ؟

مالك : مِن أينَ يا عَبْــلَةْ

المشهد السادس

[تدخل عبلة]

عبــلة : مِن خِبائِيَــا

مالك : وأينَ تَمْضين ؟

عبلة : أُهيبُ بِسُقاةٍ شائِيا

مالك : قِفِي اسْمَعِي لِي ساعةً وخَفِّفي عنائِيا

عبلة : قُلْ أَبِي مُرْ

مالك : إذن تَعالَيْ أُصَيْخي وزُهيرٌ أَخُوكِ أَينَ زُهيرٌ؟

عبلة : مَع عَمرٍو هُناكَ

مالك [يُنادي]: يا عَمْرُو

عمرو [من وراء الستار] : لَبيْكَ أَبِي

جِئْ تَعالَ هَيَّ زُهيرُ

[يدخل عمرو وزهير]

المشهد السابع

مالك :

عَبْلَ أصغِي فى أرضِ نَجْدٍ شَبابٌ أُطلِعُوا في سَمائِها أَقْمارَا

مِنهمُ الأُسْدُ جُرأةً وثَباتًا والقَوارِينُ نِعْمَةً ويَسارَا

مِثْلُ صخرٍ

عبلة : ومَن يَرُبُّك صخرٌ؟

عمرو : عامِرِىٌّ من أرفَعِ البِيدِ دارَا

زهـــير :

مِن بَنِى الأشترِ الكَثِيرِينَ مالًا ونَخِيـــلًا وَضَـــيْعةً وعَقارَا

عبـــلة :

قدعَرَفْتُ الغُلامَ ذاكَ الفَتَى النِّضْـــوَ الّذِى لا يُطيـقُ يَقْتُلُ فارَا

كل يوم معَ العَذارَى كثِيرُ الـــعُجْبِ مُستحْيِياً كإحْدَى العَذارَى

أترى يا أبى وأنتَ أخى يا عمْـرُو كيفَ انتقيْتُمَا الأصْهارَا

زهـــير :

وأنَا لا أرَى عُبَيْـــلةَ خـيْرًا مِن أبِيهـا ولا أخِيها اخْتِيارَا

أنتِ مفْتُونةٌ بِأســوَدَ عبْـدٍ مِن بنِي عَمِّنـا تَسرْبَلَ قارَا

عبـــلة :

أوَتَعْنِي الذى حَمَى حَوْضَ عبْسٍ وكَسَا البِيـدَ سُؤْدَدًا وفخَـارَا؟

والذى قَـلَّدَ الوقائِـعَ والأيّـــامَ عبْسـا وخَـلَّدَ الأشْـعَارَا

يا زُهيْرُ اتّئِـدْ متَى كانَتِ الألْوا نُ تَبْنِي وتَهدِمُ الأحْرَارَا؟

لم يَحُطَّ السّوادُ من أسَـدِ القَفْرِ ولم يرْفَـعِ البَيَـاضُ الحِمَـارَا

أرأَيْتَ السوادَ قد عبَّدَ الليْـلَ كما عبَّـدَ البيـاضُ النَّهـارَا؟

مالك : زُهـيْرٌ

زهـــير : أبِي

مالك : أصـغِ عمْرُو استَمِعْ ويا عبلَ آنَ لنَـا أن نَجِـدْ

عبلة :

متى كنتُ هازلةً يا أبى؟

مالك : هزلتِ ابنتى وأضعتِ الرَّشَدْ

وما زلتِ بالعبدِ مفتونةً وهيهاتَ بالعبدِ يرضى أحَدْ

فلا أنا أرضى ولا أخوالكِ ولا مَنْ تدانى ولا مَن بعُدْ

عبلة :

أعنترةً يا أبى قد عنيتَ ؟

مالك : أجَلْ

عبلة : وَا لعنترةَ المُضطهَدْ!

أبى قد تمكّنَ منكَ الوُشاةُ وأثّرَ فيكَ كلامُ الحسَدْ

أليسَ ابنَ عمّى؟ أليسَ الجوادَ؟ أليسَ الشُّجاعَ أليسَ الأسَدْ؟

أما هُوَ مِنّى ومِن إخوتى نَماناَ أبٌ فى الأوائلِ وجَدّ؟

وَفى البِيدِ رُدَّ لِآبائهِ وليسَ إلى الأمّهاتِ الوَلَدْ

أبى عنترةٌ ليس زِنجىٌّ ولا عبدِ

ولم يُجلَبْ مِنَ النُّوبِ ولم يحضَر مِن السِّنْدِ

ولكنْ مِيسَمُ اللَّونِ كمِثْلِ الأسَدِ الوَرْدِ

فتًى كالأسمرِ اللَّدْنِ جَميل الشَّعَرِ الجَعْدِ

شُجاعٌ ذائعُ الصِّيتِ جَوادٌ واسعُ الرِّفْدِ

عمـــرو :

أبِى سُــدًى تُرَاجعُ المفْتُونا وعَبَثاً تُخَـاطِبُ المجْنُـونا

زهـــير : فَرْ يكنْ ما شِئْتَ أن يكُونا

مالك :

الأمرُ يا عبلَ ما تأمرينـا فالشَّأْنُ يَعْنِيكِ لَيْس يعْنِينا

عبـــلة :

ذاكَ أمرٌ الرَّأْىُ فيه لِعمْرِو وزُهيرٍ وليْسَ لِى الرأْى فيهِ

ياأبِى اعقِدْ على زُهيرٍ لصخرٍ أو فزوِّجْه يا أبِى من أخيهِ

مالك [فى دهش] :

أُزَوِّجُ الـرِّجالَ بالرِّجالِ؟ ذاكَ لَعَمْرِى مُنْتَهى الخبَالِ

زهـــير : استَهْتَرَتْ أُخْتِى فمَا تُبَالِى

مالك : إذنْ يا عبلَ أصررت؟

عبـــلة : أجَلْ وليَكُنْ ما كَانَا

فلنْ أرضى سِوى عَنْتَرَةَ ابنِ العَمِّ إنسَانا

[ثم تخرج غاضبة]

المشهد الثامن

مالك : إذن فانتَظِرى ياعبـــلَ لِلْعبْدِ ولى شَــانا

[يخرج فى أثر ابنته ويقبل صخر من ناحية الطريق من جهة اليسار ومعه الصرة التى كان يحملها فى المنظر الأول]

المشهد التاسع

صخـــر : عَمْرو زُهيرٌ؟ عَجَبُ الحظِّ صَديقاىَ هُنا!
يا طِيبَهَا لِقاءَةً

عمـــرو : لِلّـه ما أَسْـعَدَنا
أهْلًا بِصخْرٍ مَرْحبًا بالقَمَرِ العَالِي السَّنا
ما هَـذِه الحُـلَّةُ مَا أظْـرَفَهَا مَا أحْسَنا

زهـــير : أصَـنْعَةُ الشَّامِ؟

صخـــر : ولِمْ لا تَذْكُرانِ اليَمَنا؟
صَنْعاءُ أَغْلَى من دِمَشْـقَ سِـلْعَةً وثَمَنا

عمـــرو : تِلْكَ أمورٌ يَا أخِى يَعرِفُها أهْـلُ الغِنَى

زهـــير : وما ذَلِك مَا المنديـل ياصخْـرُ وما فيـه؟

صخـــر : ثِيـابٌ مِثْلُ أثوابى مِنَ الوَشْيِ وغَالِيه
لِـكُلٍّ مِنكُمَا ثَوْبٌ إِلَيْـهِ جِئْتُ أُهْدِيه

[يفرد الصرة فيتناول كل منهما حلة]

زهـــير : عَمْرُو تأمَّلْ يالَهَا حُلَّةً لِلّه ما أبْهَى وما أبْهَجا

الحقُّ ما قالَ فتى عامرٍ صَنْعاء أعلى بلدٍ مَنْسجا

[يرى فى الصرة طرحة من حرير فيتناولها]

وتلك عَمْرُو ؟

عمــرو : طرْحةٌ مِثْلُ ذُنابى الطاوُسِ

كمثلِها ما لَمَسَتْ فى الوَشْيِ كفُّ لامِسِ

عمرو مبتسما : هــديةٌ لِعبْــلَةٍ؟

صخــر : مَجْلوبةٌ من فارِسِ

زهــير : خلّنا صخرُ من هداياك . قلْ لى كيف أزمعتَ أن تُلاقِيَ عنترْ؟

صخــر : غدًا على العبْدِ أَصُبُّ النَّحْسا عبْدَينِ من شرِّ العبيد نَفْسا

ومن أشدّهم قُوًى و بأْسا

إن صارَعا جُلْمودَ صخرٍ صُرعا أو قارَعا ضَيْغَمَ غابٍ قُرِعا

أو رَمَيَا الشمْسَ أصابا المطلَعا

غَضْبانُ وهو المنيّــهْ ومارِدٌ وهــوَ حيّــهْ

كِلاهُما جِنّيّهْ

ها هُمَا أقْبلا تأمّلْهما يا عمرُو

[ينظرون الى شبحين قادمين من ناحية اليمين]

عمــرو : ماذَا أقــولُ جنّيانــ

وَلِمَنْ يا تُرى هُمَا ؟

عنتر : السابِقُ الأوّلُ عَبْدي وقد شَرِبْتُ الثّاني

[يدخل العبدان غضبان ومارد]

المشهد العاشر

تَعَالَ غَضْبانُ قل لِصَخْرٍ كم أسدٍ صِدْتَ؟

غضبان : نَحْوَ أَلْفٍ

عمرو : أَلْفٌ؟ أفي البيدِ أَلْفُ لَيْثٍ لو قُلْتَ لَيْثَيْنِ كان يكفي!

زهير : وكم ذِئْبًا قتلتَ ؟

غضبان : اثنين !

عمرو : ماذا ؟

غضبان : قتلتُ عِدادَ ناصِيَتِي ذِئابا!

زهير : وكنتَ إذا بعثتَ لها سِهامًا وجئتَ تَجُسُّها وَجَدَتْ كِلابا!

وأنتَ يا مارِدُ قُلْ لي كيفَ صيْدُكَ الأُسْدَ؟

مارد : أَصِيدُه إذا أَتَى لِبَطْنِ وادٍ فَرَقَدْ

وكُنْتُ فَوْقَ نَخْلَةٍ يَزِلُّ عنها مَنْ صَعِدْ

والقَوْسُ في حُضْنِي كما تَحْتَضِنُ الأمُّ الوَلَدْ
وكانَتِ السِّهامُ في كِنانَتِي بِلا عَدَدْ
هُناكَ أَرْمِي فأَسُلُّ الرُّوحَ من أَصْلِ الجَسَدْ
في حائِطِ التَّامُورِ إن شِئْتُ وفي رُكْنِ الكَبِدْ

عمرو : غَضْبانُ

غضبان : لبيْكَ

عمرو : أجِبْنِي

غضبان : سَلْ مُرِ

عمرو : كيفَ لِقَا عنترَةَ الغَضَنفَرِ؟

غضبان : وجْهًا لوَجْهٍ ؟

زهير : لِمَ لَا ؟

غضبان : لا أجْتَرِي

زهير : كيفَ تَبِيعُهُ إذَنْ وتَشْتَرِي؟

غضبان : أَقذِفُهُ مِن فَرْسَخٍ بِخَنْجَرِ أَتْرُكُهُ كالتَّيْتَلِ المعفَّرِ

صخر : وأنتَ يا مارِدُ لَسْتَ تَجْهلُهُ

مارد : مَنْ يَجْهلُ اللَّيْثَ ؟

صخر : فكيفَ تَقْتُلُهُ؟

مارد : آتى لرأسِ جَبَـلٍ فأنزلُهُ وثَمّ

صخر : مَا ذَا ؟

مارد : لى سَهْمٌ أرسِلُه

يُودِعُ الحيـاةَ من يَسْتَقْبِلُه

[يتهامس الثلاثة لحظة ثم يتجه عمرو
وصخر ناحيـة اليمين لينصرفا]

عمرو : الخيرُ فى العَبدَيْنِ سِيرا امضِيَا راشِدَيْنِ

[يخرج عمرو وصخر و ينصرف العبدان من ناحية اليسار
وتسمع ضجة تتعالى شيئا فشيئا ، وصياح وعويل ،
فتظهر عبلة من الباب الذى فى الصدر ، فزعة مضطربة]

المشهد الحادى عشر

أصوات من الخارج : وَا وَلَدَا ! وَا كَبِدَا ! وَا أَسَدَا !

عبلة : زُهيرُ ما الضَّجّه؟ ما هـذه الرَّجّـه؟

زهير : أحسبُها قافِـلةً مُدْبِرَةً مُنهَـزِمَه

تَعَرَّضتْ لِقَاتِلٍ فَـرَدَّها مُحَطَّمَـه

[يسمع صوت مناد ينادى]

الصوت : يا معْشَرَ البِيـدِ آسْمَعُوا بُشْرى لكُمْ أهلَ الحِـيَمْ

بِظَهْرِ عبْسٍ وَوَراءَ الْـحَىّ إبْـلٌ وغَـنَمْ

ألفانِ أو ما نحــو ذا — كَ مِن كَرائِمِ النَّعمْ
كانتْ إلى كِسرى تُساقُ — وإلى أرْضِ العَجَــمْ

[يسمع صوت منادٍ آخر من ناحية أخرى]

الصــوت : وراءَ الحيِّ يا عبْس — مِنَ الأنعامِ ألفانِ
جَنَى عنْــتَرَةَ الفلحا — ءِ من أسْلابِ سرْحانِ
وكانتْ فى الفَلا تُزْجَى — الى كِسرى بْنِ سَاسَانِ
ألا فَلْيَعْــلَمِ القــاصِى — مِنَ الخيماتِ والدّانِى
بأنَّ الليْثَ قد جادَ — عَــلَى الحيِّ بقُطْعانِ

زهــــير : مَنِ الليْثُ ؟

عبــلة : لحاكَ اللهُ — هلْ فى البِيدِ ليْثانِ ؟

[يمرّ على الطريق رجال ونساء هم فلول القافلة المسلوبة فى هيئة ذعر واضطراب داخلين من اليمين]

المشهد الثانى عشر

أحـدهم : وذِراعِى وأينَ منِّى ذِراعِى ؟

آخـــر : أيْنَ ساقِى قد طيّرَ السيْفُ ساقِى ؟

امـــرأة : نَعْلِي . تركْتُ فى القتال نَعْلِي

أخـــرى : أمّا أنا خلفتُ فيـــه بعْـل

آخـــر : وَافَـرَسِي ما حالَ بيْنَـهُ وبيْن صاحِبِهْ!

أىُّ جَبانٍ حطَّنِي عَنْ سرْجِهِ وطَـارَبِهْ!

عجوز [باكية] :

لَهفِي على فوارِسٍ من قَوْمِي نامُوا على العَـرَاءِ شرَّ نوْمِ

يا ليْتَنِي لم يتأخّرْ يوْمِي

عبـــلة : تِلْكَ العَجُـوزُ ثاكِلَهْ تَبكِى ابنَهَـا فى القَافِلَهْ

يَا أُمُّ ماذا دَهَـاكِ أَوْجَــعَ قَلْبِى بُكَاكِ؟

العجـــوز : عِشرونَ من بَوَاسِلِ الفُرْسَانِ تَحْتَ لِوَاءِ وَلَدِى سرحانِ

عبـــلة :

سرحان ليثُ الضَّرْبِ والطِّعَانِ؟

العجـــوز : أجلْ تَرَكْتُهُـمْ عَلَى المكَانِ

وليمةَ الحِدَاءِ والغِرْبانِ

عبـــلة : إذنْ سرحانُ فى القتْلَى لَكِ الرحمنُ مِن ثَكْلَى

من المُغِـيرُ؟

العجـــوز : عُصْبةٌ

عبـــلة : مَن الزَّعِيمُ؟

العجـــوز : عَنــــتَرهْ

عبلة : عنترةٌ يفعلُ أفعالَ اللُّصوصِ الفَجَرهْ؟

العجوز : لا يا ابنتى ظلمتِه عنترةٌ لم يَعتَدى
عنترةٌ كالليثِ عند شبعِهِ لا يعتدى

عبلة : من بعثَ الحربَ إذنْ ومن جناها؟

العجوز : ولَدى
تَكلتُ على الدربِ خيرَ البنينَ وقاجأنا فى الطَّريق الهَبَلْ
وكنَّا ثلاثينَ غيرَ الرُّعاةِ
من امرأةٍ معنا أو رجُلْ
وكان السَّوامُ كثيراً يَضيقُ
به السَّهلُ أو يتغطى الجبلْ
وكنَّا نُيمِّمُ أرضَ العِراقِ لنجتازَها

عبلة : نحوَ كسرى؟

العجوز : أجَلْ

عبلة [غاضبة] : لتُعطُوا الرِّشا وتنالوا المنى ويُمنح سرحانُ بعضَ العملْ
ويحكُمَ فى البيدِ باسمِ الهُمامِ وتحتَ ظُبى فارسٍ والأسَلْ
ذليلٌ بباب أنو شروانَ وعندَ الخيامِ العزيزُ البطَلْ
إلى كم تَهيمون تحتَ النجوم وتفترقون افتراقَ السُّبُلْ؟
فنصفٌ قطاعٌ رعتها الذئاب ونصفٌ على البيدِ فوضى هَمَلْ؟

وليس لكُمْ دُولَةٌ في الوُجودِ وتَسحبكُمْ كالذُيُولِ الدُولْ
ألَمَّ على حوضِكم قيصرٌ وكسرى على جانبيْهِ نَزَلْ
ويحكُمُكُمْ تحتَ نِيرِ الغريبِ ومِهْمازِهِ الأدْعِياءُ الدَّخَلْ
هُمُ الأمَراءُ وقد يرتدونَ بباب الأعاجِمِ ذُلَّ النُّدُلْ.

أحدهم : سمِعْتَ !

آخـــر : ما ذاك ؟

الأول : سمِعْتَ النَّاعِيَهْ؟
فهِمْتَ !

الثاني : فارقني تزحزحْ ناحِيَهْ

الأول [لعبلة] : يا لكِ من مُكابِرَهْ تطعَنُ في الأكاسِرَهْ
وتلعنُ المناذِرَهْ !

الآخـر : عبلَةٌ تنطِقُ الذهبْ لو كُنتَ تعقِلُ الخُطَبْ

الأول : وما الذي ترمى لهُ ؟

عبلة : أرْمي لتحريرِ العربْ

الأول : تحريرهم؟ مم ؟

عبلة : من القيدِ

الأول : وكيف قُيِّدوا؟

عبلة : الفُرْسُ والرُّومُ اسْتَرقُّوا قومَنا واستعبدوا

الثانى[لأخيه] : مَالى إذنْ ؟

الأوّل : ماذا ؟

الثانى : لا قيدَ فى رِجْلِي

وأنتَ والناسُ جَميعُكم مِثْلِي !

عبلة : ألا بَطَلٌ نلتقِي حولَهُ كإسرائِلَ(١) حولَ لِواءِ الرُّسُلْ ؟

يفُكُّ مِنَ الرِّقِ أعناقَنا كَفَكِّ مُوسى رِقابَ الأُوَلْ

الأوّل : وَجدْناهُ ؟

صوت : مَنْ ذاكَ مَنْ يا تُرَى يكونُ ؟ تكلّمْ لكَ الويْلُ قُلْ

عبلة : أتنسونَ عنترةَ العبقرِيّ ؟

صوت : أيحكُمُنا العبْد هذا خَبَلْ !

لَبِئْسَ أميرُ الرِّجالِ الغُرابُ وبِئْسَ الذّليلُ إذا ما حَجَلْ

الأوّل : أتجحَدُ عنترةَ ؟

آخر : خَلِّهِ فما جدّ فى قوْلِهِ بَلْ هَزَلْ

عبلة : ما بالُكُمْ جَبُنْتُمُو يا عبْسُ قَوْماً ونِسا ؟

حتّى رَمَى هذا الفَتى عنترةً بما رَمَى

---

(١) بنو إسرائيل .

أليسَ فى أرجُلِكُمْ نعْلٌ وفى الأيْدِي عَصا؟

[يهجمون على من سب عنترة ويضربونه]

الأوّل : ما لك : يا فَتَى بلغتَ فى الوَقَاحَةِ المَدَى

آخر : ما ذا الّذى غرَّكَ يا كلبُ بضرْغامِ الشَّرَى؟

المضروب : وأنتَ مايعْنِيكَ من عنتَرةٍ؟ وماالذى يَعْنيكَ منْ شأْنِى أنَا؟

عبلة :

صَدقْتَ ماكُنْتَ لِتَعْنِيَ أَحدًا لولمْ تَخضْ فى الفَرْقدِ العَالِى السَّنا

أما ٱبنُ شدّادٍ فـذُخْرُ قومِه يهمُّ من رَاحَ ويَعْنِي مَنْ غَدَا

[يسمع صوت عنترة من وراء
الستار قادما من ناحية اليسار]

عنترة : يا بِيدُ ها أنا ذا أنا حامى حِماكِ وربُّ غابِكْ

إن كُنْتِ جاهِلَتِي ٱخرُجى بجميعِ ظُفْرِكِ لى ونَابِكْ

هاتِى أُسودَكِ كلَّها هاتِى الكَوَاسِرَمن ذِئابِكْ

أحدهم : يا رِجالُ الفِرارَ قد طلعَ الليْثُ علينا هيوا الفِرارَ الفِرارَا

[يفرون جميعا من ناحية اليمين وتبقى عبلة وحدها]

المشهد الثالث عشر

عنترة [من وراء الستار] :

أيا عبل

عبلة : مَن الطارِقُ مَن بالخيْمةِ آستذْرَى؟

مَن الهاتِفُ مَنْ ؟

[يدخل عنترة]

المشهد الرابع عشر

عنترة : عنترة العبسيُّ

عبلة : يا بشرى !

عنترة : تعالى ظبيةَ القاعِ أجيرى أسدَ الصحْرا

ستار

الفصل الثالث

المنظر الأول

« المنظر فى وادى الصفا على مقربة من حى بنى عامر على سبيل »
« مطروق ، عيون ونخيل وأشجار ، عقلت عبلة بعيرها تحت شجرة »
« منها ، على بعد قليل . أناس يغدون ويروحون على الطريق »

المشهد الأول

عبلة : قل لى بربكَ مَن تحبُّ ومَن تحبّكَ يا بعيرْ
أىَّ النياقِ فإنهن على مراعينا كثيرْ
وهلِ اكتفيتَ بناقةٍ أم أنتَ كالعبسىِّ زيرْ؟
تلهو بما دفعَ الرّواحُ إليكَ أو ساقَ البكورْ
مُتنقّلا بينَ البيوتِ على عقائلِها يدُورْ

ما حقُّ عنترَ عندَنا   إلا التجنُّبُ والنُّفورْ
مالى تَمَلَّك مُهْجتِي   عبدٌ على عبسٍ أميرْ!
لو يجمع العربَ السُّرورُ   لجاهُهُ يَسعَى السرورْ
كالليلِ إلا أنَّهُ   فى عينِيَ القمرُ المُنيرْ
حَسَدَتْنِيَ الدنيا عليْهِ   وكلُّ محسودٍ خطيرْ

[تنسل عبلة باطمام بعيرها بينما يمر
فى الطريق ثلاثة فتيان، فيلمحون عبلة]

المشهد الثانى

قراد : بُجَيرُ ماذا ضرَّلوْ   أَنَا أَتينا الشَّجَرهْ
هلُمَّ نلهُو ساعةً   بالغادَةِ المُنتظِرهْ
بجير : أأنَا مجنونٌ أنَا   ألهُو برِيمِ القَسْوَرَهْ؟
لا يا أُخِى لا أجْتَرِى   على لَباةِ عنترَهْ
الثالث : صَهٍ صَهٍ بُجَيرُ حسبُ يا قُرادُ ثَرْثَرَهْ
دعا الفُضولَ وابْعثَا   تحيَّةً مُعَطَّرَهْ
ما تلك إلا عبلةٌ   ما عبلةٌ بنَكِرَهْ

[ينصرفون من الجانب الآخر ويسمع
صوت عنترة من وراء الستار]

المشهد الثالث

عنـــترة : يا عبـــلَ ...

عبلة [لنفسها] : مَنْذا ينادِي عبلَ؟ عنترةٌ؟

عنـــترة : يا عبـــلَ ...

عبلة [لنفسها] : تلك لعمْرِي نَبْرةُ الأَسدِ

هذا هو الحبُّ هذا اسْمِي على فَمِهِ   يأتى من القلبِ أو يأتى من الكَبِدِ
يُرَدِّدُ اسمِيَ فى البَيْـداءِ منفرِداً   وربمـا نَسِيَ اسْمِي غيرَ منفَـرِدِ

عنـــترة :

يا عبلَ أين جَبينٌ لستُ ساليَــهُ   طلق البشاشَةِ حلوٌ كالصباحِ ندِى
وأينَ يا عبـلَ فرعٌ كان فاَغيَتِي   وكان لهَـوِى اذا ضفَّرتُهُ ودَدِى
ولى يدٌ خَشْنةُ الأظفارِ أنقُلُهَـا   مِنَ الغَـدائرِ أحياناً الى اللِّبَـدِ
تَعيثُ من شَعَرِ الغادَاتِ فى نَحَلٍ   حِينًا ومن شَعَرِ اللبوَاتِ فى زَرَدِ

[يقبـل عنترة وفى أثره داحس فيختفى
داحس وراء الشجر بعيدا عن المسرح]

المشهد الرابع

عنـــترة : مَنْ أرَى؟ عبلةُ ؟

عبـــلة : مَنْ؟ عنترةٌ ؟

عنترة : مُهْجَتي عبلةُ ماذا تصنعين؟

عبلة : خرجتُ للنُّزْهَهْ على الصَّفَا وحْدِى
أَقْضِى هُنا بُرْهَهْ أَبُثُّ ما عِنْدِى
نَجِيلَةَ البان وروْضَةَ الرَّنْدِ

عنترة [مشيرا الى البعير] :
وذاك يا نُورَ عبْس؟

عبلة : هذا بَعيرى صباحُ
رَبِّى مَعِى وبَعِيرى تَحْنِي وَهَذَا السِّلَاحُ

[وتريه سلاحها على هودج البعير]

عنترة :
أمثلُكِ عبلَ تخشَى بأسَ شيءٍ وتتخذُ الكنائنَ والرِّماحا
لقدقُرِنَ اسمُكِ المحبوبُ باسمي أما يَكْفى اسمُ عنترةٍ سِلاحا

عبلة : من أينَ يا ابنَ العمِّ؟

عنترة : مِن عَالَمِ البِيدِ

عبلة : كم من فتاةٍ كَمْ ما ذا مِنَ الغِيدِ؟
يقولون عنترةٌ لم يقِفْ يَجِئْ من البِيدِ إلا خَطَبْ

فقالَ لِهاتيكَ ماتَشتَهِى وغازَلَ تلك وأُخرى أَحَبْ

خَلائِلُه صِرْنَ مِثلَ الحَصَى

عنترة : وأنتِ أصدَّقْتِ هذا الكَذِبْ

أحاديثُ لفّقها حُسَّدِى وقد يَخلُقُ الحَاسِدونَ الرِّيَبْ

عبلة : وأُختُ سَعْدٍ ؟

عنترة : مَالَهَا؟

عبلة : ألم تَقُدْ بَعِيرَها؟

وما نَسِيتَ فى ظلامِ الليلِ أن تَزُورَها

[يسمع حفيف فى أوراق الشجر
ووطء أقدام فيقبل داحس مذعورا]

المشهد الخامس

داحس : سيِّدى سيِّدى خُذِ الحِذْرَ

عنترة : ماذَا داحِ؟

داحس : أحسَسْتُ أرْجلًا ودَبِيبا

عنترة : لا تَخَفْ داحِ

داحس : بَلْ أخافُ وأخْشى خطَرًا ماثِلا وشرًّا قَرِيبا

[يعود داحس من حيث أتى]

المشهد السادس

عبلة : ومائكة ؟

عنترة : كيف صُنعى بها ؟

عبلة : بعثتَ إليها بجِلدِ النَّمِرْ

عنترة : وكيفَ وأينَ ؟

عبلة : لقد كانَ ذاكَ فلا تتنصَّلْ ولا تعتَذِرْ

وهِنـدُ بِنتُ عَامرٍ ألم تجئْها فى الحِبَا؟
وابنـةُ بِسْطامٍ ألمْ تَنْـثُرْ عليْهَا الذَّهبا؟
وابنَـةُ شيْبانَ ألمْ تطِـرْ بِهَا مُشبَّبا؟

عنترة : قد زوَّرُوا واختلقُوا وحدَّثُـوكِ الكَذِبا
رُحماكِ ياعبلَ

عبلة : دَعْنى وامضِ اشتَغِلْ بالحَلائِلْ

عنترة : من قالَ ذاكَ ؟

عبلة : كثيرٌ هـذا حديثُ القبائِلْ

عنترة :

لا وعينَيكِ وأعظِم بالقَسَمْ وفمٍ عن غُرَّةِ الصبحِ ابتَسَمْ
لم أنَمْ ياعبلَ عن عهدِ الهوى من رعَى أمراً عظيماً لم ينَمْ
اذكُرِى ياعبلَ أيامَ الصِّبا حينَ أسقى بينَ عينَيكِ الغنَمْ
وشُويهاتُكِ حولى أنُسٌ يغترِفنَ الماءَ من راحِى السُّحُمْ

إنْ حضرتُ الماءَ حامتْ وارتوتْ أو تولّى الماءَ غيْرى لم تحُمْ

اذكُرِى إذ أنت طِفلٌ حُلْوَةٌ قد كَساكِ الحسْنُ فرعًا لِقدَمْ

إذْ تَجيئين بِصِبْيانِ الحِمَى وصَبَايا الحيِّ فى ظِلِّ الخِيَمْ

فتقُصِّين عليهمْ خبَرِى مع ذئْبِ القفرِ أو ليْثِ الأجَمْ

أنا يا عبْلةُ عبدٌ فى الهوى وأنا يا عبلَ فى القُرْبَى ابنُ عَمْ

اطلُبِى الإيوانَ أحمِلْهُ علَى رَاحَتَىْ كِسْرى وهَامات العَجَمْ

أو سلِينِى الهرَمَ المشهورَ يا عبلَ أجلِبْ لكِ من مِصرَ الهرَمْ

أوسلِينِى البِيدَ مهْرًا أو سَلِى ما وَراءَ البِيدِ من حُمْرِ النَّعَمْ

أو تعالىْ فخُذِى أشرَفَ ما قلَّدَ الانسانُ سيْفِى والقلَمْ

رُبَّ خيلٍ قُدتُ حتى قادَنى وحَوَى رِقِّى بنانٌ كالعَنَمْ

وليوثٍ صِدتُ حتّى صادَنِى رشأُ القاعِ ورُعْبوبُ الأكَمْ

قد رعيْتُ النجْمَ حتى ملَّنِى وتعهدتُ الدُّجَى حتّى سَئِمْ

أشتهِى طيفَكِ فى حُلْمِ الكرَى فيقولُ الليلُ لِى أينَ الحُلُمْ؟

[فى هذه الأثناء يظهر مارد وغضبان من وراء الشجر وفى غير الناحية التى اختفى فيها داحس، فيسدد أحدهما سهمه الى ظهر عنترة، فتراه عبلة وتضطرب فيصيب عنترة بالرجل دون أن يلتفت اليه]

المشهد السابع

عنترة [ضاحكا] :

حذارِ ياوغْدُ حَذارِ يا لُكَعْ اللَيثُ لا يقتلُهُ الكلْبُ فَدَعْ

[يقع القوس من الرعب من يد مارد ثم يخرّ
هو نفسه الى الأرض ميتا و يخرّ غضبان]

قد وقعَتْ من يَدِهِ وقد وَقعْ

المشهد الثامن

قد كَانَ لا بدَّ أن أَرَاهُ للّيثِ عَينانِ في قَفَاهُ
سيرى انظرى ماتَ وربِّ الكعبَهْ زمجرةُ الليثِ الهصُورِ صعبَهْ
بلِ اسمَعِي عبلَ اسمعِي كلامِي لولاكِ لم أَنْجُ من الحِمامِ
قد كنتِ أنتِ صنمِي قُدّامِي لكِ اتّجاهِي وبِكِ اهتمامِي
رأيتُ في عينيْكِ قوسَ الرّامِي ويدَهُ في جعْبَةِ السِّهامِ

عبلة : وما رأيْتَ ؟

عنترة : رأيتُ العينَ حائرة والوجهَ لوّنهُ الإشفاقُ ألْوانا
وقفَّ شعرُكِ وانسابَتْ غدائرُهُ كما أثرْتِ وراءَ الليلِ ثعبانا
وقام صدرُكِ كالمنفاخِ مُجتهِداً لا يُفرِغُ الريحَ إلا ارتدَّ ملآنا

فقلتُ شرٌّ ورائي لستُ أبصرهُ في عِطْفِ عبلةَ لما رُوّعتْ بانا
ولاحَ لي الحبُّ في عينيكِ مُرتسِماً لم تَستطيعي لهُ يا عبلَ كِتمانا

عبلة : الحبُّ ! كيف عرفتَ الحبَّ ؟

عنترة : منكِ ومنْ عينيكِ

عبلة : قد تكذِبُ العينانِ أحيانا

عنترة :

لا عبلَ لا إنّ عينَ الحبِّ صادقةٌ وما تعوّدتُ من عينيكِ بهتانا

عبلة :

أجلْ ولكنْ قديماً كانَ ذاكَ أجلْ هذا السوادُ لعيني كانَ إنسانا

عنترة : واليوم ؟

عبلة :

مالَكَ في قلبي الجريح هوًى اليومَ عنترَ من أحببتُ قد خانا

عنترة :

دَعِي الوساوسَ والأوهامَ عنكِ دَعي ياعبلَ جُرّي على ما قيلَ نِسيانا

[يسمع وطء أقدام]

عبلة : عنترَ تلك ضجّةٌ فلنتوارَ ناحيهْ
لا يجدِ الواشي إلينا سُبُلًا والواشيهْ

[يختفيان وراء الشجر ويقبل من ناحية أخرى مالك وضرغام وزهير كأنهم مارون بالطريق . ويتشاغل زهير بالشرب من ماء عين أو بشيء من مثل هذا]

المشهد التاسع

ضـــرغام: سيدَ الحيِّ

مالك : ألف لبيْكَ ضِرغامُ تكلّمْ أثَمَّ شيءٌ تقولُ ؟

ضـــرغام: سيدَ الحيِّ عبلةُ اختارَها القلْبُ فهلْ لي إلى الزّواجِ سبيلُ ؟

مالك : والمهرُ يا ضِـــرْغامُ

ضـــرغام: مهـــرُ عبـــلَةَ ؟ اقـــترحْ تَرَهْ

قـــدِّرْهُ أو خـــلِّ إلى عبـلَةَ أن تُقـــدِّرَهْ

وغاليـــا ما شـــئْتُما فيـــهِ وظُنّا المقـدِرَهْ

مالك : المهـــرُ يا ضِرغامُ غالـــيٍ فاجتهِـــدْ أن تحـــرِزَهْ

ضـــرغام: سلْ تاجَ كسرَى واقترحْ عِمامةَ المنَـــاذِرَهْ

سلْ سُبْحةَ القيْصرِ أوْ فاطلُبْ صَليبَ القيْصرَهْ

مالك : المهـــرُ فـــوقَ ذاكَ

ضـــرغام: قُـــلْهُ لا تخفْ أن تذكُـرَهْ

مالك : إسمعْ إذنْ أيخْ لهُ المهـــرُ رأسُ عنـــتره

ضرغام [لنفسه] :

له الويلُ ماذا قالَ ؟

مالك : قد وجمَ الفتَى

ضـــرغام: أبا عبلَةَ اذكُرْ هولَ ما أنتَ سائلُ

مالك : جبُنْتَ !

ضرغام: معاذَ الله ما الجبنُ فى دَمى

مالك : فَلِمْ ضِقتَ ذرْعا؟

ضرغام: مهرُ عبلةَ هائلُ

أأمشى الى الفلحاءِ أخطفُ رأسَهُ فِداءُ الذى أمشى إليه القبائلُ

كريمٌ لعمرى والكِرام قدِ انقضوْا شجاعٌ وشُجعانُ الرجالِ قلائلُ

إذا قال بزَّ القائلين رَنينُهُ ومابزَّهُ فى أيكةِ البيدِ قائلُ

هَزارُ البوادى طارحته بشجوِها رُباها وغنّت فى صداهُ الخمائلُ

وما بيْننا ثأرٌ ولا بين أهلِهِ وأهلى عداوات خلَت وطوائل

مالك : وعبلةُ يا ضِرغامُ؟

ضرغام: ما شأنُ عبلةٍ؟

مالك : أليس فِداها فى الحِجازِ العقائل؟

ضرغام :

أجَلْ وفِداها الشمسُ ما القتِ الضحى عليها وما رفّتْ عليها الأصائلُ

مالك :

أأنتَ تخافُ العبدَ؟

ضرغام: لِمْ لا أخافُهُ تُخافُ وتُرجى فى الرجال الفضائلُ

وإن ابنَ شدادٍ وان ذاعَ بأسُهُ فتىً مِلءُ بُرديْهِ عفافٌ ونائلُ

من العُصْبةِ المسطورِ في البيتِ شعرُهم قصائدُهم أستارُهُ والوَصائلُ

مالك :

فما لكَ مُصفرًّا كأنكَ هالكٌ من الخوفِ قبلَ الطعنِ والضربِ زائلُ؟

تعالَ زهيرُ اسمعْ حسِبْناهُ حائطًا

[يقبل زهير]

زهير : فما هوَ؟

مالك : ركنٌ في العواصفِ مائلُ

وأمّلتُه سيفًا فلما لبستُه إذا هو عودٌ أنكرتْهُ الحمائلُ

وقلتُ غمامٌ يمطرُ الحيَّ في غدٍ فكانَ جهامًا ما لنا فيه طائلُ

وقلتُ كليبٌ نستطيلُ بصهرِهِ إذا هوَ كلبٌ

ضرغام : ضلَّ ما أنتَ قائلُ

وأقسمُ لولا ظبيةٌ تحتَ خيمةٍ وغصنٌ حوتْه في الحِجالِ الغلائلُ

لما رُحتَ إلا جُثّةً في الثرى لقًى وغالتْك من قبلِ المغيبِ الغوائلُ

مالك : تجرأتَ يا ضرغامُ

ضرغام : ما تلكَ جُرأةٌ ولكنْ كما قد كِلْتَ لي أنا كائلُ

مالك :

كفى حسَبٌ يا ضرغامُ حسْبُ وقاحةٍ فما أنتَ إلا مُكثِرُ الزهوِ خائلُ

لقد قلتَ قولًا شفَّ عمّا وراءَهُ وقامتْ على لؤمِ النِّجارِ الدلائلُ

ولا يرفعُ الأبطالَ أنك منهمُو فما هذه للباسلين شمائلُ

وما لَكَ كالأبطالِ سيفٌ تُجيلُهُ ولكن لِسانٌ بالسفاهةِ جائلُ
أيُذكَرُ عبدُ السوءِ فى كل قفرةٍ وذِكْرُكَ يا ضِرغام فى البِيدِ خاملُ
أما أنت كالفلْحاءِ صِنديدُ قومِهِ أما لَكَ كالفلْحاءِ سيفٌ وعاملُ؟
ألا حسدٌ للعبْدِ؟

ضرغام: لَا . لستُ حاسِدًا ولا أنا للنارِ الأكُولةِ حاملُ
أأحسدُ مَن يحيا العُفاةُ بمالِهِ ويأوِى اليتامَى ظلَّهُ والأراملُ؟
أأحسدُ من لا يعصِمُ البيدَ غيرُه إذا زحفتْ من أرض كسرى الجحافلُ؟
أأحسدُ من يُرجى لتأليف قومِهِ اذا افترقتْ تحتَ الملوكِ القبائلُ؟

مالك :
يؤلِّفنا عبدٌ أما ثَمَّ سيِّدٌ عن العبد يغنينا أما ثَمَّ عاهلُ؟
إذن فَليَسُمْنا الخسْفَ كِسرى وقومُه وقيصرُ والرومُ الجفاةُ الأراذِلُ
أيمنعُنا عبدٌ؟ إذنْ نحنُ عُزَّلٌ فأينَ عوالينا وأينَ المناصِلُ؟

ضرغام:
لقد عِيلَ صبرى للذِى أنا سامِعٌ

مالك : إذا الصبرُ لم ينفَدْ فما أنتَ فاعِلُ؟

ضرغام:
عِقابٌ يُنسِّيكَ الوقاحةَ عاجِلٌ وآخرُ متروكٌ الى الغَدِ آجِلُ

مالك :

رُوَيدكَ يا ضرغامُ مالكَ هاذيًا ... ومالكَ قد ضاعتْ لديكَ المنازلُ؟

فما العبدُ إلا كالدُّخانِ وإن علا ... الى النّجمِ مُنحطٌّ الى الأرضِ سافِلُ

ضـــرغام :

تعالَ تأهّبْ

[يمسك بكتفيه فيهزه هزا]

مالك : كاهِلى خلِّ كاهِلى

ضـــرغام : أقالَبُ زُبْدٍ ذاكَ أمْ ذاكَ كاهِلُ

زهير [صائحا] :

هلُمّوا سَراةَ الحىِّ هاتُوا رِجالَكُم

مالك : الىَّ فعبْسٌ فاجأتْهـا النــوازِلُ!

يا عبْسُ

[ويرى عنترة قادما فيجرى
نحو الحى هو وابنه زهير]

عنـــترةٌ ؟

المشهد العاشر

عنترة [من وراء الستار] : لبيك مَا بِكُمُ؟ خَوْفٌ من السيْلِ أم خوْفٌ مِن النارِ؟

اللهُ أمّنَ بالفلْحاء سِرْبَكُمُـــو ... أفِى الصّريمِ وليث القفْرةِ الضّـارِى

[يظهر عنترة]

المشهد الحادي عشر

مَن الفتى من أرى؟ ضِرغامُ أنتَ هُنا أغارةٌ ؟ أين عهــدُ الجار للجارِ؟
أجئتَ تسبي مَهاتي ؟

ضــرغام: جئت أخطُبها

عنــترة : ما أجملَ الصِّدْق لم يُلبَس بإنكارِ
فما جَرى ؟

ضــرغام: نال منّا مالكٌ وبَغى عليكَ بالشتْم هذا العائبُ الزّاري
حتى انصرفتُ اليــهِ كي أؤدِّبهُ

عنــترة : يا ليتَ أدّبتَــهُ تأديبَ جبّـار
ضِرغامُ

ضــرغام: عنــترةُ

عنــترة : اسمعْ بيننا شَرَكٌ في حبّ عبــلةَ قد يَدنو من النارِ
فاجعــلْ لنفسك أنثى غيرَها أرَبًا فإنّ عبلةَ آرابي وأوطــاري

ضــرغام:
وأنت فاعبُــدْ سِواها إنّني رجلٌ جعلتُ عبــلةَ أوثاني وأحجــاري

تعالَ نذهبْ الى شمسِ النهارِ معًا نقول عبلةُ قــد خُيِّرتِ فاختارى

فما ترى أنتَ ؟

عنــترة : رأيي أن نَصِيرَ إلى جمــالِ تضحيةٍ أو فضلِ إيثــارِ

رأسي ورأسُك فى الميزانِ قد وُضعا وحكمُ سيفِك أو سيفى هوَ الجارِى

من ماتَ منا قضي حقّ الهوى كرمًا وليس بالموتِ دُون الحبِّ من عارِ

ضــرغام :

رأيتَ عنــترَ رأيا لستُ أتبعُــهُ يأباهُ حــبِّى وإعجــابِى وإكبارِى

والله لا جمعتْنـا ساحةٌ

عنــترة : لِمَ لَا ؟ الحــربُ تجمعُ مِغـواراً بمغـوارِ

ضــرغام :

هبنِى قتلتُكَ

عنــترة : ماذَا ضرَّ ؟

ضــرغام : كيف إذن تكونُ فى البيد أنبائى وأخبارى ؟

ألستُ شِــبْلا فَتِيًّا من شبُولتِهــا فهلْ أجرّبُ فى الرئبالِ أظفارِى ؟

وكيفَ أفلقُ رأسًا ملؤهُ شرفٌ أحقُّ من جَبَهَــاتِ الروم بالغارِ ؟

وكيفَ أضربُ عُنقا فى أمانتِهــا كرامَةُ القوْمِ من بَدْوٍ وحضَّارِ ؟

وكيفَ أرمى لِسانا طَالَمَــا سُقِيتْ بشَهدِهِ البيــدُ من شَرْبٍ وسُمَّارِ ؟

عنترة ينادى : ياعبلَ

عبلة [من وراء الستار] : لبيكَ ياابنَ العمّ

[تقبل عبــلة]

المشهد الثاني عشر

ضرغام : أنتِ هُنا؟

عبلة : أجلْ

ضرغام : إذنْ سمِعتْ ما قيلَ أُذْناكِ؟

عبلة :

أجلْ علمتُ بما قد دارَ بينكُمَا

عنترة : فما ترينْ؟ لعلَّ القولَ أرضاكِ

ياعبلَ حبُّكِ في لحمي جرى ودمِي وقد يحبُّكِ ضرغامٌ ويهواكِ

ضرغام : أحبُّها حبِّيَ العُزَّى وأعبدُها عِبادةَ اللاتِ

عنترة : بِنْتَ العمِّ بُشراكِ

ضرغام :

ولو يُطافُ بغيرِ البيتِ في زمَني ما طُفتُ يا عبلَ إلا حولَ مَغْناكِ

عبلة :

ماذا تقولُ ابنَ عمِّي بِمْ تُبشِّرني بُشرَى بِماذَا ؟

عنترة : بهذا العَاشقِ البَاكِي

عبلة [لنفسها] :

يُحبُّني؟ ربِّ أشقيْتَ الفوارسَ بِي فلا أُتيمُ إلا المُعلَّمَ الشَّاكِي

عنـــترة :

عبلَ اسمعي عبلَ هذا الحبُّ كيف أتَى ... هلْ كان فى فترات الدهْرِ يلقاكِ؟

عساهُ جاءكِ يشكو الحبَّ من زمَنٍ ... لعلَّه بالهوَى مِن قبلُ ناجاكِ

ضـــرغامُ هاتِ تكلَّمْ

ضرغام : أنتَ تَظلِمُنِي ... فما نصبْت لعبْسٍ قطُّ أشْراكى

قولى لعنترةٍ يا عبل ما خُلـــقِي ... كما يقولُ ولا فى شِيَمتى ذَاكِ

هل التقيْنا على ذاتِ الأصادِ ضُحىً ... وهـــل لقيتُكِ إلا فى عذارَاكِ؟

وهل نظرتُكِ إلا خاشِعا خَفِرا ... كما نظرْتِ وراءَ السِّــتْرِ عُزَّاكِ؟

عنـــترة :

الآنَ يا عبـــلَ تختارينَ راضيةً ... هاكِ الخطيبيْن قد مدّا يداً هاكِ

عبـــلة :

إنى قد اخترتُ يا ابن العمِّ من زمَنٍ

عنـــترة : مَن ؟

عبـــلة : سـيِّدى !

[تندفــع اليه]

عنـــترة : عبدُك الوافِي ومَوْلاكِ !

[تسمع ضجة وقعقعة سلاح وأصوات]

[استغاثة من الحى كأنها من بعيد]

عبلة :

يا ويحَ أذنى صيْحةٌ وفوارِسٌ ما ذاكَ عنترُ؟

عنترة : غارةٌ وصياحُ

عبلة : ضِرغامُ عنترَ ما مُقامُكَ ها هُنا؟ والحيُّ ثَمَّ مروَّعٌ يُجتاحُ

[يقبل داحس مضطربا]

المشهد الثالث عشر

عنترة :

ماذا وراءَكَ داحِ ما دهَمَ الحِمَى ؟

داحس : فِئةٌ عَلَيهم شِكَّةٌ وسِلاحُ

وطِئَتْ تُرابَ المهدِ أرجلُ خيلِهِمْ ولها عليهِ نَشوةٌ ومِراحُ

عنترة :

أمِنَ البوادِى؟

داحس : بل غساسِنةٌ على قَسَماتِهِمْ أثرُ النعيمِ صِباحُ

فى ظلِّ دِجْلةَ والفراتِ ترعرعوا وغدوْا على وشْيِ الرِّياضِ وراحُوا

أولادُ لخمٍ والذين رَمَى بهِمْ أرضَ العِراقِ تطلُّعٌ وطِماحُ

جاء الحِجازُ بهم ومكةُ والتقَتْ فيهمْ جِبالٌ حولَها وبِطاحُ

نُشِئوا هُناكَ فما تصلَّبَ مَنْسِرٌ لهمُو ولا بلغَ التمامَ جَناحُ

عنترة : ما يبتغُون ؟

داحس : أظنُّ رأسَكَ سؤلَهم هتَفوا بهِ حوْلَ البُيوتِ وصاحُوا

أنسيتَ سرحانا وكيفَ قتلتَهُـمْ وفوارِسا بُهمًا بسيْفِك طاحُوا

ضـرغام :

ما القــوْمُ ؟

عنـترة : عسكرُ رُستُمٍ

ضـرغام : مَن رُستمٌ ؟

عنـترة : بطــلٌ له شرفٌ وفيــهِ سَماحُ

وفتًى يُعظِّمهُ العِـراقُ وصاحبُ كِسرى إليــه بأنسهِ يرتاحُ

عنترة [لداحس] :

ما شكلُه ؟ ما لوْنُه ما وجْهُــه ؟

داحس : رَيّانُ أبلجُ ناعمٌ وضّــاحُ

ضـرغام :

هذا الجمالُ فمــا شجَاعةُ رُستمٍ

داحس : موْتٌ لمن يمشي اليــه مُتــاحُ

عنـترة : وثيــابُه ؟

داحس :

زرَدُ الحديدِ وبُرنُسٌ ضافٍ على أعْطافِه ووشــاحُ

قدحفَّ ساعدَهُ السِّوارُ وَرفَّ في أُذْنَيْــه قُرطُ اللؤلؤِ اللّــاحُ

[تزداد الضجة وتقترب الأصوات]

ضرغام :

اسمع لواءَ البِيد أصغ لِصوْتِهمْ   هـذا النِّـداءُ يَزيدُ والإلحاحُ

[يسمع صوت رستم]

الصوت :

العبدُ! رأسُ العبدِ

عنترة [لداحس]: إمضِ فقلْ لهُم   رأسِى لهم فى مَنكِبَيَّ مُباحُ

[ثم يواجه الأشباح القادمة من بعيد]

ياقومُ لمْ أفهمْ نداءَ كُمُ آعزُبوا   إذ ليس فى لُغَةِ الأسُودِ نباحُ
ويحٌ لرأسِى قد غدا كرةً لهـم   راحٌ تجيء به وتَرجعُ راحُ
كثُروا عليه فى الطِّلابِ ودونَهَ   تتقطَّعُ الأسْـيافُ والأرْماحُ

[يقبل جماعة من الحى هاربين
وينصرف عنترة وضرغام للقاء المهاجمين]

المشهد الرابع عشر

عنترة [من وراء الستار] :

لبيْـكَ يا أُسْـوارُ تعـلَمَ أيَّنا   يُبكَى عليـهِ فى غـدٍ ويُناحُ

عبلة [للقادمين] :

حُيِّيتُمو عبْسُ عِمُوا مَساءَ

عبسُ اسْمَعوا الزَّئيرَ والعُواءَ

قُوموا انْظُرُوا عنترةَ اللِّواء

[يشرف الكل على المعركة الدائرة من وراء الستار]

أحدهم : علَى قَــدَمْ حَيُّوا العــلَمْ لَيْثَ الأجَــمْ

عنترة [من وراء الستار] : عبَــلَ عبــلَ

عبــلة : لبيْكَ ألفَ لَبْ

أحــدهم : ذاك عبــدُ شــدّادٍ انقــلَبْ

عبــلة : بَــلْ لــواءُ عبْسٍ فتَى العــرَبْ

أنْصِــتُوا اسْمَعُوا الرعْدَ فى السُّحُبْ

تلك صرْخَــةُ الليْثِ فى القَصَبْ

أحــدهم :

وآخرُ ليس دونَ أخيهِ بأساً

عبــلة : أجلْ

الأول : ضِرغامُ العَضْبُ الحُسامُ

مُبيدُ الضيغمينْ بشِعْبِ خَبْتِ

آخــر : أجلْ ضِرغامُ الموتُ الزؤامُ

المنظر الثانى

« نفس المنظر بعد زمن قصير، لاتزال عبلة ومن معها من »
« بنى عبس يشرفون على المعركة، وإن كان يبدو أنهم قد تأخروا »
« فى المسرح إلى مكان أبعد من مكانهم فى المنظر الأول قليلا . »
« فى مقدمة المسرح من ناحية أخرى جماعة قليلة من بنى لخم »
« أنصار الفرس وبيد أحدهم صندوق وحديثهم يكاد يكون همسا »

المشهد الأول

واحد من بنى لخم :
ماذاك؟ ما الصُّندوقُ؟ ما بِأَكفِّكُم؟

حامل الصندوق : السِّلْمُ يا إخوانُ والإصلاحُ
العبدُ رأسُ العبدِ بُشرى فارسٍ اليومَ كلُّ مَحَلَّةٍ أفراحُ

[يفتح الصندوق فترى فيه رأس قتيل مغطى]

آخر :
أبرأسِ عنترةٍ أتيتُم ماله يَتْرو؟ وما لِلسِّتْرِ عنهُ يُزَاحُ؟

آخـــر :

أتراهُ حيًّا !

آخـــر : هل جُننْتَ

الأوّل : إذنْ قَضَى وتخلّصتْ من غُولها الأرْواحُ

آخـــر :

من ذَا الذى ذبحَ الغضنْفرَ ؟

الجماعة : رُسْتُمٌ فَحْلُ العِراق وكَبْشُه النّطّاحُ

آخـــر :

حُطُّوهُ ننظُرْ يا إلهى مَا أرَى [يكشف القائل الرأس]

ويْلٌ لهم أىَّ الرءوسِ أطَاحُوا؟

ما ذاكَ عنترةٌ ولكن رُستُمٌ مَنْ يا تُرى الجانِى مَنِ السفّاحُ؟

آخـــر :

مَن غيرُ عنترةٍ يُجَنْدِلُ رُسْتُمًا قد كانَ بينَ الضيغَمينِ كِفاحُ

ماتَنْظُرونَ الرأسَ فى الدّمِ غارِقًا وعليه من كل الجهاتِ جِراحُ؟

لهَفى على قَسماتِه وجبينِهِ عفتِ البشاشةُ وانطفَا المِصْباحُ

آخر [صائحا] :

ياكِسْرى ونَواحِى فَارِسِ لِقَتيلٍ حوْلَ عبْسٍ دَارِسِ

فَتكَ العبْدُ بحُرٍّ فارِسى قائدِ الجحفل أُسْوارِ العِراقْ

يا بَني المُنذِرِ آلَ الأشهبِ شرفَ الفرسِ ومجدَ العربِ
قد صحِبتم رستما في الموكبِ فاركَبوا في ثارِهِ الخيلَ العِتاقْ
بيننا يا عبسُ يومٌ ذو نَبا

[تتجه الجماعتان: بنو عبس
وبنو لخم بعضهما الى بعض]

بنو عبس : مرحبًا باليومِ أهلًا مرحبا
أحدهم : هذهِ السُّمرُ أُعِدَّتْ والظُّبى أُرهِفَتْ وانتظرَتْ يومَ التَّلاقْ
عبلة : أولادَ لَخْمٍ
آخر : مَنِ المُنادي؟
آخر : عبلةُ
الأول : مَنْ تِلك ؟
الآخر : بِنتُ مالكْ
عنترةٌ جُنَّ في هَواها والبنتُ جُنَّتْ بهِ كذلكْ
آخر : لبيكِ لبيكِ أُختَ عبسٍ
عبلة : ألا أُنبِّئكُمو بأمسِ؟
ما نحنُ إلا أبناءُ جِنسٍ نحن بنُو الشمسِ والصحارَى
لا تحفِلوا رُسْتمًا دعوهُ خلُّوهُ للفُرسِ يثأرُوهْ
ولا يُقاتِلْ أخًا أخوهُ منكمْ ولا تخذُلوا الدِّيارا

حُشِرْتُمُـو تحتَ كلِّ رايهْ وأسْرَجُوكُمْ لِكلِّ غايَهْ
وسُـمْتُمو الملكَ والولايَهْ لِكلِّ كسْرى وَكلِّ دارَا»
قبيـلةٌ تحتَ حُكْمِ كسرَى وقيْصـرُ الرومِ دانَ أخرَى

أصبحْتُمو للغَريبِ جِسْرا يرْكَبُـهُ كُلّما أغارَا

أحـدهم : ما ذا تقُولينَ يا فتـاةُ؟ أَيـتُرَكُ القـائدَ الغُـزاةُ
كأنّه فى الطّـرِيق شـاةٌ وذابحُ الشـاةِ قد تَوارَى ؟

عبـلة : يا لخمُ يا بنى العـرَبْ يا لخـمُ حُرْمـةَ النّسَبْ !

[ضجيج]

رُويْدَ ما هـذا الجلَبْ

بنو لخم : نُريـدُ رأْسَ عنـترهْ

عبـلة : قـد رُمتُمو ما لم يُرَمْ ما أنتمُـو ولا العَجَـمْ
ببَالِغِى لَيْثِ الأجَـمْ

بنو لخم : نُريـدُ رأْسَ عنـترهْ

أحدهم : يا عبـلَ أخي رُستما — إنْشئْت — نَحقِنِ الدِّما
أو نَاوِلينَا المُجـرِمَا

الجميـع : نُريد رأْسَ عنـترَهْ

[يسمع صوت عنترة مقبلا من
بعيد فيلتفت الى ناحيته الجميع]

الصـوت :

أراكِ يا عبـلَ تَغضـبينا يا عبـلَ منْ ذا مُخاطِبينا؟
من ذا الّذى يرفـعُ الجَبينا مُخاطِبًا مَلِكَةَ العَـذارَى

عبـلة :

عنـترةَ البـأسِ خلِّ سـيْفَكْ وعُـدَّ لخمًا فى الحيِّ ضـيفَكْ
ولا يَـرِ الأقربُون حيْفَـكْ ولا يقـولُوا العبْسِيُّ جارَا

ما أنتَ من ظَلَمَ القَريبَ وهذه لخـمٌ قرابتُنا الأدانِى فَاعْـدِلِ
بالأمسِ تَبنِى ركنَ قومِكِ بإذنها واليومَ تَفعلُ فيه فِعْـلَ المِعْوَلِ
بالبغْيِ بالعُزى بعبْـلَةَ بِالهَـوى بالحقِّ إلا سِرْتَ سـيرَةَ مُجْمِـلِ
[يظهر عنترة]

المشهد الثانى

عنـترة : ما لَكِ عبـلَ ثائِرهْ ما يبْتَـغِى المَنَاذِرَهْ
صـنائعُ الأكاسِرَهْ

بنو لخـم : نُريدُ رأسَ عنـترَهْ

عنـترة : رأسِى أنَا

واحد من بنى لخم : لِمْ لَا أجَلْ

عنـترة : هلْ لكُمو بهِ قِبَـلْ

الكل : أجَلْ أجَلْ أجَلْ أجَلْ

عنترة : يا بُعدَ رأسِ عنترهْ !

يا لَخْمُ هاتوا جمعَكُم هاتُوا القَنا وامْضُوا لِكسْرَى وارْجعُوا في جَحْفَلِ
جِيئُوا بفُرْسانِ العراقِ وفارسٍ من راكبٍ فيلًا ومن متَرَجِّلِ
وتقلّدوا أمْضَى المَناصِلِ واطلُبوا رأسِي بما قُلّدتُمُو من مُنْصُلِ

هلُمُّوا يا بَنِي لخْمٍ خُذُوا رأسِيَ من جِسْمِي
بما شِئْتُمْ فَبالسيْفِ وبالرُّمحِ وبالسَّهْمِ

[ينازلهم و يقتل منهم مقتلة عظيمة فيفرون صائحين]

أحدهم : خلّني أنجُ بنفسِي

آخر : أنجُ مِن جبّارِ عبْسٍ
ذاك جِنّيٌّ ولا يَبرُزُ لِلجِنِّيِّ إنْسِي

عبلة : رُحماكَ عنترَ

عنترة : أنتِ عبلةُ ذِي

عبلة : أجَلْ

عنترة : ما تأمرِينَ سَلِي الخوارِقَ أفعَلِ

عبلة :
رحماكَ عنترَ لا تَشِمْ سيْفًا ولا تطعنْ برمحٍ واتّئِدْ وتمهّلِ

[يلقي عنترة سلاحه ثم يقبل عليها]

لم أنسَ ذِكرَكِ والجراحُ تَسيلُ من دِرْعي وتَصبِغُ أشْقَرِي بالعَنْدَمِ
(ولقد ذكرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ منّي وبيضُ الهِندِ تَقطُرُ من دَمِي)
فمَضيتُ أعتنِقُ الرِّماحَ لأنّها خطَرَتْ كأسمَرِ قَدِّكِ المتقوِّمِ
(ووددتُ تقبيلَ السُّيوفِ لأنّها لمعتْ كبارِقِ ثغرِكِ المتبسِّمِ)

ستار

الفصل الرابع

« في حي بني عامر وفي مضارب بني الأشتر وفي خيام صخر . »
« سرادق فخم وسامر حافل فيه جماعة من سراة عبس وأخرى »
« من وجوه عامر . خدم يروحون ويجيئون بقصاع الطعام »
« وأواني الشراب . جماعة يزمرون ، وآخرون يضربون »
« على الدفوف والمزاهر... ... ... »

المشهد الأول

أحدهم : عبلةُ في الوَشْيِ زُفَّتْ الى عامِرْ
يا زامرَ الحيِّ هاتِ آشْدُ يا زامِرْ
هيِّ ارتجِلْ هيَّ وأطرِبِ السّامِرْ

شيخ من عامر :

الطعامَ الطعامَ يا عبسُ قوموا الطعامَ الطعامَ ضيفانَ عامر

آخـــر :

الشرابَ الشرابَ تلك بواطيه وهذِى أقداحُه ياحساةُ

دوَنكم تـسْمَرَ عامرٍ ماا كتَسَت أَطيبَ مِنهُ ولا ألذّ النوّاةُ

دونَكُم من زبيبِ جِلَق والطـــــائف مالم يَسقِ الملوكَ السُقاةُ

آخـــر :

هـــذا شرابُ الرعاةِ دعْنِى   مِنهُ وهاتِ اسْقِنى الكرُومَا

آخـــر :

هنّ جوارىَ الحِـمَى   هنّ صبَايا عامِـــرِ

قمْن الى الدُفُوفِ واضرِ   بْن علَى المزَاهِـــرِ

زِدنَ جمالَ العُرسِ أوْ   زِدنَ جمال السامرِ

فــد كَمَل الأُنسُ   قد جَرتِ الكأسُ

قومُوا اطرَبُوا عبْسُ

قد كَمَل السامِرْ   ورَنَّم الــزَامِــرْ

قومُوا اطرَبُوا عامِرْ

غنـاء : ياعبــلَ حيِّينـا   إنا مُحبُّـــوكِ

هـاكِ الرياحينـا   يَنفحْن عن فيكِ

ياعبــلَ ياحُـــرّهْ   يا ملْــكَةَ الغيــدِ

أصبحتِ كالدُرّه   فى مَفرِقِ البِيــدِ

ضيف : لا تسقني التمرَ ولا بنتَ الشعير والذُّرَهْ
وعاطِني مايشربُ الرُّ ومُ وراءَ أنقرَهْ
إذا شربتُ أربعًا منها انقلبتُ عنتَرَهْ!

[يسمع صوت عنترة من بعيد
يخاطب رجالا من وراء الستار]

صوت عنترة : مَنِ الرجالُ ؟

صوت أحد الرجال : ومَنْ أنتَ ؟

صوت عنترة : فاتِكٌ ومُغيرُ
من آثَرَ العيْشَ فلْينجُ بالنفْسِ
لا جرَّدَ اللهُ سيفِي على عبْسِ

واحد من بنى عامر : عنترةٌ ؟

آخر : ماذَا ؟

الأوّل : عنترةٌ جَاءَ

آخر : بل ذَاكَ سكرانُ يَقولُ ما شَاءَ

آخر : ماذا تردُّ الهواءُ؟

آخر [ثملا] : ما ذاكَ إلا ثُغَاءُ
شُوَيْهَةٌ جاوَبَتها مِنَ المراعِي الشَّاءُ

صوت عنترة : وقفتُم يا رِجال ؟

صوت أحد الرجال : أجلْ وَقفنا .

صوت عنترة : نَزالِ إذنْ نَزالِ إذَنْ نَزالِ

صوت أحد الرجال : تأهبْ يا فتًى

صوت عنترة : أبناءُ عمِّي؟ إلَهى كيفَ أَصنعُ بالرِّجالِ؟

صوت أحد الرجال : تأهبْ يا فتًى للقاءِ عبْس

صوت عنترة : وأنتمُ فاستَعِدّوا للقِتالِ

[تسمع قعقعة سلاح]

واحد من بني عامر :

أمَا تَبيَّنْتَ الفتَى أما عرفْتَ الزمجرهْ؟

واحد من بني عامر [مُملا] : عامرُ .

آخرون : ماذا ؟

الأوّل : ظفِرت أيديكمو بالجوهره

فزتُم مِنَ البِيدِ ومنْ سمائِها بالنَّيِّرهْ

آخر : وبعْد ؟ ...

آخر : ماذا تبْتَغِي؟ فيمَ تحكّ الحنْجرهْ؟

الأوّل : أريدُ أن أعلمَ أينَ اليومَ أينَ عنترَهْ؟

عبسٌ على سِلاحِها وعامرٌ منتظِرهْ

وذاكَ سيْفِي في يَدِي فلْيجِئ العبْدُ يرَهْ!

أحدهم : أعـوذُ بالعُـزّى أعـوذُ باللّاتِ
آخـر : تَعـوذُ بالبيتِ من الفُجاءاتِ

صوت عنترة :

أنا الذى لقّبـني أبى وأمّى القسْورَهْ
ضجّت ضَراغِمُ الفلا من حَملَاتِى المُنْكرَهْ

واحد من بنى عامر [لآخر من بنى عبس] :

أوَلم تقلْ لى إن رأسَ العبدِ كان صَداقَ عبلهْ؟

الآخـر : قدقيل ذاك أجل

الأوّل : فكيف إذن نراهُ؟

ثالث [من عبس] : أنت أبلهْ !

منذا الذى يَقوَى على رأس الغضنفرِ عنتره؟
قد ماتَ رستُمُ دونَه وهَوَى أُسَيْدُ القسوره
وجنى شيوخُ الحىّ من مَهـرِ الفتـاة الثرثره
فرضُوا صداقَ فتاتِهم نَعَـمًا تُساقُ وأبعِـره!

[يدخل عنترة ومعه رجال آخرون من عبس وفتاة مقنعة فينهض السامرون ويشهرون سيوفهم ويفر من بنى عامر غير قليل ، ويبرز لعنترة واحد من بنى عبس]

المشهد الثاني

المتقدم : أنا الذى تعلم عبس أنى أذودُ عنها وتذودُ عنى
خُذْ يا ابن عمى الحذار منى

عنترة : مرحبًا بك مرحبًا بك عش تمتع بشبابك

[يحمل عليه عنترة فيطير السيف من يده ولا يؤذيه]

تعالَ سيفُكَ طارا لا تخش بالأسر عارا
إنى أرعى الأسارى

[يأخذه رجال عنترة أسيرا]

عنترة : خذوا الأسير ناحية ولا تجزّوا الناصية

[يبرز له آخر من بنى عبس]

المتقدم : إنى أنا الغضنفرُ العبسيُّ تعرفنى الرماحُ والقسيُّ
والوحشُ فى الفلاةِ والإنسيُّ

عنترة [حاملا عليه] :
أنا المنايا الماثلهْ أنا القضايا النازلهْ
غضنفرٌ فى قافلهْ

[يحطم سيفه]

سيفُكَ يا هـذا كُسِرْ وصاحبُ السيفِ أُسِرْ

[إلى رجاله] : خُـذوهُ

[إلى منازله] : هيَّ إمْضِ سِرْ

[يأخذه رجال عنترة فيبرز له شاب ثالث]

المتقدم : أنا أخُـو الأشـبالِ مثـلُ أبي الرئبالِ

بالقِرْنِ لا أُبالي

عنـترة : وأنتَ أيضـا يا حدَثْ ما الحـربُ ياطفـلُ عبثْ

قِفْ لا تَسِرْ إلى الجدَثْ

[يحمل عليه عنترة فيطير السيف من يده]

الشاب : أينَ مضَى سيفِي ؟ قدكانَ في كفِّي

عنـترة : لا تَتَّهِمْ ولا تَسَـلْ سيفُكَ في سيْفِي دَخَلْ !

سِرْ قِفْ هناكَ يا بطَلْ !

الآنَ أنتَ لُعبتِي إلحَـقْ بِصاحِبَيْكَا

إمضِ انضمِمْ اليهِمَا

[وفي هـذه الأثناء يكون قد رفع بيده من الأرض
مبارزا آخركان قد خرج اليه فيقذفه بجانب الشاب]

وضُـم ذَا إليكَا

[ثم يخاطب الجماعة]

سُدَّى حربكُمْ ياقومُ ألقُوا سِلاحَكُمْ ولا تُرْكِبُونى فى دمائِكُمو وِزْرَا
رأيتُمْ يدِى؟

أحدبنىعامر : ما كانَ أعْظَمَ بطْشَها؟

عنترة : وسيْفِى؟

آخر : كسيْفِ الموْتِ يَفرِى ولا يُفْرَى

[يقترب عنترة من الفتاة
المقنعة التى دخلت معه]

انْهضِى الآنَ يَا عروسُ تعالى لا تخافِى منِّى ولا مِنْ رِجالى
بطلٌ كلُّهم فلا خوْفَ مِنهمْ كيفَ تشْقَى النساءُ بالأبْطالِ

[يرفع عن وجهها القناع فاذا هى عبلة]

صخر [فى ذهول] : مَنْ هذه؟

عبلة : عبلةُ!

صخر : مَن بمن تزوّجْتُ إذَنْ ؟
مَن التى تركْتُ فى الخِباءِ؟
ومَن تُرى تكونُ فى النِّساءِ؟

رجل لآخر : لكنْ أجِبْنِى ألَسْنَا فى دارِ صخْرٍ وعُرْسِهْ؟

الآخر : نعمْ وأحسَبُ صخْرا جرتْ أمورُ بِنَحْسِهْ

عنترة :

قِيامًا عامرُ انتظِروا قضائى فإنِّى الموْتُ ما منْه فِرارُ
وأنتمْ عبسُ للأوطانِ عُودوا فما فِى عامرٍ لكم قرارُ

نَسِيتُ لكم وأَنْسى ما جَنيْتُمْ تُحَبُّ وإن تنكَّرتِ الدِّيارُ

الجماعة : [كل جملة يقولها رجل] :

العفــوَ عنــترهْ الصفحَ يا بطَــلْ
مُرْنا بِمَــا تشــا أمرُك مُمْتَثَــلْ

عنــترة : رأيتُمو يا قومُ عبــلَةَ معِي وكنتُمُو حسِبتُمُوها فى الخِبَا
نِيطَ بعبْسٍ وشبابِ عَامِرٍ أن ينقُلوها مِن حمًى الى حِمَى
ساقُوا بعِيرَها وكانُوا حوْلَهَا عشرينَ فتْيانا أشِدّاءَ القُوى
أدركتُهُمْ على الطَّرِيقِ فنجَا من المَنُونِ بالفِرَارِ مَن نَجَــا
وماتَ دونَ الرحْلِ نحوَ عشْرةٍ قد غُودِرُوا مُجندَلين فى الفَلَا
وهؤُلاءِ هم بَنُو العمِّ أبوْا إلا المسِــيرَ مَعنا الى هُنــا

كانت مَعِي ناجيةٌ فرَكِبَتْ بعيرَ عبْــلةٍ وحثَّتِ الخُطا
فى وشْيِ عبْلَةٍ وفى خِمارِها وانطلَقتْ تُحدَى بأتْباعى أنَا

رجــل : حــديثُ عبــلةٍ عجبْ لَيُؤْثَرَنَّ فى العَــرَبْ
لَتروِينَّه الحِقَبْ

صخــر : واشَــقْوتِى وابَــلائِى فقَــدْتُ إبْلِى وشَــائِى!

عبــلة : يا صخرُ إنّ فى الخِباءِ جارِيهْ تَهواكَ فى السرِّ وفى العَلانيَهْ

صخر : جارِيةٌ تحبُّنى! من ؟

عبلة : ناجِيَــهْ

صخر : ناجِيــةٌ؟ ومن أرادَها لِيَهْ ؟

عبلة : أنا التى جعلْتُها مكانِيَهْ

عنترة : ناجِيــةٌ يا فتَى جارِيةٌ كالرَّشا
وأنتَ بانٍ بها إن شئتَ أولم تَشَا

صخر : قبِلتُ بالحُكمِ إنْ قبلتْ عامِر
مُرْهُم بما شئتَ أنتَ هُنا الآمِرْ

عنترة : من يُخالِف إرادَتى مِنكمو يَمضِ ناجِيَــهْ

[لا يتحرك أحد]

قد قبِلتُمْ مشيئَتى ورَضِيتُمْ قَضائِيَهْ
إشهَدوا عُرْسَ عبلةٍ واشهدُوا عُرْسَ ناجِيهْ

عبلة : إنّى أخافُ

عنترة : عجبًا يخافُ جارُ الأَسَدِ

عبلة : غدًا يُقالُ صدَّتنِى وكنتَ لى بمَرْصَدِ
غداً يقالُ قد تآمرْنا على التّمرُّدِ

يُقالُ خان عمّهُ

عنترة : وأنْتِ

عبلة : خُنْتُ والِدِى

عنترة : لِيَقُلِ السّامِرُ مَا قدْ شاءَ ولْيَهْذِ الندى
ولْتَقُمِ البِيدُ لما تأتى بِهِ وتَقْعُدِ
ماذا يهُمُّ بعدَ ما قد صار كَنْزِى فى يَدِى
وبعدَ أن نِلْتِ مُنا كِ وبَلَغْتُ مَقْصِدِى

عبلة : والناسُ من كلِّ فُضو لىٍّ وكلِّ مُعتَدِ؟

عنترة : الناسُ ؟ خلِّ لِقَنا تِى النّاسَ أو مُهَنّدِى
أنتِ اذا أطعَمْتِهِمْ مُخَّ الرَّشا لم تُحْمَدِى
غدًا يخصُّونَكِ بالتّمْليقِ والتّوَدُّدِ
البِيدُ معبَدٌ وأنتِ دُميةٌ فى المَعْبدِ

واحد من عبس :

عنترَ اسلَمْ لعبْسَ نحنُ فِداؤُكْ لَقِيَ الذلَّ والرّدَى أعداؤُكْ
لقد أبى عمُّكَ أنْ يُهدى إليكَ الجوْهرَهْ
عمُّك نحنُ قومُهُ نحنُ لنا أنْ نأمُرَهْ
عنترَ هاكَ عبلةٌ عبلةُ هاكِ عنترَهْ

عنترة : الآنَ صخرُ امضِ إلى الخباءِ جئْ بناجيَهْ

عامرُ عبْس أقبِلوا زُفُّوا العروسَ الغاليَهْ

مَا هِيَ بالخادمِ في عبْسٍ ولا بالرَّاعيَهْ

لكنْ فتاةٌ حُرّةٌ من البُيوتِ العاليهْ

تزوّجتْ بوافرِ المالِ كثيرِ الماشيَهْ

صخر : عنتر

عنترة : صخرُ هاتِ قُلْ

صخر : وإبلي وشائيَهْ؟

عنترة : تُردُّ في غدٍ إليكَ وهي مَهرُ ناجيَهْ

يا عبلَ سامحَني في قُربِكُمْ زمَني وشاءَ ريبُ الليالي أن نَعيشَ معَا

يا بِيدُ هِيِّ اشهدي أعراسَ عنترةٍ ويا سِباعُ تعالَيْ هنّئِي السَّبُعَا

عبلة :

التأمَ في عامرٍ شمْلي بعنترةٍ وكان ظنّيَ في شمْلي به انصدعَا

قد اجتمعْنا على عُرسٍ وفي فرحٍ كم من شتيتَيْن بعد الفُرقةِ اجتمعَا

إنّي وضعتُ بناني في يدَيْ أسدٍ لو مرَّ مِخلبُه فوقَ الصَّفا خشَعَا

سامَ القبائلَ إجلالي وملّكَني عقائلَ البِيدِ حتى صِرْنَ لي تبَعا

ستار الختام

مجنون ليلى

مجنون ليلى

تمهيد

زمن الرواية :

صدر الدولة الأموية

مكان الرواية :

بادية نجد

أشخاص الرواية :

قيس — مجنون ليلى

ليلى

المهدى — أبو ليلى

ورد — زوج ليلى

ابن عوف — أمير الصدقات فى الحجاز وعامل من عمال بنى أمية

زياد — راوية قيس وصديقه

منازل — غريم قيس فى حب ليلى

بشر — رجل من بنى عامر

ابن ذريح — شاعر من شعراء الحجاز
نصيب — كاتب ابن عوف
سعد — رجل من بني عامر
الغريض — مغنٍ مشهور
ابن سعيد — شاعر
أمية — رفيق ابن سعيد
الأموى — شيطان قيس

عضرفوت
هبيد
عسر
عاصف
} شياطين

بلهاء — جارية قيس
عفراء — جارية ليلى

سلمى
هند
عبلة
} فتيات من بني عامر

رجال — قوافل — حداة — صبية — فتيات

الفصل الأول

« ساحة أمام خيام المهدى فى حى بنى عامر ــ مجلس من مجالس السمر فى هذه الساحة ــ فتية وفتيات من الحى يسمرون فى أوائل الليل ، وفى أيدى الفتيات صوف ومغازل يلهون بها وهم يتحدثون ــ تخرج ليلى من خيام أبيها عند ارتفاع الستار ويدها فى يد ابن ذريح »

« ليــلى »

دعى الغزْلَ سلمى وحَيِّى معى   منارَ الحِجازِ فتى يَثْربِ (١)

« تصافحه سلمى »

وياهِنْدُ هــذا أديبُ الحِجاز   هلمِّي بمَقــــدَمِهِ رَحِّبي

« تصافحه هند ويحتفى به السامرون »

« ســعد »

أمن يثربٍ أنت آتٍ ؟

« ابن ذريح »

أجل   من البلدِ القُدُس الطيّب

(١) يثرب ــ المدينة المنورة

« ليلى »

أيابنَ ذَريحٍ لقينا الغمام

« هند »

وطافَتْ بنا نفَحاتُ النبي

« عبلة ــ هامسة إلى سعد »

مَن ابنُ ذَريحٍ ؟

« سعد »

فتًى ذِكرُه على مَشرِقِ الشمس والمغرب
رَضيعُ الحُسَيْنِ عليه السلامُ وتِرْبُ الحُسَيْنِ من المكتبِ

« عبلة ــ الى بشر ومشيرة الى ابن ذريح »

أتسمَعُ بشرُ رضيعُ الحُسَيْنِ فديْتُ الرضيعيْن والمُرضِعهْ
وأنت إذا ما ذكرنا الحسينَ تصاممتَ !

« بشر ــ هامسا ومتلفتا كأنما يخشى أن يسمعه أحد »

لا جاهلاً مَوْضِعهْ
ولكن أخاف امرأً أن يرى عليَّ التشيُّعَ أو يَسمَعه
أُحِبُّ الحسينَ ولكنما لسانى عليه وقلبى معه !

حَبَسْتُ لسانىَ عن مدحه حِذارَ أُمَيةَ أن تقطعَه
إذا الفتنةُ اضطرمتْ فى البلاد ورُمْتَ النجاةَ فكُن إمَّعَه !

« ليلى »

إبنَ ذريحٍ نحن في عزْلةٍ فهل على مُستفهِمٍ منك بأسْ ؟

دارُ النبيِّ كيف خلّفتها ؟ كيف تركتَ الأمرَ فيها يُساس

« ابن ذريح »

تركتُها ياليلَ مَضبوطةً يحكُمُها والٍ شديدُ المراس
إن حديثَ الناس فى يثربٍ همسٌ وخطوُ الناس فيها احتراس

« ليلى »

إبنَ ذريح لا تَجُرْ واقتصِدْ أحلامُ مرْوانَ جبالٌ رَواسْ
يؤسِّسُون المُلْكَ فى بيتهم والعُنْفُ والشدةُ عند الأساس

« تتضاحك الفتيات وتقول إحداهن لأخرى »

« فتاة »

ليلى على دينِ قيسٍ فحيثُ مالَ تميلُ ؟
وكلُّ ماسرَّ قيساً فعند ليلى جميلُ

« ابن ذريح »

ما الذى أضحكَ منى الظّبياتِ العامريّهْ
ألأنى أنا شِيعِىٌّ وليلى أمويّهْ ؟
إختلافُ الرأى لا يُفسدُ للود قضيه

«ليلى»

أعِرْنى سماعَك يابنَ ذريحٍ ولا تسمعِ الطفلةَ الهاذيهْ
أتيْتَ لنا اليومَ من يثربٍ فكيف ترى عالَمَ الباديه
أكنتَ من الدور أو فى القصور ترى هذه القبّةَ الصافيه ؟
كأن النجومَ على صدرها قلائدُ ماسٍ على غانيه

« هند »

كفى يابنةَ الخال ! هذا الحريرُ كثيرٌ على الرِّمَّة الباليه
تأمَّلْ تر البيدَ يابن ذريح كقـــبرةٍ وَحشَةٍ خاويه
سئمنا من البيد يابن ذريح ومن هذه العيشة الجافيه
ومن مُوقدِ النار فى مَوْضعٍ ومن حالب الشاة فى ناحيه
وراغيةٍ من وراء الخيام تُجيبُ من الكَلأ الثاغية (١)
وأنتم بيثربَ أو بالعراق أوِ الشام فى الغُرَف العاليه
مُغنِّيكمو مَعبَدٌ والغريضُ وقَينتُنا الضَّبُعُ العاويه
وقد تأكلون فُنونَ الطُّهاةِ ونأكل ماطَهت الماشيه

« ليلى »

قد اعتَسَفتْ هندُ يابنَ ذريحٍ وكانت على مَهدها قاسيه
فما البيدُ الا ديارُ الكرامِ ومَنزلةُ الذِّمَم الوافيه
لها قُبْلةُ الشمس عند البزوغ وللحَضَرِ القُبلةُ الثانيه
ونحن الرياحينُ مِلْءَ الفضاء وهنَّ الرياحينُ فى الآنيه
ويقتُلُنا العشقُ والحاضراتُ يَقُمْنَ من العشق فى عافيه
ولم نصطَدِم بهموم الحياة ولم نَدرِ ـ لولا الهوى ـ ماهيه
وآنا نخف لصَيْد الظباء وآنا الى الأسد الضاريه

«هند ـ ساخرة »

وفى كل ناحيةٍ شاعرٌ يغنِّى بليلاهُ أو راويه

---

(١) الراغية : الناقة والثاغية : الشاة

« تحاول ليلى أن تمد رجلها فتتألم وتستغيث »

« ليلى »

قيسُ ، إليَّ قيس

« هند »

ما دهاكِ ليلى ما الخبرْ

« ليـلى »

أحس رجلى خدِرت حتى كأنها الحَجرْ

« هند »

قـد صحتِ قيسُ مرتين

« ليـلى »

أو ثلاثاً ما الضرر

« هند ــ متهكمة »

إسم الحبيبِ عنـــدنا نذكره عنـد الخـدر

« ليـلى »

هنـــد كفى دعابة إن هو الا اسمٌ حضر

« لنفسها »

يا قيسُ ناجىَ باسمكَ الـــقلبُ اللسان فعثَر

« عبلة ــ ضجرة »

أما سوى هذا الحديث شاغلُ ؟ كيف ظللْتَ اليومَ يا منازلُ ؟

« منازل ــ ضاحكا »

منازلُ اليومَ كأمس هازلُ يشرَبُ أو يَطعَمُ أو يُغـازلُ !

« هند »

بخٍ ! كذا فلتكنِ الحياةُ مُتْ يابعيرُ وانفقى ياشاةُ
انغمست فى الترف الرعاةُ !

«ليلى»

وكيف ظللت اليوم سعدُ ؟ أهازلٌ كتربك أم فى صالح ورشادِ !

« سعد »

بل الجدُّ ياليلى سبيلى وديدنى حياتى بوادٍ والمجونُ بواد
صحبتُ زيادا طول يومى تلقفا لأشعار قيسٍ من لسان زياد
وإن زيادا ـ منذ كان ـ لرائحٌ علينا بشعر العامرىّ وغاد
ولولا زيادٌ ما تمثّل حاضرٌ بأشعار قيسٍ أو ترنم باد

« يبدو على ليلى شىء من الزهو فتتهامس الفتيات »

« سلمى »

انظرى هند ترىْ ليلى ! كتست زهواً وكبرا
وتعالت كابنةِ النعمان أو كابنة كسرى !

« هند »

لـمَ لا سلمى ، ألم يرفعْ لها المجنونُ ذكرا؟

« عبلة »

لِمْ إذن ياهند من قيس ومما قال تبرا ؟

هند

عبَثُ النسوةِ ! إنا نحن بالنسوة أدرى !

« سلمى »

سلوا الآن بشرا فيم أنفق يومَه ؟

« أصوات »

سلوه

« هنـد »

سلي يا ليلَ عن يومه بِشرا

« ليـلى »

وهَل يومهُ الا شؤونٌ كأمسِهِ من الصيد؟

« هنـد »

إن الصيدَ لذتُه الكبرى

« بشر »

نعم هو ملهايَ الذى لا أمَله ولا النفسُ تُعطَى عن تناوله صبرا

ولو كان عيشي فى قصور أميـةٍ لعلّمتُ فنَّ الصيد فتيانها الزهرا

وما أنا صيّادُ الأرانب مثلَهم ولـكن على حيّاته ألِجُ القفرا

« ليـلى »

إذن هاتِ واصدُقْ بشرُ فى القول مرّةً

ولا تخترعْ أو تَبْنِ من حَجَرٍ قصرا !

« بشر »

دعى عنكِ هـذا السُّخْرَ ياليلَ واسمعى

« ليـلى »

تحدّثْ فـلا واللهِ لم أُضمِرِ السُّخرا

« بشر »

بكّرتُ كدأبي اليومَ أبغي قنيصةً
ومَن يتصيّدْ يحسبِ الغُنمَ والخُسرا
(رأيت غزالا يرتعي وَسْط روضة
فقلت أرى ليلى تراءتْ لناظُرها) (١)

« هند — مشيرة الى ليلى »

وأيَّ الليالي بشرُ آنست ؟ هـذه

« بشر »

إذا شئتِ — أو هاتيكِ — أو حُرّةً أخرى.
فقلتُ له ياظبيُ لا تخشَ حادثا
(فانك لي جارٌ ولا ترهب الدهرا)
(فما راعني الا وذئبٌ قـد انتحى
فأعلق في أحشائه النابَ والظُفرا)
(ففوّقتُ سهمي في كَتومٍ غمستُها
فخالط سهمي مهجةَ الذئبِ والنحرا)

« ليلى ضاحكة »

أخي بشرُ لا شُلّتْ يمينُك من يدٍ
ولا فَضَّ فاكَ الصبحُ والليلُ ما كرّا

(١) الأبيات التي بين الأقواس من شعر المجنون

سمعنا بإقدام اللصوص وفتكهم
فلم نر أدهى منك فتكا ولا أجرا !
ووالله لم تغضب لظبى ولم تثب
بذئب ولم تُعمِل خيالا ولا فكرا
أخذتَ فلم تترك لقيسٍ بضاعةً
سرقتَ لعمرى الظبيَ والذئبَ والشعرا !

« ضحك من الجميع »

حديثُ الظبيِ والذئبِ وقيسٍ لستُ أنساه
زيادٌ عنه نبّأنى ولا ينبيك إلّاه
رأى قيسٌ على رابيـة ظبيا فناداه
فألقى الظبيُ أذنيهِ ومسّ الأرضَ قرناه

« ثم تقول فى لوعة وصوت مخفوض وكأنما تحدث نفسها »

بروحىَ قيسُ! هل راحت ظباء القاع تهواه ؟
وهل يَرثى له الريمُ ولا أرثى لبلواه ؟

« تسترسل فى حديثها الأول : »

على فيه من العُشْبِ بقايا صبغت فاه
رأى فى جيده قيسٌ وفى عينيه ليلاه
فبينا هو فى الشوقِ وفى نشوة ذكراه
حبا الذئبُ من الوادى الى الظبى فأرداه

تغدى بحشا الظبى غـــداة ماتهنّاه
رماه قيس فى المقتل بالسهم فأصماه

« بشر : مندفعا بحماسة ! »

أجل ياليلَ ! ما قلتِ سوى شىء شهدناه
وإن لم تذكرى القبرَ ولا كيف خططناه
حفرنا القبرَ للظبىِ وقمنا فدفناه
وصلّينا على الميْتِ وبالدمع سقيناه
فقولوا ولتقل ليلى معى يرحمُهُ الله !

« أصوات : بين الضحك والسخرية »

أجل بشرُ !

أجل بشرُ !

أجل يرحمـــه الله !

« ابن ذريح »

بشرُ كنى هزلا وتخليطا كفى ويابنةَ العم مضى الليلُ سُدى
أرسلنى قيسُ فلو أخبرتنى متى متى بأمر قيسٍ يُعتنى ؟
بتنا نخافُ أن يجِلَّ خطبُهُ وتبلغَ البلوى بقيسٍ المدى
وقيسُ ياليلى وإن لم تجهلى زينُ الشباب وابنُ سيد الحمى
لم ندرِ فى حيِّك أو فى حيِّهِ فتى حكاه نسبا ولا غنى
ولا جمالا ، وهنا (ياليلَ) ما ترينَ أنتِ لا الذى نحن نرى

« بشر ـ ساخرا »

بخٍ بخٍ ! إبنُ ذريح خاطبْ

« ابن ذريح »

أسكت فلست للمروءات أخا !

« ليلى ـ غاضبة »

فيم هذا الكلامُ يا بنَ ذريحٍ ؟

« ابن ذريح »

إتقى اللهَ واقصدِى فى التجنى

« ليلى »

ما تجنّيت

« ابن ذريح »

بل ظلمت ، دعينى أُحسن الذّودَ عن صديقى وخِدنى

« ليلى »

أنا أَوْلى به وأحنى عليـه لو يُداوَى برحمتى والتحنّى
يعلمُ الله وحـده ما لقيس من هوًى فى جوانحى مستكِنّ
إننى فى الهوى وقيسا سـواء دَنَفٍ قيس من الصبابة دَنْفى
أنا بين اثنتين كلتاهما النا ر فلا تَلْحَنى ولكن اعذرنى
بين حرصى على قَداسة عرضى واحتفاظى بمن أُحبُّ وضنى
صنتُ منذ الحداثة الحبَّ جَهدى وهو مستهترُ الهوى لم يصنّى

قد تغنى بليلة الغيـل ، ماذا كان بالغيل بين قيس و بيني ؟
كل ما بيننا سـلامٌ وردٌّ بين عين من الرفاق وأُذن
وتبسّمتُ فى الطريق إليه ومضى شأنه وسرتُ لشأنى

« تهيب بالسامرين وقد بلغ بها الغضب أقصاه »

أَوْغل الليلُ فلنقمْ

« ابن ذريح ــ متوسلا »

بل رويدا واسمعى (ليلَ)

« ليـلى »

خلِّ عنّيَ دعنى !

« تدخل خباءها بينما ينفض السامرون فلا يتثاقل منهم فى القيام »
« الا منازل ــ الهرج والأسف يسودان الجميع »

« بشر »

انفضَّ سامرُ ليـــلى وكان حَفْـــلا كريما

« سـعد »

قـــد فَضّه ابنُ ذريح ففض عِقـــدا نظيما
أثار ليـــلى فهاجت كما تنفّر رِيمـــا
ترى أتُبغِضُ قيسا

« ابن ذريح »

لا تقلبـــوا الحبَّ بغضا
ليـــلى العشيةَ غضبى ويُصبح الصبحُ ترضى

« سـعد »

أنعم (مُنَــازِ) مساء

« منـازل »

نعمت سعــدُ مسـاء

« هنـد »

بشرُ مُسّيتَ بخـيرِ

« بشر »

أنعمى هنــدُ مساء

« هنـد »

نحن يحوينــا طريقٌ فامض بلّغنى الخِبــاء

« سـعد ـ ضاحكا »

احذرى يا هنـد منـه !

« هنـد »

أنا لا أخشى اعتداء

قد عرفتم وعرفنــا كيف يصطاد الظباء !

« تسمع ضحكاتهم من أقصى الطريق بينما يظهر »

« قيس وزياد من جانب المسرح الآخر »

« قيس »

سجا الليل حتى هاج لى الشعرَ والهوى

ومَا البيدُ الا الليلُ والشعرُ والحبُّ

ملأْتُ سماء البيد عشقاً وأرضَها
وحُمِّلْتُ وحدى ذلك العشقَ يارَبُّ
أَلَمَّ على أبيات ليلى بِيَ الهوى
وما غيرَ أشواقى دليلٌ ولا ركبُ
وباتت خيامى خطوة من خيامها
فلم يَشفنى منها جوار ولا قرب
إذا طاف قلبى حولها جُنَّ شوقُه
كذلك يُطفِى الغُلَّةَ المنهلُ العذب
يحن إذا شطَّت ويصبو إذا دنت
فياويح قلبى كم يحن وكم يصبو
وأرسلنى أهلى وقالوا امض فالتمس
لنا قبسا من أهل ليلى وما شبُّوا
عفا الله عن ليلى لقد نوّتْ بالذى
تحمّلَ من ليلى ومن نارها القلب

« منازل — وقد سمع همهمة الصوت ورأى شبحيهما فى الظلام »

أرى شبحا مقبلا فى الظلام وأسمع همهمة فى الدجى
هو ابن الملوّح دلَّ الهزالُ عليه ونمّ اضطراب الخطا
عدوّى المبين وما بيننا ولا بين صاغيتَيْنا(١) جفا
روى شعرَه البدو والحاضرون وشعريَ ليس له من روى

(١) صاغية الرجل قومه

وهـــام بليـلى وهامت به لقد كنت أولى بهذا الهوى
تشرّد مستعظَمـــا فى البلاد وجُنّ فـا ازداد الا نُهى
وإنى لأبديـه اليـه الوداد وأخفى له فى الضلوع القلى
وأحسُدُه حسدا ما علمت أقيسُ الشقىُّ به أم أنا

« يتقدم منهما خطوات »

من الراكبُ الليلَ ؟ قيسٌ أخى ؟

« قيس »

منـــازل ؟ ما أعجبَ الملتقى !

« منازل »

أقيساً أرى فى ظلال البيوت ؟ وعهـدى بقيس حليفَ الفلا

« قيس »

منازل ، من أين ؟

« منــازل »

من عندِها من السمر الممتع المشتَهى

« قيس : حنقا »

أمن عنـد ليـلى تجرُّ الذيول حديث لَعمرُ أبى مفـترى

« منــازل »

بل الصدقُ ماقلتُ يابن الملوّح

« قيس »

إخسأ متى قلت صـدقا متى ؟

وما كنت تصنع ؟

« منازل ساخرا »

ما يصنعون لموت لعمرىَ فيمن لها
وسامر ليلى كثير الزِّحام فلست تعدُّ شباب الحمى
وليلى تُفيضُ على من تشاء رضاها وتحرمهُ من تشا

« زياد مغضبا »

منازل، قيسُ، سبيلكَ قيس ! وكِلْ لىَ تأديبَ هذا الفتى

« منازل ــ وقد أخذ بتلابيبه »

تؤدبُني زيادُ وأنت ظل لمجنون وراوية لهاذى
وتزعمُ أننى نِدٌّ لقيس رضيت من المصائب غيرَ هذى !

« زياد »

من قال ذا ؟ أنت لقيس نِدٌّ لم يبق فيكِ يا حياةُ جِدٌّ
إمض بنا ناحيةً يا وغد !

« يجره الى حيث تسمع أصواتهما من بعيد ثم تختفي »
« فيقبل قيس على خباء ليلى وينادى »

« قيس »

ليلى !

« للهدى : خارجا من الخباء »

من الهاتف الداعى ؟ أقيس أرى ؟ ماذا وقوفُك والفتيان قد ساروا

« قيس : خجلا »

ما كنتُ يا عمٌّ فيهم

« المهدى : دهشا »

أين كنت إذن ؟

« قيس »

فى الدار حتى خلتْ من نارنا الدار

ما كان من حطب جزْلٍ بساحتها أوْدى الرياحُ به والضيفُ والجار

« المهدى ــ مناديا »

ليلى ــ انتظر قيس ــ ليلى

« ليلى ــ من أقصى الخباء »

ما وراء أبى ؟

« المهدى »

هذا ابن عمك مافى بيتهم نار

« تظهر ليلى على باب الخباء »

« ليلى »

قيس ابن عمى عندنا يا مرحبا يا مرحبا

« قيس »

متعتِ ليلى بالحياة وبلّغت الأربا

« ليلى : تنادى جاريتها بينما يختفى أبوها فى الخباء »

عفراء

« عفراء ــ ملبية نداء مولاتها »

مولاتي

« ليلى »

تعـــــالَىْ نقضِ حقا وجبا

خـــذي وعاء واملئيـــــه لابن عمي حطبـــا

« تخرج عفراء وتتبعها ليلى »

« قيس »

بالروح ليلى قضت لي حاجةً عرضت

ما ضرها لو قضت للقلب حاجاتِ

مضت لأبياتها ترتاد لي قبسا

والنار يا رُوحَ قيسٍ ملء أبياتي

كم جئتُ ليلى بأسباب ملفقة

ما كان أكثر أسبابي وعلاتي

« تدخل ليـلى »

« ليلى »

قيس

« قيس »

ليـــــلى بجانبي كلُّ شيء إذن حضرْ

« ليلى »

جمعتنا فأحسنت ساعـــــةٌ تَفْضُلُ العمُرْ

« قيس »

أَتجِدِّين ؟

« ليلى »

ماقــــوا ذى حديدٌ ولا حجر
لك قلبٌ فسله يا قيــس ينبئكَ بالخبر
قدْ تحملتُ فى الهوى فوق ما يحمل البشر

« قيس »

لستُ ليــلاى داريا كيف أشكو وأنفجِر ؟
أشرح الشوقَ كله أم من الشوق أختصِر ؟

« ليلى »

بنِى قيسُ ما الذى لك فى البيد من وطر ؟
لك فيهـا قصائدٌ جاوزَتْها الى الحضر
كلُّ ظبيٍ لقيته صُغت فى جيده الدرر
أتُرى قد سلوْتنا وعشقتَ المهَا الأُخر ؟

« قيس »

غرت ليـلى من المهَا والمهـا منك لم تَغر
حبّب البيدَ أهلهـا بك مصبوغةَ الصُّوَر
لست كالغيـدِ لاولا قمرُ البيـد كالقمر

« ليلى : وقد رأت النار تكاد تصل الى كم قيس »

ويحَ عيـــنىَّ ما أرى قيس !

« قيس »

ليلى

« ليلى : مشفقة »

خذ الحذر !

« قيس : غير آبه الا لما كان فيه من نجوى »

رُبَّ فجـر سـألتُه هل تنفستِ فى السحَر
ورياح حسِبتهُـــــا جـرَّرَت ذيلَك العطِـر
وغـزالٍ جفُـــــونهُ سرقت عينكِ الحوَر

« ليـلى »

إطرح النــــارَ يافتى أنتَ غادٍ على خطـر
لهبُ النـار قيسُ فى كمك الأيمن انتشر

« قيس : مستمراً بعد أن رمى النار من يديه »

وذئابٍ أرقُّ يا ليـــــلُ من أهلِك الغُـــيُر
أنِســـتْ بى ومرّغت فى يدى الناب والظفُر

« ليلى »

ويح قيسٍ تحـرقت راحتاه وما شَـــعرْ

« قيس »

أنت أججتِ فى الحشا لاعجَ الشوقِ فاستعرْ

ثم تخشَيْنَ جمرةً تأكلُ الجلد والشَعَر

« يترنح قيس فى موقفه وتظهر عليه بوادر الاغماء »

« ليلى »

فِدَاكَ أبى قيس ، ماذا دَهاكَ ؟ تكلم ، أبِن قيس ، ماذا تجد

« قيس »

أحسُّ بعينىَّ قد غامتا وساقىَّ لا تحمِلان الجسدْ

« يخر صريعاً الى الأرض فتتلقاه على صدرها صارخة »

« ليلى »

يا لأبى للجارْ قيسٌ صريعُ النارْ مُلقىً بصَحن الدارْ !

« يخرج أبوها من الخباء على صوت استغاثتها »

أبى ها أنت ذا جئت أغِثنا أبتِ أدركْ

لقد حُرِّق بالنارِ فما يصحو إذا حُرِّك

« المهدى »

يرانا الناسُ ياليلى

« ليلى »

أبى انفِ الناسَ من فكرك

هنا لا تقعُ العيْنُ على غيرى ولا غيرك

ولا يَطَّلعُ إنسانٌ على سرى ولا سِرك

ولا أجدر من قيس باشفاقك أو برك

أبى صدرىَ لا يقوى فأسنِدْه الى صدرك

« المهدي — وهو يتلقى عنها جسد قيس ويحاول إنعاشه »

رعاكِ اللهُ ياليـــلى وكافاكِ على صبرِكْ
أخافُ الناسَ في أمري وأخشى القلبَ في أمرِكْ
وكم داريتُ ياليــلى وكم مهّدْتُ من عذرِكْ
ولستُ الوالدَ القاسي ولا الطامعَ في مهرِكْ

« يناجي قيسا في غيبوبته »

أبا المهديّ عوفيتَ ويا بورك في عمـــرِكْ
أراني شعرُكَ الويلَ وما أروي سوى شعرِكْ
كما لذّ على الكرهِ كلامُ الله للمشرِكْ !

« يتحرك قيس ويبدو عليه كأنما يفيق فيناديه »

قيس !

« قيس — يحاول الوقوف فتسنده ليلى »

لبّيك عمّ

« المهدي »

حسْبك فاذهبْ لاتطأ لي بعد العشيّةِ دارا

« ليلى »

أبتِ لا تجُزْ على قيسَ

« المهدي »

لِمْ لا إن قيسا على القرابةِ جارا

« ليلى »

أبتِ ما تراه كالفَنَن الذا وي نُحولا وكالمَغيب اصفرارا ؟

وتأمل رداءه ويديهْ تجدِ النارَ أو ترَ الآثارا

أبتِ دَعْه يسترحْ

« المهدى »

بل دعينا لا تزيدى ياليلَ سُخطى انفجارا

« قيس »

حسبُ يا ليلَ، حسبُ ذلا لعمّى وكفى حِلفةٌ له واعتذارا

عمُّ ماذا جنيت ؟

« ليلى »

ماذا جنى قيس

« المهدى »

نسيتِ الرُّواةَ والأخبارا

« قيس »

إنهم يأفِكون يا عمّ

« المهدى »

والغَيلُ أليلاً غشيتَه أم نهارا ؟

ما الذى كان ليلةَ الغَيْل حتى قلتَ فيها النَّسيبَ والأشعارا ؟

« قيس »

لم تكنْ وحدَها ولا كنتُ وحدى

إنما نحن فِتيةٌ وعذارى

جمعتنا خمائلُ الغيل بالليل كما يجمــعُ الحيَّ السُّمَّـارا
ليسَ غيرَ السلامِ ثم افترقنا ذهبتْ يمنةً وسِرتُ يسارا

« المهدى »

إمض ياقيس إمض لا تكس ليلى كلَّ حينٍ فضيحةً وشنارا
فكأنى بقصة النـار تُروى وكأنى بذلك الشـعر سـارا
وكأنى ارتديتُ فى الحى ذلا وتجللتُ فى القبائل عارا
إمض قيسُ امضِ

« قيس »

عمُّ رفقا بليلى وبقيسٍ ولا تكن جبارا
الحذارَ الحِذارَ من غضب الله ومن سُخطه الحذار الحذارا

« المهـدى »

إمض قيس امض جئت تطلب ناراً
أم ترى جئتَ تُشعلُ البيتَ نارا ؟

« يخرج قيس »

ســـتـــار

الفصل الثانى

« طريق من طرق القوافل بين نجد ويثرب ، على مقربة من حى بني عامر حيث »
« تبدو مضارب هذا الحى على مدى البصر وعلى سفح جبل التوباد — قيس وزياد »
« جلوس الى جذع نخلة ، يستشرفان شبحا يسير نحوهما »

« قيس »

زيادُ ، ما تلك ؟ مَن الجُوَيْرِيَهْ ؟ أتلك (بلهاء) ؟

« زياد »

أجل قيس هيَهْ

« تظهر بلهاء وعلى رأسها قصعة »

« قيس »

بلهاء كيف الحيُّ ؟ كيف أُمَّيَه ؟

« بلهاء — وهى تضع القصعة »

تسأل عنكَ كما سألتَ

« تبدو على قيس كراهة للطعام وعزوف عنه »

« زياد »

بالله قيسُ إلا أكلت

« يشتد ميل قيس عن الطعام »

« بلهاء هامسة لزياد »

زيادُ ما ذاق قيسٌ ولا همّا

« زياد »

طبخُ يدِ الأمِّ يا قيسُ ذُقْ ممّا
الأمُّ يا قيسُ لا تطبُخُ السُّمّا

« يتزع عن القصعة غطاءها »

تعال تأمّلْ قيسُ ، تلك ذبيحةٌ

« قيس »

عسى اليومَ نحرٌ

« زياد »

أين نحنُ من الأَضْحى ؟

« قيس »

أرى صُنعَ أمي يازيادُ ، فَدَيتُها بروحي وإن حمّلتُها الهمَّ والبرْحا
ستخبرنا البلهاء

« زياد »

بلهاء بيِّني ولا تكتمي عنا الحديثَ ولا الشرحا

« بلهاء »

لقد مرّ عرّافُ اليمامةِ بالحمى فما راعنا إلا زيارتُه صُبحا

طوى الحيَّ حتى جاء عن قيس سائلا وأظهرَ ماشاءَ المودّةَ والنُّصحا
ولاحتْ له شاةٌ جَـثومٌ بموضعٍ تخيَّلَها ظلا من الليل أو جُنحا
فقال اذبحوا هاتيك فالخير عندَها فقام اليها يافعٌ يُحسِنُ الذَّبْـحا
فقال انزعوا من جثة الشاةِ قلبَها فلم نألُ قلبَ الشاة نزْعا ولا طرْحا
فلما شويناهـــا رَقى بعزائم عليها وألقى فى جوانبها المِلْحا
وقال اطلبوا قيسًا فهـذا دواؤه كأنى به لمـــا تناولَه صَحَّا

« زياد »

تعلّلْ قيسُ بالشـــاة عساها تذهبُ الحبّا
فما العرّافُ بالمجهو ل لا علمًا ولا طبّـا
ولم تَعلَمْ عليه البيد تدجيـلا ولا كِذْبا
طبيبٌ جرّبَ اليابسَ فى الصحراءِ والرَّطْبا
فذقْ قيس ولا ترْتبْ بمـــا قال وما نبّـا
وتلك الأمُّ ياقيـــس أطِعْهـــا تطِع الربّا

« قيس »

زياد اسمعْ وكن عونى وخلِّ اللومَ والعَـتبا
إذا ما لم يكن بُدٌّ فإنى آكُـلُ القلبا

« زياد »

قيسُ يبغى القلبَ يابلـــهاه أين القلب أينـا ؟

« بلهاء »

هــو عنــدى ويسيرٌ ما اشتهى قيسٌ علينا

هــو فى الشاة

« زياد »

هلمّى أخرجى القلبَ إلينا

« بلهاء »

القلبُ ! أين القلبُ ؟أيـــــن يا ترى وضعْتُه ؟

يا ويحَ لى ! نسيتُ أنى بيـــــدى نزعتُه !

« قيس »

وشاةٍ بلا قلبٍ يداووننى بهـا

وكيف يُداوى القلبَ من لاله قلب !

« تسير بلهاء الى الحى ويظهر صغار من ناحية الحى يلهون فى طائفتين وإذ تقع »
« أبصارهم على قيس وزياد تتغنى كل طائفة بغناء »

« الطائفة الأولى »

قيسُ عُصفورَ البوادى وَهـــــزارَ الرّبَواتْ

طِرتَ من وادٍ لِوادى وغمــرتَ الفــلواتْ

إيهِ يا شاعـرَ نجـدٍ ونجىَّ الظّبَيـــاتْ

أضمــرِ الحبَّ وأبدِ لأعفّ الفتَيــــاتْ

« الطائفة الثانية »

قيسُ كشّفتَ العذارى وانتهكتَ الحــرُماتْ

ودمغْتَ الحىَّ عارا فى السـنينَ الغـابراتْ

قد ذكرتَ الغيْلَ دعوى واصطنعتَ الخلوَاتْ
صَلِيَتْ ليلى ببلوى منك دون الفتَياتْ !

« يلتقط قيس بضع حصوات من الأرض ويهم أن يحصب بها الصغار ثم يتردد »
« فينثر الحصا من يديه ، بينما يظهر من جانب الطريق الآخر ابن عوف وكاتبه نصيب »

« قيس : مناجيا نفسه »

قيسُ لا ! سامحْ صغارا لا يُحسُّون الخطيئه
إنهـم فيما أتـوْه ببَّغـاواتٌ بريئـهْ
لقَّنوهـا كلماتٍ نزهاتٍ أو بذيئـه

« زياد : وهو يصرف الصغار »

إذهبـوا عودوا الى آبائـكم واذكروا قيسا بخير يا خُبُثْ
إذهبوا أوْحُوا الى أترابـكم وليُبلِّغْ حدَثاً منكم حَـدَثْ
سيْطرَ الحبُّ على دنياكمو كلُّ شيء ما خلا الحبَّ عَبَثْ

« يجرى الصغار أمام زياد مضطربين ثم يختفون عن الأنظار ، بينما يستلقى قيس »
« على الأرض فى شبه إغماء »

« ابن عوف : الى صحبه وزياد يطارد الصغار »

انظرْ نُصيْبُ ضجةٌ .وصبيةٌ ورجلٌ يرمى الصغار بالحصا

« نصيب »

أرى أميرى نشَـأً تعـلقوا بابن سبيلٍ مُتعَبٍ واهى القُوى

« ابن عوف »

بل امضِ سَلْ

« نصيب : معترضا زياد »

من الفتى ؟

« زياد : لنفسه وقد رأى ابن عوف »

ماذا أرى ؟ هذا أميرُ الصدَقات ههنا

« ثم يرد على نصيب »

قيسُ إمامُ العاشقين

« ابن عوف »

أيهم فهم كثير ، كل قيس بهوى

« زياد »

أجلْ ولكنّ الذى تُبْصِرهُ أرفعُهم ذكرا وأعلاهم سنى

« ابن عوف »

لعله قيسُ الذى نعرِفُه لقد رَوَيْت شعرَه فيمن رَوى

فأين ظلُّه زياد ؟

« زياد »

أنا ذا أنا الذى يتبعُه حيثُ مشى

« ابن عوف »

أنت الذى تهدى لكلّ قرية مُجاجةَ النحل ونفحةَ الرُّبا

ما بالُه يَطَا الترابَ حافيا ويقطعُ البيدَ مُمَزَّق الرِّدا

خذُ يا نُصَيْبُ بُردتى فغطِّه لا يلحقنَّه من العُرىِ أذى

« زياد »

فقرَ اليه بابن سـيد الحمى إحفظ عليك البُرْدَ يا أميرُ لا
يفنى به العمر وما يُعيِي البلى إن لقيس من ثياب الوشْيِ ما

« ابن عوف : مناجيا نفسه »

ما بالُه رَقَّ لقيسٍ ورثى ياويحَ قلبي ما خلا من قسوةٍ

« يقبل على قيس »

قيسُ بُنَيّ

« زياد »

هـو فى إغماءة من وَجْده وما أظنُّه صحا

« يسمع صوت حاد من ناحية نجد ، ويتعالى الصوت قليلا فقليلا حتى يظهر الحادى »
« ومن ورائه قافلة تسير الى المدينة ثم يذوب الصـوت قليلا قليلا حتى ينقطـع »

« أنشودة الحادى »

يا نجـــدُ خُـذْ بالزمامْ ورحِّـبِ
سرْ فى رِكاب الغمامْ ليـثرب
هـــذا الحُسيْنُ الامامْ ابنُ النبي
النـــورُ فى البيد زادْ حتى غمَرْ
أُخْذُ الحيـا فى الوهـادْ أُخـذُ القمر
أُخْذ جَمـــالَ البـــوادْ زينَ الحضرْ
ابنَ النبي

« ابن عوف »

سمعتمو ؟ يالكِ من رنة حـــادٍ مُطرِبِ

« زياد »

يا ليت شعري ما الركا ... ب مَنْ لواء الموكب

« نصيب »

قد بيَّن الحادي فقل ... أصمٌّ أنت أم غبي ؟
هذا منارُ العرب ... هذا الحسينُ ابنُ النبي
هذا الزكيُّ ابنُ الزكيِّ ... الطيِّبُ ابنُ الطيب
عارَضَنا الحسينُ في ... طريقه ليثرب
هذا سنا جبينه ... مِلْءُ الوهاد والربى
قد جلَّ حاديه جلا ... لَ القارئ المطرِّب

« ابن عوف هامسا الى نصيب »

نصيبُ صه لا تسلكنْ ... بنا مسالكَ التهمْ
ولا تظاهرْ بالهوى ... لوارث البيت العَلَمْ
إحذرْ جواسيسَ ابنِ هندٍ ... وعيونَ ابن الحكَمْ
نحن رجالُ دولةٍ ... قوَّامةٍ على الأمم
ليس بعينها عمًى ... ولا بأُذْنها صَمَمْ
تسمع في ظل القصور ... همسَ رُعيان الغنم

« الى زياد مشيرا الى قيس »

زياد انظرْ فما انفكَّ ... صريعَ الوجد والذكرى
كما مرَّ بنا الركبُ الـ ... ـحسينيُّ به مرَّا

فلم يَشغَلْ له بالا ولم يوقظْ له فكرا

« زياد »

رويدا سيدى مهلا ولا تستغرِبِ الأمرا
لقد سقناه بالأمس لحجِّ الكعبةَ الغرا
فلما لمس الركنَ ومسَّتْ يدُه السّترا
وقلنا الآنَ من ليلى ومن فتنتهـا يبرا
سمِعناه ينادى الله من ساحته الكبرى

« ابن عوف »

وماذا قال ؟

« زياد »

ما تابَ من العِشق ولا استبرا
ولكن قال يارَبُّ ملكتَ الخيرَ والشرا
فهاتِ الضُّرَّ إن كان هوى ليلى هو الضرا
وإن كان هو السحرَ فلا تُبطِلْ لها سحرا
ويارَبِّ هَبِ السلوى لغيرى وهبِ الصبرا
وهبْ لى مَوْتةَ المُضنَى بها لا مِيتةً أُخرى

« يقبل على قيس ويميل عليه بحنان »

جنانيْكَ قيسُ إلامَ الذهول ؟ أفِقْ ساعةً من غواشى الخَبَلْ
صليلُ البِغال ورَجْعُ الحُداءِ وضجَّةُ رَكْبٍ وراء الجبَلْ
وحادٍ يسوق رِكابَ الحسَيْنِ يهزُّ الجبالَ إذاما ارتجلْ

فلم يبقَ ماشٍ ولا راكبٌ على نجدَ الا دعا وابتهلْ
فقمْ قيسُ واضرعْ مع الضارعين وأنزلْ بجَدّ الحسين الأملْ

« يسمع صوت حاد آخر قادما الى نجد من ناحية يثرب ، على رأس قافلة أخرى »
« وتمر هذه القافلة كما مرت الأولى »

« أنشودة الحادى »

هــلا هلا هيَّا * إطوى الفلا طيَّا * وقرِّبى الحيّا * للنازح الصَّبِّ
جلاجلٌ فى البيدْ * شجيَّةُ الترديدْ * كرنَّةِ الغرِّيدْ * فى الفنَنِ الرَّطْبِ
أناح أم غنَّى * أم للحمى حنّا * جُلَيْجِلٌ رنَّا * فى شُعَبِ القلبِ
هلا هلا سيرى * وامضى بتيسير * طيرى بنا طيرى * للماء والعُشْبِ
طيرى اسبقى الليلا * وأدركى الغَيْلا * العهدَ من ليلى * ومنزلَ الحبِّ
بالله يا حادى * فتِّشْ بتوْبادِ * فالقلبُ فى الوادى * والعقلُ فى الشِّعبِ
يا قمرا يبدو * مطلعهُ نجدُ * قد صنع الوجدُ * ما شاء بالركب

« يفيق قيس ثم يتلفت مصغيا الى الحداء »

« قيس »

ليلى ! مناد دعا ليلى فخفَّ له نَشْوانُ فى جنبات الصدر عربيدُ
ليلى ! انظروا البيدَ هل مادت بأهلها
وهــل ترنَّمَ فى المزمار داودُ
ليلى ! نداءٌ بليلى رنَّ فى أذنى سحرٌ لعمرى له فى السمع ترديدُ
ليلى تَردَّدُ فى سمعى وفى خلدى كما تَردَّدُ فى الأيك الأغاريدُ
هل المنادون أهلوها وإخوتُها أم المنادون عشاقٌ معاميدُ

إن يَشرَكونىَ فى ليلى فلا رجَعَتْ — جبالُ نجدٍ لهم صوتا ولا البيدُ
أغيرَ ليلاى نادوْا أم بها هتفوا — فداء ليلى الليالى الخُرَّدُ الغيدُ
إذا سمعت اسمَ ليلى ثُبتُ من خَبَلي — وثابَ ما صَرَعتْ منى العناقيدُ
كسا النداء اسمُها حسنا وحبَّبَه — حتى كأنَّ اسمَها البشرى أو العيد
ليلى ! لعلىَّ مجنونٌ يُخيَّلُ لى ؟ — لا الحىُّ نادوْا على ليلى ولا نُودوا

« ابن عوف »

لا تكتئبْ وتعالَ يا قيسُ استرحْ
مما تكابد في الهوى وتلاقى

« قيس »

هل أنت آسٍ يا أميرُ جراحتى
أم أنت من سحر الصبابة راقِ؟

« ابن عوف »

بل من رُواتكَ قيسُ من زمنٍ مضى
لم أخلُ قيسُ عليك من إشفاق

« قيس »

قل للخليفة يابنَ عوفٍ فى غدٍ — منذا أباح له دمَ العشاق ؟
هدَرتْ حكومتُه دمى فتحرّشتْ — بدمٍ على سيف الجفُون مُراق

« ابن عوف »

أرَضيتنى عند الخليفةِ شافعا ؟ يا قيس

« قيس : فى أنفة »

لا والواحدِ الخلاق

بل عند ليلى فامض فاشفعْ لى لدى
ليـــلى وناشِدْ قلبَها أشواقى
جِئْها فذكِّرْها العهودَ وحِفظَها
واذكرْ لها عهدى وصِفْ ميثاقى
لَيلى إذا هى أقبلتْ حَقَنتْ دمى
كرما وفكَّتْ يا أميرُ وَثاقى

« ابن عوف »

الآنَ قيسُ اذهبْ فبدِّلْ حلّةً
وتَرَدَّ غيرَ ثيابِكَ الأخــــلاق
فالصبحَ تدخلُ حيَّ ليلى قيسُ فى
ركـــبى وبين بطـانَتى ورفاقى

« قيس : الى زياد »

أسمعتَ ما قال الأميرُ ؟ زيادُ ، طِرْ
نحو الحمى بجَـنَاحى المشتـــاق
إذهبْ وسلْ أمى أعزَّ ملابسى
من كل شــامىٍّ وكلِّ عراق
واذكرْ لها فضلَ الأمير ، ولم تزَلْ
نِعَمُ الأمــير قلائدَ الأعنـــاق

« يسير زياد نحو الحي بينما يتمسح قيس بابن عوف كالطفل »

شكرا لصُنعِكَ ياأميرُ ودُمتَ مَقصودَ الرحابْ

عجّلْ أمير

« ابن عوف ضاحكا »

بل انتظرْ أنسيتَ ياقيسُ الثيابْ ؟

« قيس »

مَنْ مُبلغٌ أمي الحزينةَ أن عقلي اليومَ ثابْ ؟

ومَن البشيرُ اليكِ ياليلى بقيسٍ في الركابْ ؟

اليومَ أهلا بالحياة ومرحباً بكَ ياشبابْ !

ستار

الفصل الثالث

« قطعة من الصحراء تبدو فى يسارها طائفة من مضارب بنى عامر ممتدة الى ماوراء »
« اليسار على سفح جبل التوباد – خباء مضروب الى يمين هذه الطائفة من المضارب »
« كأنه نهاية خيام الحى – على اليمين أشجار بان يقف فى ظلها ابن عوف »
« وحاشيته وقيس وزياد »

« ابن عوف »

تراءى الحىُّ للركْبِ وأشرَفنا على الشِّعبِ
أفِقْ قيسُ أما فى روْ ية الخيْمات ما يُصبى ؟
ألا تهتفُ بالشكوى الى ليـــــلى و بالعتْب

« قيس »

ديارَ الحى من ليلى ســلامٌ من شَجٍ صَبٍّ
على الحى على الدار على ليلى على الحب
غدا الركبُ على طيبٍ كريح المندَل الرَّطب
فيا ليــــلى عسى اليوم أ بلُّ الشوقَ بالقرب
عسى الخطْبةُ لا تنزلُ فى ناديكِ كالخطب

عسـاهم لا يقولون فتى مشتركُ اللب
ولا يذهبُ إحسانى ولا يبقى سوى ذنبى
يقولون بها غنّي لقد غنّيتُ من كربى
سلى تُربك كم مرّغت خـدّىّ على التُّرب
وكم جُـدتُ على الرمل ولم أبخَلْ على العشب
بدمعٍ مثل دمعِ الثُّـكلِ مغروفٍ من القلب

« يتطلع ابن عوف الى ناحية الحى »

« ابن عوف »

قيسُ انتبهْ قيس

« قيس »

مَن المنادى ؟

« ابن عوف »

الحىُّ فى السلاح سدَّ الوادى
وأنت قيسُ بعد حينٍ غاد على خصوم لُـدُدٍ شِـداد
فالقَ الرجالَ صاحىَ الفؤاد لا تَلْقَهم مُضيِّعَ الرشاد

« قيس : متطلعا كذلك »

أتُبصِرُ يابنَ عوفٍ حىَّ ليلى تَدجّج فى السلاح ولا تراها ؟
فما لى لا أُحقّقُ غيرَ ليـلى و إن كثُر السوادُ لدى حماها
لقد أُلقِىَ هوى ليـلى حجابا على عينى فلستُ أرى سواها
و بغّضتِ النصيحَ إلىَّ ليلى وسـدّ مسامعى عنه هواها

« يسمع من بعيد ومن ناحية الحي لجب وقعقعة »
« سلاح ويقترب الصوت ويتعالى شيئاً فشيئاً »

أرى حيّ ليلى في السلاح ولا أرى ... سلاحاً كهجر العامريّة ماضيا
دمي اليومَ مهدورٌ لليلى وأهلها ... فِداءِ لليلى مُهْدَراتٌ دمائيا
لي اللهُ! ماذا منك يا ليل طَافَ بي ... وما ذلك الساقي وما ذا سقانيا ؟
دعوني وما عِندي لليلى أقولُه ... لليلى وأستنشي الذي عندها ليا
أهيمُ فأستعدي نهاري على الجوى ... وأقبعُ ليلى أستجيرُ القوافيا
(فما أُشرِفُ الأيفاعَ الاصبابةً ... ولا أُنشدُ الأشعارَ الا تداويا)
إذا الناسُ شَطرَ البيت ولّوْا وجوهَهم تلمستُ رُكنَيْ بيتها في صلاتيا
(أُصلّي فما أدري إذا ما ذكرتُها ... أثِنْتَيْن صلّيتُ الضُحى أم ثمانيا)
توارتْ وراء الجَمْع ليلى فخانها ... فمٌ كابتسام الصبح يأبى التواريا
وطيبٌ به خُصّتْ حوى الطيبَ كلَّه ... فـمِنْه الأقاحي أو فمِنْه الفواغيا
فأحسستُ من فرْعي لساقيّ هزّةً ... كأنّ عياناً منكِ لاقى عيانيا
دعونا وما يبقى إذا ما فنيتُمو ... فوالله ما شيء خلا الحبَّ باقيا
مشى الحبُّ في ليلى وفيّ من الصِّبا ... ودبّ الهوى في شاء ليلى وشائيا
وإني وليلى للأواخر في غدٍ ... لشُغْلٌ كما كنا شغلنا الأواليا

« يبدو على وجهه الاصفرار والجهد ثم يترنح فيتلقاه »
« زياد ــ تسمع أصوات الحي من قريب »

« ابن عوف »

زيادُ أدركْه أدرِكْ ... إني أرى الداء عادَهْ
لقد تضاءل قيسٌ ... واصفرّ مثلَ الجراده !

وليس قيسٌ بِعِلْقٍ إلا إليــــك قِياده
الآن أسعى لقيسٍ سـعيا أخافُ فسادَه
فمِلْ بنـا وبقيسٍ حـــتى يُصيبَ رشادَه

« يحملون قيسا ويختفون به وراء شجر »
« الباز ، وتظهر طلائع الحى من اليسار وعلى »
« رأسها المهدى ومنازل ، وكلهم شاكى السلاح »

« المهدى »

يا قومُ إن البغىَ شرٌّ مركَبُهْ والخيرُ فى جانب من يُجَنِّبُهْ
هذا ابنُ عوفٍ قد أطلَّ موكبُهْ وإن قيساً فى الرَّكاب يصحَبُهْ
جاء يرومُ صِهرَكم ويَخْطُبُهْ وقد علِمتمْ كيف ساء مذهبُـه
وكيف طال بابنتى تشبُّبُهْ

« صـوت »

كِله الى سـيوفنا تؤدِّبُهْ لقـد وجـدناه وكنا نَرقُبُهْ

« المهدى »

لا ، دمُ قيسٍ دمُنا لا نقرَبُهْ يكفيه منا أننـا نُخَيِّبُهْ
ونَصرِفُ الأميرَ عما يطلبُهُ

« صوت آخر »

شيخَ الحـــى لاتضعُفِ ولا تردَّدْ وقِـــف
ذُدْ عن عقيـلة الحـى وامنعْ حيـاضَ الشرَفِ
لاتُصـــغِ للشـافع فى قيـــس ولا المستعطِفِ
ليس ابنُ عوفٍ فى الذى سعى له بالمنصِـــف

أبا لأمــــير بعد ما أجار قيسا تحتفى؟
لا تخشَ بأسَـــه ومن رجـــاله لا تخف
نحن كعثمانَ وليـــلى بيننا كالمُصحَف

« يظهر ابن عوف وحاشيته من »
« وراء الشجر ومعهم زياد »

« ابن عوف »

عِمْ أبا ليـــلى صباحاً

« المهدى »

عِمْ صباحاً يابنَ عوْف

« ابن عوف »

قل لهم يُلقُوا السلاحا ليس ذا مَوْطِنَ خوف

« صوت من الحى »

يابنَ عوفٍ ياأمـيرْ ليس ذا شأنَ الوُلاةِ
كيف تَحمى وتُجيرْ مُستبيحَ الحُرُماتِ؟

« ابن عوف »

عامِرُ يا أجاوِدَ البِطـــاحِ وأسمَـحَ الناس بُطونَ راحِ
مـــالى وللسيوف والرماحِ؟ ضيفٌ أنا وما من السَّماحِ
رَدك وجهَ الضيف بالسلاحِ ماجئتُكم ياقومُ للكفاحِ
بل جئتُ للتوفيق والإصلاحِ

« تحدث ضجة فى جانب الحى وتصايح وتهامس »
« ثم يلقى كثير منهم السلاح ويغمد السيوف »

« صوت من الحى »

يا أبا ليلى بليلى جُدْ لقيسٍ بالحياةِ
إنه شاعرُ نجدٍ ونَجِىُّ الظَّبَياتِ

« صوت آخر »

قيسٌ أخٌ وابنُ عمٍّ وليس أهلا لذَمٍّ
نجمٌ أضاء بنجد سما على كل نجم
هبوه جُنَّ بليلى ليس الغرامُ بجُرم

«منازل : حيث يستقبل الجمين خطيبا»

إن قيساً معشرَ الحى أخٌ وابنُ عمٍ أفمنه تبرأونْ ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً شاعرُ البيد الذى لا يُجارَى أفأنتم منُكِرونْ ؟

« أصوات »

لا وربِ البيت

« منازل »

أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنون
إن قيساً سيدٌ من عامرٍ وابنُ سادات ، أفيه تمترون ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ

إن قيساً قد بنى المجدَ لكم ولمجدٍ أبقيسٍ تكفرون ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغُوا لى إذن ثم ظنوا كيف شئتم بىالظنونْ

إن قيسا كاملٌ فى عقله أو آنستم على قيسَ الجنون ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغُوا لى إذن ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنون

أنا لم أعدِلْ بقيس شاعرا لا ولا أنتم بقيس تعدِلون

« أصوات »

لاوربِّ البيت

« منازل »

أصغُوا لى إذن ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنون

أنا فى وُدى وإعجابى به لايدانينى الرواةُ المعجبون

شعرُه يبقى ويفنى غيرُه ليس كلُّ الشعر ترويه القرون

شعرُ قيس عبقرىٌّ خالدٌ ليته لم يتخللّه المجُون

ولو ان المتجـــــني شاعرٌ غيرُ قيسٍ أوشك الخطب يهون
رُبَّ شعرٍ قال فى ليلى ، به هتف البدْوُ وضجَّ الحاضرون
إننى أخشى عليكم عارَه رُبَّ عارٍ ليس تمحوه السّنونْ
ضجرتْ ليلى وضجّت أمُّهـا وأبوهـا وتأذّى الأقربون
وغَدا كلُّ فتى من عامـرٍ حين يلقى النّاس ، مَحنِىَّ الجبين

« أصوات كثيرة »

هو ماقلت

« منازل »

إذن ما بالُـكم لم تثوروا ، مالـكم لا تغضبون ؟
هو ذا قيسٌ مع الوالى آتى يطـأُ الحىَّ وأنتم تنظرون
وأبو ليـلى امرُؤٌ أدرِى له رِقَّـةَ القلب وأخْشى أن يلين
بعدَ حينٍ يعبَثُ القومُ بـكم ومن الحىِّ بليلى يخرجون
آن يا قومُ لـكم أن تعلموا أن قيساً هتك الخدرَ المصون
قيسُ لم يترك لليلى حُرمـةً ما الذى أنتم بقيسٍ فاعلون ؟

« صوت »

ما جنٌ لابدّ من تأديبه

« صوت آخر »

إن بالسَّوْط يُرَبىَّ الماجنون

« صوت »

نأخـــذُ الحيَّ عليه

« آخر »

ولنقفْ دون ليـلى وحماها كالحصون

« منازل »

حلّ السلطان بالأمس لـكم دمَ قيسٍ ما الذى تنتظرون ؟

« صوت »

حلّل السلطان بالأمس لنا دمَه

« أصوات أخرى »

إنا بقيسٍ فاتكون

« ضجيج واندفاع »

« صوت »

مُنازِ يابنَ العم ما هذا الخبرْ ؟ رفعتَ قيساً فجعلتَه القمرْ
والآن أغريتَ بقتله الزُّمَرْ كفعل جزار اليهود بالبقر
برّأها من العيوب وعقَرْ !

« يصعد بشر منبرا للخطابة فيجتمع حوله جماعة من الناس »

« قائل »

إرجعوا يا قومُ هذا منبرٌ
وخطيب

« يسأل أحدهم »

ليت شعرى من يكونْ ؟

« آخر »

أو أعمى أنت هذا بشرُ

« آخر »

هل يحسن الخُطبة بشرٌ ويُبين

« يحاول منازل أن ينسل من الجماهير »

« بشر »

قف منازِ اسمعْ سمعتَ الرعدمن جانبيْ صاعقةٍ فيها المَنون
وسمعتَ الذئبَ فى جوْز الفَلا وسمعتَ الليثَ فى جوف العرين
أخطيبٌ أنت أم خطبٌ وإن لم تَهُن والخطبُ أحيانا يَهُون

« منازل صائحا »

بشر . . .

« بشر »

قف !

« منازل »

مالك يا بشرُ ولى ؟
إن حربَ الأهل والصحب جُنون

« بشر »

لِمْ إذن حاربتَ قيساً لم تصن
حرمةَ ابن العم أو حقَّ العَدين؟

« منازل »

قلتُ بشرُ الحق

« بشر »

خلِّ الحق ما

أنت والله على الحق أمين

إنما أنت لقيسٍ حاسدٌ منطوى الصدر على الحقد المَهين

كلما حدّثتَ عنه عامراً قرأتُ في وجهك الداء الدفين

ترسلُ الزفرةَ تتلو أختَها وتَنَفُّسُ الصدرَ من حين لحين

يا منازِ يا بن عمّي أصغ لي أنت دونٌ أنت دون أنت دون !

« منازل »

دعوني

« بشر من المنبر »

دعوني فلا بدَّ لي

« رجل »

أناتَك

« بشر »

لا بد أن أقتلَهْ

« منازل »

دعونى

« بهمر »

دعونى

« رجل »

دعوه اتركوه

« آخر »

ومن كتَّفَ النذلَ أو كبّله :

« منازل »

دعونى

« رجل »

دعوه

« آخر »

كلا البطلين

يقولُ الوعيدَ ولن يفعله

« بهمر »

دعونى

« رجل »

تقدّمْ

« منازل »

دعونى

« رجل »

انطلق

« بشر »

دعونىَ

« رجل »

جئه

« منازل »

دعونى

« رجل »

امش لهْ

« آخر »

تنحّوْا وخلّوا سبيليْهما ولا تخشوْا الوقعة المقبلهْ

« بشر »

منازلُ فى عقـــله كاملٌ

« منازل »

وعقلك يا بشرُ ما أ كمـلهْ

بشر

أنزو على الحىّ نزْوَ الديوكِ ونقفزُ كالأ كبُش المرسـلهْ
وتَفلَقُ رأسى كرُمانة وأفلقُ رأسـك كالحنظلهْ
فمـا ذا يردُّ عليك العويلُ وما ذا انتفـاعىَ بالولولهْ ؟

« زياد »

منازلُ كنتَ كثيرَ الكلام ووالله ما قلتَ الا الكذبْ

« صوت »

أتزعمُه كاذباً يا زيـــادُ . وقد ذاد عن حُرمات العربْ ؟

« زياد »

رويدَك لا تنخـدِع يا فتى ولا تأخذ الأمرَ دونَ السببْ
فلم يبغِ الا خـداعَ الجمـوع وجلْبَ الظنون وخلْقَ الرِّيبْ
وأثّر فيكم وفى آخرين وأفرغ فيكم سُمُومَ الرُّقُبْ

« صوت »

منازلُ دافعَ عن سُنَّةٍ معُظَّمةٍ من قديم الحِقب

« زياد »

تأمل منازلُ سُخْطَ الجموع وجهلَكَ ماذا عليهم جلَبْ !
أجل قد غضبتَ ولكنما لنفسك ليس لليلى الغضب
تحضُّ على قَتْل قيسَ الرجالَ لتحظى بليلى إذا ماذهب

« أصوات »

يُريدُ ليحظى بليلى ؟

« زياد »

نعم !

« صوت »

تكلمْ

« صوت آخر »

أينْ

« ثالث »

إن هذا عجب !

« زياد »

سلوه ألمْ يكُ يَغشَى النَّدِيَّ ويطلبُ ليلى أشدَّ الطلب ؟

« صوت يخاطب المهدى »

إذن كان يخطبُ ليلى ؟

« المهدى »

نعم !

« صوت »

إذن قد تجنّى

« صوت آخر »

إذن قد كذَب !

« زياد »

منازلُ قل لهمو كم ضرعـــت لليلى وكم أعرضتْ لم تُجِبْ

« صوت »

منــازلُ اخدعْ وغُشَّ غيرى

« آخر »

قد جازَ الا علىَّ كِذْبُكْ !

« ثالث »

ما أنتَ إلا جـوٍ شـقىٌّ تحبُّ ليـلى ولا تُحبُّكْ !

« تحدث ضجة حول منازل ويقف ثلاثة رجال »
«فى ركن قصى من أركان المسرح يتحدثون »

« الأول »

قــد اختلف الحيُّ في أمر قيــس
وليــلى فكلٌّ له مــذهبُ
وأنت الى أيّ رأيـــك تميــلُ
وأىّ الفريقـــين تستصْوِبُ

« الثانى »

إذا صدقت نظرتى فى الأمور ولى نظرةٌ قلما تكــذِبُ
منـــازلُ غادٍ على خيبةٍ وقيسٌ على فضله أخْيب
وقد يُخفقان ويلقى النجاحَ غريبٌ له فيكمو مأرب

« الأول »

غريب ؟

« الثانى »

أجل من نواحى ثقيف

« الأول »

ومن ذاك ؟

« الثانى »

وردُ

« الأول »

وما يطلب ؟

« الثالث »

رأيناه فى الحى يمشى الحياء وقيـــل أتى عامرا يخطُب

« الأول »

وليلى ابنةُ الشيخ مارأيُها أما من حسابٍ لها يُحسب ؟

« الثانى »

أراها وإن لم تَخطّ الشبابَ عجوزاً على الرأى لا تُغلَب
تصونُ القديمَ وترعى الرميمَ وتُعطى التقاليدَ ماتوجب
وبالجاهلية إعجابُها إذا قل بالسلف المعجَبُ
ومن سُنّة البيد نفضُ الأكفّ من العاشقين اذا شبّبوا
فلا تعجبوا إن جرى حادثٌ يُحدث عنه ويُستغرب
وإن رضِيَتْ وردَ بعلا لها وقيسُ الأحبُّ لها الأقرب
فينا طالما التمست مهربا وأرضُ ثقيفٍ هى المهرب

« منازل »

بنى عامرٍ لا تُضيعوا الحُلومَ فإن الأناة بكم أجملُ
هبوا لىَ آذانكم إننى أجدُّ وصاحبُكم يَهزِلُ
خطبتُ وأخطبُ ليلى غدا وما لىَ يا قومُ لا أفعلُ
وقد تُعرِضُ اليومَ ليلى فلا أضيقُ ، عسى فى غدٍ تُقبِلُ
فما قيسُ أجدرُ منى بها ولا هو خيرٌ ولا أفضل

« زياد »

إليك منازلُ ! لا تَتّزِنْ بقيسٍ قد اختلف المنزلُ !
ولا يستوى الشاعرُ العبقرىُّ ومن هو من باقلٍ أبقل

« منازل »

وما أنت ؟ بيِّنْ لنا يازياد

« زياد — ممسكا بذراع منازل »

ستعلم مني ما تجهل

هلُمَّ مُنازِ ، هلمَّ الصراعْ ! وودِّعْ ضلوعَك وانْعَ الذراعْ

« منازل »

خلِّ زيادُ خلِّ عن ذراعى

« زياد »

سألتَ ما أنت ؟ فأصغِ ، راعِ

إنى أنا ممزِّقُ الأضلاع !

« ثم يجره من ذراعه ويمضى به الى خارج المسرح »

« صوت »

ما ذا يكون يا ترى ؟

« آخر »

هيّوا نرى هيوا نرى

« آخر وهم يتدافعون »

زيادُ غـــيرُ هازلِ

« آخر »

نوحوا على منازلِ

« آخر »

حمـــامةٌ وبازى !

« آخر »

هلـكتَ يامناز !

« آخر من بعيد »

إهرب من البرازِ

« يخلو المسرح الآن إلا من المهدى وابن عوف »
« ولصيب ثم تسمع صرخة من وراء الشجر »

« مهدى »

ما بقيسٍ يابنَ عوف؟

« ابن عوف »

إنه مغمّى عليـــــه

« مهدى »

قيسُ لا بأسَ عليك كبِّروا فى أُذْنيه

« صوت من وراء الشجر »

الله أكبر الله أكبر

« ابن عوف لنفسه »

سُدًى كبّروا ما أُذْنُ قيسٍ مفيقةٌ وإن سكبوا فيها أذانَ بلالِ
ولـكن على ليلى يُفيقُ وشبهها إذا ما بدتْ ليلى بشكلِ غزالِ
ويصحو على ليلى إذا رددَّ اسمُها وراء بُيوتٍ أو وراء رِحالِ

« المهدى »

دَمُ الوُدِّ والقُربَى وإن كان ظالمًا عزيزٌ علينا أن نراه يسيل

وإنى لإنسانٌ وإنى لوالدٌ ولى مذهبٌ فى الوالدين جميل
فرفقا بقيس يا أميرُ ونحّه بعيدا لعل الشرَّ عنه يزولُ

« ابن عوف »

أناةً أبا ليلى وحِلما ولا يَكن عليك لطغيان الظنون سبيل
رددتم ركابى واتهمتم زيارتى وأجلبَ فتيانٌ وضجّ كهول
تأملْ تجدْ جمعاً مغيظا وكثرةً تصولُ وماتدرى علامَ تصول !
رءوسٌ تنزّى الشرُّ فيها وراءها نفوسُ ذئاب مالهن عقول
تطَلّبُ أن يُلقى اليها بجثةٍ على غير جوع أو يُساقَ قتيل
نواظرُ مايأتى به اليومُ من دمٍ وإن لم يُساورْها صدًى وغليل
نزلتُ فلم أُكرمْ فهل أنت متُبعى وقومُك نارَ الطَّرد حين أميل؟
أبيتم علىّ القولَ قبل استماعه فلم تُنصفوا والمنصفون قليل
فهل لى أبا ليلى بناديكَ وقفةٌ فإن الذى قد جئتُ فيه جليل
وما أنا مَرْءُ السوء أورجُلُ الأذى ولكنْ سفيرٌ خيِّرٌ ورسول
ولم أتخذْ جاهَ الأمور ذريعةً ألا إنما جاهُ الأمور يزول

« المهدى »

بقيتم بخير يا وُلاةَ أميةٍ ولا زال يقوى ركنُكم ويطول

«مشيرا الى باب الخباء»

هنا مجلسٌ نأوى اليه لعلنى أقولُ صوابا أو عساك تقول
وثَمّ ترى ليلى وتسمعُ قولَها وليلى لها رأىٌ يُساقُ جميل

فسلْها عسى أن نهتدى ماجوابُها إباء وردٌّ أو رضى وقبول

« يهم ابن عوف بخلع نعليه »

« المهدى »

أتخلعُ نعليك لا يابنَ عوف نَشَدْتُك بالله لاتفعلِ
أتمشى الى منزلى حافيا فديتك، من أنا؟ ما منزلى؟

« ابن عوف »

خلعتُهما وانتعلْتُ الترابَ الى خَيْمة السيّدِ المفضِلِ

« نصيب : متدخلا »

دعْه يامهدىُّ يفعل إنما يَرمِى لمعنى
كالحسيْنِ بنِ علىٍّ هو بالعشاقِ يُعْنَى
الحسينُ انتعل التربَ الى والد لُبنَى
فرآه حافيا فى ساحة الدار فجُنَّا
قال لا أملك يابنَ المصطفى بنتًا ولا ابنا
أنتَ فى الدار أميرٌ فيما شئتَ فمُرنا

« لنفسه »

يادهر دُرْ بما تشا وياحوادثُ اهزِلى !
ويا وظيفةُ اعزُبى ويا جرايةُ ارحلى
يبغى ابنُ عوفٍ أن يكو نَ كالحسيْنِ بنِ على !

« يدخلان وينادى المهدى : »

هو الضيفُ ياليلَ هاتِ الرُّطبْ وهاتى الشِّواء وهاتى الحَلَبْ

وهاتى من الشهد ما يُشتَهى ومن سَمنَة الحىّ ما يُطَّلَبْ
فما هو ضيفٌ ككلّ الضيوف ولكن أميرٌ كريمُ الحَسبْ

« ليلى من وراء حجاب »

أبى ألفَ لبيّْك !

« ابن عوف »

لا بل قفى فما بى ظَماءٌ ولا بى سغَبْ
وأعلَمُ أن القِرى دِينُكم وأن أباكِ جوادُ العربْ
ولكن طعامىَ

« المهدى »

ماذا ؟ اقتَرِحْ

« ابن عوف »

طعامُ الرسول بلوغُ الأرَبْ

« المهدى »

إذن قفى ليلى اقرُبى

« تظهر ليلى من وراء الستر »

تقدّمى ورحّبى
حلّ ابنُ عوفٍ دارَنا

« ليلى »

أكرمْ به وأحبب !
قد زارنا الغيثُ فأهلاً بالغمام الصَيِّب

« ابن عوف »

أهــلاً بليــلى بالجمــالِ بالحِجــــى بالأدبِ
عشتِ وقيساً فلقــــد نوّهــتما بالعـــــرب

« ليلى ـ بين الخجل والغضب »

أتَقْرِنُ قيساً بنـا يا أميرُ ؟

« ابن عوف »

ولِمْ لا وقد جئتُ من أجْلِهِ
ومَنْ أنا حتى أضُمَّ القلوبَ وأعطفَ شكلاً على شكلِهِ
لقـد جمعَ الحبُّ رُوحيْكما وما زالَ يجمعُ فى حبلِهِ

« ليلى : فى استحياء »

أجلْ يا أميرُ عرفتُ الهوى

« ابن عوف »

فهلاَّ عطَفْتِ على أهـله ؟

« يلتفت الى المهدى »

أبا العامريّـةِ قلبُ الفتـاةِ يقـول وينطِقُ عن نُبْله
فأصـــغِ له وترفّقْ به ولا يَسْعَ ظُـلمُك فى قتــله

« المهدى »

أأظلم ليلى ؟ معاذَ الحنانِ ! متى جـار شيخٌ على طفـله ؟
هو الحُـكْمُ ياليلَ ماتحكمين خُذى فى الخطاب وفى فصله

« ليلى »

أقيساً تريد ؟

« ابن عوف »

نعم

« ليلى »

إنه مُنَى القلب أو مُنْتَهَى شُغْله
ولكن أترضى حجابي يذالُ وتمشى الظنونُ على سِدْله
ويمشي أبي فيَغضُّ الجبينَ وينظرُ فى الأرض من ذلّه
يدارى لأجلي فضولَ الشيوخ ويقتلُني الغمُّ من أجله
يمينا لقيتُ الأمرَّيْنِ من حماقة قيسٍ ومن جهله
فُضحتُ به فى شِعابِ الحجازِ وفى حَزْنِ نجدٍ وفى سهله
فخذ قيسُ ياسيدى فى حماك

« فى حياء وإباء »

وألْقِ الأمانَ على رَحْلِهِ
ولا يَفتكِرْ ساعةً بالزواج ولو كان مَرْوانُ من رُسْلِهِ

« ابن عوف »

إذن لن تقبلى قيساً ولن تَرْضَيْ به بعلا
إذن أخفق مسعاىَ وخاب القصدُ ياليلى

« ليلى »

على أنك مشكورٌ ولا أنسى لك الفضلا

وأوصيكَ بقيسَ الخيرَ لا زلتَ له أهلا
لقد يعوِزُه حامٍ فكنْه أيها المولى

« تلتفت الى أبيها وكأنما تحاول »
« أن تحبس فى عينها دموعا »

أبي كان وردٌ ههنا منذ ساعةٍ ففيم أتى ؟ ما يبتغي ؟

« المهدى »

جاء يخطُبُ

« ابن عوف »

ومن وردُ ياليلى وهل تعرفينه ؟

« ليلى »

فتى من ثقيفٍ خالصُ القلبِ طيِّبُ
أتى خاطباً بعد افتضاحي بغيره وعاري، أهذا يابن عوفٍ مُخيِّبُ ؟
أبي : أين وردُ الآن ؟

« المهدى »

عند قرابةٍ من الحيِّ ضمّوهُ اليهم ورحّبوا
فإن شئتِ أرسلنا اليه

« ليلى »

ابعثْ ادْعُهُ وجئنا بقاضي نجدٍ اليومَ يكتب

« ابن عوف »

تجاوزتِ ليلى غاية السُّخْطِ فاذكرى عواقبَ رأيٍ قد رأيتِ سخيفِ

« ليلى : متهكمة »

أكنتُ ابنَ عوفٍ غيرَ أنثى ضعيفةٍ
تناهتْ لرأى فى الأمور ضعيف

« ابن عوف »

أرى وقفتى يا ليلَ كانت شريفةً ولكنْ جزائى كان غيرَ شريفِ

« ليلى »

أنظّفُ ثوبى يا أميرُ فطالما ظهرتُ به فى الحىِّ غيرَ نظيف

« ابن عوف »

لئن كنتِ يا ليلى بوردٍ قريرةً فإنى على قيسٍ لجِدُّ أسيف

« ثم يخاطب أباها »

ألان يحفظ الله ياسيد الحى
لقد طال لُبثى عندكم ووقوفى

ووُقِّيت يا ليلى

« ليلى »

لقد كنتَ سيدى حليفاً لقيسٍ، هل تكونُ حليفى!

« ابن عوف »

سألتِ مُحالاً إنما جئتُ خاطباً لورد القوافى لا لورد ثَقيف !

« يخرج من باب الخباء ويشيعه »
« المهدى إلى ماوراء شجر البان »

« ليلى »

ربّاهُ ماذا قلتُ ! ماذا كان من شأن الأمير الأرْيَحِىّ وشانى ؟
فى موقفٍ كان ابنُ عوفٍ مُحسناً فيه وكنت قليلةَ الاحسان
فزعمتُ قيساً نالنى بمَساءةٍ ورمى حجابى أو أذال صيانى
والنفسُ تعلَمُ أن قيساً قد بنى مجدى وقيسٌ للمكارم بانٍ
لولا قصائده التى نوّهن بى فى البيد ما علِمَ الزمان مكانى
نجدٌ غداً يُطوَى ويفنَى أهله وقصيد قيسٍ فىّ ليس بفانِ
مالى غضبْتُ فضاع أمرى من يدى والأمرُ يخرجُ من يد الغضبان
قالوا انظرى ماتحكمين فليتنى أبصرتُ رشدى أوملكتُ عنانى
مازلتُ أهذِى بالوساوس ساعةً حتى قتلت اثنين بالهذيان
وكأننى مأمورةٌ وكأنما قد كان شيطانٌ يقودُ لسانى
قدّرتُ أشياءَ وقدّر غيرها حظٌّ يخُطُّ مصايرَ الانسان

ستــــار

الفصل الرابع

المنظر الأول

« حول ديار بنى ثقيف ، فى قرية من قرى الجن ، حيث اجتمعت طائفة منهم »
« للحفاوة بقيس وهو يهيم على وجهه ضالا فى الفلوات ، وبينهم شاب منهم »
« فى شكل إنسى جميل الثياب يتردى الحرير من فرعه إلى قدمه ، وعلى رأسه »
« عقالان من الحرير المحلى بالذهب، هو الأموى شيطان قيس ــ الجميع ينشدون »
« ويرقصون »

« نشيد الجن »

هذا الأصيلُ كالذَّهبْ يسيلُ بالمرأى العجبْ
على الوهادِ والكُثُبْ

الرقصُ يبعثُ الطربْ هلمَّ يا جنَّ العربْ
هلمَّ رقصةَ اللَّهبْ إذا مشىَ على الحطبْ
نحن بنو جهنَّما نغلِى كما تغلى دمَا
نثور فى الأرضِ كما ثارَ أبونا فى السما
نحن بنو الجبارِ العلَمِ المنارِ

إبليسَ بِكرِ النار يا عزَّ من لهُ انتمى
نحن الرُّعــودُ القاصفهْ نحن الرياحُ العــاصِفه
والظلمــــاتُ الزاحِــفَه عرمَرَماً عرمَرَما
لنــا وما لنا صُــوَرْ نرى ونسمَعُ البشر
ولا يَرَوْنَ من حضَرَ منا ومن تــكلما
تقول حينَ نصطدمْ بســــادةٍ أو بِخَدَم
صمم صمم صمم صمم عمىً عمىً عمىً عمى

« هبيد »

فيمَ اجتمعْنا هَهنا ؟ يا عضرَفُوتُ ما الخبر ؟

« عضرفوت »

لا أدرِ ... تلك ضجةٌ حضرتُها فيمن حضَرْ
فسل أخاك عَسَرَا

« هبيد »

ماذا هناك يا عسَرْ ؟

« عسر »

نحن مسوقونَ الى ما ليسَ ندري كالبقرْ

« الأموى »

بني الجنِّ في أرضِكم عابرٌ من الإنسِ يرسُفُ في ضُرِّهِ
فحـلوا بهِ واعلموا أنه فتىً نبَّهَ الشعْرُ من قدرِه

« هيد »

وأينَ تُرَى هــــو ؟

« آخر »

ماذا يكون

« الأموى »

وماذا يهمُّك من أمره

ألم تعلموا أن لى صاحبا من الإنس أحكمُ فى شعرِه

« هيد »

أجل أنت تُوحِى له ما يقولُ وتقذفُ ما شئت فى فـكرِه

« الأموى »

إذن فاعلموا أنه عاشـــق تملأَّت البيدُ من ذكره

« عاصف »

وأعلم أن الهوى واحـــد حوى المستهامين فى أسْره
وأن التى ســـحرت قلبَه مدلّهةُ القلبِ من سحره

« الأموى »

وانى لأكفُلُ ليـــلى له وأصرِفُها عن هـوى غـيرِه
سَهِرْتُ على طُهر ليلى الزمانَ ولم أغمِض العينَ عن طُهرِه
صرَفتُ عن الحب حتى الزواجَ وما قدَّسَ اللهُ من سِره
ولو أنَّ عينى تَشُقُّ القبورَ سهِرْت على الحبِّ فى قبره !

« عضرفوت »

ومن يكون

« الأموى »

قيس

« عضرفوت »

من قيس

« عاصف »

وهـــل يخفَى القمرْ !

الشاعرُ الذى سحر والساحر الذى شَعَـــر

حَنْجَرةٌ لنـــا وترْ منهـــا وللإنس وتر

« هيد »

وما لنـــا يا عضرفوتُ ولِفتيـــانِ البشرْ ؟

وما لقِينـــا منهمو ومن أبيهم غـــيرَ شر ؟

« عضرفوت »

بنى الجنّ اسمعوا أبكم زكامٌ

« جنى »

ولِمْ ؟

« عضرفوت »

نتَنَتْ لعَمركُمو الجواء

« آخر »

وما فى الجو ؟

« عضرفوت »

ريحٌ آدمىٌّ

ففيه نَتانةٌ وله ذَكاء

إذا البشرىُّ مرَّ علىَّ يوماً فقد مرّت علىَّ الخُنْفَساء

« جنى »

أجل بعداوة البَشَرِ ابتُلينا وطال بها التبرّمُ والعَناء
مضى بالكبر إبليسٌ أبونا وكلٌّ تراثِ آدمَ كبرياء
يَعيب رجالُهم فيقال عبنا وتَدْفِنُ عارَها فينا النساء
وان عَجزَ المطبب قال داءٌ من الجنِّىّ ليس له دواء
وان قَفَزَت صغارهمو فزلّت فنا معشرَ الجنِّ البلاء
وخِفنا من أذاهم فاحتجبنا فما عصم الحجاب ولا الخفاء
وكم متعوذٍ بالله منا تعوذ الأرضُ منه والسماء !

« عضرفوت »

وقد نشكو من الناسِ التجنى وننسى ما جناه الأنبياء

« جنى »

أَرُسْلُ الله أيضاً من عِدانا ؟

« عضرفوت »

أجل هم فى عداوتنا سَواء

بنى فخماً سليمانُ وضخماً ولولا الجنُّ ما نهضَ البناء
بنينا تدمرَ الكبرى بأيدٍ فهلْ تدرونَ ما كان الجزاء ؟

« جنى »

وما كان الجزاء ؟

« آخرون »

أينْ !

« عضرفوت »

عذابٌ

وسجن ما لمدّته انقضاء !

فتحتَ الماء

« جنى »

تحتَ الماء ؟

« عضرفوت »

عانٍ

عليه طلاسم وعليه ماء !

وفى جوف القماقم لو علمتم

« آخرون »

وما ذا فى القماقم ؟

« عضرفوت »

أبرياء !

« جنى »

ومن ذا زجّهم فيها ؟

« عضرفوت »

أميرٌ .

علينا لا يُرَدُّ له قضاء

نبيٌّ فهو عدلٌ حيث يَقضِى

ومَلْكٌ فهو يفعلُ ما يشاء !

« عاصف »

قيس يا قومُ منكمو ليس قيسٌ من البشر

« جنى »

قيس منا وإنما فى بنى عامرٍ ظهر

« آخر »

إننى قد رأيتُه يتفلّى على الشجر

« ثالث »

وسمِعناهُ قد عوى عَوَّةَ الجنِّ واستتر

« رابع »

أنا أيضاً رأيته ركِبَ الظبيَ فى السفر

« عاصف ـ متطلعا »

تعالَوْا فانظروا

« يتطلع الجميع الى حيث ينظر »

« جنى »

ماذا ؟

« آخر »

عجيبٌ

« عضرفوت »

نرى شبحاً يُدحرِجُه الفضاء

أقيسٌ ذا ؟

« عاصف »

نعم هـو فاستعدوا فقد وجب التحفزُ واللقاء

« هبيد لجنى آخر »

تأمّلْ قيساً المُضنَى تجدْه من الذَّوَبان أصبح كالخيَالِ

« الآخر »

لقد ضلّ الطريقَ أما تراهُ يُصفّق باليَمين وبالشّمال ؟

وقد قلَبَ الثيابَ عليه نَهْجاً على عاداتِهم عند الضلال

« يظهر قيس فيلتفون حوله وينشدون »

سـلامٌ مَلِكَ الحبِّ وسـلطانَ المُحبينـا

وأهـلا وعلى الرحبِ لقـد شُرِّفَ وادينـا

أتى الجنُّ من الوادى يُحيّونك بالورد
حدا ركبَهم الحادى الى ناديك من بُعْدِ

« يلتفت قيس ذات اليمين وذات الشمال »

رَب الى أين انتهت بىَ السُّرى وأىَّ وادٍ أنزلَتنى ياتُرى
عساىَ فى الشامِ، لعلّى جزْته أو أنا بالطائف أو أين أنا ؟
وهذه المُسوخُ حولى جِنّةٌ أم عمَلُ الوهم وتهويلُ الكَرى
لا، أنا صاحٍ

« يتحسس جسمه »

هذه رِجلِى وذِى يدى وتلك مُقلتى يقظَى تَرَى
ولِمَ لا أومِنُ بالجن وأنْ تكون للجنّة كالناس قُرى؟
لا أدّعى معرفةً بعالَمٍ ظاهرُه أكثرُ منه ما اختفى

« يمسح جبينه ويعيد النظر والتطلع »

تلك منَ الجنِّ لعَمرى شِرذِمَهْ وهذه خيلهمو المُسَوَّمَهْ
نعامة كالفرَس المُطهَّمَهْ وأرنبٌ مُسْرَجَةٌ ومُلجَمه
وقُنفُذٌ وظَبيةٌ وشَيْهمَ

ياعجباً كلَّ العجبْ ! الجنُّ منى عن كَثَبْ
سودٌ دقاقٌ فى العيونِ كالدُّخَانِ فى الحطب
يخرجُ من أفواهها ومن عيونها اللهب
من كل مَن جال بقَرْ نيه وصال بالذَنب

« الجان »

نَبِيَّ الحبِّ لا تَخْش أذًى أو شِرَّةً منا
عَطَفْتَ الطيرَ والوحشَا فلِمْ لا تَعطِفُ الجِنا ؟
وسَلْ حسّان والأعشى وشيطانَيْهما عنا

« الأموى »

تركتُ ورائى الشامَ لم أنتفعْ به ولا هو من شوقى القديم شفانى
وعدتُ الى نجدٍ أقاسى صبابتى ووجدى كأنى مابرِحتُ مكانى
تركتُكِ ليلى فانفجرتِ لياليا مؤلفةَ الأشكالِ جِدَّ حِسان

فلم يَخْلُ سيْرى منك يوماً ولا السُرى
ولم يخلُ من تمثالِكِ القمران
على كل أرض من هواكِ سوارحٌ
مَلأْنَ سبيلى أو ملَكن عنانى

(وأجهشتُ للتوْباد حين رأيتهُ وكبر للرحمنِ حين رآنى)
(وأذريْتُ دمعَ العينِ لماعرَفْتهُ ونادى بأعلى صوتِه فدعانى)

« يدنو منه قيس ويتأمله »

« قيس : لنفسه »

يا ويحَ عينى ما ترى ؟ وويحَ أُذْنى ما تَعى !
وأين عقلى ؟ غاب عنى اليومَ أو عقلى معى ؟
الشعر لى مُذ قلتهُ من شفتى لم يُسمَع

من ذا الذى أوْحَى به لذا الغلام المُدَّعى ؟

« يقترب من الشاب ويأخذ ز انتقاده »

عقـــالان يمانيّانِ منْ وَشْىٍ وعِقيانِ
يُضيئان كلَمْحِ الشمــــس فى جلدة ثعبان
وأين الشَفقُ الأحـــــمَرُ من مطرَفِكَ القانى ؟
وقـد تقرُب فى الروْ عةِ من أملاك غسّان
وقد تبلُغُ فى الشعــــر الى رقــــةِ حسّان
فمـا شأنك ياهــذا ؟

« الأموي »
وما يَعنيكَ مِن شــانى ؟

« قيس »
أرى سارِقَ أشـعارٍ جـريئاً ما له ثانِ
فقـد يُسطَى على بيتٍ وقـد يُسرَق بيتان
ولا يَنتحِل الإنسان أبيــــاتاً لإنسان
وما أنشَدْتَ من شـعرٍ فمن صنعى وإحسانى
ولم أهتفْ به بعـدُ ولم تَسمعْهُ أُذنان
فمَن أنت ومِن أين أتتْ أُذْنيك ألحانى ؟

« الأموى »

أنا الملقى عليك الشعـــرَ مِن آنٍ الى آن

أنا الهاجس والشيطان

« قيس »

لا ، لا ، لستَ شيْطانى

« ثم يناجى نفسه »

أجلْ سمِعتُ باسم شيـــطانى ولـكن لم أرَه

أبى وأمى حـدّثا نى فى الليـــالى خبرَه

« يعود الى خطاب الأموى مترددا »

ألستَ أنت الأمويّ ؟

« الأموى »

لا تخَفْ أن تذكرَه

« قيس »

ما أنت إلا صـــورةٌ فى عصبى مُصوَّره

وعبثٌ لو كان عقـــلى حاضرا لأنكره

« قيس ــ وهو ينكت الأرض بعود »

ويحى أقيسٌ واحد أم نحن قيسان هنا ؟

وأيُّنا الشاعر هـــذا الأمويُّ أم أنا ؟

أم الذى بى وبه من عَبَثِ السحر بنا ؟

أم أنا مجنــون علَـــىّ حبُّ ليـلى قد جنى

« الأموى »

قيس

« قيس »

لبيكَ قيس

« الأموى »

ما أنا قيس

« قيس »

من إذَن ؟

« الأموى »

قلتُ إنَّنِي شيطانُهْ

« قيس »

قيس من آدمٍ فما أنت منه

« الأموى »

أنا من قيس عامرٍ وجدانُهْ

« قيس »

أنت وجدانىَ ؟ استعذتُ بربى منك

« الأموى »

لا تستعذ به جلّ شأنُهْ !

هكذا شاء : كلُّ شاعرِ قومٍ عبقرىٍّ اللسان نحن لسانه

« قيس مشيحاً بوجهه ومطرقاً »

يا عجبًا أصبحَ بالجـــنِّ لســـانِى يعمرُ !

وصرتُ ينْهَى ماردٌ على فمِي ويأمرُ
ما للسانِى لا يطولُ ؟ ما له لا يقصرُ ؟
يا ليت شعري كيف لا يخرُجُ منه الشرَرُ ؟

« الأموى ــ واضعا يده على كتف قيس »

علامَ قيس فيم أنت مُطرِقٌ مفكرٌ ؟
فى خبرى ؟

« قيس »

أجل وما صدقْتَ فيما تُخبرُ
ليس لسانى مارداً إن لسانى بشَرُ

« الأموى »

قلِ وحدكَ الشعرَ إذنْ !

« قيس »

تظنُّنى لا أقدِرُ ؟

« الأموى »

جرّب إذَن قلْ أرِنا يا قيسُ كيف تَشْعُرُ !

« قيس »

وما تُحبُّ ؟

« الأموى »

قريةُ الجنِّ وهذا المنظَرُ
أليس فيما أنت راءٍ قيسُ ما يؤثِّرُ ؟

« قيس »

إسمع إذن يا أمويُّ !

« الأموى »

إننى أنتظر

« قيس »

وجوهٌ تَصوّرُ ، وفضاءٌ يزهرُ ، ورمال فى مطارح البصر تزخَرُ ،
وقريةٌ تموجُ بالجنِّ كأنها عَبْقَرْ !

« الأموى ضاحكا »

قـه قـه ! تعالَوْا واضحكوا !

« تضحك جماعة من الجن »

« قيس فى غضب »

قه قه . . أمِنِّى تسخَرُ ؟

« الأموى »

ما هكذا ياشاعرَ البـيدِ البيوتُ تُكسرُ

« جنى آخر »

إنك لا تَنْظِمُ يا قيس ولكنْ تنثُرُ !

« الأموى »

مالك قيسُ مُفْحَماً هذا لعمرى الحَصَرُ !
لا يُفحَمُ الشاعرُ لكن يُفحِم الشُّوَيعِرُ

مالك كالعُودِ الذى أدبرَ عنــه الوتَرُ ؟
مـا للقوافى الآنساتِ منـكَ قيسُ تنفُرُ ؟
كيف ترى لسانَكَ الا آن

« قيس »

عليـه حجرُ !

أنتَ على مشـــاعرى وشعرىَ المسيْطِرُ !
إن غبت غاب خاطرى وإن حضرتَ يحضُرُ

« الأموى »

الآن لا تُنكرُنِى قيسُ وكنت تُنكِــر !
عجبتَ كيف تختفى الجنُّ وكيـــف تظهرُ
ياقيسُ هـــذا عالمٌ طِينتُه التجـــبُّرُ
تطغَـى على رائدهـا صحْـــراؤه وتغمرُ
وغـاية المُعنِ فى نظـامِهِ التحـــيُّرُ
مهما علِمت عنـه فالذى جهِلْتَ أكـــثرُ !

« قيس »

يا أخَـا الجنِّ لئن كنتَ أخاً لى وخليلا
أنا فى أعمـاء أرض لا أرى فيهـا السبيلا

« الأموى »

أين تبغي قيس ؟

« قيس »

ليلى كن الى ليلى الدليلا

« الأموى »

ملْ يميناً يا أبا المهدىّ ثم امشِ قليلا
تَجد المنزلَ والماءَ النمىَ يشفى العليلا

« ينطلق قيس آخذاً يمينه مهرولا »

المنظر الثانى

« فى حى بني ثقيف بالطائف حيث ترى دار ورد على بعد قليل — ورد مضطجع »
« على الرمل وبجانبه يجلس رفيق من رفاقه — يقترب قيس من الخباء مناجيا نفسه »

« قيس »

إن قلبي لمخبرى أن هاتيكَ دارُها
أنا بالطائف الذى قرّ فيه قرارها
فى ثقيف تنقلى وثقيف ديارها
ما لساقى جَرْرتُها فتعاىي انجرارُها
ولقلبى يقول لى قد تدانى مزارُها
كيف لا أهتدى لليلَى وفى القلب نارها

ليت ليـــــلاي نُبِّئتْ أننى اليومَ جارها

« يتبين وردا وصاحبه »

عجبٌ ! هُديتُ الدارَ بعد ضلالة ما كان شيطانى علىّ كذوبا
هــذى منازلُها وذلك بعلُها بعثَتْ الىّ ديارُ ليلى الطّيبا
هذا غريمى وردُ أشقر كاسمه أتراه ألبس جلدَه مقلوبا !
ما بالُه افترش الأديم كأنه بغلٌ يُعفّر فى التراب جنوبا !

« رفيق ورد »

ورد أرى من المدَى القريبِ شخصاً يدبُّ نحونا كالذيب
على خُطاه خَشيةُ المُريبِ

« ورد »

لِمْ لاتقولُ حيْرةُ الغريب
لعلَّه ابنُ سبيلٍ يمـــــرُّ بالحى مرّا
إنى أراه ســــقيا يجرُّ ساقيْه جـــــرا

« ينهض من رقدته قلقاً »

« الرفيق »

عرفتَ مَن هو ؟

« ورد »

قيسٌ به الغـــرامُ أضرّا

« الرفيق »

قيس ؟

« ورد »

أجل

« الرفيق »

كيف أفضَى إليك ؟ كيف تجرّا

« ورد »

دعنى وقيساً وشأنى لعـــل فى الأمر سرّا

« ينصرف الرجل ويتلاقى ورد وقيس »

« قيس »

أهذا أنت وردبنى ثَقيفٍ ؟

« ورد »

نعم والوردُ ينبتُ فى رباها

« قيس »

ولِمْ سُمِّيتَ وردا لم تُلَقَّبْ بقُلّامِ العشيرة أو غَضاها!

« ورد — فى سكون وحلم »

وما ضرّ الورودَ وما عليها ؟

إذا المزكومُ لم يَطعَمْ شـــذاها

« قيس »

(بربِّك هل ضممْتَ إليك ليلى

قُبَيْلَ الصبح أو قَبَّلْتَ فاها ؟)

(وهل رفّتْ عليك قرونُ ليلى

رفيفَ الأُقحُوانَةِ فى نداها ؟)

« ورد — بعد فترة سكون »

نعم ولا ياقيس

« قيس »

بل لا بدَّ من لا أو نعمْ

« ورد »

هبْها نعمْ ياقيسُ هل مع الحلال من تُهَمْ ؟

المرْء لا يُسأل : هل قبّلَ أهله ؟ وكم ؟

أجل لقد قبلتُها من رأسها الى القدم

« قيس غاضبا »

تلك لعمرى قُبلةُ الحُمىّ بلاءٌ وسقمْ !

أو قُبلةُ الذئبِ إذا الذ ئبُ على الشاة جثَمْ

« يتراجع قليلا وكأنما يحدث نفسه »

قلبى يقول لىَ : لا ! ياصِدْقَهُ فيما زعم !

« ورد »

إذن تعالَ قيسُ واسمعْ فى أناةٍ وكرمْ

لا تجعلنَّ الغضبَ الـــجائرَ بيننا الحكَمْ
إسمع حـــديثى إنه ما خطَّ مثلَه القـــلم
وسِرُّه لا الأهـــلُ يد روت به ولا الخدَم
أنا الذى ظُلِمتُ قيــــس ما أنا الذى ظَلَمْ
أَلِيَّـــــةً وما علىّ لك يا قيـــس قسَمْ
كم مرَّتِ الليـــلةُ بى والليلتان لم أنم
منذُ حوت دارىَ ليــــلى ما خلوْتُ من ندَم
كانت إطافتى بها كالوثنىِّ بالصنَّم
وربمـا جئتُ فِرا شَها فخانتنى القـــدم
كأنها لى مَحْرَمٌ وليس بيننا رَحِـم
شعرُك ياقيسُ جنى علىّ هـذا واجـترَم
هيبَّهَــــا فامتنعتْ كأنها صـيدُ الحرَمْ
وهبَتُها للحبِّ والشـــعرِ وقيسٍ والألم

« قيس »

ولكن تعالَ سَرِىٌّ ثقيفٍ أَبِنْ لىَ مالم تُبيِّنْ تعالَ
تقولُ لقَيتَ بشعرى الشقاء وجرّ عليك بيانى الوبالا
لقـد قلتَ قولا فأوجزتَه فبالله إلا شرحت المقالا

« ورد »

إذن . أَصِخ قيس

« قيس »

قل الصدقَ وردُ

« ورد »

وهل كان لى الصدقُ إلا خلالا

فلولاكَ ما اخترتُ إلا ثَقيفاً ولم أُلقِ للعامريات بالا

ذهبتُ بشعركَ منذ الشبابِ أُغنّى القِصار وأروى الطِّوالا

أرى بين ألفاظِهِ ظِلَّ ليلى وألمحُ بين القوافى الخيالا

فلما رُدِدْتَ وقيل القصائد والعشقُ بين المحبّيْن حالا

خرجتُ الى حيِّها خاطبا ولم أدَّخِرْ دون مسعاىَ مالا

بنيْتُ بهـــا فتهيَّبتُها وأىُّ امرىء هاب قبلى الحلالا

فشعرُكَ يا قيسُ أصلُ البلاء لقيتُ به وبليلى الضلالا

كساها جمـــالا فعلَّقتُها فلما التقينا كساها جلالا

إذا جئتُها لأنالَ الحقوقَ نهتنى قداستُها أن أُنالا

أنسيكَ أبا المهدى !

« يستحيل كلامه الى همس ، إذ تبدو ليلى على باب الخباء »

أُنظُرْ هذه ليلى علينا طلعتْ من الخبا

« ثم ينادى بصوت متهدج »

ليلى تعالَىْ أسرعى ، قيسٌ أتى ليلى هَناكِ ، مَنْ تحبّين هنا

« قيس »

أمازحٌ يا وردُ قل لى أنت أم تَسخَرُ منى أم تُرَى تَهزَا بنا ؟

« ورد »

بل قلتُ جِدًّا لم أقلْ مُهازلا

« قيس ـ هاما بالذهاب اليها »

إذن فدعْها لاتُجشِّمْها الخُطـا

« ورد ـ وليلى تقترب »

إسمعْ أبا المهدىِّ همسَ خطوها كأنه وَطْءُ الغزال فى الحصا

دعوتُ فاهتمّتْ ولو لم أدْعُها لوَجدتْ ريحَكَ من أقصى مدى

قيسُ تثبّتْ واستَعِدَّ ، هى ذى أتتْ ، فلا يذهبْ بلُبِّكَ اللقا

الآن أمضى لسبيلى

« قيس »

بل أقِمْ إلبثْ أعِنِّ ، إننى خُرتُ قُوَى

« ورد »

قيسُ أرى الموقف لا يجمعُنا أنت حبيبُ القلب، والزوجُ أنا

يا لـكما منى ويالى منـكما ! نحن الثلاثةُ ارتطمنـا بالقضا

« ينصرف وتقبل ليلى على قيس »

« قيس »

ليلاى ، ليلى القلب

« ليلى »

قيس مالى . دارتْ بِي الأرضُ وساءحالى ؟

« قيس »

فداك ليلى مهجتى ومالى   من السَّقام ومن الهزالِ
تعالىْ اشكى لى النوى تعالِى   ألقِى ذراعيْك على خيالِى

« تصافحه بشوق »

« ليلى »

أحقٌّ حبيبَ القلب أنت بجانبى   أحلمٌ سرى أم نحن منتبهان ؟
أبعد تراب المهد من أرض عامرٍ   بأرض ثقيفٍ نحن مغتربان ؟

« قيس »

حنانيْك ليلى ، ما لخلٍّ وخِلّه   من الأرض إلا حيث يجتمعان
فكلُّ بلاد قرَّبتْ منك منزلى   وكلُّ مكانٍ أنتِ فيه مكانى

« ليلى »

فمالى أرى خدَّيك بالدمع بُلَّلا   أمِنْ فرَحٍ عيناكَ تبتدران

« قيس »

فداؤكِ ليلى الروحُ من شرِّ حادثٍ   رماكِ بهذا السُّقْم والذَّوَبان

« ليلى »

ترانى إذن مهزولةً قيس ؟ حبذا   هزالى ومَن كان الهُزالَ كسانى

« قيس »

هو الفكرُ ليلى، فيمن الفكر ؟

« ليلى »

فى الذى تجنَّى

« قيس »

كفانى مالقيتُ كفانى

« ليلى »

أأدركتَ أن السهمَ ياقيسُ واحدٌ وأنَّا كلينْا للهوى هدفان ؟

كلانا قيسُ مَذبوحٌ قتيلُ الأبِ والأمِّ
طعينان بسكِّينٍ من العادة والوهم
لقد زُوِّجتُ ممّن لم يكن ذوْقى ولا طَعْمى
ومن يكبُرُ عن سنِّى ومن يصغُرُ عن علمى
غريبٌ لا من الحىِّ ولا من وَلد العمِّ
ولا ثروتُهُ تَربِى على مال أبى الجَمّ
فنحن اليومَ فى بيت على ضِدَّيْن مُنضَمّ
هو السجنُ وقد لا ينـطوى السجنُ على ظلم
هو القبرُ حوى مَيْتيـن جارَيْن على الرّغم
شتيتيْن وإن لم يَبْعُدِ العَظْمُ من العَظم
فان القربَ بالرُّوحِ وليس القربُ بالجسم

« قيس »

تعاليْ نعِشْ ياليلَ فى ظِلِّ قَفْرةٍ من البيدِ لم تُنقَل بها قدمان
تعاليْ الى وادٍ خَلِيٍّ وجَدْولٍ ورنَّةِ عُصفورٍ وأيْكةِ بان
تعالى الى ذكرى الصِّباوجنونه وأحلام عيشٍ منْ دَدٍ وأمان
فكم قُبلة ياليلَ فى مَيْعة الصِّبا وقبلَ الهوى ليست بذات معان
أخذْنا وأعطينا إذ البَهْمُ ترتعى وإذ نحن خلف البَهْم مستتران
ولم نكُ ندرى يومَ ذلك ماالهوى ولا ما يعودُ القلبَ من خفقان
مُنَى النفس ليلى قرِّبى فاكِ من فمى كما لفَّ منقاريْهما غَرِدان
نَذُقْ قُبلةً لا يعرِفُ البؤسَ بعدها ولا السُّقمَ رُوحانا ولا الجسدان
فكلُّ نعيمٍ فى الحيــاة وغبطة على شفتينا حين تلتقيـان
ويخفُقُ صدرانا خفوقا كأنما مع القلب قلبٌ فى الجوانح ثان

« تنفر ليلى »

« ليلى »

وكيف ؟

« قيس »

ولِمْ لا ؟

« ليلى »

لستَ ياقيسُ فاعلاً ولا لى بما تدعو إليه يدان

« قيس »

أتعصينني يا ليلَ ؟ ...

« ليلى »

لم أعصِ آمرى ولكنَّ صوتاً فى الضمير نهانى

وورد يا قيس؟ وردٌ ما حفَلتَ به
لقد ذَهلتَ فلم تجعلْ له شانا

« قيس : غاضبا »

تعنين زوجكِ ياليلى

« ليلى : منكسة رأسها »

نعم

« قيس »

ومتى أحببْتِ وردا؟ ترى أحببتهِ الآنا!

« ليلى »

فيمَ انفجارُكَ؟

« قيس »

من كيدٍ فُجعْتُ به

« ليلى »

إنى أراكَ أبا المهدى غيرانا
وردٌ هو الزوجُ ، فاعلمْ قيسُ أن له
حقاً علىّ أؤدّيه وسلطانا

« قيس »

إذن تحابيتما؟

« ليلى »

بل أنت تظلمنى فما أحبَّ سواكَ القلبُ إنسانا

ولستُ بارحةً من داره أبدا
حتى يُسرِّحني فضلاً وإحسانا
نحن الحرائرَ إن مال الزمانُ بنا
لم نشكُ إلا إلى الرحمن بلوانا

« قيس »

بل تذهبين معي !

« ليلى »

لا ، لا أخونُ له عهداً ، فما حاد عن عهدي ولا خانا
فتىً كنبْع الصفا لم يختلفْ خلُقاً
ولا تلوّنَ كالفتيان ألوانا

« قيس : متهكماً »

أراكِ في حبِّ وردٍ جِدَّ صادقةٍ
وكان حبُّكِ لي زوراً وبهتانا

« ليلى »

قيس !

« قيس : صارخاً »

أتركيني بلادُ الله واسعةٌ ! غداً أبدّلُ أحبابا وأوطانا

« يحاول أن يتركها فتمسك به ليلى »

« ليلى »

العقلَ ياقيس !

« قيس »

لا خَلِّى الرداءَ دعى

« ثم يفلت منها ويندفع الى سبيله »
« تاركا اياها باكية فى هيئة استعطاف »
« ليلى »

وارحمتاه لقيسٍ عاد ما كانا!

واهاً لقيسٍ وآهِ ما صنعا ؟ أكثرَ قيسٌ بلواى والوجعا.

« تدخل عفراء »

عفراء عندى

« عفراء »

لبيْكِ سيدتى الصبرَ واستدفعى به الجزعا .

« ليلى »

لقد سمعتِ الحديث كيف إذن

صبرى على ما جرى وما وقعا؟

قلتُ لقيس مقالَ مشفقةٍ لم يُلقِ بالاً له ولا سمِعا

وقيسُ ذو جِنةٍ وإن زعموا جنونَه مدَّعًى ومصطنعا

تحير الناسُ فى جنون فتىً لا عقلَ الا بشعره ولِعا

واللهِ لو جاء فى محاسنةٍ يسألُ وردَ الطلاقَ مامنعا

فوردٌ يا عفرَ لا كِفاءَ له مروءةً فى الرجال أو ورعا
آه من من السقمْ

« عفراء »

ألفَ عافيةٍ

« ليلى »

آه من الحادثاتِ

« عفراء »

ألفَ لعا

« ليلى »

أنا عُذريةُ الهوى أحملُ العبْء وإن ناءَ بالصبابة جهدى
المحبّات ما بكيْن كدمعى فى الليالى ولا أرِقن كسُهدى
ويح قيسٍ وويحَ لى أى ثارٍ للمقادير عند قيسٍ وعندى
أتعب الحىَّ داء قيسٍ ودائى وتعايى الدواء كُهّانَ نَجد
لا الحواميمُ تَصرِفُ الجنّ عنا حين تُتلى ولا رُقَى السحر تُجدى
أبقيسٍ وبى هوى عبقرىٌّ يَسلُبُ العقلَ من ذويه ويُردى
علّةُ البيد من قديمٍ وداء ضاعَ فيه الرُّقى وحار المُفدَّى
ما سلاحاه حين يقتلُ إلا من عفافٍ ومن وفاء بعهد
لم تُعَذَّبْ بالحب عذراء قبلى كعذابى ولن تُعذَّبَ بعدى

« عفراء »

هي عذراء ؟ ربيَ اشهدْ !

« ليلى »

أجلْ عذراء حتى يضمَّني ركنُ لحدي

« عفراء »

والذي أنتِ تحته ؟

« ليلى »

تحت بعلٍ غيرِ ذي جفوةٍ ولا مستبدِّ
راعني اللومُ من جميع النواحي فتواريْتُ في مُروءةِ « ورد »

« يقبل ورد وقد سمع آخر ما كانت تقول »

ربِّ ماذا سمعت ؟ ليلى شكورٌ لكِ نفسي الفِداء يابنتَ « مهدي »

« ليلى »

ورد

« ورد »

ليلى

« ليلى »

رُحماكَ وردُ وعفوا
كنتُ أخفي الجوى فأصبحتُ أُبدي

« ورد »

ما بليلى ؟ ماذا أثاركِ ليلى ؟ هدِّئي روْعكِ المُفزَّعَ هدِّي

« ليلى »

الداء يا وردُ فىّ مجتهـد ملتهِمٌ هيكلى وما شبِعا

أصبحتُ لا أشـتهى الطعامَ ولا

يَحمدُ جنبى الىّ مضطجَعـــــا

قلبى من اليأس حين حلَّ به أُحسُّ يا وردُ أنه انصدعا

لم يحملِ اليأسَ ساعةً ولقد كان بما حمَّلوه مضطلِعا

المتمنى بالعيش منتفِــعٌ ولن ترى يائساً به انتفعا

القدرُ اليومَ والقضـــــاء على

حربكَ قيس وحربىَ اجتمعـا

ســـتـــار

الفصل الخامس

«مقابر على سفح جبل التوباد فى طريق عام على مقربة من حى بنى عامر يبدو»
« من بينها قبر جديد مازال أشخاص من الحى يهيلون عليه التراب ويضمون »
« الأحجار، ومن حوله كثير من رجال الحى وفتيانه وصغاره يرى بينهم المهدى »
« وورد وكلهم باك أو حزين — يبدأ المشيعون فى الانصراف وهم يعزون المهدى »
« ويصافحونه واحداً بعد واحد ويمرون على ورد مرورا »

« معز »

إنا لله أبا ليلى

« آخر »

صبرٌ أبا ليلى جميل

« فى أثناء انصرافهم يمر رجل فى الطريق »
« فيسأل صبياً من صبيان الحى فى ناحية »

«المـــار»

قبرُ مَنْ يا صبى ؟

« الصبى »

قبرُها يا أبى

« المار »

إمرأةٌ ؟

« الصبي »

نعم

« المار »

ومَن تكونُ ؟

« الصبي مشيرا الى المهدى »

بنتُ ذا الرجلْ

لُيلى ابنةُ المهدِى ألستَ من نجدِ ؟

« صبي آخر »

أجلْ قد دُفنتْ ليلى وما جفّ لها لحدُ
وذا الشيخ أبو ليلى وذا صاحبُها وردُ
هنا الوالدُ والزوجُ

« المار »

وقيسٌ !

« الصبي »

لم يجيءْ بعدُ

« يقترب الرجل من المهدى فيعزيه »

« المنادى »

سهدىٌّ أجملْ جزعا

« معز »

يا أبا ليلى جمالَكْ

« آخر »

عزاء أبا ليـــلى

« آخر »

عزاءً أبا ليــلى

« آخر »

صبرٌ أبا ليلى جميل

« صديق من أصدقاء ورد هامسا إليه »

لقد أحسنتَ ياوردُ   وما للناس إحسان
يُعزُّون أبا ليــلى   وما عزّاك إنسان
بل انظرْ ترَهم أقسى   عليك اليوم ما كانوا
على الأوجُه بغضاء   وفى الأعيُن عُدوان

« ورد »

مهلاً أخى وانظرْ الى النـــاس بعين مُنصفِ
هم يأخذون مابدا   ويتركون ماخفِى

ظنُّ الجماعات فىَّ سوء ورأيُهم فىَّ ما أصابا
يرَوْن أنى عدُوُّ قيس أخذتُ ليلى منه اغتصابا
وزدتُ نفسيْهما شقاء وزدتُ قلبيْهما عذابا
ليسألِ الناس قبر ليلى فإن فى قبرها الجوابا

« يلتفت الى المهدى بعد أن يعزيه آخر معز »

تجمّلْ أبا ليلى

« المهدى – مصالحا إياه »

تجمّلت طاقتى ولستُ بخوّارٍ قليل التجلُّدِ
حَمَلْتُ فُضولَ الناس ياوردُ حِقْبةً إذا قمتُ من باغٍ عثَرتُ بمُعتدِ
يَعيشون فى عرضى فمن كل معوِلٍ ومن كل مِقراضٍ ومن كل مِبرَد
وهذا يحيّيني ويقطعُ فرْوَتى وهذا يُغذّينى ويهدِمُ سؤددى
وياوردُ لو لم تُرْخ ستراً على ابنتى اظلّتْ بعِرضٍ فى البوادى مُبدَّد

حَفظتَ ابنتى حفظ الشقيق ومرَّضتْ
بيتك تمريض الصغير المُمهَّد
وصيّرت ليلى فى حماكَ وخدرها كعذراء ديرٍ أو كدُمْية معبَد
لقد صنتَها ياوردُ فاذهبْ فما أنا بناسٍ لك المعروف أو جاحد اليد
وليلى فتاةٌ حُرةٌ بنتُ حرةٍ أحبتْ غلامًا سيّدا وابنَ سيّد

وأعلمُ أنى كنتُ حربَ هواهُما   وكنتُ مع الواشى وعوْنَ للفنّد

« يلتفت الى القبر باكياً »

بظل الله ياليلى

« ورد »

وفى بحبوحة الخُلْدِ

وهذا نَجدُ ياليـلى   فنامى فى ثرى نجدِ

« يدخل دائرة المسرح من جانب الطريق الآخر »
« الغريض المغنى والشاعر ابن سعيد وأمية وسعد »

« الغريض »

دنا الحىُّ يابن سَعيدٍ وثَمّ

« ابن سعيد »

وما ثَمّ ؟

« الغريض »

أُنظر يُعجبْـك النظرْ

« ابن سعيد »

قبورٌ ؟

« الغريض »

أجل عارضتْنا القبور   وعمـا قليل نُجيزُ الحفَرْ

« ابن سعيد »

وهل نحن إلا على حفرةٍ   هى الأرضُ أوهى قبر البشر

محجّبةٌ بغرور الحياة   يراها إذا غرغر المحتضَر

غريضُ : بصُرتَ بقبرٍ جديد

« الغريض »

وماذا سوى الموت في ذا العفوْ ؟

« ابن سعيد »

أخٌ كان يملأُ أمسِ الهواء   ويحيا الحياةَ ويجرِي العُمُرْ

نزيلٌ لعمرى غريبُ الفِناء

غريبُ الوِطاء غريبُ الحُجَرْ

لدى منزلٍ كبيوتِ الكِراء   مرارا خلا ومراراً عَمَرْ

يُزارُ كثيراً فدون الكثير   فغِبًّا فيُنسى كأن لم يزَرْ

وليس بنافعه الواصلون   وليس بضائره من هجَرَ

فياميْتَ أمسِ عدتْكَ الرياحُ

وحيَّاكَ في الفترَاتِ المطر

وأمسِ كهادٍ وإن كان منك

مُطيفَ الخيال قريبَ الصُّوَر

لقد نفض الليلُ منك اليدينِ

وأدرك فيك النهارُ الوَطَر

وأمسيتَ تحت لواء التراب

قهرتَ القضاء ودنت القدر

تلفّتْ وراءكَ أين الغرورُ وأين السرورُ وأين الأشَر
وأين مَعالمُ عرْسِ الحياة وأين سنا ليله المزدَهِر
وأين شبابٌ كحُلْمِ العروسِ
ضَحوكُ العشيّاتِ طَلْقُ البُكَر
وأين العداواتُ من سافرٍ مُبينٍ ومن كاشحٍ مُستتِر
وأين المودّاتُ من صُحبةٍ كنحلٍ يَحُمْنَ وأنت الزَّهَر
قليلون عند امتناع القِطافِ كثيرون عند رجاء الثمر
وكم مَن سَقيتَ بشَهْدِ الوداد فلم يَجْزِ الا بصابِ الإبر
فذُقْ سِنةً لا كَكُلِّ السِّنات
ونَمْ ليلةً ما لها من سَحَر
وقُل للصديقِ طوَينا الحديثَ
وقلْ للعدوِّ دَفنّا الخبر
وهيِّئ مكانيهما في الترابِ فإن ركابَهما مُنتظَر

« سعد »

أميةُ ماذا ترى في الغريض؟

« أمية »

وماذا أرى في أميرِ الطربْ؟

« سعد »

لقد علم الناسُ أن الغريضَ
مغنّي الحجازِ وشادي العربْ
ولكن...

« أمية »

وماذا وراء « ولكن ؟ » فمن شأنها أن تُثيرَ الرِّيَب

« سعد »

أمىَّ اخفِضِ الصوتَ لا يسمَعَنَّ
فيغضبَ فهو قريبُ الغضب
وأُذْنُ المغنى تُحسُّ النسيمَ
وتسمَعُ فى الكأسِ رقصَ الحبَبْ
أميةُ إنى أخافُ الغَريضَ وإن التَّطَيُّرَ بى قد ذهب

« أمية »

وأين ترى الشؤمَ حولَ الغريض
وكيف ؟

« سعد »

رُويدكَ تدرِ السبب
أليس الغريضُ يَهيجُ البكاء
فلو رام دمعَ العروسِ انسكب
ترعرع فى بيئةِ النائحاتِ وعلّمنه النَّدبَ حتى نَدَبْ
ينوحُ بيثربَ آلَ الرسولِ
ويُذكِى مآتمَ أهلِ الحسَبْ

« أمية »

وأينَ يدُ الشؤمِ مما ذكرتَ
وأىُّ بلاءٍ علينـــــــا جلَبْ
وما هو الا مُغنّى الحيـاةِ بناحيتيها الأسى والطرب

« سعد »

ولـكننا قاصـدو عامرٍ لنقضىَ حقًّا لقيسٍ وجب
ونســألَ عن عاشقٍ فى الديارِ
طويلِ البــلاء ثقيل الوَصَبْ
ومن زار بالنـائحات المريضَ
وأهلَ المريضِ أضـاع الأدب

« يتهيأ الغريض للغناء »

هو ذا هـــــاج شجوُه هو ذا يُرسـلُ النغَمْ
هـاتفٌ من نُواحِهِ رنّ فى القـاعِ والأكَمْ
هو فى كلِّ خـــاطرٍ وفؤادٍ صَـــدَى الألم

« أنشودة الغريض »

وادىَ الموتِ ســـــلامُ وسـَــقَى القاعَ الغمامُ
السماء القُـدْسُ محرابُك والأرضُ الحــــــرامُ

أنتَ فى الصَّمتِ مُبينٌ ومن الصَّـمتِ كلامُ
لم يَمتْ أهلُك لكن غشِىَ الليـلُ فناموا
غُيَّبٌ لم ندر ما صاروا ولا أين أقاموا

« يخرجون الى ناحية الحى من حيث يسمع آخر »
« الأنشودة ثم يدخل من الجانب الآخر على »
« أثر اختفائهم ، قيس وزياد »

« قيس »

جبلَ التوْباد حيَّاك الحيا وسقى اللهُ صبانا ورعى
فيكَ ناغيْنا الهوى فى مهده ورضَعْناه فكنتَ المُرضِعا
وحَدَوْنا الشمسَ فى مَغرِبها وبكرْنا فسبقنا المَطلَعا
وعلى سفحك عشنا زمنا ورعينا غنمَ الأهل معا
هذه الرَّبوةُ كانت ملعباً لشبابينا وكانت مَرْتعا
كم بنيْنا من حصاها أربُعاً وانثنينا فمحونا الأربُعا
وخططْنا فى نقا الرمل فلم تحفَظِ الريحُ ولا الرملُ وعى
لم تزَلْ ليلى بعينى طفلةً لم تزِد عن أمسِ إلا إصبعَا
ما لأحجاركَ صُمًّا كلما هاج بى الشوقُ أبتْ أن تسمعا
كلما جئتُكَ راجعتُ الصِّبا فأبتْ أيامُه أن ترجعا
قد يهونُ العمرُ إلا ساعةً وتهونُ الأرضُ إلا مَوْضعا

« يظهر بشر قادما الى المقبرة من ناحية الحى »

« بشر »

عـــــزاءً قيسُ !

« قيس »

مَنْ ؟ بشرٌ ؟

« بشر »

أجلْ

« قيس »

فيمنْ تُعزِّينى ؟

أنا الميّتُ يا بشرُ وإنْ آخرُ تكفينى

« يضطرب بشر وقد أدرك جهل قيس »
« وحرج الموقف ثم يميل هامسا الى زياد »

« بشر »

يجهَلُ قيسٌ موتَها ولم أخَلْ أن يجهلَهْ
ويْحَ له وويْحَ لى ! ماذا عسى أقولُ لهْ
إن الحبيبَ نعيُــهُ الى المحب معُضلهْ
إنى أخاف إن أنا خبّرْتُه أن أقتُلَه

« قيس »

بشرُ

« بشر »

لَبَّيك قيسُ

« قيس »

من أين يابشرُ ؟

« بشر »

من الحىّ

« قيس »

ماحوادثُ عامرْ ؟

كيف أمى يابشر ؟

« بشر »

برَّحها الشوق

« قيس »

وأهلى . .

« بشر »

حنينهم متكاثر

« قيس »

ولِداتى من فتيةٍ وعذارى ؟

« بشر »

كلُّهم شيِّقٌ لعهدك ذا كر

« قيس »

كيف بيتٌ لنا بمدرَجةِ الريح

ونادٍ على النجـوم وسامرِ ؟

والنخيلاتُ كيف خلّفتَها بشر ؟

« بشر »

كما هن باسقـاتٌ نواضر

« قيس »

ومِهارى التي تركتُ صِغاراً ؟

« بشر »

كَبِرت قيسُ فهي جُردٌ ضوامر

« قيس »

عزّت البيدُ ، تُنبتُ السابقَ الفذّ

وتأتي بفـارس وبشـاعر !

« يضطرب بشر »

ويح بشرٍ ماذا به ؟

« بشر »

قيس !

« قيس »

بشرٌ !

أنت في نفسكَ الخفيّةِ ثائر

تُشبِهُ الحزنَ والبكى نبَراتٌ

لك كانت كضاحكات المزاهر

« ينظر الى نفسه ثم الى قيس »

ربّ ماذا أُجيب ؟ لاشيءَ ياقيس ..

« قيس »

بل الحزنُ في مُحيّاك ظاهر

ولقد راعني لك اليوم جِدٌّ

من خليع العِذار بالأمسِ سادِر

« تغرورق عينا بشر بالدموع »

ماجرى؟ ماالذي أثارك يابنَ العم؟

ماهذه الدموعُ البوادر ؟

« بشر »

قيس لا شيءَ

« قيس »

بل كتمتَ جليلاً

هذه وَجنةُ النعيّ المحاذر !

« بشر »

قيس . .

« قيس »

لا ، لاتَجِمْ ولاتُخفِ شيئا
أنا يابشرُ بالفجيعةِ شاعر
خُلِجتْ قبل نلتقى عينىَ اليسرى
وريعَ الفؤادُ روْعةَ طائر

« بشر »

أعفِنى ! أعفِنى ! بربك ما أنت
على ما أقولُه لك قادر !

« قيس »

أماتت ؟

« بشر »

أجل قضتْ أمسِ . .

« قيس ــ وهو يغمى عليه »

والبلاه !

« بشر »

لله ــ ما أشدَّ المقادر !

« يمضى بشر فى سبيله »

« زياد ــ مقتربا من قيس »

هو مغمىً عليه ربِّ أيصحو ؟ هل لهذا العذاب يارب آخر ؟

« يصحو قيس »

« زياد »

تباركتَ يارب قيسٌ أفاق ؟ صحت عينهُ وصحا المسمعُ !
رجعتَ لنا قيس

« قيس »

هيهاتَ هيهات !
من كان فى النزْع لا يرجعُ

لقد بقيتْ خفقةٌ فى السراج سيلفِظُها ثم لا يسطع
زيادُ غداً يلتقى الموجَعون وموعدنا ذلك البلقع !

« يشير الى المقابر »

عرفتُ القبورَ بعَرْف الرياح ودلّ على نفسه الموضعُ
كثكلى تلمّسُ قبرَ ابنها الى القبر من نفسها تُدْفع
هداها خيالُ ابنها فاهتدت وليلى الخيالُ الذى أتبع
لنا الله يا قلب ! ليلاك لا تجيبُ وليلاى لا تسمع !
فُجعنا بليلى ولم نك نحسَبُ يا قلبُ أنا بها نُفجع

« يقترب الى القبر باكياً فيكب بوجهه على حجر من أحجاره »

أعينىَّ هذا مكانُ البكاء وهذا مسيلُك يا أدمعُ !
هنا جسمُ ليلى هنا رسمُها هنا رمقى فى الثرى المودَع

هنا فمُ ليلى الزَّكىُّ الضحو ... كُ يكادُ وراء البلى يلمَعُ
هنا سِحرُ جَفنٍ عفاه الترابُ ... وكان الرُّقَى فيه لا تنفع
هنا من شبابى كتابٌ طواه ... وليس بناشره البلقع
هنا الحادثاتُ ، هنا الأملُ الحلوُ بالأمسِ ، والألمُ المُمتع
طريدَ المقادير هل مَن يُجيرُ ... كَ منها سوى للوتِ أو يمنع ؟
تَذِلُّ الحياةُ لسلطانها ... وللموت سلطانها يخضعُ
طَريدَ الحياةِ ألا تستقِرُّ ... ألا تستريحُ ، ألا تهجَعُ ؟
بَلى قد بلغتَ الى مَفزَعٍ ... وهذا الترابُ هو المَفزَعُ

« يظهر الأموى شيطانه من بعيد ويناديه »

« الأموى »

قيسُ

« قيس »

مَن الهاتِفُ من ... نادَى الشريدَ المُطَّرَحْ

« الأموى »

أنا الذى أوْحى اليكَ ... حُبَّ ليلى واقترَحْ

« قيس »

إذهبْ وإن لم أدْرِ رُوحٌ أنت أم أنت شبَحْ
إذهبْ فلستَ صالحاً ... وأىُّ شيطانٍ صَلَحْ
كنتَ قرينَ السوء لى ... وكنتَ شرَّ من نَصَحْ

لولاك ما بُحتُ بما   خدَّش ليلى وجرَح
كأنه في عِرضها   زيتٌ على الثوب سَرَح

« الأموى »

أفقْ قيسُ

« قيس »

سِرْ خلِّني بالخيال   ومَنْ بالخيال لمن لم ينَمْ

« الأموى »

حنانيكَ قيسُ أقِلَّ العتابَ   ولا تسكبنَّ دموعَ الندمْ
تفرَّدتَ بالألم العبقرىِّ   وأنبغُ ما في الحياة الألم
مُريبُك يا قيسُ فوق التراب   وأنت مع النجم فوق التهَم
أخذتَ سبيلك نحو الخلود   وليس الخلودُ سبيلَ الأُمَم
قُم اهتِف بليلى وشبِّبْ بها   وخَلِّ التقاليدَ وانسَ الحُرَم
وطِرْ في الهواء طليقَ الجناح   وسِرْ في الأديم طليقَ القدم
فلو أنصفَ الناسُ حَلَّوْكَ كما   كتَرْكِ الوفود حمامَ الحرَمْ
قُم ابسُطْ جناحك فوقَ القِفار   وطِرْ في الوِهاد، وقَعْ في الأكم
وأترِعْ من الوتر العبقرىِّ   سماءَ القصور وأرضَ الخيَم
وألِّفْ على الحب شتىَّ القلوب   وأرسِلْ سِرَّ الجمال النغم
تغَنَّ بليلى وبُحْ بالغرام   وبُثَّ الصبابةَ واشكُ السقم
فلا خيرَ في الحب حتى يذيعَ   ولا خيرَ في الزهر حتى ينِمْ

« قيس »

أقوم ؟ . . . . هات قدَما

أقول ؟ . . . . أعطني فما

أما تراني هيكلاً محطَّماً مهدَّما !

« يختفي الشيطان ويستمر قيس »

يارَبَّ قيس هل نعيتُ وهل جرتْ كأسٌ تدورُ على النفوس مشاعُ
أوْ لا فما بالى أنوء بهيكل للموت فيه وللحياة صراع؟
اليومَ آذننا القضاء بحكمه ما لى ولا لك يا حياةُ دفاع
راجعت فى الموت الحياةَ وعادنى فى النزْع يا ليلى اليك نِزاع
كيف الوَداعُ من الحياة ولم يُتَحْ لىَ منك يا ليلى الغداةَ وَداع
هيهات لم تعدِمْ شذاكِ قرارة حولى ولم يَعدِمْ سناكِ يفَاع
وعلى سماء البيد منكِ بشاشةٌ وعلى رمال البيد منكِ شُعاع
وكأن كل ضبابةٍ دونَ الضحى قسَماتُ وجهك دونهن قناع

« يمر به ظبي سارح فيتأمله قليلا ويناجيه »

يا ظبي بَكٌّ من افتداكَ بماله
إذ أنت عانٍ تُشتَرى وتُباع
وأباح طفلك ماءَه وطعامَه إذ هنَّ عَطْشَى بالفلاة جياع
يا قاعُ كن نعشى وكن كفَنى وكن
قبرى وقُمْ فى مأتمى يا قاع

واجمعْ لتشييعى الظِّبَاءَ ، ومَنْ رأى
ميْتاً بأسراب الظباء يُشَاع
أتُرى أموتُ كما حييت مشرّدًا
لا الأهلُ من حولى ولا الأتباعُ
وأبيتُ وحدى لا الوحوشُ أوانسٌ
حولى هناك ولا الظباء رِتاع؟

« تتخاذل سيقان قيس فيتلقاه زياد ويظهر »
« ابن ذريح على مقربة من القبر خاشعا باكياً »

« زياد »

قيسُ لا بأسَ عليكْ أنا ذا بين يديكْ

« قيس »

نفسُ اطمئنى الآن لستُ وحدى
قد حضر الذى يَخُطُّ لحدى
ويُرشِدُ الحىَّ الىَّ بعدى
زيادُ أنتَ المُشفِقُ المُفَدَّى
لم أنفرِدْ إلا رُئيتَ عندى

« يتبين شبح ابن ذريح »

زيادُ ما ذاك منذا يبكى وراءَ الضريحِ
إنى أغارُ على القبر من غريبِ الجُروحِ

« زياد »

لا تخشَ يا قيسُ منـه فإنه ابنُ ذَريحِ

« ابن ذريح »

يا ليلَ قبرُكِ رَبوةُ الخُلْدِ نفَحَ النعيمُ بها ثرى نجدِ
في كل ناحيةٍ أرى ملَكا يتنفســون تنفسَ الورد
لبِسوا الجُمانَ الرَّطْبَ أجنحةً
وتناثروا كتناثُرِ العِقـــد
وتقابلوا فعـــلى تحيتهم مِسْكُ السلام وعَنبرُ الرد
وكأن نجواهم وسُـــبحتَهم
صَوْبُ الغمامة أو صَـدَى الرعد

نفحاتُ طيبٍ ههنا وهنا ما للرياض بهن من عهد
يا قيسُ صبرا ههنا ملَكٌ ذِبْحُ الصبابة مُشْهَدُ الوجـد
أصحُ انتبِهْ واطرَحْ بعينك فى بَهَجِ السماءِ وحُسْنِ ما تبدى

« قيس »

أين السماء وأين مُحْتَضَرٌ طلَعتْ عليه الأرضُ باللَّحْد
السهدُ عذّبني وذى سنةٌ أجِـدُ الشـفاءَ بها من السُّهد
ولقـد أقولُ لمن يُبَشِّرُنى بالخُلد ما أنا داخلٌ وحـدى
لو أنّ ليـلى فى النعيم معى أو في الجحيم تساويا عندى

ليلى النعيمُ وقد ظفِرت بها فاليوم نرقدُ فى ثرى نجــد
إنى أحبُّ وإن شقِيتُ به وطنى وأوثِرهُ على الخُلد

« يسمع صوتا منثيلا كأنما هو خارج من القبر »

« الصوت »

قيس

« قيس »

مَن الصوتُ ويحى أبى سِحرُ

« الصوت »

قيس

« قيس »

زيادُ اسمعْ وأصغِ يابِشرُ

« الصوت »

قيس

« قيس »

سمعتُ اسمى يلفِظُه القبرُ

« الصوت »

قيس

« قيس »

تناديني من قبرها باسمى
لبَّيْكِ ياليلى بالروح والجسم

« يدخل فى دور الاحتضار الأخير »

هل أسا الموتُ جِراحينا وهل قرّب الدارَ وهل لمّ الشتاتْ ؟

« أصوات »

قيسٌ ، ليلى

« قيس »

رَنّةٌ فى أُذُنِى ردّدتْ قيسَ وليلى الفلَواتْ
نحن فى الدنيا وإن لم ترَنا لم تمُتْ ليلى ولا المجنونُ ماتْ

ستار الختام

أميرة الأندلس

أميرة الأندلس

تمهيد

زمن الرواية : عصر ملوك الطوائف .

مكان الرواية : أشبيلية ، أغمات .

أشخاص الرواية :

المعتمد بن عباد ، ملك أشبيلية .

الرميكية ، الملكة .

العبادية ، أم المعتمد .

بثينة ، بنته .

القاضي ابن أدهم ، قاضي القضاة .

الأمير حريز ، من أبطال الأندلس .

الأمير بولس ، شقيق ملك الأسبان .

أبو الحسن ، تاجر بأشبيلية .

حسون ، ابنه .

ابن حيون	،	من الأدباء .
أبو القاسم	،	من الأدباء .
مقلاص	،	مضحك الملك .
لؤلؤ جوهر	،	من حجاب الملك .
ابن شاليب	،	رسول ملك الأسبان .
الباز بن الأشهب	،	لص شهير .
أمراء		
جند		

مقدمة

جرت حوادثُ هذه القصة فى زمنٍ كان قطعة من ليل الملمات . أخذت الأندلسَ فى جنحها الحالك ثم تركته نظْمًا منحلا وركنا مضمحلا ، وشمسا من دول الإسلام سقُمت فألح عليها السقْم فاحتضرت، فكانت لها فى الغرب هدّة وكانت عليها فى الشرق ضجة . وخلال تلك القطعة من ليل الملمات كان الأندلُس تحت ملوك الطوائف ، وكان هؤلاء الملوكُ على شرف بيوتهم وتميز شخصياتهم ونبوغهم فى كل علمٍ وأدب أصحابَ بذخ وترف وأخدانَ صبْوة وخلاعة ،لاحظَّ لهم من همة الملك ولا نصيب من مراشد السلطان . وإنك لتعجب من انغماسهم فى اللذات ونسيانهم لذكرِ العواقب ، وهم أتعبُ خلقِ الله وأكثرُ الملوك ركوباً للغرر، واستهدافا للخطر، ومشيا على الحبائل والحفر؛ فأما فى داخل دويْلاتهم فكيد وائتمار ، وفتنة نومها غِرار، وسيفها فى الغِمد قليل القرار ، حتى لا تكاد الشمس تطلع إلا على مِلكٍ

مخلوع ولا تغـرب إلا على مليكٍ مقتول؛ وأما فى الخارج فكنتَ ترى هؤلاء الملوكَ بين نارين تتواعدان، وبين سـيلين يتهدران : فملك الأسبان الفونس يتجنّى و يعتدى، و يضرب الجزية و يفرض الإتاوات، ويبعث لأخذ الأموال جباةً أهلِ غِلْظة وقِحةٍ؛ وصاحبُ مُرّاكش يوسـفُ بن تاشفين هو وقوّاده ووزراؤه مشـغوفون بالأندلس يمطرونه الرسـل والرسائل إلى قضاته وفقهائه، مهيئين بذلك لفتح بنَوْا عليه الرجاء وعلقوا به الآمال . وكان ملوكُ الطوائف يخافون جارهم هـذا المسلَّحَ المتوثبَ سلطانَ المغـرب و يرجونه فكان تملقهم له لا ينقطع، وكانت الأموال تحمل إليـه فى صورة المعونة، وكانت الرِّشى تقـدّم لوزرائه ورؤساء دولتـه فى صورة الهدايا والألطاف؛ وكل هذا المـال إنمـا كان يجمع من المكوس والمغارم ! فتخيّل كيف كان بؤس الرعيـة، وتأمل كيف تذهب معالم البلاد بين عبثِ الفرد وغفلة الجماعة ... ولقد كان على قرطبة وهى حاضرة الملك أن تحمِل شطر هـذا البلاء فلم تلبثْ أن انحطت عن ذلك المكان العالى الذى كانت فيه دار الخلافة ومطلع القصرين الدمشـقى[(١)] والرصافة فصـارت كرسىَّ إقليم وقاعدةَ دوَيْلة وعرشَ ملك صغير يؤدّى الجزية ولا يُحِس لها ذِلة ولا هوانا .

(١) قصور الخلفاء الأول من بنى أمية فى قرطبة .

الفصل الأول

المنظر الأول

« مقصورة من مقاصير البديع "قصر المعتمد بن عباد" في اشبيلية »
« وإلى يمينها مصلى وفي مؤخرها ستار كبير يحجب . وقد وقف على »
« بابها جوهر حاجب بن عباد ولؤلؤ ساقيه ومقلاص مضحكه »

جوهر [إلى لؤلؤ] : كيف وجدتَ وجه الملِك اليومَ يالؤلؤ ؟

لؤلؤ : كسنّتِه، يفيض من البَشاشةِ والبِشْر .

جوهر : بل أنت واهم يالؤلؤ ! إن وجه الملك تغير فى هذه الأيام وبدا عليه التغضن وأثّرت فيه الهمومُ أثرَها الظاهرَ المبين .

مقلاص : كان الله عونَ الملِك ، إنه ليحمل من همومِ الملْك وأكدارِ السياسةِ ماتنوء به الجبال ، لعن الله السياسة وقبّح الوِلاية ، ولا جعل لى من أشغالها نصيبا .

جوهر [يضرب بيده على حدبة مقلاص] : وأىّ نصيب كنت تؤمِّل من أمور الدولة يا مقلاص حتى سألتَ الله أن يحرمك منه ؟

مقلاص [ملتفتا] : دعنى من هذيانك يا جوهر وانظر : هذه الأميرةُ

أقبلتْ كأنها البدرُ فى الليـلةِ الظلماء أو كأنها الظبيُ يتخطّر على الحصباء .

[تدخل الأميرة بثينة]

بثينـــة : يا بشرایَ ما هذا الحظُّ العظيم ، أصدقائى الثلاثةُ ههنا ، يجمعهـم باب الملك : جوهر حاجب الملك، ولؤلؤ ساقى الملك، ومقلاص .

مقلاص [مقاطعا] : مقلاص المهرجُ الساقِطُ والمضحِكُ الوضيع .

الأميرة [بثينة] : لا تقـلْ هـذا يا مقلاص ! ولكن قل نديمُ الملك، وصديقُ ابنته بثينة .

مقلاص : أنا مقلاص المهرجُ صـديقُكِ أنتِ يا أميرة اشبيلية؛ بل يا مليكةَ الأندلس، بل يا شريكة الشمسِ فى عرشِ الوجود ؟ !

الأمـيرة : أعرفتَ الآن مكانك ؟

مقلاص : عرفته يا سيدتى وإنى به لمزهوٌّ فخور .

الأمـيرة : إذاً فاعلم أيضـا أن هـذا الحاجب جوهر قد يأذن على الملِكِ لرجالٍ يكره لقاءهم ويغمّه رؤيتُهم وسماعُهم .

مقلاص : أمّا أنا يا سيدتى فما وقفتُ على باب الملكِ مرة إلا احجبتُ عنه الفِكرَ والغمّ .

الأمـيرة : وهذا الساقى يا مقلاص .

مقلاص : هـذا السـاقى يا مولاتى يقبض كل يوم من دماغ الملك

شعاعا ، ولولا أن دِماغه الشريف كالشمس التى لا تَفقد أشِعَّتها لكان اليوم جُمْجُمَة لا عقل فيها كأكثرِ هذه الرءوس التى نراها فى الطرقات .

الأمـيرة : وأما أنتَ يا مقلاص فتسـقِى الملك كلَّ ساعةٍ من رحيقِ مَزْحِك ودُعابتِك ما يملؤه غِبْطة وعافية وسرورا .

جوهر [مقاطعا — متدخلا] : لقد استأثرتَ يا نديم الملِكِ ويا صديقَ الأميرةِ .

مقلاص [مغضبا] : بالرغمِ من أنفِك !

جـوهر : لقـد آسـتأثرتَ يا مقلاصُ بحـديثِ الأميرةِ فتنحَّ ساعةً واترك لنا فَضْلة من الشهد .

جوهر [للأميرة] : مولاتى ، سـيدتى ، بثينة أيةَ وحشـةٍ خلَّفْتِ فى القصرِ يا مولاتى .

الأمـيرة : أو أبدًا تبالغ ؟

جـوهر : كلا يا مولاتى ! هى كلمةٌ طافتْ بالقصرِ منـذ افتقدناكِ هذا الدهرَ الطويل

الأمـيرة : أتعُـدُّ الثلاثةَ الأيام دهرًا يا جوهر ؟ ألم أقل لك إنك تبالغ كثيرا ، لِمَ لَمْ تسألنى يا جوهر أين كنت؟

جـوهر : أعلم أنكِ كنتِ فى قرطبةَ يا مولاتى .

الأميرة [وتبتسم ابتسامة سحر] : أجل كنتُ فى مُلكنا الجديد يا جوهر .

جوهر : وكيف وجدته ؟

الأميرة : العنوانُ قبّة . والكتاب حبّة .

جوهر : أرجو ألا يكون غرامُ الأميرةِ بأشبيليةَ وطنِها الغالى ومهدِها العزيزِ قد أنساها ذكر الفضلِ لقرطبةَ دارةِ الملكِ الأولى ومهدِ الفتح والعمران و ...

الأميرة : أجل . وسماءِ الرعودِ والعواصفِ وَوَكْرِ الفِتنِ والقلاقلِ... آهِ من قرطبة وبَجاءاتِها يا جوهر ، وويلى على أخى الظافر من هذه الولايةِ الحمراءِ التى لم يُقلِّدها أميرٌ الا قتِلَ أو عزِل... عرشٌ يضطرب تحت كلِّ جالس، وتاجٌ لا يستقِر على رأسِ كلِّ لابس .

مقلاص : مولاتى !

الأميرة : مقلاص . أشبيليةُ وأبى وأنت كانتْ ذكراكُم ملءَ خاطرى فى قرطبةَ ، هل من دُعابةٍ جديدةٍ يامقلاص تُنسِيني ما لقيتُ من الغم والكدر على تلك العاصمةِ الثانيةِ للملكِ السعيد .

مقلاص : لا تقولى هــذا يامولاتِى فيَغضبَ القرطُبيون ؛ إنهم لا يُقدِّمون على مدينتِهم حاضرةً من حواضِرِ الدنيا ولو كانت دمشقَ أو بغدادَ فكيف يرضون أن تكون الثانيةَ لأشبيلية وما مدينتنا فى زعمِهم الا بلدُ الخلاعةِ والمجُون .

الأميرة [ضاحكة] : وأين قرطبةُ منا الآن، وأين القرطبيون يامقلاص

وبيننا وبينهم سَفَرٌ شاقٌ طويل؟ تُرى من علّمك كلّ هذا الحرص ومن أين لك كل هذا الدهاء !

مقلاص : هى الأيامُ يا أميرتى . هى الأيام . وهذا السيفُ ماذا ... كنتِ تصنعين به يا مولاتى ؟

الأمــيرة : كنتُ أتقى بهِ عوادى الفُجاءات .

مقلاص : وهذا اللثام ؟

الأمــيرة : كنت أذود به عنى العيونَ والظنونَ فى بلدٍ ضيقِ الصدْرِ مُبَلّدِ العقلِ؛ شتان بينه وبين إشبيلية ذاتِ العقلِ الواسع والصدرِ الرحيب .

الأميرة [لجوهر] : لقد نسيتُ يا جوهر ذكر واجبٍ كان علىّ أن أقدّمه قبلَ كل شىء .

جــوهر : وما ذاك يا سيدتى ؟

الأمــيرة : السؤالُ عن الملِك .

جــوهر : هو يا مولاتى بخير . أبدًا يسألُ عنكِ .

الأمــيرة : وأين هو الآن ؟

جــوهر : هو فى الصلاةِ يا سيدتِى .

الأميرة [تطرق فى تأثر ثم تقول] : يا ويحَ أبى لقد نظرت اليه وهو فى قصرِ السوسانِ الضيق الصغير بقرطبةَ فوجدتُه كئيبا متململا كأنَّ تلك السقوفَ المنخفِضَةَ لم تكن تليق برأسِه العالِى وكأن

تلك الحجراتِ الضيقة لم تُصنع لعينه السامية الطامحة ، وكأنما كان يرى الزهراء أولى بأن تُقلّه . وأجدرَ بأن تُظله . وهناك دنوتُ حتى صرتُ خلفه بحيث أسمعه ولا يراني . فسمعته يقول وكان وحده فى الحجرةِ مطلا من نافذةٍ يلقى نظرَه على قُرطبةَ .

جوهر [باهتمام] : وماذا كان يقول يا مولاتى ؟

الأميرة : كان يقول : قرطبة ... مُلْك جديد أُضيفَ الى ملك أشبيلية ، ما أصغر المضاف والمضاف اليه . أنظر ابنَ عباد الى العرش كيف صغر ، والى الصولجان كيف قَصُر ، والى المُلْكِ كيف اختُصِر ، وتأمل مكان الحكم فى قرطبة كيف سُدّ اليوم بالمعتمِد ، ومجلسَ الناصرِ كيف شُغِل بابن عباد .

جوهر : نحن بانتظار القاضى ابنِ أدهم يا مولاتى .

مقلاص [متداخلا] : لعله هذه الكرنبة التى تتدحرج من بعيدٍ منحدرةً الينا .

الأميرة [مستضحكة لجوهر] : استقبل أنتَ يا جوهر القاضي وأدخِلْه على أبى فإن قضاة الأندلس لا يستأذن لهم على ملوكه .

الأميرة [ثم لمقلاص] : وأنت يا مقلاص . أعرفتَ أنى وجدتُه .

مقلاص : وما ذاك يا مولاتى ومن هو ؟

الاميرة : أنسيت يا مقلاص حين تقولُ لأبى بمَسْمع منى إن الزوجَ الكفءَ لبثينة لم يُخلق بعد لا فى الأندلس ولا فى غيره .

مقلاص : لا لم أنس يا مولاتى . قلتُ هذا ولا أزال أعيدُه .

الأمــيرة : إذاً فاعلم أن الزوجَ الذى يَصلح لى قد خُلِق .

مقلاص : ومن ذاك ؟ ما آسمه وأين هو الآن ؟

الأمــيرة : كل هذا تعلمه بعد حينٍ يا مقلاص . تعالَ معى الآن، اتبعْنِى ودعْ جوهر ولؤلؤ يستقبلان القاضى الجليل ...

الأميرة [الى جوهر] : فى حفظ الله يا جوهر .

الأميرة [الى لؤلؤ] : فى حفظِه يا لؤلؤ .

جوهر ولؤلؤ معا : فى ذمة اللهِ وكلاءتِه يا مولاتى .

الأمــيرة : لا تَنسيا أن تذكرانى عند الملك وأنى رهنُ إشارتِه .

[تخرج الأميرة مع مقلاص] .

جــوهر : أشكر الله أن أخّر مجيءَ القاضى .

لــؤلــؤ : كذلك كنتُ أحدّث نفسى وأخشى على مولاتى فى زيها هذا من عين الشيخ ولسانه .

[يظهــــر الملك]

المــــلك : هل جاء القاضى ابنُ أدهم يا جوهر ؟

جــوهر : أجل يا مولاى رأيتُه فى ساحةِ القصرِ .

لــؤلــؤ : وقد عادت الأميرةُ من قرطبةَ يا مولاى .

المــــلك : أوعادت الآن ؟

لــؤلــؤ : أجل يا مولاى .

المــــلك : أهى بخير؟

لـؤلـؤ : بأتم عافيةٍ يا مولاى .

المـلك : إذا انتهى ابن أدهم من زيارتهِ فأتِ بها إلىّ .

لـؤلـؤ : أمرُك يا مولاى .

[يخرج لؤلؤ] .

المـلك : وعليـك يا جوهر أن تَستقبِل ابنَ أدهم وتأتينى فى أوفرِ بشاشةٍ وتعظيم .

[يخرج جوهر ثم يرجع يتقدم القاضى]
[ابن أدهم وينادى من باب الحجرة]

جوهر [مناديا من الباب] : القاضى ابنُ أدهم .

القاضى : السلام على الملك ورحمة الله و بركاته .

المـلك : وعليكم السلامُ أيها القاضى ومقدم الخير، فقد علمتُ أنك كنتَ نزيل المغربِ فى الأيامِ الأخيرةِ وكنتَ به ضيفا على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

القاضى : هو ذاك يا مولاى .

المـلك : فكيف الحوادثُ والأحوالُ هناك ؟

القاضى : عنـدى من ذلك الشىءُ الكثير وسأذكره فى مجلسٍ تالٍ يأمر به الملك ولا أذكر الآن إلا رسالة حملَنيها الأمير سِيرى بن أبى بكر .

المـلك : وما هى أيها القاضى ؟

القاضى : أو يعرف الملكُ الأميرَ سِيرى ؟

الملك : كيف لا أعرفه ! هو كافلُ الدولةِ المغربيةِ وكبيرُ وزراء السلطان وقائدُ جيوشهِ الأكبر . وما يبتغي مني الأميرُ أيها القاضي ؟

القاضي : إنه يخطب إليك الأميرةَ بثينة .

الملك : ألشخصه يخطبها أم لواحدٍ من أولاده فهم فيما أعلم كُثُرٌ وأصغرهم فيما أذكر يوافق ميلادُه ميلادَ بثينة .

القاضي : بل يخطبُها لنفسه أيها الملك .

الملك : إن هذا عجيبٌ أَيها القاضي ... ... وما كان جوابُك ؟

القاضي : قلتُ له إن الملكَ ابنَ عباد يذهب ببنته بثينة كلَّ مذهبٍ ولا أظنّ قلبَه يطاوعه على تزويجها في الغُربةِ وإخراجِها الى بلادٍ بعيدة .

الملك : أحسنتَ أيها القاضي . فما هذا زواج ... إنّ هذا إلا قبرٌ أخطُّه بيدى لبثينة . على أنني مُحضِر إليك بثينةَ لتحدّثها وتسمعَ منها .

الملك [الى جوهر] : جوهر . جئنا بالأميرة يا جوهر .

[يختفى جوهر لحظة ثم يعود بالأميرة]

الأميرة : أبي !

الملك : بنيّتي !

الأميرة : أطلبتَني يا أبي ؟

الملك : تعالىْ بثينةُ حيّي عمكِ القاضي ابن أدهم .

الأميرة : السلام عليك يا مولانا القاضي ورحمة اللهِ وبركاته .

القاضي : وعليكِ السلام يا بنتَ أكرمِ الملوك . تعالىْ خذي مجلسَك بين أبيكِ وعمك .

الملك : مع من عدتِ من قرطبة ؟

الأميرة : مع لِثامي وجوادي .

الملك : وكيف وجدتِ قرطبة ؟

الأميرة : وجدتُ طرقاتِها تموج بالفقهاءِ يعرفهم الناظر بزِيِّهم فذكرتُ عندئذ شُهَرة هذا البلدِ بالفتنةِ والتشغيبِ وجرأة أهلهِ على أمرائِهم وحكامهم وأشفقتُ منه على أخي الظافر ، وإن كنتُ واثقةً بحزمهِ وعزْمهِ .

القاضي : ومن أنباكِ أيتها الأميرةُ أن الفِتْنة والشَّغَب يجيئانِ من ناحيةِ الفقهاء ؟

الأميرة : لم يبقَ سِرًّا يا سيدي القاضي أن الفقهاء يُعلِّقون سَعادةَ الأندلس وخلاصَه بإلقائه في أحضان جيرانِه سلاطين المغرب .

القاضي : وأنتِ يا بنتَ ملوكِ المسلمين ؛ أما تجدين ما يطلبُه الفقهاءُ في قرطبةَ أجدى على الأندلس من بقائِه على الحالِ التي هو فيها مُشرفا على التَّلَفِ والضياع ؟

الأميرة : لا يا سيدي القاضي ليس في الحق أن يَغتصِبَ جماعة من المسلمين أوطانَ جماعةٍ غيرِهم من المسلمين فإن الوطنَ هو كالبيتِ في قداسته وكالضيعةِ في حرمتِها .

الملك [متدخلا فى الحديث] : لقد بعثتُ يابثينة فى طلبك لغير هذا الشأن وفى أمرٍ ذى بال وإنى أترك للقاضى التحدّثَ معكِ فيه .

الأميرة [ملتفتة الى القاضى] :

تكلمْ ياعمُّ فكلى إصغاء ؟

القاضى : لقد خطبكِ الى أبيك رجل من عظماء الإسلام فى هـذا الوقت هو الأمير سيرِى بن أبى بكر وزيرُ الدولة المغربية .

الأميرة : أفارغ هو أم مشغول يا سيدى القاضى ؟

القاضى [فى حيرة] : بل له من الأزواج ثلاثٌ وستكونين الرابعةَ وستكونين المدلّلة الممّهدةَ من بين أزواجه .

الأميرة [فى غضب] : إنك يا سيدى القاضى تدعونى الى خُطةٍ لا أنا مضطرة فأحمل النفس الكارهة على قبولها ولا الأمير ابنُ أبى بكر معطل البيتِ من الربةِ الصالحةِ فيتشبثَ بها ويُصر عليها ، بل تلك خطة لم أجد أبوىَّ عليها ولم آلف رؤية مثلِها فى حياةِ أسرتى : فهذا أبى جعلنى الله فداءه لم يتخذ على أمى ضرّة ولم يكسر قلبها بالشريكةِ فى قلبه فجاءت بنا أولاد أعيان ، نجتمع فى جناح الأبوّة ولا نفترق فى عاطفةِ الأمومة ، ولو شاء أبى لكان له كنظرائه الملوكِ والأمراءِ نساءٌ كثير ولكان له منهن بنو العلات تحسبهم إخوة وهم أنصاف إخوةٍ من كل دَجاجةٍ بيضة ومن كل شاةٍ حمل .

القاضى[متلطفا] : شهد الله لقد أحسنتِ يا ابنتى . ولكن مصلحةُ الملكِ أنسيتِها ونصرةُ الوالد أغفلتِ عنها . وسلامةُ الأندلس أأهملتِ شأنها ؟

الأميرة : لا يا سيدى القاضى كلُّ ذلك فى المحل الأولِ من نفسى واهتمامى ولكننا مختلفان فى النظر فأنت ترى أن الأندلس لا ينهض من كبوتهِ إلا اذا مدّ السلطان اليه يده وأنا أتخيلها يدَ الذئبِ يمدّها الى الحمَلِ ، وأنتَ يا سيدى القاضى قد أخذك اليأس فى أمر الأندلسِ وأنا كلى رجاء ولا أستبعد أن تتهيأ لأبى، وهو كهف الأندلسِ وملاذه، الفرصةُ لجمْعِ الكلمةِ وضربِ الأفرنج ضربة تُرِيح العربَ منهم السنين الطِوال وأنتَ تعلم أن تاريخ الأندلس مفعَم بالفجاءات السعيدةِ من هذا الطِراز .

القاضى : يُريد الله بكم اليسرَ ولا يُريد بكم العسرَ، ولقد رددتُ عنكِ أيتها الأميرة وعن أبيكِ الملك وأحسب أنى أحسنتُ الردّ .

الملك : كل الإحسان أيها القاضى .

القاضى : الآن لم يبق إلا أن أنصرف .

الملك : مشيَّعا بحفظ الله ورعايته .

[ينصرف القاضى و يشيعه الملك]

الملك [للقاضى] : كيف تجدُ بثينة يا ابنَ أدهم ؟

القـاضى : بورِكَ لك فيها وبورِكَ للأندلس فى عقيلته ! إنى أجدُها روحَ الوالدِ وأرى عليها طبعةَ الزمنِ وحضارةَ الجيل .

[يعود الملك ومعه مقلاص بعد أن يودع القاضى]

الملـك : أعلمتَ يا مقلاص؟ أسمعتَ أن سيرى ابن أبى بكر يخطبُ الىَّ بثينة ؟

مقلاص [ملتفتا الى بثينة بصوت خافت] : أهذا الذى وجدتِه ياسـيدتى ؟ إنى لا أهنيك بتَيسِ المغرب .

الأمـيرة : لا يا مقلاص إن الذى وجدتُهُ هو غزال الأندلس لا تيْس المغـرب .

الملـك : خبرينى يابثينة ماذا وجدتِ فى قرطبة .

الأمـيرة : حال من القَذارةِ تتنزه عن مثلهِ أشبيلية .

الملـك : هذا من توالى الفتنة والاضطرابِ على الناسِ حتى شُغلوا عن تنظيف مدينتهم التى كانتِ المِثالَ المحتـذى بين المدن نظافة ونظاما ... ثم ماذا ؟

الأمـيرة : وراعتنى قصورُها المهجورةُ الموحِشةُ كأنها الأطلال .

الملـك : هـذا من انقراضِ الوارثين أو ضيقِ نعمتهـم عن سكنى الدورِ الواسعة وصِغرِ أقدارهم عن نزولِ المنازلِ الرفيعة .

[يظهر على بثينة التأثر والاغتمام] .

الملـك : ما ذا غمَّكِ يا بثينةُ ؟

الأمـيرة : تذكرتُ يا أبى قصورَنا بجزعت، قلتُ : الزاهى ترى

ما نصيبه، والتـاجُ ما ذا غداً يصيبه، والبـديعُ ما يكون مصيره، والمؤنس هل توحش مقاصيره ؟

المـلك : بنيتى خلى عنك هـذه الهواجسَ، ولا تحملى على الشبابِ العُبوس والهم فإنه لم يخلق لهما . إصرفى الشبابَ الى الضحك والغبطةِ فإنهما طبيعته وديدنه . ألا نعود لحديث قرطبة. خبرينى كيف وجدتِ أسواقَها ؟

الأميره : دون أسواقِ أشبيلية حركة ونشاطا إلا سوقَ الكتب فلا أحسب بغدادَ أقامت مثلها، دخلتُها ياأبى فلبثتُ فيها ساعة أتأمل ما يقع فى جوانبها وأشهد النـداء على نفائس الكتب وذخائر المخطوطات ،وهى فى أيدى الناس يقلّبونها فى اعتناءٍ وإشفاقٍ كأنها كرائم الحجارةِ فى أسواق الجوهر .

المـلك : وهل كنتِ تهتمين بكتابٍ هناك ؟

الأميره : أجل ياأبى . نُودىَ على رسالة المنجم الضبىّ، التى سماها : هـل القمر مسكون ، وكنتُ سمعتُ بهـا وكنتُ أريد إحرازَها فسرنى الظفرُ بهـا، وكان بالقربِ منى فتى حسنُ الهيئةِ ظريفُ الثيابِ هو لا شك من بنى البيوتات، وكان ينازعنى الرغبـة فى الرسالةِ فلم يزل يزيد فيهـا وأنا أحرجه فأزيد حتى بلّغها الى خمسِ مائة دينار فقبضتُ يدى فرجع اليهِ المنادى فأخذَ المـالَ وناوله الرسالة .

الملك : لا أظنّ حرص الشابّ على الرسالة إلا للمباهاة ، ولكن يقال عنده خزانة كتبٍ حوتْ كلّ ثمينٍ ونادرٍ حتى رسالةَ المنجم الضبيّ فإن الشهرةَ فى قرطبة من قديم الزمان أن يتنافس الناس فى اتخاذِ الخزائنِ للكتب حتى الذين لا علم لهم بما فيها .

الأميرة : ظلمتَ يا أبى غريمى الشابّ فقد كنتُ ألحظ عليه الحِرص على الرسالة والسعىَ لإحرازِها حتى ما بقى فى نفسى شك أن الفتى من أهلِ المعرفةِ والاطلاع .

الملك : وكيف هو يابثينة : ما شكله؟ ماصفته ؟

الأميرة : شاب يناهز الثلاثين ، جميل وقور يشبهك يا أبى أوكأنه أخى الظافر وما كان أعظمَ أدبَه ومروءته فانه حين غلبنِى على الرسالة بادر فقال : أيها الفتى الملثم ! إن كان اعتناؤك بهذه الرسالةِ شديدا كما رأيتُ فعرّفنى بموضعِ إقامتك وأنا أستصنع منها نسخة وأبعثُ بها اليك . فشكرتُ واعتذرتُ بكثرةِ أسفارِى فى الأندلسِ فانطلق شديدَ الفرح بما نال وكان جواده بانتظارِه فاعتلاه فواللهِ يا أبى ما رأيتُ قط بعدَك و بعد أخى الظافر أرشقَ وثُوبا على جوادٍ ولا أحسنَ قياما فى صهْوةٍ من غريمى الشاب .

الملك [مبتسما وهو يضع يده على كتفها] : أخشى يا بثينة أن يكون غريمُك الشاب أعرفَ بتصيدِ القلوبِ منه باعتلاءِ الجياد .

مقلاس : الآن عرفته هو فتى السوق، هو فتى الرسالة .

[يدخل لؤلؤ و يقول] :

الجماعة يتواردون على مجلِس الشرابِ أيها الملك فانظر

ماذا تأمر ؟

بثينة : وأنا أيضا ذاهبة لبعضِ شأنى إن أذِنت .

الملك : فى كلاءةِ الله يا بثينة .

[تخرج بثينة] .

المنظر الثانى

« ترفع الستار الخلفية عن مجلس شراب الى جانبه ستر مسدل »
« وفى وسطه مائدة حولها الملك وجماعة من حاشيته وتطل »
« هــذه المنظرة على الوادى الكبير حيث للملك زورق » .

الملــك : ما عندكَ من الشراب لأصحابنا يالؤلؤ ؟

لـؤلـؤ : خمورُ مالقة وزبيبى أشبيلية .

الملــك : وماذا هيأتَ لهم من نقْلٍ وطعام ؟

لـؤلـؤ : الجوزُ واللوزُ من وادى الطلْح .

الملك [يرفع عقيرته ويغنى] : الجوزُ اللوزُ ياربِّ الفوز .

أحد الحاضرين [الى جاره] : هــذا لحنُ الملك الذى يحبه ويهتف به حتى فى الحمام .

مقــلاص : ولحنى أيها الملك أتسمعه ؟

الملــك : قل . هاتِ يا مقلاص .

مقلاص [يغنى] : الجوزُ اللوزُ بوادى الحوز[1] .

الملــك : مرحى! مرحى! .

---

(١) متنزه مشهور بالأندلس .

الحاضرون جميعا : مرحى ! مرحى ! .

الملك [لمقلاص] : تعالَ قِفْ خلفى يا مقلاص وقم عند رأسى .

مقلاص : ها أنا قائم عند رأسك الشريف هل أفلِّيه ؟

الملك : تأدَّبْ يا وقّاح . القُمَّلُ لا يوجدُ فى رءوس الملُوك .

مقلاص : ما أدرى يا مولاى ولكنى أعلم أن القُمَّلَ يوجد فى لبدةِ الأسد وأنت أسد الأندلس الذى يعنو له الملوك .

الملك : لله ما أمرَّ لسانَك وما أحلاه . فهو كمِشرطِ الجراحِ الماهِرِ جمعَ مرارةَ القطعِ وحلاوةَ الشفاء .

الملك [الى لؤلؤ] : ثم ماذا يا لؤلؤ ؟

لؤلؤ : كلُّ مالذَّ وطابَ من السمك . بعضُه مجلوبٌ من بحرِ الزقاق . وبعضٌ من صيدِ الوادى الكبير .

الملك [يتغنى] : الجوزُ اللوزُ يا ربُّ الفوز .

الملك [الى وزيره ابن سعيد] : ماذا يقولون فى المدينةِ يابنَ سعيد ؟

الوزير : لا حديثَ اليومَ لأهلِ أشبيلية الا تلك النكبةُ التى حلَّتْ بأبى الحسنِ التاجر .

الملك : واهًا لأبى الحسن . وويحَ الأندلسِ ما أعظَمَ مصيبَتَهُ فى تاجرِه العامِلِ الموفَّقِ الأمين .

الملك [الى ابن سعيد] : وكيفَ وقعتِ الكارثةُ يابنَ سعيد ؟

الوزير : كانتْ لأبى الحسنِ التاجر فى لُجَجِ البحارِ ثلاثُ بوارج

وهى، الزُّهرة، والثريا ، والجوزاء ، خرجتِ الزهرةُ الى الاسكندرية تحمل اليها مقدارا عظيما من الزيت الأشبيلى فأخذها عاصفٌ فغرقتْ فى الطريق . وأقلعتِ الثريا بعد ذلك بأيام مشحونةً بالمتاجرِ المتنوعة الى ثغور الأندلس فصادفها أسطولٌ للفرنجة كان يتجوّل على الشواطئ فأخذها مَغْنَمًا باردا . وكانتِ الجوزاءُ قد سبقتْ أختيْها الى عَرضِ البحرِ تقصد سواحلَ المغرب محمَّلةً الشيءَ الكثيرَ من مصنوعاتِ الأندلس ومتاجرِه فشبّتْ فيها النار فأعيا إطفاؤها فسقطتْ شعلةً فى الماء .

الملك : ويح لأبى الحسن ويح ! !

الوزير : إن أبا الحسن أيها الملك شيخ كبير قد فرغ من الدنيا وفرغتِ الدنيا منه ، فمصيبتُه أقصرُ عمرًا وأهونُ وقعًا من مصيبةِ ابنهِ الواحدِ وولدِه النابهِ الشاب حسون .

الملك : قد ذكر لى اسمه وسمعتُ الثناء عليه من كثيرٍ من الناسِ .

الوزير : وإنه لكما نعتوه لك أيها الملك وفوق ما نعتوه : شابٌ جميلٌ وقورٌ جرئٌ، وافرُ القِسْطِ من العلمِ والأدبِ، تعلّم لغةَ الإسبانِ حتى أجادَها حديثاً وكتابةً يجرى بها لسانه كما يجرى بها قلمُه .

الملك : إن شابا هذا شأنه وهذه همته فى الحياةِ لا يتركُ نُبوغَه

سدًى ولا يوكّلُ الى اليأس القاتل، بل يجمُلُ بنا أن نأخذَ
بيده فنُهوِّن عليه عثرةَ أبيه البرئ .

الجماعة [يتهامسون] : ما هذا السِتر ؟

آخر [همسا] : تُرى ماذا يُخفِي هذا السِتر ؟

ثالث [همسا] : ماذا خبأ لنا الملِك وراءه ؟

الملك : فيم تتهامسون؟ لعلكم تذكرون الستر . إشربوا الآن ما بدا
لكم واطربوا ، وأما الستر فستعلمون نبأه بعد حين . لقد
وزعتُ عليكم من أيامٍ وفدَ النصارى من نُبلاءِ الاسبان
فماذا صنعتم بهم وكيف كانت أنصبتكم ؟

الملك [ملتفتا الى وزيره داني] .

الوزيرداني : كانتْ حِصّتي يامولاى أطيبَ الحِصص، فضيفي شابٌّ
نبيلٌ طروبٌ لطيفُ الأذنِ، مولعٌ بالقيثارةِ لا يضعُها من
يدِه وله عليها ضربٌ يأخذ بالألباب .

الملك [متبسما] : يسأل آخر من الجلساء . وأنت يابن الصائغ كيف
ضيفك ؟

ابن الصائغ : أنا أقل الإخوانِ حظا أيها الملك، فضيفِي رجلٌ كهلٌ
قِسّيسٌ يقطع الليلَ بالصلاةِ وتلاوةِ الانجيل .

الملك : بل لعلك أعظمُ الجماعةِ حظا ولا تدرى .

ثالث من الجلساء [مخاطبا الملك] : أما أنا أيها الملك فقد ابتليتُ برجلٍ
شيخ شرِّيب خمرٍ لا يرويه فى اليومِ دنٌّ ولا دنان . فاذا

كان قبل كل طعامٍ قدمتُ له زبيبي أشبيلية فأقبل يعبه عبا كما يقع الظمآن على المـاءِ الزلال ؛ وقد شرِبَ من خمرِ مالقة فى ثلاثِ ليـالٍ أقامها عنـدِى ما يكفينى أنا شهرا وأنا الذى يعرف الملِك وَلعِى بالخمرِ المـالقى .

المـــلك : وأنت يا لؤلؤ كيف ضيفُك وما حاله ؟

لـؤلـؤ : إنه شاب يا مولاى خفيفُ الظل والروح . مولعٌ بالرقص وأنا أتلقى عليه كل ليـلةٍ دروسا فى الرقص الأسبانى حتى كدتُ أحسنه .

المـــلك : وأنتَ يا مقلاص . كيف ضيفُك وماذا يصنع معك ؟

مقـلاص : ضيفِى يا مولاى رجلٌ كهلٌ بادنٌ ضخمُ الجثـةِ كالخنزيرِ المتدلى البطنِ من تراكبِ الشحمِ واللحمِ اذا جاء فى البيتِ وراح ارتجتِ الجُدرانُ واهتزّ ما على الرفوفِ من آنيـةٍ . وإذا نام خرج الغَطيط والنخير من حلقهِ ومن أنفهِ ومن كل موضعٍ فيه ولو نام فى جبانةٍ لأيقظ غطيطُه الأموات .

المـــلك : وكيف طعامُه يا مقلاص؟ وما أحبُّ الألوانِ اليه؟ .

مقـلاص : هو يا مولاى مجنون المعـدةِ بالإوزّ . له كل صباحٍ على الريقِ إوزّة وغداؤه إوزّة وعشاؤه ...

الحضور جميعا : إوزّة .

الملك [ملتفتا لوزيره دانى] : وماعندك أنتَ يا دانى مما يقولون فى المدينة؟

دانى : يتهامسون فى المدينةِ بأن الفتنة قد تحركت شياطينها فى قرطبة

وأن القـادرَ صاحبَ طُلَيْطُـلَةَ يسعى لأخذها من ولدِك
الأميرِ الظافر، وأنه يستعين فى دسه وكيدِه وتدبيرِه بالبطل
حُريز وصاحبه ابن طولون .

المـلك: الولاياتُ يا دَانى كخلايا النحل فيهـا العسل وفيها الأسل
وأنا واثقٌ بحزمِ الظافرِ وعزمه والله يفعل بعد ذلك مايشاء
إن ضيوفَكمُ النبلاءَ أيها الأصحاب سيكونون هنا بعد ساعةٍ .

الملك [الى جوهر] : وأنت يا جوهر آنظر . أين الجنديان ؟

جـوهر : بالباب يا مولاى .

المـلك : أدخلْهما .

[يدخل الجنديان .]

الملك [الى الجنديين] : أين الكلب؟! أجئتما به ؟

الجنديان : هو بالبابِ يامولاى يرسُفُ فى قيودِه .

المـلك : أدخلاه .

[يدخل ابن شاليب اليهودى يجر قيوده]

ابن شاليب: التحية والإجلال للملك .

المـلك : تحية لا نتقبلها من رجلٍ شتمنا بالأمسِ بمسمع من رجالِنا
وأعواننـا .

ابن شاليب: معاذا الله أيها الملك : ما شتمتُ ولا تهجمتُ ولا نسيتُ
أنى نزيل هـذه المملكة ، يجبُ علىّ لصاحِبهـا التوقـيرُ
والإكبار .

المــلك : بل أنت تكذِبُ يابنَ شاليب .

ابن شاليب : على رِسلك أيهـا الملك ، أنسيتَ أن ورائى ملِكا عظيما يَسألُ عن أمرِى وأنا سفيرُه عنـدك ورسولُه اليك ، وقد يغضبُ لى إن أنتَ نلتنِى بسوء .

المــلك : فان كان السفير وَقَاحًا قليلَ الأدب ؟

ابن شاليب : هذا كثير أيها الملك فاجعل للإهانةِ حدًا ولا تنسَ لى مكانى .

المــلك : ستعلم مكانَك بعدَ قليل .

[الى ابن وهب]

أعِد يابن وهبٍ على هـذا الكلبِ ما لهث به حين عرضتَ عليه مال الجزية .

ابن وهب : لقد همَّ يا مولاى برد المـالِ معتلًا بسـوءِ العِيارِ ونُقصانِ الإتاوةِ عن السنةِ المـاضية وقال : بلغ سيدَك أنه لا يحول الحول حتى آتى فآخذَ عينَيه .

ابن شاليب : هذا كذبٌ واختلاق .

المــلك : بل أنتَ الكذّاب . فـا أنا بالملك الذى يَكذب عليـه وزراؤه وأعوانه . وما شرفُ الأندلِس وجلالُه إلا عدلُ قضاتِه وقلّة شاهدِ الزورِ فيه .

ابن شاليب [يمرغ خديه على البساط و يقول] : ألا تعفو أيها الملك الكريم . فهم يقولون إن العفو شيمتكم معشر العرب .

الملك : إلا ما مسّ الشرفَ والكرامة .

ابن شاليب : أتقتلني أيها الملك من أجل كلمةٍ سبق بها لساني وأعماني الغضبُ فلم أزنها ولم أقدر عواقبَها .

الملك : عجبا يا وزير ألفونس ... أنت تزِن القناطيرَ المقنطرةَ من الذهبِ والفضة فلا يفلِتُ من حسابك بُرادةُ مِثقال . ثم لا تحسن أن تزِن كلمةً تخرج من فيك ! ...

ابن شاليب : أعفُ عني واستبقِني أيها الملك وأنا أشتري منك حياتي بوزنِ جسمي ذهبا .

الملك : لا واللهِ ولا بثقلِه لآلئَ ويواقيت وأنا أعلم أن وراءَك ملكا عظيما هو عبد المال . أما أنا يا ابن شاليب فعبد الله .

الملك [للجنديين] : أيها الجنديان خذا هذا المجرم فأمضيا أمرى فيه .

[الجنديان ينقضان على ابن شاليب فيأخذانه الى ما وراء الستر المسدل]

الحاجب [يدخل] : نبلاءُ الأسبان بالباب يا مولاى .

الملك : يدخلون .

كبير النبلاء : التحياتُ للملك .

الملك : مرحبًا بضيوفِنا النبلاء . تفضلوا وخذوا مجلسكم واطرحوا الكلفة .

كبير النبلاء : شكرا يا مولاى ؛ هذه الحفاوةُ بالضيف لا تستغرب من ملكِ العربِ الكريم .

الملك : تعالَ اجلس بجانبي أيها النبيل .

[يجلس كبير الأسبان حيث أشار الملك
يطوف لؤلؤ على القادمين بالشراب و بالنقل]

لؤلؤ : ماذا تشتهي من الشراب ؟

كبيرالأسبان : ما دمنا فى أشبيلية يا فتى الملك فإنى لا أقدم على زبيبها الصافى المعطرِ شيئا .

أحد الحاشية [فى أذن جاره] : انظر السكير ياأخى كيف تجاهل خمر مالقه وكيف نسى أنه أنفد ذخيرتى منها فى ثلاث ليالٍ أقامها عندى .

[ضجة وشراب وأحاديث همس]

الملك [الى لؤلؤ] : دلنا يا لؤلؤ على ضيفك الرقّاص .

لؤلؤ [يشير الى أحدهم] : هو هذا النبيل يا مولاى .

الملك [الى الاسبانى] : إن فتاىَ لؤلؤ أيها النبيل مغتبطٌ بما تعلّم عليك من أصول الرقص .

الأسبانى : وأنا يا مولاى ما رأيتُ أسرعَ خاطراً ولا أرشقَ حركاتٍ ولا أحسنَ حِفْظا لما يلقى عليه فى فنون الرقص من صاحبي لؤلؤ .

الملك : إن مطربى هذا ابنَ حزم يحسن الضربَ على القيثارة . وقد تعلّم فى صغرِه الكثيرَ من ألحانكم ونغماتِ رقصكم .

الملك [الى لؤلؤ] : فليرقصْ لؤلؤ على إيقاعه .

الملك [الى الاسبانى] : وأنت ترسم له أيها النبيل النغْمة التى تصلح للرقصة .

[لؤلؤ وصاحبه الاسبانى يرقصان و يعزف لهما ابن حزم...و يصفق لهما الملك والجماعة ثم يجلس الثلاثة بين الاستحسان والاعجاب]

الملك [فى جد الى جليسه الاسبانى] : أيها الضيفُ النبيل . أمر يَشْغَلُ بالى ويهتمّ به أصحابى وينتظرون حكمى فيه . وقد رأيتُ أن أنتهزَ فرصة الأنس بحضوركم لأسيرَ على ضوْءِ رأيك فى تصريفه .

النبيل الأسبانى : ليس أحبَّ الىّ أيها الملك ولا أزيدَ فى شرفى من مشورةٍ خالصةٍ نافعةٍ ألقيها الى جلالتك .

الملك : إذن فاعلم أيها الضيفُ النبيل أن أحدَ جيراننا الملوكِ أوفد الىّ رسولا فى مهمةٍ معلومةٍ فنسى الرسول مكانى حتى سبّنى بمسمع من رجالى وأوعد وتهدّد . فما الذى يقضى به عُرْفُكم على رجل هذا فعله .

النبيل الاسبانى : مثل هذا جزاؤه القتل يا مولاى .

الملك [الى النبلاء] : أسمعتم يا معشرَ النبلاء .

النبلاء : سمعنا أيها الملك وقد أفتى كبيرنا وهو العدل والصواب .

الملك : إذن فانظروا .

الملك [ثم لأحد الجند] : أيها الجندىُّ ارفع هذا الستر .

[يرفع الستر عن جثة ابن شاليب جثة هامدة معلقة على عود]

الجماعة صائحين : ابن شاليب ؟

الملك : هذا صاحبكم ابن شاليب قد رمانى أنا ووزيرى هذا ابن وهبٍ بتزويرِ العيار والغش فى الميزانِ وقال لرجالى وأعوانى : بلّغوا سيدكم أنى آتٍ فى العام القابل فآخذ عينيهِ من رأسه .

أحد الجماعة مستنكرا : وما ذنبنا نحن أيها الملك حتى عاقبْتنا بهذا المنظر؟

الملك : لقد تردّدتُ بين أن أقتلَه بأعينِكم وبين أن أَعرِضَه عليكم وهو كما ترون جثة بلا روح ولكنى وجدت فى الرأى الثانى تخفيفا على ضيوفى فعمِلْت به .

[ثم ينهض الملك علامة الاذن فى الانصراف ويختلط بهم وهو يشيعهم]

الملك : انقلوا أيها النبلاء إلى الملك ألفونس ما سمعتم، وصِفُوا له ما رأيتم، وتحدّثوا به فى طولِ بلادِكم وعرضِها ليعلم الناس هناك أن الأسد العربى لا يُشتَم فى عرينِه وأنه لو غلِب على غابتِه حتى لم يبق له منها إلا قاب شبرٍ من الأرض لما استطاعتْ قوى الإنس والجن أن تنفذ إلى كرامتِه من قابِ هذا الشبر .

[ينسل النبلاء الاسبان من المنظره وهم يجرون سيقانهم جرا من الرعب]

الملك [إلى حاشيته] : الآن يا نبلاءَ العرب نطوى هذا البساط ويبق

هذان الجنديان حتى إذا خلت منا المنظرة رفعا الستر عن
جثةِ ابن شالِيب ليعلم أهل أشبيلية كيف يحل العقابُ
بمن يجترئْ على شرفِ أميرِهم الذى هو شرفهم الرفيع .

المنظر الثالث

« الملك نشوان ، ومعه مضحكه مقلاص يدنو من زورق »
« على الوادى الكبير فيثب فيه و يقول ... ... »

الملك : أنظر يا مقلاص إلى هذا الزورق ما ألطفه ، صدق القول : كلُّ صغيرٍ لطيف .

مقلاص : إلا وظيفتى فى قصرك فإنها لا لطيفة ولا شريفة ، وإن هـذا الزورقَ قد ينقلبُ فيأخذ شكل النعشِ ولن يكون النعشُ لطيفا أبدا .

الملك : هبه انقلب يا مقلاص فصار نعشا ، أليس النعشُ مركبَ كل حى وإن طالتْ سلامته ؟

مقلاص : أما أنا فيعفينى الملك .

الملك : لا يا مقلاص — لا أعفيك ولا أحسبك تدعنى أسير فى لُجة النهرِ وحدى وأنا كما ترانى نشوان .

مقلاص : وإن كان ولا بد أيها الملك فإنى أقترح .

الملك : وما تقترح ؟

مقلاص : أن أكون أنا المجذِّفَ وحدى .

الملك : ولماذا ؟

مقلاص : الأمر بيّن ! التيار مجنون ، والسكر مجنون ، وأنت سلطان وكل سلطان مجنون ، وهذا الزورق خشبة لاعقل لها فهو أيضا مجنون ، وإنى أرْبأ بحياتى أيها الملك أن أجمع عليها مجانين أربعة .

الملك [مستضحكا] : لا يكون إلا ما اقترحتَ يا مقلاص تعالَ اركبْ وجدِّف وحدكَ واتركْ لى أنا الدفةَ .

مقلاص : أما هذا فنعم . وإنى أرجو أن تكون دفةُ هذا المركبِ الصغيرِ أحسنَ مصيرا فى يديْك من دفةِ المملكة .

الملك [مستضحكا] : تعال ثِب ، هاتِ يدَك .

[مقلاص ينزل الى الزورق و يأخذ المجدافين] .

الملك : أنظر يا مقلاص وراءك إنى أرى قاربا يندفع نحونا مسرعا كأنه حوتٌ مطاردٌ مذعور .

مقلاص : هو ذا قد دنا منا يا مولاى فأَحسنْ مسك الدفة واجتنب الصدمة وأنا أذوده عنا بمجدافى هذا وأضربه ضربةً تقذفُ به الى الشاطئ الآخرِ من النهرِ .

الملك : إياك أن تفعلَ ، بل أْسره فلا بدّ لنا أن نؤدّب هذا الشاب المغرور فإنى أرى الملاّحَ فتى كريمَ الهيئةِ فهو لا شك من أبناء أعيان أشبيلية .

[يصطدم الزورقان و يظهر مقلاص ارتباكا وجبنا فيقبض الملك على الزورق المهاجم بيد قوية و يقول لمقلاص] :

الملك : إقذف الآن به إن استطعتَ الى الشاطئِ الآخرِ من النهرِ

[ثم يلتفت الى الشاب الملاح و يقول] : مكانكَ أيها الغلام الوَقَاح ،
ما هذه الجرأة على التيار وعلى شبابك هذا الغض النضير .
وما غرك بالملك حتى قربتَ عودك من عوده تريد أن
تأخذ عليه الطريق .

الملاح : مولاى . إن الرعيَّة يهفون . و إن الملوك يعفون ، وزورق
إنما اندفع بقوة التيار القاهر فوافق مرورَ مركبك المحروس
فكان ما كان مما أعتذر الى الملك منه .

الملك [بصوت منخفض] : ويحِ أذنى ما ذا تسمع ؟ هذا الصوتُ أعرِفُه !

[ثم يلتفت الى الملاح قائلا] : قد عرَّفناك أيها الفتى من نحن
فعرِّفنا بنفسِك .

[يرفع الملاح قناعه]

الملك [صائحا] . بثينة ؟

الأميرة [الملاح] : أجل أيها الملك ابنتك وأمَتُك بثينة .

الملك : عجبا أأنتِ هنا بين العَبَبِ والتيار وعلى هذا العود الذى
يشفق أبوكِ من ركوبه وأبوكِ من تعلمين أشجعُ العرب
قلباً .

الأميرة : ولِمَ لا تكونُ ابنة الملكِ شجاعةَ القلبِ مثلَه إن الأسد لا يلِد
إلا اللَّباة .

الملك [يهدأ غضبه] : ومن أين مجيئك الساعةَ يا بثينة ؟

الأميرة : من الموضع الذى أحبُّه كما أحبُّ الحجرة التى ولدتُ فيها ، ومن ناحيةِ السرْحة التى أحِنُّ لها كحنيني للقاصيرِ التى ضمتني طِفلة ممهَّدة ، ومن بُقعةٍ مبارَكةٍ وقفتِ السعادة بك فى ظلها على أمى الرميكية فرأيتَهـا فأحببتَها أوّلَ وهلة . ولم تكن إلا غسّالةً مغمورةً فتزوّجتهـا فرفعتَها أعلى ذُرى الشرف ومن هذا الزواج الموفّق السعيد ولدتُ أنا لأب قصّر الآباء عن برّه وملكٍ جل عن النظراء والأمثال . أليس ذلك المكان الذى هو مهد حبكما الأول من حقه أن يُحَنّ إليه أحيانا بل من حقهِ أن يُحج آنا فآنا .

الملك [متأثرا] : بنفسي ورُوحى أنتِ يا بثينــة . لقد عظَّمْتِ المهــدَ وقضيتِ الحقَّ والآن ألا ترجعين الى القصر بسـلامٍ فلا أحسب القصر إلا قائما لغيبتِك على ساقٍ حتى لكأنى بأمِك تسأل عن أمرِك و بجدّتك أشغلُ وأشدُّ قلقا .

الأميرة : لقد كنتُ يا مولاى فى طريق الى القصر لولا هذا الاتفاق السعيد الذى صدم عودى بعودِك والآن إذْ أمرتَ فإنى أنطلق فى سبيلى وأستودعك الله يا مولاى .

الملك : إذهبي يا بنيتى فى كلاءةِ اللهِ وإياكِ والمجازفةَ فيما تفعلين فإن الحيـاةَ أعزّ وأنفسُ من أن تُعرّض للتهلكة وأنهـاكِ عن

الخروج بعد اليوم إلا مصحوبةً بلؤلؤ أو جوهر فإنهما لا يألوانك خدمة وحراسة .

الأميرة : لا يكون يا مولاى إلا كما أشرت .

[تندفع بثينة بالزورق وتغادر الملك — وقد أطرق مليا إلى أن بدا لمقلاص أن ينبهه من هذه السنة]

مقلاص : مولاى إن الشط قريبٌ وإن الأرضَ أصلحُ مجلسا لمثل ما أنتَ فيه من الهم والتفكير .

الملك : كيف رأيتَ بثينة وكيف وجدتَ جرأتها يا مقلاص ؟

مقلاص : تلك اللّباة من هذا الأسد يا مولاى .

الملك : ما كل جرىء فطن ؛ وهذه الفتاة جمعت الحجا والشجاعة . إنها تعلم أنى رجل رقيق القلبِ مجيب العاطفةِ وتعلم كذلك أن شيئا من النفورِ قد دخلنى نحو أمها منذ حينٍ فانظر كيف تحيَّلَتْ حتى ذكرتنى العهدَ القديم . فوالله ما أنا الساعةَ بأقلّ حبا للرميكية ولا عطفا عليها منى منذ عشرين سنة . جدِّفْ يا مقلاص جدف . سبحانك اللهم جعلتَ الولد سفير المودّةِ والرحمة بين الوالدين .

[يندفع الزورق]

الملك [يتغنى] : الجوزُ، اللوزُ، ياربَّ الفوز .

مقلاص [يجيب] : الجوزُ اللوزُ بوادى الحوز .

ستار

الفصل الثانى

« خان التميمى فى أشبيليه حيث صفت الموائد والأرائك وجلس اليها »
« قوم يتحدثون ويحتسون الشراب . ابن حيون منفرد وحده الى مائدة »
« وأبو القاسم قادم عليه من باب الخان . حزين يجلس الى مائدة أخرى »
« وأمام ابن حيون . ورجال هنا وهناك يلعبون النرد والشطرنج »
« أو يطالعون بعض الرسائل ... ... »

أبو القاسم : ابنَ حيون ؟ ما أطيبَ هذا اللقاء .

ابن حيون : سيدى أبو القاسم يامرحبا يامرحبا ها هنا صُفَّةٌ لينة ومجلس كريم فلو جلسنا ساعة نتحدث . أزائرى أنتَ أبا القاسم أم جئتَ الخانَ فى شأنٍ يعنيك .

أبو القاسم : بل إياك قصدتُ يابن حيون . وإن الشوْقَ اليك لشديد .

ابن حيون : شوقٌ بعضُه من بعضٍ يا أبا القاسم ولكنْ من أنباك أنى مقيم بخان التميمىّ .

أبو القاسم : لقد عرفناك كالرواد الرحّل . لا تُرى إلا فى خانٍ أو عند دوارسِ الأحجار .

ابن حيون : الخانُ والسوقُ يا أبا القاسم مدرستان من مدارسِ الحياة
ينتفع بهما الرجلُ الأريب ... ألستُ فى هذا الخانِ كل يوم
أبدل أهلا بأهلٍ وجيرانا بجيران وأستعرضُ صوراً متحركة
من الخلائق كلما احتجبتْ صورة خلفتها صورة ... وكيف
حال أشبيلية يا أبا القاسم وهل من حوادثَ هناك ؟

أبو القاسم : الحالُ إن لم يصلحها الله فالها من صلاح . والحوادثُ
يابن حيون تتوالى ولا تتولّى واليومُ مغبر والغدُ مكفهر .

ابن حيون : وابنُ عباد فى غوايته مستمر !

أبو القاسم : خل ابنَ عباد يا أخى لاتجرِ ذكره بسوء فانه السيفُ الذى
يرجوه العرب . والحصنُ الذى يحتمون غداً فيه .

ابن حيون : لم تُنصِفْ يا أبا القاسم . طبعتَ للعربِ من الخشب
سيفا وبنيتَ لهم من الشفير المائر حصنا .

أبو القاسم : إتق الله يابن حيون ... بعضَ هذا البغى ... للمعتمدِ من
المحاسنِ ما ينطوى على مساويه . أجهلتَ إحسانه على أهل
العلم وعَطْفَهُ على أهل الأدبِ ؟ أجهلتَ كيف يربى أولادَه
تربية لم نعرفها من الأمراء والملوك ؟ أجهلتَ كيف يعامل
الرميكيةَ زوجته الفاضلة معاملة تحسدها عليها عقائل الأندلس ؟

ابن حيون : آه يا أبا القاسم من ههنا دائى وههنا ثارى عند صاحبك
ابن عباد .

أبو القاسم : ياعجبا كل العجب . ما هذا الثأر ما حديثه ؟

ابن حيون : اسمعْ أبا القاسم وأنصفنى .

أبو القاسم : تكلم يا بنَ حيون فكلّى مسامع .

ابن حيون : كنتُ فى صدر شبابى صيادا شابا مليحا رأسُ مالى شبكة وقوام معيشتى سمكة، وكانت تختلف إلى المواضع التى أختلف اليها من النهر للصيد وابتغاء الرزق صبية غسّالة حلوةُ الدلال بارعةُ الجمال كأن حديثها السحرُ الحلال . فانعقدتْ بيننا ألفة وكانتْ لنا مجالس على الماءِ كأنها أعراسُ النهرِ ولقاءاتٌ على الوادى الكبير كأنها أعيادُ الدهر، أحببتُ الصبيّة وأحبّتنى وتكلمنا فى الزواج وشرعنا نأخذ له أهْبته .

أبو القاسم [مقاطعا] : وبينما أنتما على ذلك طلع عليكما من النهر فُلْكٌ عليه شارة الملك، يحمل ملكا شابا جميلا فنظَر الصبيّةَ فراعهُ حسنُها وكلمها فأعجبه أدبها . وارتجلت الشعرَ بين أذنيه فبلغ إعجابه بها الغايةَ فتزوّجها من يومه فملأتْ قصورَه غِبْطة وبهجة وولدتْ له الشموسَ والأقمار . هذا حديث الرميكية يابنَ حيون وهذا خبرُ زواجِها يعلمه كل من فى الأندلس ويتناقلونه بالإعجاب ويتحدثون أن بنتَ الشعب نزلتْ قصورَ الملكِ من أولِ يومِ نُزولَ الأقمارِ فى هالاتها، وأنها

من عشرين عاما الى اليوم قدوةُ عقائلِ الأندلس والمثال الأعلى بين أميراته وملكاته ؟ .

ابن حيون : وما كان ذنبي يا أبا القاسم حين احتقرتْ حُبِّي واستهانتْ بخطبتي؟ ! وكيف تريد مني بعد ذلك أن أكون لصاحبك المعتمد من المخلصين .

أبو القاسم : هبِ الأمرَ كان معكوسا يابنَ حيون، وهب الفلك الذى وقف يومئذ بكما كان يحمل ملكةً شابة فاتنة الجمالِ بيمينها الجاه وفى شمالها المال فنظرتْك فأحبتْك ودعتْك لتبنيَ بها وتشاطرهَا عزة الملكِ وثراءَ المالِ — أتُراك كنتَ تُعرض عن الملكة وفاء بعهدِ الغسّالة . لا والله يابنَ حيون ما كنتَ فاعلا ذلك . وهذا ما فعلتْ الرميكية . رأتْ ملكا كبيرا وشبابا نضيرا وفضلا وأدبا غزيرا فخلتْ نفسها من ذلك الودادِ وفضلتْ أصيدَ على صياد . عرفتَ يابن حيون أن ذنب الرميكية ليس بالعظيم كما توهمْتَ . بقى المعتمد وأنا لا أجدُه اقترفَ اليك ذنباً أو أراد لك ضُرا بل أنا أقسم لو علِم ابنُ عباد يومئذ بما كان بينكما من الحب وما صرتُما اليه من الخطبة ووشْك الزواج لأخذكما فى كنفه وتكفلتْ لكما نعمتُه بالزواج ونفقته، وبالبيت وجهازه وبالضيْعة التى تُغِل عليكما وتبقى بعدكما على الأولاد .

[ابن حيون مطرقا] :

أبو القاسم: ابنَ حيون . مالك مطرقا لا تنبِس . ما بالُ عينيك تمتلئان
استرحْ يا أخى للبكاء واسكبْ دموعَ الندم .

ابن حيون : الآن استرحتُ يا أبا القاسم وانطرح عن صدرى أتونٌ من الحقدِ حملتُه عشرين عامًا حتى حنى الظهرَ وأ كلَ الصدرَ وأدنى من القبر .

أبو القاسم : مسكينٌ أنتَ ابنَ حيون إن حقدَ عشرين عاما لو جمع وقذِف به فى جهنم لكان لها منه وقودٌ لا ينفَد .

ابن حيون: لقد شفيتنى أبا القاسم من ضلالى القديم فأرشدنى كيف أعتذر الى الرميكية عن سوءِ ظننتُ وبغضٍ أسررتُ وأعلنتُ وكيف أُكفِّر عما سلف منى فى ذاتِ المعتمدِ من جهرِ السوءِ وهمسِه .

أبو القاسم: يغفر الله لك يابن حَيون إن الحقد ما خرج من قلبٍ إلا دخلته الرحمة وإنى لأرجو أن ستُحبّ صاحبيك وترحمهما وتحسن اليهما كلما وجدتَ الى الإحسانِ سبيلا .

[يطوف قيم الخان على الجالسين حتى يقف به الطواف]
[على المائدة التى جلس اليها حريز وابن لا طوف]

قيم الخان : لعلّ السيدين قد وجدا الراحة فى هذا الخانِ الصغيرِ ببنائه الكبيرِ بأقدارِ روّادِه ونزلائه ؟

حريز : ومن السيد ؟

ابن لاطون: هذا الأديبُ التميمى صاحبُ الخان وقيّمه .

قيم الخان : لعلى أيهـا السيدان بحضرةِ الأمير حريز أســـد الأندلس وصديقه ابنِ لاطون نِمر الجزيرة .

ابن لاطون: هو ذاك يا أخا تميم . هــذا الأميرُ حريز بطلُ الأندلُس وواحده وأنا ابن لاطون خادمُه وكاتبُ ديوانِه .

قيم الخان : ياطيبَ هذه الزيارة وما أعظمَ شرفى بها، لقد مر بنــا أيها الأمير منذ ساعةٍ ركبان حدثونا العجب عن ذلك السباق الذى أقامه ملك الفرنجة ألفونس فى معسكرِه إكرامًا لك وحفاوةً بك وخبرونا كيف احتلْتَ على الطاغيةِ فرقتَ من ذلك الجيش الجرار ناجيا بجوادِك الصاعقة وظافرا بالأميرِ بطرس شقيق الطاغية .

حــريز : وكلاهمــا الساعةَ تحت سقْف خانك هــذا . ففى بعض غرَفه بطرس أمير الأسبان يأخذ قسطه مــن الراحة . وفى الإسطبل الصاعقة أمير الجياد يُعلف ويستجم .

قيم الخان : يافرحا ياشرفا . أخو الطاغية أسيرٌ فى خانى نبأٌ والله عظيم لا تطلع شمس الغد حتى ينتشرَ فى الأندلس فتشتغِل الدنيا بالتميمى ويهتم بخانه الناس .

حــريز : والصاعقة أمير الجياد أنسيتَه يارجل؟ إن اسطبلك ليَتيه بهِ على مغانى الفرنجة وقصورِهم فاذهبْ فمر رجالك أن يعتنوا

به وليأتوا بما كان عليه من الأمتعة والأسباب فيضعوا
ذلك كله في هذه الزاوية من الخان .

قيم الخان : سيكونُ ما أمرتَ ياسيدي .

[يخرج الأمير بطرس من غرفة الخان]

[فينهض حريز وابن لاطون حفاوة به]

الأمير حريز : الأمير بطرس ؟ لعلك أخذتَ قسطك من الراحة .

الأمير بطرس : أجل قد استرحتُ يا حريز والآن خبرني ما أنتَ صانع بي.
لقد أصابت الحُبالة فما أنتَ صانعٌ بالصيد .

حريز : إنها أيها الأمير حُبالةٌ كريم . .

بطرس : ولكني على كل حال أسيرُك ياحريز .

حريز : أجل ولكنك الحاكم في الأسر .

بطرس : لم تنصف أخي الملك ياحريز . اطمأن إليك فخدعته
ووثِقَ بك وختنه وأطلق لك جوادك الصاعقةَ وأسرتَ
أخاه .

حريز : نحن في حربٍ معكم أيها الأمير والحرب لا تُسأل عما تَفعل
وأنا صاحبُ حصنٍ للعرب يحاصره أخوك وفي الحصن
أبطالٌ لا يعرفون الخوفَ ولكنهم بَشَرٌ يعرفونَ الجوع .
ومنهم المرأة والصغير والشيخ الفاني الكبير؛ وحصني يوشك
أن يسقط بعد طولِ الحصارِ وضيقه .

بطرس : إذن يهمك أن يخرج النساء والأطفال والشيوخ
من الحصن .

حـــريز : أراك فهمتَ أيها الأمير .

بطـرس : إذن فاعلم ياحريز أنك إن خلَّيتَ الآن سبيلى فرجعتُ الليلةَ إلى معسكرى وقـومى فإنه لا يُصبح الصبحُ حتى يطلق سراحُ كل من فى حصن رباح وينالهم من برأخى وعطفِه ما ينسيهم جراحَهم ولا يَنزِع من رجالك سلاحُهم بل تُترك للأسد أظفارُها .

حــريز : هذا ما أبغى أيها الأمير .

بطـرس : وأىَّ الأقسامِ تريد أن أعطيك عليه ؟

حـريز : إن الرجلَ الشريفَ كلمتُه قَسَمٌ وإشارته يمين ؛ فأنا أكتفى بما سمعتُ من وعدِك فانطلق الآن محروسا بعناية الله وعد لأخيك الملك فبلغه تحيتى وإجلالى وخبره بأن ربحى من ذلك السباق كان عظيما فقـد غنمتُ صحبةَ أخيه الأمير النبيل الكريم وغنمتُ أيضا خلاص رجالى فى الحصن . وخرجتُ فوق ذلك من الميدان بكنوز طُلَيْطُلَةَ وجواهرِ ملوكها بنى ذى النون .

الأمير بطرس : كنوز طليطلة؟ خرجتَ بها بين عين الجيش وأذنه ؛ يالك من داهيةٍ عتيد . أكانتْ هذه الكنوز معكَ حين أتيتَ للعسكر ؟

حريز [ضاحكا] : كلا أيها الأمير بل كانتْ فى طليطلة وفى خزائن ملوكها

بنى ذى النون وإنما احتلتُ حتى حملتْ إلىّ مع الصاعقة
إذ أمر أخوك الملك أن يذهب الى المدينة المحصورة من
رجاله ورجالى من يأتى بالصاعقة .

بطرس : عجبا . لقد رأيتُ الصاعقة حين جىء به من طليطلة فلم
أرَ عليه شيئا من الأحمال والأثقال فهل كان يحمل فى بطنه
الكنوز ؟

حريز [ضاحكا] : ولم لا تقول إنها كانتْ على ظهره أيها الأمير ... ...
(مناديا) يا تميمىّ .

التميمى : مولاى .

حريز : إدفع الى الأميرِ جوادَه قيصر وشيِّعه بفارسين من أشد
رجالك يرافقانه حتى يبلغ خطوط الفرنجة .

بطرس : فى حفظ الله يا حريز .

حريز : بذمةِ الله أيها الأمير .

[يخرج حريز مشيعا الأمير بطرس الى باب الخان
ويعود فيجلس على مائدة مع ابن لاطون]

ابن لاطون [يسأل حريز همسا] : لقد ذكرتَ أيها المولى كنوزَ طليطلة
للأمير الأسبانى فأين هى منا الآن ؟

حريز : هى معنا يابن لاطون بين أعيننا وفى خفارةِ سيفينا ولكنك
لا تراها ولا يقع فى وهم واهمٍ بأى موضع هى من الخان .

[يسمع من خارج الخان مناد ينادى متغنيا]

المنادى : أنا ذا طاهٍ أتاكم من شريش بقطائف

من ينق حلواى يبرز لحريز غير خائف

حريز : لله ما ألذ الصوتَ وما أحسنَ الشعر .

ابن لاطون : وإنا نرجو ألا تكونَ القطائف دونهما لذةً وجودة .

[حريز متجها الى باب الخان]

حريز : تعالَ يا صاحبَ القطائف . أتعرف أيها الرجل حُريزًا الذى أشدتَ بذكرِه فيما أنشدت ؟

البائع : أو تجهله أنتَ كائنا من كنتَ وهو عنترةُ البيد وحيدرةُ الحِمى ونادرة الزمان ؛ أعرفُه بأمسِه ويومِه كما يعرفه سائر الناس .

حريز : وكيف صفتُه ؟

البائع : رجل عِملاقٌ أشمُّ طويلُ الساعدينِ عبلٌ شَمَرْدَل .

حريز : كفى يا شريشى كفى إكشفْ عن بِضاعتك لنرى أينَ المنادَى عليه من النداء .

[البائع يعرض الصينية مكشوفة]

صوت من الحاضرين : تعالى الله ما أشهى .

صوت آخر : تعالى الله ما أطيبَ .

حريز : بكَم تبيعُنى هذه الصينيةَ يارجل .

البائع : كل ما أعطيتَ مقبول أيها السيدُ الكريم .

حريز [ويلق اليه صرة دنانير] : خذْ هذه الصرَّةَ مباركًا لك فيها .

البائع : ولكُمْ فى القطائف أيها الطاعِمُ الكريم .

حريز [للحاضرين] : تعالَوا أيها الإخوان نتقاسمْ هـذه اللقمَة الطيبة .
تفضلوا . أقبِلوا . ذوقوا معنا من هذا اللون الذى ذاعتْ
شهرتُه فى البلاد حتى قيل إنّ من دخل الأندلسَ ولم يذقْ
من مجبناتِ شريش فما عرف من متاع الأندلس شيئا .

أحد الحاضرين : إن لهذه القطائف لَطِيبا يسكِر من بعيد .

[الجميـــع يأكلون]

أحـدهم : ما ألذ .

ثان : ما أطيب .

حريز [وهو يأكل ملتفتا الى ابن حيون] : ما بالُ الأديب لا يجيبُ الدعوةَ .

ابن حيون : إنى صائم أيها الأمير .

حـريز : تقبَّل الله منكَ وإن أنتَ لم تَقبلْ منّا .

أحد الحاضرين [على المائدة وهو يأكل] : هـذه المـائدةُ جمعتْ العلَفَ
والشرفَ . فوالله ما كان أحدكم يحلم أن يؤاكل أسدَ
الأندلس .

آخـــر : حق إن هذا لهو الشرفُ العظيم .

[يفرغون من الأكل]

حـريز : يا ألله ماهذا الدوار ؟ ! ابن لاطو ... .

ابن لاطون : وأنا أيضا كأنى داخل فى غيبو ... ... بة .

رجل [لصاحبه] : كيف تجد الدنيا فى عينك ياضبيّ ؟

الضبي : مظلمةٌ صاعدةٌ نازلة .

الرجـل : وأنا أيضا أجد الدن ... ... يا .

أبوالقاسم : لقد رُجِمْتَ بصيامك يابنَ حيون فانى أظنّ القطائف طبِخَتْ بالبنج وأخذتْ تصرع ... نى .

ابن حيون [مذعورا] : ياويح للجماعة غودروا صرعى وويح لك أباالقاسم سقطتَ سليبَ العقلِ والحرَاك .

[يظهر صاحب القطائف و يصفر فيدخل جماعة من اللصوص] .

ابن حيون [وقد امتلأ المكان باللصوص] : يا ألله ! امتلأ المكان باللصوص . الآن تبينت أن القطائف كانت مصيدة لم يعصمْني منها إلا الصيام .

ثم لنفسه [همسا] : تناومْ يابن حيون "ويتناوم على مقعده" .

صاحب القطائف : يا أصحابَ الباز . غدا يتحدّثُ الأندلس أن صاحبكم صرعَ الأسد وأخذ الصاعقة من فارسه الجبار وقد خصصْت نفسى بأمير الخيل الصاعقة فهو حصتى من غنائم اليوم وما سواه فهو لكم تقتسمونه بينكم فدونكم الجيوب ففتشوها وعليكم بالحقائب فانبشوها وخذوا أثاثَ الخان وعُروضه كل ما خفّتْ زِنته وعظُمتْ قيمتُه .

أحد اللصوص : ولكنّ الصاعقة عريان لا سرْج عليه أيها الزعيم .

البازى : بجياد الأندلس جميعا هو كاسيًا كان أو عريانا .

لص آخر : لقد لمحتُ أيها الزعيم فى زوايا الاسطبل سرجًا محلى بالذهب والفضـــة .

الباز : أوأنتم تاركون لى السرجَ المذهَّبَ المفضَّضَ أيها الأصحاب؟

اللصوص : نحن وما نملك للزعيم .

الباز اللص : إذن فاسبقْنى يا شهابُ فضع السرجَ المذهبَ على الصاعقة وانتظرنى هناك .

[يأخذ اللصوص فى السلب والنهب و ينسلون واحدا إثر واحد بما حوت أيديهم و يبقى رجل منهم فينحنى على سرج عاطل يتأمله و يظن ابن حيون المكان قد خلا فيستوى فى مجلسه و يقع نظر اللص عليه فيرمى السرج العاطل عليه قائلا ...]

أحد اللصوص [لابن حيون و يرمى عليه السرج العاطل] : خذْ يا شيخَ السوء هذه الخشبَة لعل فيها العوضَ عما أفاتك الصيامُ من القطائف .

[و يخرج اللص] :

ابن حيون [لنفسه] : شلّتْ يدُ اللص ، لقد قذَف السرْج بقوةٍ حتى كسرهُ ولو أصابنى به لتركنى جثةً بلا روح ، يا لله ، تُرى أىُّ شىء فى فروج هذا السرج .

[يدنو منه و يمسك به ثم يتأمله و يدس فيه يده]

ربِّ ما هذا الحصى ؟ أى مجنون يملأ سرجه بهذه الأحجار ... !

[ثم يستخرج عددا من الأحجار البارقة و يقلبها بين يديه مذهولا قائلا] :

لآلئ ! يواقيت ! أبا القاسم قم فانظر إن الذى حشا

رأسَكَ بالعِلْمِ والفِقه قد حشا رُدْني باللآلئ واليواقيت .

[ثم لنفسه] يا ابن حيون أين يُذهبُ بك ؟ هذا كنزُ ملِك عظيم من أقيال الروم جدّ به الحرصُ وخاف امتدادَ الفتنة الى كنزه ، فاختار له هذا السرج البالي وفي نفسه أن يصونه أو يموتَ دونه فأخلفَ الدهرُ ظنونَه .

[يجمع اللآلئ بين الدهشة والاضطراب ويقول] :

ابن حيون [وينظر الى اللآلئ] : لآلئ! يواقيت! ماس! زمرد! زباه هذا عجل الذهب ، هذا هو معبودُ الناسِ بعدَك هذا هو المال .

ستار

الفصل الثالث

« بستان أمام دار أبي الحسن . الى يمينه باب الدار ومن ورائه شاطئ »
« الوادى الكبير — أبو الحسن جالس فى هـذه الساحة وبين يديه »
« تابع له هو (سـعيد) وجماعة بالقرب منه من السامرة يتهامسون »

أبو الحسن : ما هـذا ؟ ما أرى ؟ إنى لا أعرف هذه الوجوه؛ فمن الرجالُ يا سعيد وما يبتغون ؟

سـعيد : هـذه الوجوه تحومُ على الدارِ منذ حينٍ يا مولاى وتسألُ عن أجزائهـا وتستفهمُ عن مشتملاتها ؛ وتتحـدثُ عن المكتبةِ خاصة وما عسى تضم من نفائسِ الأسفار .

أبو الحسن [رافعا وجهه الى السماء] : لطفكَ اللهم ! لقد لهج الناس بالنكبةِ واشتغلوا بالمنكوب، وما أولع الناسَ بالناس .

[ثم الى الرجال] : أيها الرجال تعالَوا فان كنتم ضيوفًا فيامرحبًا بكم، وإن كانتْ لكم حاجاتٌ تريدون قضاءَها فهاتوا اذكروا .

أحـدهم : إيذن لى يا سـيدى التاجر أن أصارحَك القولَ فليس

مركزك بسر، والدارُ معروضة لا محالة، فلنبعْها اليوم، فقد تغبن جدًا فى الغد .

ابوالحسن : أتُشفِق على الدارِ أن يكسد سوقها فى غدٍ ؟ أم تشفق على نفسك أن يكون السمسار غيرُك ؟ ... بكم قومتمُ الدارَ أيها الوسيط المجتهد ؟ وأىّ ثمنٍ تعطون ؟

احدهم : عندى المشترى لها بخمسين ألف دينار يا سيدى التاجر. تحمل اليك فى الصباح إن قبلت .

ابو الحسن [الى الثانى] : وأنتَ فماذا عندك ؟

الثانى من السماسرة : عندى الراغبُ الذى يزيد خمسةَ آلاف دينار .

أبو الحسن [مشيرا الى الثالث] : وهذا الثالثُ الآخَر . ماذا عندَه ؟

الثالث : عندى أيها السيد أن صديقا لك لا أسمِّيه يريد أن يشترى مكتبتَك بالثمن الربيح فهل أنتَ بائع ؟

أبو الحسن [فى غضب] : والمكتبةُ أيضا أخذوا يتحدثون فى شرائها ! ووسادتى وفرشُ نومى أما لها عندك من طالب أيها الرجل ؟ أعزُبْ عنى ! أعزُبْ وخذ صاحبيك معك وانطلقوا . إن النكبة لم تبلغ بعدُ تمامَها ولم تبلغ معها الى اليأس .

[يقترب شيخ غريب الثياب ملتفتا الى الرجال الثلاثة قائلا]

[المغربى الشيخ] : تلك واللهِ وقاحة !

أحد السماسرة : حجلتَ فيها يا وجهَ النحْس !

[ينصرف السماسرة] .

أبو الحسن [يناجى نفسه] : ظهــرَ فيكِ السمسارُ يادار ! اللهــم أنتَ أعطيتَ وأنتَ أخذتَ وأنتَ تعلم أنى لستُ التاجرَ اللّصّ ولا المحتال ، فألطف بى فيا قضيتَ وأعِن ولدى حسوناً على ما يواجِه من فِرار النعمة وانتقالِ الأيام [ثم يشعر براحة و يقبل على الشيخ المغربى قائلا] : وأنت يا شيخَ البر برما وراءَك ؟

المغــربى : أنا زائر ياسـيدى التاجر . وربمــا كلمتك فى شأنٍ يكون فيه ارتياحك ورضاك .

أبو الحسن : مرحبا بالزائر . تعالَ يا سـيدى نتحدثْ على هذا الفضاء الطلق . وفى ظل هذا الروضِ الكريم [يسيران قليلا ثم يجلسان] .

المغــربى : أنا يا سـيدى التاجر رجلٌ من أغنياءِ المغرب . حبّبَ الله إلىَّ السـياحةَ فى أرضِــه . أجوبُ مذ كنتُ البر وأرفعُ شراعَ البحــر . الى أن دفعتنى الأسـفارُ منذ أيامٍ الى مدينتِكم هــذه أشبيلية الغنّاء وكنتُ سمعتُ عنهــا وقرأتُ الشيءَ الكثير . فلما نزلتها ودخلتُ فى مواضِعها وخرجتُ ملأتْ نفسِى وشـغَلتْ خاطرى . فاعتزمتُ أن أجعلَها قرارى ومُلقَى عصاىَ فى رِحلةِ الأيام .

أبو الحسن : ما أسعد أشبيلية يا سيدى بابنِها الجديد البار .

المغــربى : مهلا يا سـيدى التاجر وخذ الحـديثَ الى آخره ، لم يبقَ

فى نفسى من هوى الأسفار إلا جولةٌ أجولها فيما وراء هذا الأندلس من ممـالكَ للفرنجة وديار . فاذا كتبَ الله لىَ السلامة، أتيتُ هذه المدينةَ فاتخذتُها وطناً وديارا .

التاجرأبو الحسن : مشيَّعا بالسلامةِ والكرامة .

المغـربى : ولكنى مزمعٌ سفَراً شاقا بعيدا . وما يدرِى المسافر ما وراء الغربةِ من الفُجاءاتِ، وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت، ومعى يا سيدى من كريم الجوهر ونادرِه ما أخشى عليـه السَّرقة أو الضَّياع وأنا منقطعُ الوارثِ لا أهلَ ينتظروننى ولا ولد، ولقد مررتُ بدارِك هـذه مرارا فكنتُ كلما زدتهـا تأملا زادتْنى بهجةً وروعةً . حتى حدثتنِى النفسُ بشرائِهـا .

أبو الحسن [فى غضب] : أأنتَ أيضا ياسيدى أتيتَ تساومُنِى فى الدار !

المغـربى : دعنى أستَتِمَّ يا أبا الحسن فإنى جاد! ما أنا بالمساوِم ولا بالرجلِ الذى يلتمس الفوائدَ لنفسه من مصائبِ الناس؛ ولكنى جئتُ أخطبُ اليـك الدارَ وأجعَلُ مهرَها ما أُقـدِّرُ أنا لا ما تقدرُ أنتَ ولا الناس .

أبو الحسن: ماذا تريدُ ياسيدى؟ بيِّن! صرِّحْ! إنى لا أفهمُ ما تقول!

الشيخ المغربى [ويخرج عقد لؤلؤ من كمه] : هذا عقدٌ من كبيرِ اللؤلؤِ وخالصِه قيمتُه زُهاء المـائةِ ألفِ دينار فخذْه ياسيدى ثمنـا لدارِك

وأبقَ فيها وآحرسها لى حراسة القيِّم الرفيق . فإن لقيتُك سالمـا بعد ثلاثةِ شهورٍ تمضى من يومِنا هذا نزلتُ فى دارِى ؛ وإن مضتْ هذه المدة ولم أعد ، بقيتْ عليك الدار مباركًا لك فيها ولوَلدِك .

أبوالحسن : ولكن يا سيدى هذا الثمنُ كثيرٌ جدا لدار يشتغل بها الآن السمسارُ والدّلّال .

المغـربى : بربك أيها السـيد لا تُعرِض عن خيرٍ ساقه الله اليك ولا تقِف لأهلِ المروءات فى سبيلهم ولا تستنكرْ على رجلٍ قد زاد مالهُ حتى ما يدرى بما يصنعُ به أن يُعين بفَضلةٍ منه كريمًا مثلك طالمـا آسى المجروحَ وأقالَ عثراتِ الكرامِ فأجِز الصفقةَ يا سيدى أجِزْها .

أبو الحسن [ينظر الى العقد قائلا] : أمائةُ ألفِ دينار ؟

المغـربى : أجل يا سيدى فى أقل تقدير .

[أبو الحسن يأخذ العقد ويتأمله ويقلبه وفى هـذه اللحظة يرسو شراع فتنزل منه بنية متنكرة فى ثياب شاب ومعها جوهر ولؤلؤ]

أبوالحسن : ما ذا أرى ؟ ماهذا الشراع ؟ مَن الفتيةُ ياترى ؟ إيذن لى أيها الزائرُ الكريم وانتظرنى فإنى عائد اليك من فورى .

[يتجه أبو الحسن نحو القادمين من الشراع . المغربى يزيل تنكره فاذا هو ابن حيون . حسون يلمح ابن حيون من داخل الكشك فيناديه من وراء مجلسه] .

حسون : تعالَ يابنَ حيون ألاعبْكَ الشِطْرنج .

ابن حيون : لبيك ياسيدى حسون .

[ويدخل ابن حيون الى حسون عند اقتراب أبي الحسن من القادمين يسارع اليه ابن غصين ولؤلؤ وجوهر] .

ابن غصين (بثينة) : السلامُ عليكم ياعمّ .

أبوالحسن : وعليكمُ السلامُ يابنيّ .

ابن غصين : لمن ياعمُّ هذا القصرُ المنيفُ وهذه الربوةُ الغناء ؟

أبوالحسن : هذا الكوخُ يابنى لخادمكم أبى الحسن التاجر .

ابن غصين : تسمِّى غرفةَ الفِردوْس كوخا ! هذا منتهى التواضع ياسيدى التاجر .

أبوالحسن : ومن السيِّد ؟

ابن غصين : ولدُك ابنُ غُصين من أبناء أعيان قرطبة، وهذان جوهر ولؤلؤ صاحباى ورفيقا سفرى .

أبوالحسن : مرحبا مرحبا بشباب قرطبَة النابهْ . إنى أرى الدار قد أعجبتكم يابنىّ وإنه ليسرُّنى ويشرّفُ قدرى أن تدخلوا فتقضوا ساعة مع ولدى حسون فإنى أرى عليكم الفضلَ والأدبَ والمجادَةَ ، وحسون لا يصاحبُ ولا يجالسُ إلا أهلَ الفضلِ والنُّبلِ ، فتفضلوا أيها الأدباء وشرِّفوا أخاكم بزوْرة وأنتم واجدون عند حسون كل ما يشتهى

النّشْءُ المثقّفُ، ففى خزانته ما قدُم وما حدُث من آلات الطربِ حتى عود زرْياب .

جوهر [يصيح] : عودُ زِرْياب ؟

أبوالحسن : أجل يابنى ذلك العودُ الذى على أوتارِه كان عوّاد الأندلُس يُسمِع الخلفاءَ ما توحِى اليه الجن من روائع الأَلحان وتجدون كذلك عند حسون مكتبةً لم يُجمع مثلُها فى البلاد، قد حوتْ الذخائرَ فى كل علم وفنّ .

ابن غصين : وكيف ولعُ فتاك ياسيدى بعلم الفلكَ ؟

أبوالحسن : أشد الولعِ يابنىّ وقد جمع الكثيرَ من نفائس المخطوطاتِ فيه وفى أولها رسائل المنجم الضبىّ .

ابن غصين : المنجم الضبى ؟

أبوالحسن : أجل يابنىّ وأذكر أنه من شهرين أو أكثرَ أو أقلَّ ، قد انتهت الى حسون رسالةٌ مما وضع الضبى فدخلَه من ذلك فرحٌ يشبه الجنون .

ابن غصين [لنفسه] : رسالة للضبى من شهرين أو أكثر أو أقل؟ ! بشراك ياقلب إنه هو ؛ وبشراكِ ياعين ستكتحلين به الساعة [ثم الى أبى الحسن] لقد شُـقْتنا الى ولدِك الفاضل أيها السيد فأين من يستأذن لنا عليه ؟ .

أبوالحسن : يامرحبا ! يامرحبا ! ما أعظم حظ حسون . إتبعون ياسادة اتبعون ، فإنى دليلكم الى ناديه ، وإنى أرجو أن

سيُعجبكم ، إن حسون شابٌّ قد ألقى اللهُ عليه محبة للناس .

[أبو الحسن مع ابن غصين ورفاقه يقفون أمام كشك حسون . ابن غصين يلحظ لعبة الشطرنج] .

أبوالحسن [لابن غصين] : هو ذا حسون ياسيدى يلعب الشطْرنجَ مع صديقٍ لنا قديم كريم لاتخلو منه الدارُ ساعة .

[أبو الحسن ينادى ابنه] .

أبوالحسن : حسون يا ولدى .

حسون : لبيْك .

أبوالحسن : هذا ابن غصين من نبلاءِ فتيان قُرطبةَ ومعه صاحباه ورفيقا سفرِه يريدون أن يجتمعوا بك ساعة .

حسون : يامرحبا ! يامرحبا ! أهلا وسهلا بالسادة .

أبوالحسن : لقد جمعتُك بضيفانِك الكرام ياحسون والآن أتركُكُم فى حراسةِ الله لأعود الى زائرِى المغرِبى فإنه بانتظارِى وأخافُ أن يأخذه القلَق .

[أبو الحسن يرجع يفتش عن المغربى فلا يجده] .

أبوالحسن : يالله . أين الشيخ ؟ أين ذهب [مناديا] سعيد .

الخادم : لبيك يامولاى .

أبوالحسن : ماصنع الله بالشيخ المغرِبى الذى كان ههنا منذ لحظة ؟

سعيد : لا أدرى أين ذهب يامولاى .

أبوالحسن [ينظر فى يده وكان قد نسى فيها عِقدَ اللؤلؤ] .

أبوالحسن [لنفسه] : ويْحى ما ذا أرى ! هذا عقدُ اللؤلؤ فى يدِى نسيتُه

فيها ياأنجلا ! ماذا يقولُ الرجلُ عنِّى ؟

ابن حيون [من داخل الكشك] : سـيدى أبا الحسن لقـد لمحتُ زائرك المغربى خارجا من الدارِ يُهَرول فعبثًا تبحثُ عنه .

[حسون مع ابن غصين ورفاقه وابن حيون] .

ابن غصين [لنفسه] : إلهى . صـدقنى القلب ما حدث وقلّمَا تكذب القلوب، هذا هو شاب قرطبة الذى لم يخل منه القلب دقة [ثم الى حسون] الآن صَدَقتنى الذاكرةُ فنحن ياسـيدى قد تعارفْنا قبل اليوم .

حسـون : وأين كان ذلك ؟ وكيف نلت هذا الشرف ؟

ابن غصين : فى سوق الكتب بقرطبة من نحو شهرين أو أقلَّ أو أكثرَ .

حسـون : لله ما أعظمَ حظِّى . أنتَ والله ياسيدى ذلك الفتى الملثم الذى نازعتُه رسالةَ الضبىِّ ونازعَنيها حتى غلبتُه عليها . نعم أنتَ هو ، وهذا صوته ، وهذه شمائله ، فكيف اهتديتَ الى كوخى أيهـا السيد العـزيز؟ يامرحبا ! يامرحبا ! جعلها الله بيننا صداقة الدهر .

ابن غصين : ولكن أنتَ ياسـيدى تلاعبُ صاحبَك الشِطرنج وأخشى أن أقطعَ عليكما لذّةَ اللعب .

حسـون : لا ياسـيدى هذه لذة نجدها فى كل وقت وأما لقـاؤكم والأنس بكم فلذةُ الدهر وخلسةُ الأيام . تفضلوا ياسادة .

ابن غصين [لجوهر همسا] : إجتهد ياجوهر أن تلاعبَ هذا الشيخَ وتشغَله حتى يخلو لى وجه حسون .

ابن غصين [الى لؤلؤ] : وأنتَ يالؤلؤ إذا أخذا فى اللعب فقمْ عند رأسيهما ولا تدعْهما حتى أهمّ بالانصراف .

جوهر [الى ابن حيون] : أتأذن ياسيدى أن أحلّ محلّ السيد حسون فى ملاعبتِك .

ابن حيون : تفضل ياسيدى خذ مكان حَسون وأرحْنى من قُدرته العجيبة على الظفر بالملاعبين ، ومن حظّه الذى هو أعجبُ من قدرته .

ابن حيون [الى لؤلؤ] : وأنتَ ياسيدى أتحبُّ أن تكونَ من النَّظّارة ؟

لؤلؤ : ياحبذا لو أذنتَ ياسيدى .

[يتأبط ابن غصين ذراع حسون و يبتعدان ناحية] .

ابن غصين : أحقٌّ أننا التقينا ياحسون ؟

حسون : أجل ! وكنا نظن ألا نلتقى .

ابن غصين : عنايةٌ ولطفٌ وتوفيقُ أقدارٍ لأقدار .

حسون : وقديما جمع الله الشتيتين ، وطوى الأرض للبعيدينْ [يجلسان] .

ابن غصين : أتذكر يا حسون قرطبةَ وسوقَ الكتُب ؟

حسون : أجل وأذكر رسالة الضبى وكيف كنا نتنافسُ فيها ، وكيف غلبتُك عليها .

ابن غصين [مبتسما] : وأين هى الآن يا أخى ؟

حسون : هى هاهنا يابن غصين بالقرب منك وفى متناول يدك ، إن شئتَ انتقلنا الى المكتبة فأخذتَها .

ابن غصين : لا يا أخى بل دعْها فى موضِعها من خزانتك فإنها عندك فى الحفظ والصوْن وكأنها عندى ، ويكفينى نظرة ألقيها على الرسالة من حينٍ لحين كلما جئتُ دارك زائرة .

حسون [فى دهش] : زائرة ؟

ابن غصين [لنفسه] : ويْح لسانى قد عثر وكشف السرَّ القدر! .

حسون [مبتسما] : كيف تأنثتَ أخى؟ ما أنتَ الفتى الذكر؟ أما كفاك هـذا الصوتُ الساحر الرنّة اللذيذُ النّبرة حتى جمعتَ اليه أنوثةَ اللفظ ولينَ الكلام ؟

ابن غصين [فى تلجلج وغضب] : عثرةُ لسانٍ يا شاب فمُرّ عليها مرّ الكرام .

حسون : وما أثارك يا أخى وليس فيما قلتُ ما يُغضب ؟

ابن غصين : لنطوِ هـذا الحديثَ ولنرجعْ لما كنّا فيه ... أما يسرّك يا حسون أن أخلق لزيارتك العِلل والأسبابَ وأن أجعلَ رسالةَ الضبى سلّمًا الى دارِك كلما اشتقتُ اليك ؟

حسون : كلّ السرور يابن غصين ، أنا واحدُ أبى لم أعرِفْ عاطفةَ الأخوّة ولم أجدْ لها حنانا ولا رقةً ويخيَّلُ إلىّ منذ عرفتُك أن قلبى يفيض منها وأن وجدانى بها مترَع ؛ فهل ترضانى أخا لك شقيقا برّا بك شفيقا ؟

ابن غصين [ويتنهد] : يا مرحبا وإن كنتَ حللتَ من قلبي محل أخي الظافر من أول يوم .

حسون : ويح أذني ما أسمع ؟ وما أنتَ من الظافرِ يابن غصين ؟ وما الظافرُ منك ؟

ابن غصين [ويتلجلج فى الجواب] : عثرةٌ أخرى ، ويحَ لسانى اختلَّ عصبُه واختلط عضَلُه ، إغفر لى هذه أيضا وآنسها يا حسون .

[وكان ابن غصين ينظر الى رباط بذراع حسون فوثب فى الحديث وقال :]

ابن غصين : وقى الله ذراعَكَ بيمينه يا أخى ، ما هذا المنديل؟ ما وراءه؟

حسون ؟ جُرحٌ اندملَ أكثَرُه وبقِيَ أثَرُه .

ابن غصين : بَعُدَ عنك الشرُّ يا أخى ، من جرحَك ؟

حسون : هذا واحد من جراح لم يكن يُرجى أن أقومَ منها لو لم تُلقِ عليها العناية يدها الآسية الشافية .

ابن غصين : بالله إلا حدّثتنى حديثك . أطَلَعَ عليك اللصوصُ يا أخى فى مكان خالٍ من الناس فأبليْتَ فيهم وأبلوْا فيك ؟ أفاجأتْكَ عِصابة الباز بنِ الأشهب فجرحتَ رِجالها وجرحوك ؟

حسون : لا يا سيدى إن القتالَ الذى شهدتُ أعظمُ شأنا وأنبلُ أقرانا مما ذهبتْ اليه ظنونُك .

ابن غصين : وما خبره وأين كان وكيف ؟

حسون : كان ذلك فى قرطبة .

ابن غصين : قبلَ تلاقينا فى سوق الكتب أو بعدَه ؟

حسون : بل بعد ذلك بأسابيعَ وكنتُ نزيلا على بعض خانات المدينة فكان من عجائب القدر أنى اكتشفت مؤامرة تدبر فى الخان لاغتيال الأمير الظافر و إزالة إمارته عن قرطبة وكان شيطان الفتنة ورأسُ أفعاها هو الأمير حريز بطل الأندلس المشهور فما أطلعتُ على سر المؤامرة وخطط أصحابها حتى ثار ثائرى وغضبتُ لوطنى ولقومى فانسللتُ من الخان ليلا وركبتُ جوادا كان معدًا ليركبَه بوقُ الثورةِ والفتنةِ فعدوتُ حتى أتيتُ قصرَ السوسان فنبهتُ الأميرَ وحاشيتَه وحرسَه ولم أكن الى تلك الساعة رأيتُ الظافرِ وجها لوجه ولا حضرتُ له مجلسا وتأهبَ الجميع للقتال وما لَبِثَ الثوّارُ أن طلعوا علينا آتين من نواحى المدينة يقودهم بطل الأندلس حريز فتلقيناهم بصدورٍ قد رحَّبَتْ بالموتِ ونفوسٍ قد هشّت اليه وذكرنا إذ ذاك الوطنَ وحقّه وأشبيلية ومِنّتها فى الأعناق فحملْنا حملةً تحيد عنها الجبال . وكان الظافرُ طيب الله ثراه .

ابن غصين [منزعجا] : حدّثنى يا سيدى عن الظافر، قل لى كيف قاتل ؟ وكيف قتله الغادرون ؟

حسون : تسألنى عن الظافر كيف قاتل ؟ سلْ حريزا عنه فهو ينبئك أنه الأسد .

ابن غصين : وأين كنتَ من الأمير في ساعة البأس يا سيدى ؟

حسون : كنتُ حوْله أحمى ظهره و يشدّ سيفى سيفَه الى أن ناءت به جراحاتُه فسقط عن جواده وكنتُ أنا أيضا قد أُثخِنْتُ بالجروح فسقطتُ الى جنبه حتى اذا أفقتُ من غشيتى نظرتُ حولى فرأيتُ عند رأس الظافر هذا الصديقَ الذى تراه يلاعب صاحبك الشطرنج الآن .

ابن غصين : وما اسمه يا سيدى ؟

حسون : ابن حيون وهو من رجال العلم والأدب .

ابن غصين : وماذا كان من اهتمامه بالقتيل ؟

حسون : طبَعَ على جبينِه قُبلةً و بكاه ورحّم ثم ألقى عليه رداءَه .

[ابن غصين يدخل فى الاغماء]

حسون : ما هــذا ؟ ماذا أرى ؟ ما أصابك يا أخى ؟ ما لعينَيْــك تغمضان ؟ وما بال رأسِك يميل ؟ ويحى ماذا جنيتُ على الشاب ؟

قد كان عن حديث الظافر لى غِنىً.ربِّ أصاحٍ أنا أم حالم؟

[وعند مايميل ابن غصين فى الاغماءة تقع القلنسوة]

حسون : هذه ضفائرُ فتاة قد هوتْ عنها القلنسوة فانسدلتْ كجنح الليل على جبينٍ كغرّةِ الصباح . أيها الملكُ الكريم لقد عبثتَ بى إذ كنت تتنكر وتترجل فاعبث اليوم بقلبى ما بدا لك

فقـد دبَّ لك الهوى فيـه، إن شئتَ فتنكر، و إن شئت
فاظهر فلأكتمنّ حديثَك ولأقدّ سنّ سرِّ هواك أن يذاع،
و يلاه إن الإغماءَة قد طالتْ . ابن حيون ... ابن حيون.

ابن حيون : لبيك يا سيدى .

حسـون : أنا فى حاجةٍ إليْك تعالَ وحدَك أسرِعْ .

[يحضر ابن حيون]

حسـون : ابنَ حيون أنظر ما ذا ترى لقد أُغمِي على ابن غصين
فاذا الظبيُ مهاةٌ واذا البَدْر يابنَ حيونَ شمس .

ابن حيون [بعد تأمل عميق] : يا لغرائبِ القدر هذا الوجه عرفته وعشِقته
قبل عشرين عاما من هذه الأيام وقد لقِيتُ بعِشقه الدواهى .

حسون [مندهشا] : قبل عشرين عامًا من هذه الأيام ! أهازلٌ أنتَ ياعم؟

ابن حيون : بل جادّ كل الجـدّ يابن أخى . اسمع حسون هـذه بنتُ
الرميكية . هذه أختُ الظافر . هذه بنت ابنِ عباد .

ستـــار

الفصل الرابع

« بإحدى مقاصير قصر الزاهي »

« العبادية والدة الملك ابن عباد مع بثينة »

العبادية : لقد علمتُ يا بثينةُ ما كان من زيارتك لدار التاجر أبي الحسن وجلوسك ساعة مع ولده حسون، وأنك كنتِ في زِي الغلامِ وكان معَك لؤلؤ وجوهر .

بثينة : ومن خبّرك الخبرَ يا جدّة ؟

العبادية : عينٌ من الحب وكلتها بك ترعى خُطاكِ وتحرُس حركاتك وسكناتك وإن كنتُ عظيمةَ الثقة بنفسك الأبيّة العالية وخُلقك الفاضل الشريف .

بثينة : أنتِ إذن يا جدّة كالمنصورِ بنِ أبي عامر لكِ في كل نادٍ عين، وفي كل سامر أُذُن .

العبادية : لا بل أنا عجوزٌ يا بثينةُ والعجائزُ يتلمسنَ الأخبار ، وأنا أرملُ ملكٍ وأُمّ ملكٍ يتجسسُ لي من لم أندبْه للتجسس ويجيئني بالأخبارِ من لم أزوّد . ومهما يكن من الأمرِ

يا بثينة فلا تنسىْ أننا ما أرخيْنا لكِ الحبلَ إلا ونحن نعلم أنكِ الفرسُ النجيبةُ التى إذا أُرخِىَ لها الرسنُ لم يُخشَ لها جِمَاح ولا شُرود .

بثينة : جعلنى الله عند ظنكم يا جدّة . وببّغاؤكِ "نادر" يا جدّة أنسيتِه ؟

العبادية : كيف أنساه يا بثينة وقد كان لدىّ كريما وكان سيدَ الطير وكان أخفَّها ظلا وأبينَها حكاية ونقْلا .

بثينة : أتذكرين يا جدّة كيف أشفقتِ عليه فلم ترضَىْ أن يُنْزَع من ريشِ جناحيه كما يَصنع الناس بالطيرِ الكريم فيأمنون طيرانه وفراره ، وإنما اكتفيتِ بوضع حَلْقةٍ صغيرة من الذهب فى رجلِه اليمنى تمنعه من النهوضِ وتقيده وإن كان فى الظاهرِ حرا يتنقلُ فى نواحِى القصر .

العبادية [مندهشة] : وما ذا أخطر ببّغائى نادر على بالكِ يا بثينة وماذا تريدين بذكر الحلْقة .

بثينة : أريد أن أقولَ لكِ يا جدّة إن حالى كحالِ المرحوم نادر .
قيدتمونى بجوهرٍ ولؤلؤ ومقلاص وبالعيون والأرصاد
ثم زعمتم أنى حرةٌ طليقةٌ أفعلُ ما أشاء .

العبادية [مبتسمة] : ولكن لا أظن حلقةَ الذهب تُثقل رجْلكِ يا بثينة فانى أرى خدمَ أبيك الملك لا يقصرون فى صحبتِك عن

خدمةٍ ولا طاعة . على أن كل هذا لا يهمّنى إنما يهمّنى أن أعلمَ رأيكِ فى الشاب وكيف وجدته . وهل هو على جانبٍ من الفضلِ والعقل يتميز به عن اللّدَاتِ ويسمو به على الأتراب ؟

بثينــة : أما هذا ياجدّة فنعم ، حسون فتى جمُّ العلم غزيرُ الأدبِ عظيم الحظ من الفنون جميعا الى ما وهب له الله من الشجاعةِ التى لا يضارعه فيها اليوم إلا أبى الملك وإلا شابٌّ كان زينَ الشباب ، طاح بالأمس شهيد الكرامة والواجب .

العبادية : أو أبدًا تذكرين الظافر يا بثينة ، دعيه يا ابنتِى فى أعراسِ نعيمه بين شبابِ الجنة ، خبّرينى هل فى شبانِ أمراءِ الديارِ اليوم من هو الكفء لأميرةِ الأندلس وعروسه ؟

بثينة [فى حياء] : هبى الكفءَ موجودًا حاضرًا يا جدّة . أهذا وقتُ الفكرِ فى زواجِى والاهتمامِ بهِ وأنتِ ترينَ الحوادثَ يجدّ جِدّها والأمورَ تسوء مصايرُها . مسكينٌ أبى الملك أصبح لا يدرى من أين يتلقى البلاء : المغاربة وسلطانهم ابن تاشفين يطلعون من البحر ، والأسبان وعاهلهم ألفونس يزحفون من البر ، والملك بينهما كالصيدِ المطارَدِ من جانبيه ، إن تلفّت عن يمينه قُتِل ، وإن تلفّتَ عن شماله أُكِل ، والأندلس فى هذه الأثناء كالأسدِ الواقع فى الحفرة إن سكن

لم ينفعه، وإن تحرك لم يرفعه، وحدةٌ ممزقة، وكلمة متفرقة، وآمال بالعدو معلّقة .

العبادية : إن بناتِ الملوك إذا بلغنَ الى مثلِ سِنكِ يابثينة كان الزواج أزكى بسترهن وأليقَ بجلالهن، وأما ما ذكرتِ من إظلام الجو وجَهامةِ الحوادثِ ، فتلك حال اختلفتْ علينا بها السنون حتى ألِفناها وقد تصير الى الأردأ الأسوأ . وقد يبعثُ الله برياحِ اللطفِ فتعصمُ السفينةَ من الصخرةِ وتقيها كارثةَ الاصطدام . بثينة ! بنيتي أنا الجدّة ولدتُك مرتين إستريحى إلىّ بسرِّك وبُوحى إلىّ بمكنونه فلن تجدى أرحبَ بسرك ولا أرحم لكِ من هذا الصدر . خبريني يا بثينةُ أتعرفين بين أبناء سرَوَاتِ أشبيلية اليوم فتى يُتوسَّم فيه الخيرُ ويُرَجى فى أمرِه الصلاح، ويقول الناس عنه : فلان كفء لبناتِ الملوك ؟ بثينة . لقد مررتِ باسم حسون مرا ولم تصفيه لى . فما شكله ... وما أوصافه ؟

بثينة : هو يا جدّةُ شابٌّ فى أواخر العقد الثالث من عمرِه، رشيقُ القامة فى طولٍ، أسمرُ اللون فاحمُ الشعرِ جَعْدُه ، ساحرُ النظْرة، اذا تَبَسَّم جذبْ، واذا تكلم خلبْ .

العبادية [مبتسمة] : هو إذن فتى جميلٌ يا بثينة ؟

بثينة : جدا وخفيفُ الظل فوقَ ذلك .

العبادية [بعد إطراق] : ولكن ... ...

[فأجفلت الفتاة ولاحظت الجدّة ذلك] .

العبادية : لا تغضبي يا بثينة فليس وراء « ولكن » شيء أقوله يحط من شأن حسون وينزل به عن مرتبة الفتيان الأمجاد . بل كل ما هناك أن الناس يتحدثون اليوم فى همسهم عن نكبة نزلت بالتاجر أبى الحسن فذهبت بمعظم ماله .

بثينة : وما يعيبه من هذا يا جدة ؟ أليس أبو الحسن تاجرا ، والتجارة جزر ومد، وحرمان وجد، ونحس وسعد، فكم من تاجر بمنزلة أبى الحسن قد نكب فذهب عنه كل شيء الا الخلق، ثم لم تمض مدة من الشهور أو الأعوام حتى سمع الناس وتحدثوا أن التاجر فلانا المنكوب تغلب بالخلق على نكبته فعاد دولاب تجارته كأمس عظيم الحركة عميم البركة ، ومثل أبى الحسن فى خلقه وأمانته وشرف اسمه فى الأسواق لا يبعد أن يقوم من هذه السقطة ورجلاه فى عافية .

بثينة [صاغية ثم قائلة] : ... أسمعت يا جدة .

العبادية : أجل ! سمعت تنفسا .

بثينة : ترى من الطارق ؟

[يدخل عليهما الملك] .

الملك : صفحا يا أم وعذرا يابثينة اذا كدرت عليكما الخلوة وقطعت

عليكما الحديثَ فوالله ما دفعني اليكما الساعةَ إلا همٌّ سارٍ وشاغل جليل .

البادية : لا بأس عليك يا بنيّ ، وعافاك الله أيها الملكُ ، تفضلْ ، اجلس .

بثينة : خذْ مكانَك بينْنا يا أبتِ واسترحْ الينا من همومك ، فهاهنا الرحمةُ قد بسطتْ جناحيها : هاهنا الأم والبنت .

[الملك يضع جبينه على كتف بثينة باكيا] .

بثينة [باكية] : ... هوّن عليك يا أبتِ وتجملْ أيها الملك فقبلْك لم تَبْكِ الآساد ، ولا اشتكتِ الأطواد ، ولا ضاقَ البحرُ عن الأعاصيرِ الشداد . تحدّثْ الينا يا أبتِ ولا تيأسْ من روْحِ الله . وعليك بهذه الجدّة الشفيقةِ والأم البَرّةِ فائتمنْها على سرك .

الملك : الملك ألفونس منذ سقطتْ طُلَيْطُلَةُ وقضاها الله له أصبحَ لا يعرفُ لي منزلةً ولا يألوني تحقيراً وإهانة ويطلب المالَ باستكلابٍ وشَرَهٍ والبلادَ باستطالة ولؤمٍ ؛ ومن عجيب أمرِه أنه يغضبُ من جهة فيصخبُ ويتهدّد ، ويلينُ من أخرى فيلومني على الاستغاثة بيوسفَ بن تاشفين واستنجاد جنودِه ، ويدّعي الطاغيةُ أنه أوفى لي منه عهدًا وذمة وأصفى صداقة ومودّة ، وأنني إن حالفت سلطان

المغرب كانت محالفةَ الذئبِ للحَمَل، وأن بربر المغرب اذا دخلوا الأندلس طغَوْا فى البلاد وهدموا بنيـان الحضارة فيها، ومن نكد الدنيـا أن تَصْدُق فينا نبوءة هـذا الناصح الغَاشّ فقد طمِع ضيفُنا ابن تاشفين فى ملكنا وسلطاننا وتطلعتْ نفسُه الى خيراتنـا وأرزاقنا، واستنصرناه على ألفونس فاذا نحن الآن نخشى منـه بطش النصير، واذا أشبيلية قد تضمّنت منى ومنـه العجب، النمر فى قصرٍ هنـاك وراء الضفـة يجتمع به أعدائى وأعداء الأندلس من أبنائه الأندلسيين وصغارِ العقول من الفقهاءِ ومن يلتَفُّ عليهم، وهؤلاء يحسنون له البقاء فى الأندلس واغتنـام الفرصة لضمه الى سلطنته، ويقيمون عنـده الحجج على فسادِ ملوكِ الطوائف ويجعـلوننى الهدف الأوّلَ، وهنـا فى هذا القصر أسد مقلّم الأظفار مغلوبٌ على العرين وحيدٌ من الأنصارِ والأعوان .

الحاجب : شيخٌ يُدعى ابنَ حيون بالباب يا مولاى .

بثينـة : أدخله يا أبى وبالغ فى إكرامه فقد سلَفَ للرجل إحسانٌ إلينا لا ينبغى لنا أن ننساه أبد الدهر .

المـلك : أدخله أيهـا الحاجب ... [يخرج الحاجب من الباب] خبرينى يا بثينة ما إحسان ابن حيون إلينا ؟

بثينـــة : لقد حدثنى من لا أشك فى صدق روايته أن هذا الرجل صلى على أخى الظافر وبكاه وألقى عليه رداءه .

[يدخل ابن حيون فتسدل العبادية وبثينة كلتاهما على وجهها القناع] .

ابن حيون : السلام على الملك ورحمة الله .

المـــلك : وعليكم السلام أيها الولىُّ الشفيق الحميم .

ابن حيون : لو أذِن لى الملك فى خلوة [وقد رأى السيدتين] .

المـــلك : لاتخْشَ شيئا ياابن حيون ،فهذه العبادية ، أمى وهذه بثينة بنتى ،فحديثُك لن يساق إلا الىّ ، وسرُّك لن يجاوزَ أذُنىّ .

ابن حيون : أيها الملك . نحن اليوم أخوف ما كنا على هذه الأوطان ، وفى مثـل ما نحن فيـه تجبُ على الأمةِ النصيحةُ للملك ، وقـد انتهى الى أذنىَّ من بعض الفقهـاء والمختلفين الى ضيْفِك هذا يوسفَ بنِ تاشفين أنه أصبح يرى نفسَه أحقَّ بهذا الملك منكَ وقد رأيتُ رأياً فان أذِن الملك رفعتُه اليه .

المـــلك : وماذا رأيتَ يا أديبَ الأندلس ؟

ابن حيون : إعلم أيهـا الملك أن هـذا الضيْف الذى نصرتَه ونصرَك وحالفتَه وحالفَك وقاتلتَ معـه قتالا يبقى حديثَ الدهر هو أهل لأن يغـدركَ وفى غدرِك ضياعُ الأندلس جميعا ووقوعه فى قبضته البربرية الغاشمة ، وقديمـا كان هـذا سلوكه مع غير واحدٍ من أمراء المغرب فنزعَ منهم ملكَهم

وسلطانَهم وشرَّدهم في الصحارى والقِفار، فلا تفوتنَّك يا مولاى خُطة الحزْمِ والعزمِ فى أمرِ هذا النِّمر ذى العمامةِ والمِسبَحة .

الملك : وماذا تنصح لى أن أصنع ؟

ابن حيون : ألا توطئَ الأرْقم سريرَك ، وأن تقطعَ السيفَ قبل أن يقطعَك، وأن تقبِض من فوْرك على ضيفِك هذا فتَسجنَه ولا تطلِقَه حتى يأمرَ جنودَه بمغادرةِ الأندلسِ برِّه وبحرِه، ثم يحرس أسطولُك البحرَ من كل سفينةٍ مغربية تجرى فيه ، فاذا تمَّ لك ذلك أخذتَ على ابن تاشفين الأقسامَ ألا يعودَ الى الأندلس بعدها أبدا . وخذْ منه الرهائنَ فإن نفسَ الرجل أعزُّ عليه من ملك الأندلس والمغرب مجتمعينِ؛ وله أعداءٌ ببلاده يخشى تحرُّكهم وانتقاضَهم ويخافُ أن ينتهزوا الفرصةَ للاستيلاء على مُلكه ...

العبادية : أيها المتكلمُ المحسنُ والناصح الصادقُ لم يخفَ علىَّ مكانُ مشُورتِك ولكنها خُطة أولها لؤمٌ وآخرها شؤم؛ فان الملِك أكرمُ وأعظمُ من أن يغدر ضيفَه أو يخونَ جارَه أو أن يحفرَ الحفْرَة لمن أقالَ عثْرته .

الملك [لابن حيون وقد رآه يضطرب] : لا تُرَعْ أيها الرجلُ الصادقُ فقد كنا حين نُبِّئنا بوصولك نخوضُ فى هذا الحديث وكان رأيى

كرأيك وأما ابنتى بثينة فلم تكن أبدتْ رأيها بعد .

بثينــــة : مولاى . كِلا الصوتين نبرةُ حق . ونصـيحةُ صِـدق ، إلا أننى أميل إلى الأخذ برأى الأديب ابن حيون .

المـلك : بورِكَ فيكِ يا عقيلةَ الأندلس . مثلُ هذا السموّ فى الرأى وهـذا الحرص على حقيقةِ الملك لا يستغربان من بناتِ الملوك المنشّآت بين أعباءِ الدولة ومهامّ السلطان .

العبادية [معترضة] : ونحنُ بنات الشعبِ ألا يقام لِرأينا وزْن يامولاى ؟

الملك [مبتسما] : أنتنَّ تلِدْنَ الأجسامَ الصـحيحةَ والقـلوبَ الجريئةَ وتُحسِنَّ تدبير البيوتِ ولكن لا تَصلُحْنَ لسياسة الممالك .

الملك [لابن حيون] : لو تيقنتُ يا بنَ حيون أن جمهورَ شبانِ الأندلس يشاطرونكَ أنتَ وبثينةَ الرأىَ لـما تأخرتُ ساعةً عن العملِ بمـا تُشيرانِ به علىّ .

[يدخل مقلاص] .

المـلك : كيف قضيْتَ ليلتك عنـد ضيفِنا أميرِ المسلمينَ يوسفَ ابن تاشفين ؟

مقلاص : كانَتْ ليلتى يا مولاى ونحن، كما تعلم، فى آذار وفى إبانِ القمـر طويلةً مظلمةً باردةً لم أُضحِك فيها السـلطان مرة ولكن بكيتُ مرارًا ولم أجلبْ له السرورَ ولكن جلبتُ لنفسى الغمّ .

الملك [متعجبا] : ما هذا الخبرُ يا مقلاص ؟

مقلاص : وُجِدتُ يا مولاى بِحضرةِ أميرٍ للسلمين لا يفهـمُ كلامَ العربِ وعنـد رأسِه تَرجمان من كتّابه يفسرله كل مانقوله معشرَ العـرب فى مجلســه ويشرح لكلٍ منا ما يشرِّفه به السلطان من الخطاب .

المـلك : ثم ما ذا ؟

مقلاص : رأيتُ هنـاك يا مولاى مـلوكَ الأندلسِ وُقـوفاً ببـاب السلطان متنافسين فى إذنه .

الملك [ملتفتا الى زائره قائلا] : أسمعتَ يا بن حيون ... ؟ أعرفْتَ ... ثم ما ذا يا مقلاص ؟

مقلاص : ورأيتُ ثَمَّ فقـهاءَ الأندلسِ بعمائمهـم المكبَّرة وجُبَبِهـم الموسعةِ يتمسحون بالأعتاب .

المـلك : أسمعتَ يابنَ حيون ! أعرفتَ ؟

المـلك : ثم ما ذا يا مقلاص ؟ قل لنا كيف وجدتَ السلطان .

مقلاص : بوٌّ عليه طيلسان وبُومَةٌ فى يدها صوبلجان .

المـلك : وما ذا قال لك حين وقعتْ عينُه عليك ؟

مقلاص : أدخلتُ اليه يا مولاى فحقّقني من رأسي لقدَمى ثم قال لى : أأنتَ الرجلُ الذى عمَـلُه إضحاكُ الملكِ بنِ عباد وتلهيـةُ أسرتِه ؟

الملك : فما كان جوابك ؟

مقلاص : قلتُ له أجل أيها السلطان أنا نديمُ الملكِ وسميرُه .

الملك : فماذا قال لك ؟

مقلاص : قال لى إذاً فاضحكنا نحن أيضا . عجّل أضحكنا .

الملك : فماذا صنعتَ ؟

مقلاص : دخلنى خجلٌ شديد ووقفتُ ساعةً أنظرُ فى ثيابى ولم يفتحِ الله علىّ بشىءٍ يَضحَك منه ضيفُك الكريم . فهممْتُ بأن أقبِضَ على السلطانِ بكلتا يدىّ وأقذفَ به من النافذة .

الملك : وماذا منعك يا مقلاص ؟

مقلاص : سيفُه المعروضُ على حِجرِه والزبانيةُ القائمون عند رأسِه وبجانبيه كأنهم العفاريت، إلا أن السلطانَ لحظ حرَجَ موقفى فأشارَ بإخراجى فخضرَ من رجاله من صرفنى فى وقاحةٍ وإذلالٍ فخرجتُ وأنا لا أدرى فيمَ طلبَنى الرجل . وأحمد الله على أن لم يجعلنى فى خدمةِ سلطانٍ مثله له وجْهٌ كوجهِ الأسد لا يعرِفُ التبسمَ ولا البشاشةَ .

[مقلاص يريد أن ينقذ الملك من تأثره] .

مقلاص : لقد وجدتُ ضالتى يا مولاى .

الملك : وما ضالتك التى وجدتَ ؟ وهل عدتَ تهذى يا مقلاص ؟

مقلاص : لا يا مولاى ... ألا تذكر أنى كنتُ من الإعجابِ بجمالِ

الأميرة بثينة وكمالها وسمو منزلتها بين عقائل الشرق والغرب بحيثُ لا أعتقد أن بين فتيانِ الدنيا من هو أهل لأن يخطبها إليك .

الملك [مبتسما] : والآن هل وجدتَهُ يا مقلاص ... ومن تُرى يكون؟

مقلاص : فتى جرئ جميل رأيته يوم الزّلاقةِ يحمى ظهركَ هو وحريزُ وابنُ لاطون فظل سحابةَ نهارِه معلناً بالسيفِ دونَك حامياً لحوزتِك حتى لقِيَ البطلان حريز وابن لاطون حتفَيْهِما وحُمِل هو إلى داره مُثخنًا بالجِراح .

الملك : ومن الفتى يا مقلاص ؟

مقلاص : هو يا مولاى أجملُ فتيان الأندلس وأشجعُهم وهو الآن طريحُ الفِراش ما يزال يشكو من جراحِه .

الملك : ومن يكون ... ؟ وما آسمه ؟

مقلاص : هو حسون ابن التاجر أبى الحسن .

ابن حبون : لقد صدقَ فتاك يا مولاى فإنى كنتُ عند حسون الليلةَ البارحةَ أعودُه وقد أفاقَ من جراحِه وقصَّ علىّ حديثَ بلائِه يوم الزّلاقة حين اشتدّ القتالُ بينك وبين الإفرنج فأخبرنى أنه رأى يومئذٍ جوادَك وقد ضعُفَ وخارَ من شدّة الجِراح فقدّم لك الصاعقة : أميرَ الجيادِ، فركبتهُ وكانَ تحت البازِ بن الأشهب لِصّ الأندلسِ فخرَّ عنه قتيلا .

الملك [مندهشا] : أوكان البــازُ بن الأشهبِ بجانبي يقاتِلُ معى أعداءَ البـــلاد ؟

ابن حبون : نعم يا مولاى ، و يقول حسون إنه أَبْلى يومئذٍ بلاءً عظيما .

المـــلك : يا لله ! أيكون اللصوصُ أوفى للأندلس من أمرائه وفقهائِه ، وأبذلَ منهم للأرواحِ دونَ لوائه ... وأين حسون الآن ؟

ابن حبون : هو كما ذكرتُ لمولاى مايزال طريحَ الفراشِ ولكن لاخطرَ على حياته .

المـــلك : الآن تذهبُ أنت ومقلاص فتنوبان عنى فى عيادته والسؤالِ عن أمرِه و إبلاغِه تحيتى وَشكرى وما أُعِدُّ له من جليــل المكافأة .

بثينـــة : وأنا أيضا أبلغ حسونا تحيتى وشكرى يا سيدى ابنَ حبون وأرجو أن يعلم أن أختَ الظافرِ لم تنْســهُ ساعةً وأنها قد جمعتْ له هذه الأزهارَ بيدِها فاحملْها اليه وقل له لو كنتُ الملك لبعثتُ له بالغارِ فى الأزهار و بالصولجان مع الريحان .

[وفى هذه الأثناء يدخل جوهر]

جـــوهر : مولاى . لقد وَقَع ما كنا نحاذِرُ وحلَّ بأشبيليةَ البلاء .

المعتمـــد : البلاء ! تريد أن الصديقَ قد انقلبَ وأن الحليفَ قد عادَ حرْبا . هذا ما خِفتُ أن يكون وقد كان .

[يدخل لؤلؤ]

لـؤلـؤ : أغِثْ أيهـا الملك المدينـةَ أدركْها فقـد خلّفتُها وجنودُ السلطان يتدفّعون فيها كالسيل بعد ما اشتدّ ضغْطهم على باب الفرج وأقاموا ساعةً يدفعونه حتى ناءت به الكثرةُ فانفتح فنفذوا منـه الى كل مكان فاْخرج يا مولاى فقاتِل حتى تَستنقِذَ الوطنَ أو تموتَ دونَه وإلا فالنجاءَ النجاءَ ! !

الملك [مغضبا] : تدعونى يا شابُّ للفِرار . هيهاتَ هيهاتْ . الأسَـدُ لايهربُ ولا يخـافُ الموتَ . [ملتفتا الى جوهر] خبرنى يا جوهر أين كان فتيانُ أشبيلية وأين همُ الآن .

جـوهر : قَبَع الفِتْيانُ فى البيوتِ يا مولاى إلا مائة أو مادونَ المـائة شهِدوا معك يوم الزّلاقة وتعلّموا منك الكرَّ والإقدام واليوْمَ قد لبِسوا السلاحَ وخرجوا يلاقونَ الموتَ وهم بانتظارِك ليجعلوك اللواء الذى تسيل نفوسُهم عليه .

المـلك : يا بشراى مِائةُ شاب وطّنوا النفسَ على الموتِ ؛ أما والله لو صـدقتَ يا جوهر لكان لى من مائة قلبٍ مجتمعـة مؤتلفةٍ متواصيةٍ بالحق وبالموتِ قوّةٌ أرمى بهـا فى العُبابِ فيمّحى وأقذفُ بهـا على الجبـال فتزول . البـدارَ البدارَ ياجوهر إمضِ لوقتِك فضعْ بيدِك السرْجَ على الصاعقـةِ والقَنِى به على الباب .

جوهر [بصوت عال] : أبشرى أشبيلية هـذا الليث قـد تحرك لنصرةِ العرين .

الملك : فى ذمةِ الله وفى حفظهِ يابنات المعتمد .

بثينـة : فى درعٍ من وقايةِ الله يا أبى فإنى أراك أخذتَ سيفَك ونسيتَ درعَك .

[المعتمد وهو منطلق والسيف مسلول فى يده ولا درع عليه]

الملك : إن يسلبِ القومُ العِـدا ملْكِى وتُسلمْنِى الجموع
فالقلبُ بين ضلوعِه لم تُسـلمِ القلبَ الضلوع
قد رمتُ يوم نزالِهـم ألا تحصِّـنَنِى الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميـص على الحشا شىء دَفوع
ما سرتُ قط الى القتـا لِ وكان من أملى الرجوع
شيَمُ الألى أنا منهـمُ والأصلُ تَتْبعـهُ الفُروع

ستـــار

الفصل الخامس

المنظر الأول

« فى دار أبى الحسن ، فى غرفة حسون ، حسون »

« راقد على سريره مريضا وأبوه أبو الحسن داخل عليه »

أبوالحسن: قم يا حسون، إنهض . إن العناية بلغتك مُناك . وشفتْ بعودك للحياة أباك .

[ينتفض حسون من رقدته جالسا]

أوشكُ يابنى أن أهتدى لموضع بثينة فهل تساعدُنى وهلْ تخفُّ معى لعلنا نجدُ الكنزَ الضائعَ . ونظفرُ بالأمنيَّـةِ المنشـــودة .

حسون : ماذا حدثَ يا أبى ؟ ماذا رأيتَ أو سمعتَ حتى امتلأتَ تفاؤلا واستبشارا ؟

أبوالحسن: أتذكر يا بنىّ خاتمَ الزُّمرُّد الذى كانتْ تطوف علينا به فى سوق الجوهر سيدة كهْلة من وصائف القصر وهى

تبحث عن توأمٍ للفص وتلتمسه فلا تجده ؟

حسون : نعم يا أبى ! وأذكر أنها كانت تنسب الخاتمَ للأميرة بثينةَ وتصفُ رغبةَ الأميرةِ فى الحصولِ على فصٍ يكون فى حجمهِ وصفاء لونه وسلامتِه من العيبِ ليكونَ لها من الجوهرتينِ قرطٌ عزيزُ المثال .

أبوالحسن : فاعلم إذن يابنىّ أنى كنتُ منذ حين فى سوقِ الجوهرِ فما راعنى إلا رجلٌ قوىٌّ من قوادِ المغاربة قد جعل يطوف على التجارِ يعرض عليهم حِلْية فأخذتْها عينى فاذا هى خاتمُ الأميرة بفصّه . فتريثتُ الى أن كفَّ المساومون وكان آخر ثمن بُذل فى الخاتم ثلاثَ مائة دينار وكان التجار يقولون للرجلِ : لوجئتنا بصنوِ هذا الحجرِ لنقدناك فيهما الألف أو زدنا . وهناك أومأتُ الى الرجلِ أن يتبعنِى فتبعنى . فانتبذتُ به ناحية وقلت له : أنا آخذ الخاتمَ بالثلاثِ مئة وأزيدُك عليها مئة إن أنتَ صدّقتنى الخبرَ عن مصدرِهِ وكيف وصلَ اليك ومن أى المعادنِ التقطته ؟ فانبسط الرجل وتهلل وقال : هذه الحلية ياسيدى بجاريةٍ من قصرِ ابنِ عباد وقعتْ لى سبيّةً يوم هجومنا على أشبيلية ، فنقلتها إلى دارى فلم أجدْ عليها غير هذه الحِلْية وكانت فى يدها فأخذتُها ، وأما الجارية فلم أجدْها مغنمًا بل مغرمًا . فإنها سقيمة مُستَسْلِمة للأحزانِ

طعامُها قليـل ، ونومها غِرار ، ودمعها لا يرقأ حزنا على سادتِهـا . ونحن لا نحب من النساءِ إلا القويّاتِ الصـحيحاتِ الأبدان . ولا أكتمك ياسيدى أنى بأمرِ الجاريةِ تعِبٌ ويودّى لو تخلصتُ منها . فقلتُ له : خذِ الآنَ الأربعِ مِئـةِ دينار مباركًا لكَ فيهـا . واعلمْ أننى طبيبٌ مولَعٌ بالمشاهدَةِ والتجرِيب، كثيرُ الاعتناءِ بالمريض البائس فلو مضيتَ بى الى بيتِـك لعلّنى أنظرُ الجـاريةَ ، فأَعرِف علّتَهـا وأصِف لهـا دواءَها أو أخفف آلامَها . فقمْنا فمضـينا حتى انتهيْنا الى دارِه . وهنَـاك أدخَلَنِى على الجاريةِ المريضـةِ فدنوتُ منهـا . وقلتُ لها : عوفيتِ يا جارية ولا خوفَ عليك إن شاء الله تعالى .

حســون : والنُّونةُ يا أبت ؟

أبوالحسن : رأيتُهـا ياحسون فوجدتُها فوْق ماكنتَ تصفُ لى لطفًا وجمالا . والتفتُّ الى القائدِ البربرى فقلتُ له : أو تعطينى هـذه الصبيَّةَ أيضًا وأنا أُتمِهـا لك خمسَ مِائة . فتهلل الرجل وارتاح وقال: خذها يا سيدى وأرحْنى منها وداوِها أنت فعساها تصِحُّ على يديك فنقدتُه المـائةَ الخامسةَ وحملت الصبيَّةَ فوقَ ذراعىَ وخرجتُ بها فركبتُ جوادى وأركبتُها خلفى وانطلقتُ حتى بلغتُ الدار .

حسون [صائحا] : وأين هى يا أبتِ ؟ أتُراها هى بنُوتَها . ربى اجعلها هى ... وأين تركتَها يا أبى؟ وفى أى موضعٍ من الدار؟

[يفتح باب غرفة مجاورة فاذا بثينة من وراء الباب . فيندفع اليها حسون صائحا ...] .

حسـون : بثينة ! حبيبتى ! أميرتى .

بثينـة : حسون ! أخى ! صديقى !

أبو الحسن [قاطعا عليهما لذة اللقاء والحديث] : الآن وقـد جمعتُك يا أميرةُ بصـديقِك وخادمِك حسون ، أستـاذِنُ فى الخروج الى بعض شأنى ساعةً .

بثينـة : لا يا عمّ ، بل ابقَ إلبثْ ، إن وجودَك معنا يَزيد الموقفَ بهجة وطيباً .

أبوالحسن : إن أذنتِ يا أميرة فإن احتجابى عنكما لن يطول .

حسـون : بل ابق معنا يا أبى .

أبوالحسن : سأعود يابنى، سأرجع [ويخرج أبو الحسن] .

حسـون [الى بثينة] : ماذا أقول يا أميرتى ؟ وكيفَ القولُ فى هـذه الساعة التى هى العمر ؟

بثينـة : أنظر حسون كيف جعـل الله هـذا اللقاءَ الذى لم يكن فى الحُسبان عِوضًا لمـا فاتنَا من نعيم الحياةِ ومتاعِها، حتى كدتُ أنسى ذلك الملكَ المنزوعَ والسلطانَ الذاهبَ، وأسلو القصورَ وضجّتها، والدولةَ وأعراسها .

حسون : وأنا أيضا يابثينة غفرتُ هفواتِ الدهرِ لهذه الساعةِ المحسنةِ الطيبة وإن لم أخلُ ولن أخلو ما عشتُ من تفجّع للوطنِ العزيز وتوجّع لرزئه الجليل .

بثينة [متنهدة، مكتئبة بعد انبساط] : آه من الدهر ماذا صنَع . لطف الله بِك يا أشبيلية فيما حلَّ عليكِ من قَضائِه، وجعلَ وطأةَ المغارِبة خفيفة عليكِ وعلى جاراتِك من حواضر الأندلس .

حسون [مطرقا متنهدا] : دهرٌ بينيه يابثينةُ قلّب، ودنيا تَرتَجِلُ العجائب، وملِك فى السماء يفعلُ بعباده على الأرض مايشاء، ولكن ...

بثينة حبيبتى أميرتى : أحقٌّ أننا التقيْنا فى يقْظَةٍ أم نحنُ خيالان فى رؤْيا من الأحلام ؟ أتذكرين يا بثينةُ يوْم السوق ؟ أتذكرين قُرْطبةَ ؟ أتذكرين رسالةَ الضبيِّ للهِ ما كان أحلاكِ يومئذٍ وراءَ اللِّثام .

بثينة : وأنتَ يا حسون للهِ ما كان أجمَلَك وأكملك وكأنّك يومئذ ملِك . كنتَ تنتقل فى السوق فتخرُج من مكتبةٍ وتدخلُ غيرها وتدعُ كتابا وتأخذُ كتاباً والكتبُ حلْية الشباب النابهِ وجمال الفتُوةِ النابغَة .

حسون : أتذكرين كلَّ ذلك يا بثينة ؟

بثينة : أجلْ كلُّ ما كانَ من حركاتِك وسكناتِك يومئذٍ ومن عباراتِك وإشاراتِك ما يزالُ مُرتَسِماً فى ذهنى لم تمحُه الشهورُ ولا أحسبُ الموْتَ يمحوه .

حسون [يمد يده الى ذقنها و يقول] : بحياتى نونة كالدرة المكنونهْ.

بثينة [فى شىء من الغضب] : نحّ يدك يابن أبى الحسن لا تمـدّها الى ما لم تملك بعدْ .

حسون [فى انكسار واستحياء] : اغفريها للحب وللشوق يا أميرة . شُلَّتْ يدى إنْ كنتُ أضمرتُ سوءا أو هممْتُ بريبة .

[يدخل أبو الحسن] .

حسـون : أبى ! أبى لم تُبطئْ يا أبى .

ابوالحسن : كنتُ مشغولا يا بنى بتهيئة طعامِ الأميرة .

بثينـة : جزاكَ الله خيرا ياعمُّ ومدّ لنا عمرَك .

أبو الحسن [يأخذ مجلسه و يقول] : الحمد لله ياولدىَّ على هذا التلاقى الذى هو من توفيق الأقدار، فاليوم جمعكما هذا البيتُ على أثرِ الكارثة وفى أعقاب النكبةِ كما يجمع الشاطئُ الغريقيْن سالميْن بالرمقِ من انكسارِ الفلْكِ ومن ثوْرة الريح وطغْيانِ المـاء، لقد تعارفْتما بالأمسِ فنشأتْ بينكما الألْفة وأنِست الروحُ بالروح، وانعطَف القلْبُ على القلْبِ وقديمًا يا أميرةُ صاهرتِ الملوكُ الرعيةَ وأبوكِ، لطف الله به وبنا جميعا فيما حل علينا من قضائِه وقدرِه، أسمحُ مَن سنَّ هذه السُّنةَ، فرفَع على عرش أشبيلية امرأةً من رعاياه، هى الرميكية خيرةُ الملِكات، وأمُّ العقائل من البَنين والبناتِ .

بثينة : أراكَ ياعمُّ قد بالغتَ فى مؤاساتى حتى أنكرتَ يدَ الدهر وما نالتْ منا ، وإلا فأينَ أبى منِّى اليوم؟ وأين مِنْ أبى مُلكهُ ؟ وهل نحنُ اليوم إلا سوقةٌ تَتَنَصَّفُ .

ابو الحسن : هوّنى عليك يا أميرةُ إن أباكِ لم يخلعْه قومُه ، ولكن خلعَه المُغيرون ، فهو فى نفوسنا معشرَ الأشبيليين حاضرُ الجلالَةِ ماثلُ المهابَة مرتسِمُ الكرامَة ؛ يومُه كأمسِه وغدُه كيومِه وإن اختلفَ به اليوم والغدُ وتصرفتْ به الأيام؛ وأنتِ أيتها الأميرة فما زلتِ بنتَ الملكِ المعتمد بن عباد ، فهل تَرْضين الى القبولِ بابنى هذا حسون زوْجا .

حسون : وخادما أمينا .

بثينة : هذا كثيرٌ فى المجاملةِ والمواساةِ ياعمُّ ، إن حسونًا كفءٌ ويشهدُ الله أنى أحبُّه وأجِلُّه ، وكأنى بأبى فى غَيابةِ سجْنِه ينظرُ إليه كما أنظرُه . ويشعُر نحوَه بمثل ما أشعُر . ولكنى ، كما علمتَ ، مفجوعة : بأبٍ منكوبٍ ، ملكٍ معْزولٍ ، أُخذَ فغُلَّ ، ثم سُربلَ الذلَّ ، وبأمٍ ثكلى وإخوةٍ قتْلَى ، وأخواتٍ أميراتٍ يتغذيْنَ من الحلْم ويتكسبْنَ من غزْلِ أيديهن .

حسون : قد قلتِ حقا يا أميرةُ وأنا لا أتخيل الجميعَ هناك إلا مشغولين بكِ فوقَ شغلهم . يفتّشون عن مكانِك بعين

حيّرها الدمعُ، ويد قصّرها العجزُ، وقدمٍ أعجزَها القيْد .

بثينـــة : إذًا فأنتَ ترى أنه ليس من الحق ولا من البرِ، أن أُوجَدَ ولا يعلَمون أنى وُجدتُ ، وأن أتزوّجَ ولا يعلمونَ كيف وَبِمن تزوّجْتُ . وماذا يقولون اذا همْ عَلِمُوا أنى اتخذت من مأتمهم عُرسا !؟

ابن حيون [يدخل ويقول بعد أن رأى بثينة ، مندهشا] : سـيدتى بثينة هنا ؟ الأميرةُ بخيرٍ ؟ ما أعظمَ منّتَكَ يارب .

[ويحاول تقبيل يد الأميرة فتمنعها منه] .

بثينـــة : لا تفعلْ ياعمِّ . أهـــلا بك يا بنَ حيون . وما أعظـــمَ سروري بِلِقائِكَ .

أبوالحسن : أنظر ابن حيون نعمةَ اللهِ علينا بهذا الكنْزِ الغالى الثمين .

حسون : أنظر ابنَ حيونَ كيف ردّ الله علىّ راحتى ورُوحى، وأعادَ لى الحياةَ والآمال .

ابن حيون : الحمد لله الذى جعَلَكِ فى حفْظِه وفى ذمّتِـه ، والذى ردّكِ الينا سالمةً ياسيدتى، والذى هو قادرٌ على أن يجمعكِ بأهلِكِ كأمسِ على جاهِ الأمورِ وفى ظل شاهقةِ القُصور .

بثينـــة : لقد رأينا ياعم كيف تنتقل الأمور، وعرفْنا كيف تُبَـدّلُ أهلَها القصور، وأصبحتُ لا أطمع من دهرى إلا بالعيْش فى ظل الأمنِ والخمول، وبين قلبٍ يحنو، ونفسٍ تعطف .

ابن حيون: طيبي إذن ياسيدتي نفْسا ، إن الذي تشتهين قد اجتمع لك ، فالأمن والسكون لا تعدمينهما في جناحٍ من هذه الدار ، أو في جَنَّةٍ بعيدةٍ عن النَّاس من جنَّاتِ هذا الإقليم وإني أشهَد أن هذا الفتى يُحبك وأنك ملءُ قلبه وملءُ نفسه ، فاقرني ياسيدتي حياتَك بحياته تجدي حقيقةَ السعادةِ في ظل الحبِّ المشتركِ الصحيح .

حسون : كان هذا حديثنا ياعم قبل حضورك ولكنْ لم نكن فرغْنا منه بعدُ . وقد رأت الأميرةُ برأَّبوالديها وقضاءً لحقِّهما أن يكون زواجُنا بعيْن أبيها وسمْعه ، و بقَبول أمِّها ورِضاها . وكل زواج رَضيه الأبوانِ وارتاحا اليه سبَقتْ فيه البَركةُ وطافَتْ به الرحمة .

ابن حيون: لقد رأيتم صوابًا . وانفقتم على واجبٍ كان لا بدّ من قضائه . ولا أظنُّ هذا المقترَحَ لقِيَ منكَ اعتراضا يا أبا الحسن .

أبو الحسن: معاذَ الله يابنَ حيون ، ولكن ألا ترَىَ معي أن حسُّونا والأميرةَ محتاجان الى الراحةِ واستردادِ العافية .

ابن حيون: أما هذا فنعم ، ولِم لا يقْضي حسونٌ والأميرةُ هذا الأسبوعَ في هذهِ الدار حتى تثوبَ اليهما القوّةُ والعافي: .

حسون [مقاطعا]: أتأذنُ لي يا أبي إن رأيتُ غيرَ رأيك ورأيِ ابنِ حيون ؟

أبوالحسن : تكلمْ يابنىّ فأنتَ حر .

ابن حيون : الكلامُ حر فى الأندلس ياحسونُ فتكلمْ .

حسون : أرى يا أبى أن نُسافر من ليلتنا بل من ساعتِنا الى أغماتِ مَنفَى الملك .

أبوالحسن : نُسافِر ؟ نسافِر الساعة ؟ وأنتَ والأميرةُ على هذه الحال من الضعف والسقام ؟

حسون : أبى إنى ذكرت الوالدين المنكوبين نخيل إلىّ أنهما على جمرٍ لا يهدأ من اللوعةِ لاحتجابِ الأميرةِ والشك المعذِّب فى مصيرها ، وليس ما ذكرتما أنتَ وابنُ حيون من ضَعْفى وضعف الأميرة وأثرِ السقمِ والهم فينا إلا حالًا لا يلبثُ الشبابُ أن يتغلَّبَ عليه ، فالمروءَةُ تأمُرنا جميعا ألا نؤَخّر الرحيلَ ساعة إذ لا معنى للإسْعافِ اذا هو لم يعجّل ولم يأتِ فى أوانِه .

ابن حيون : هو ذاك .

أبوالحسن : نعم الرأى .

الأميرة : ليكُنْ كما أشارَ حسون .

حسون : إذاً فهلُمّ أبىَ ، هلُمَّ ابنَ حيون ، هلُمّى يا أميرة . الساعةَ نسافر فنقضِى الواجبَ .

الأميرة : ويقضى اللهُ ما يشاءُ .

[يدخل الغلمان الخدم صائحين]

الغلمـان : سـيدى أبا الحسن ، سيدى حسون ، سيدى ابن حيون خُذوا حِذْركم أدرِكوا الدّارَ .

حسـون : ما يُزعجكْم أيها الغلمـان . وماذا حوْل الدار . إنى أسمعُ ضجة . أما تسمعُ يابن حَيون أما تسمعُ ضجةً يا أبى ؟

بثينـــة : حوْل الدارِ ضجة .

خادم من الغلمان : أولئك جنودُ المغاربة يا سيدى .

الثلاثة [بصوت واحد] : جنودُ المغاربة حول الدار ! ؟

الخـادم : أجل أتوْا يسألوننا عن بنْتِ الملك هل رأيناها وهـل آويناها وهم يقولون إنهـا دخلتِ الدار منذُ ساعةٍ وإنهـا طريدةُ الأمير سيرى بن أبى بكر قائد جيش الفتح .

حسون مغضبا : بل قلْ جيش الفضْح يا غلامُ، فقد باء الغادِرون بفَضيحةِ الأبد .

بثينـــة : الآن فهمتُ يا حســون ، الآن أدركتُ ياعمّ أن سـيرى ابن أبى بكر كان قد خطبَنى الى أبى، وكان رسُوله يومئذ القاضى ابنَ أدهم، فلا أبى أجابَ، ولا أنا قبِلْت، ولعله تذكرنى اليوم فهو يريد أن يأخذنى عنْوة .

حسـون : لا والله يا بنتَ الملك لا تسـقطُ من رأسـكِ شعْرةٌ وأنا حىٌّ ساعدى معى وسيْفى بيَدى مسلول . . .

[وبعد إطراق يستأنف ويقول]

لا بأس عليك يا أميرة، ولا علينا يا أبى من طلعة البربر
ولا من اجتماعهم بنا فى هذه الحجرة أو غيرها من الدار
ولا خوف علينا من فتشهم ونبشهم .

التاجر : وكيف يا حسون ؟ وماذا إعترمت أن تصنع لتدفع عنا هذا البلاء ؟

حسون [بعد فكرة قصيرة] : إسمع يا أبى ! فى هذه الغرفة صندوق مملوء من ثياب المغاربة وأسلحتهم فاتبعونى . أدخلوا من فوركم فاخلعوا ثيابكم هذه وخذوا من الصندوق ما شئتم من ثياب المغاربة وتزيّوا بزى القوم ثم نخرج فنختلط بهم أو ندعهم وسبيلهم ونأخذ سبيلا غيره .

ابن حيون : هو لاشك سبيل الفرار .

حسون [مبتسما] : هو ذاك يابن حيون : السرعة، السرعة [ثم ملتفتا الى الأميرة] أدخلى يا أميرة، أسرعى، أسرعى لايضيعنّ الوقت فإن الجنود فى طلبنا .

[يدخل الأربعة الحجرة ثم يخرجون فى الزى المغربى و يكون الجنود قد دخلوا وهم يقولون]

الجنود [داخل المنزل لبعضهم] : فتشوا، انبشوا .

الأربعة [خارجين قائلين] : فتّشوا، انبشوا [و يكررون ذلك ثم ينسلون من المكان]

المنظر الثانى

« تحت أسوار السجن فى أغمات حيث ترى بثينة وحسون »
« وأبو الحسن وابن حيون على مقربة من حارس السجن »

ابن حيون : ها نحنُ أولاءِ شارَفْنا أغمات، وهذه أيها الرِّفاق هى القلْعة التى شاءتِ الأقدارُ أن يسجَن فيها الملِك العظيم .

حسون : يا لعجائبِ القدرِ ! قريةٌ ظلّتِ القرونَ الطوالَ مجهولةً مغمورةً أصبحتِ اليومَ تسافِرُ اليها الظنونُ من كل مكان وتشتغِلُ ممالكُ العرب بها و بنزيلِها العظيم وتشرف الأسماعُ لمطالِع قوافيه و ينتظر الرواةُ مايقول فيه الشعراءُ من كلماتِ التوجعِ ونفثاتِ الحنين .

بثينة [بعد إطراق واستعبار] : يالقسوةِ القدَر ! أهذا قفصُ الأسد يابنَ حيون ؟ أههنا منفى الملائك من عقائل بنى عبّاد؟ تبًّا لك يابنَ تاشفين . ما كان أبخلَ جاهَك على الكِرام ، وما كان أكثرك فى القُيود على الأحرار .

ابن حيون : صهْ أيتها الأميرة فهذا السجّان ينظرُ الينا وقد يُدخِل الريبة

فى نفسه أن يسمعَ منكِ مثلَ هذا الكلام .

حسون : كفْكِفِى الدمعَ يابثينة وأقلّى الجزعَ ولا تنسيْ أن وراء هذه الجُدران جروحا من الدهْرِ لم يبق لها بلسمٌ سواكِ . فكونى المفاجأةَ الشافية وآطلِعى عليها بابتسامِك الحُلْو طلوعَ العافية .

السجان : مَنِ الرجال ؟ ما تبتغون ؟ متى كان حرمُ السجن موضعَ وقوف وهمْس ؟

حسون : نحنُ أيها السجان طائفة من آل الملِك السجين وحاشيتِه، قد هزَّنا الشوقُ إلى زيارَته والسؤالِ عن أمرِه، فادخلْ فاستأذنْ لنا عليه .

السجان : أنسيتَ أيها الفتى أن هذه القلعةَ هي من السُّجونِ التى يُعيرها السلطانُ اهتمامَه فلا يدخُلها داخلٌ إلا بإذنه ولايخرجُ منها خارجٌ الا بإذنِه، فهل بأيديكم جوازٌ يبيح لكم زيارةَ السجين ؟

ابن حيون : أنتَ تعلم يا أخى أن مولانا السلطانَ يعطِف على أسيرِه الكريم .

السجان [متهكما]: كلَّ العطف ياسيدى .

ابن حيون : وأنتَ تعلم أن الملِك المعتمِد قد رُخِّص له من أوّلِ يومٍ فى إستصحابِ من يشاء من خواصه وذوى قرباه .

السجان : أعلمُ هذا أيها السيد .

ابن حيون: فكر إذن فى الأمرِ قليلا . فليس يضرُّك أن تُدخِلنا إلى المِلك وتتركَنا عنده ساعةً لعلنا نَشفى برؤيته وحديثِه الشوقَ والصبابةَ [ويلقى للحارس صرة ويقول] ومعَ ذلكَ فإليك هـذه الصرَّة خذْها وبلِّغنا الأرَب .

السجان [وهو يضع الصرة فى كمه] : ما هذا أيها السيد ؟

ابن حيون : هذا . قد لمستَه بيدِك ، هذا قد سمِعْت رنينَه بأذُنِك ، هذا يا أخى هو الذهَبُ مفْتاحُ الأبوابِ كلِّها إلا بابَ الجنـة .

الحارس : هذا كثير يا سيدى .

ابن حيون : بل هو قليلٌ يا أخى . ولك مثلُه عنـد خروجِنا من حضرة الملك .

السجان : لقد سألتمونى أمراً صعبًا أيها السـيد ... ومع ذلك ... فما فى دخولكم من بأس . تفضّلوا يا سادة أُدخلوا .

المنظر الثالث

« فى سجن أغمات حيث يرى ابن عباد بين أمه وزوجه وسائر أولاده »
« وحاشيته ، وقد شاعت آية البؤس والتعاسة فى وجوه الجميع ، اليوم »
« يوم عيد وقد جلس ابن عباد يتلقى تحية العيد وكلهم صامت خاشع ... »

ابن عباد [مناجيا نفسه] :

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا
فساءك العيدُ فى "أغمات" مأسورا
ترى بنـاتك فى الأطمارِ جائعـةً
يَغزِلْنَ للناسِ، ما يملكْنَ قِطْمـيرا
برزْنَ نحوَك للتسليمِ خاشـعةً
أبصارهُنَّ حسـيرات مكاسـيرا
يطأْن فى الطين والأقدامُ حافيـةٌ
كأنهـا لم تطأْ مِسْـكا وكافـورا
من عاشَ بعدَك فى مُلك يُسرُّ بهِ
فإنمـا عاشَ بالأحلام مَغْـرورا

الرميكية[للملك] : الأميراتُ بين يديْك أيها الملك أتيْن يهنّئنَك بالعيد .

الملـــك : يامرْحباً بهن، ولا مرْحبا بالعيد ولا أهلا به ...

عيــد ! بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيــد ؟ إذهبْ فأنتَ على السجين حرام .

الملك[لنفسه]: لكن لا يابنَ عباد! بعضَ هذا الجزع ،وتجلدْ رحمةً بهذه الحمائم الموثقةِ ورفْقا بهذه الملائكة المسجونة .

الملك [الى بناته] : العيد يا أخواتِ بثينة يوم يجمعُنا بأختِكُن .

إحدى الأميرات : والعيدُ أيضا أيهـا الملك يوم يرُد الله عليــك مُلْكك فتدخلَ أشبيليةَ عليك التاجُ مُؤتلقا .

أميرةأخرى : بل العيــدُ يا أبى يوم تدخل الأندلسَ فتنتقلُ فى ربوعه وممالكه تنقُّلَ الشمس من دارٍ إلى دار .

الملـــك : تقبَّل الله منكنَّ يا عبّاديّات ورحِمنى .

إحدى الأميرات : هوّنْ عليك يا أبى فلم يدمْ فى النّعيم والبؤْس قوْم .

الملـــك : لقــد هوّن الصبرُ الحوادثَ عندى يابنتاه إلا حادثةً أصبحَ القلبُ جريحا لا يقْوى على حملِها .

الأمــيرة : وما تلك يا أبتِ .

الملـــك : أختُكِ بثينــة واحتجابُها الذى طال . وانقطاعُ الأخبــارِ عن مصيرِها .

الرميكيــة : لا تيأسْ من رحمةِ الله أيها الملكُ وانتظر فرَجا يأتى به من

فضله وكَرَمه فهذا قلبي يحدِّثُني، وقلما كذبتْ قلوبُ الأمّهات، أنَّ بثينة قد وُجدتْ وأنها بخيرٍ وأمان .

الملك [باكيا متضرعا] : اللهمّ اسمع من أمَتِكَ الرميكية وتقبلْ منها وأَدخلْ علينَا السرور ولو ساعةً فإن عهدَنا به عهدٌ طويل .

[الأميرات يتصنتن]

الرميكية : ضجة ؟

أميرة : حركة !

أخرى : نقل أقدام !

الملك : أنظُرى يارميكية من الداخلون ؟ فإن عيْنِى أصبحتْ لا تحقّقُ الأشباح .

الرميكية : سلّم اللهُ عيْنَيْكَ يامولاى وأقرّهُما بلقاء بُثينة .

[وفى هذه الأثناء يثب مقلاص الى الباب ويرجع مع]
[القادمين يقبل ثوب الأميرة بحرارة قائلا ...] .

مقلاص : سيدتى بثينة! أميرتى، ياطربا، يافرحا .

الملك : ربِّ ما أرحمك ماذا أرى ؟ ماذا أسمع ؟ ما هذا الطيبُ الذكىّ؟ إنى أجدُ ريحَ بثينة .

الرميكية : بشراكَ ياقلبُ هذه فَلْذتُك رُدّت إليك [وملتفتة الى الملك] سيّدى مليكى أنظرْ كيف استجابَ الله لنا، هذه بُثينة مقبلة .

الملك : أجل !. أيتها الملكة أقبلتِ الدنيا وعادَ الزمان .

إحدى الأميرات : بثينة ! أختى ! ما أعظمَ إحسانَك يارب .

الملك : بنيتى . بنيتى . تعالَىْ املئى ذراعىَّ كما كنتِ تختبئينَ فيهما طفْلة صغيرة .

[تنطرح بثينة على صدر والدها وتقول] .

بثينة : أبى ، سيدى ، ملكى ، لا بأس عليك يا ملكَ العرب .

الملك : ولا عليكِ يا ابنتى ، ثق بالله وأمّلى وجهه الكريم .

بثينة : الصبرُ منكَ تعلمناهُ يا مِلكَ الصابرين .

الملك : والجدّةُ يا بثينة أنسيتِها ؟ أما بِك اليها شوْق؟ أما لها مِنْك قُبْلة ؟

بثينة [وتقوم لجدتها] : جدّتى ، سيدتى ، ملكتى : شهد اللهُ ما خلا القلبُ منك ساعةً وما وُجدتُ فى مَضيقٍ فذكرتُك إلا انقلبَ فَضاءً ولا أظن الله سبحانه وتعالى أنقذنى من البلاء وردنى الى أسرتى وردّ أسرتى الىّ إلا ببركة رِضاكِ أطال الله عمرَكِ يا جدّة .

[ثم ترتمى بثينة فى أحضان العبادية جدتها وهى محاطة بأخواتها الأميرات تقبلهن و يقبلنها حتى اطردت اللوعة وأخذها أبواها بينهما وانتظمت من الأسرة الملكية حلقة . وهناك أقبل الملك على ابنته بالحديث فقال] .

الملك : خبرينى كيفَ اختُطفتِ يا بثينةُ وما حديثُ اختفائك ؟ حدِّثينيه ليطمئنَّ قلبى فقد كان احتجابُك فى غليانِ الفتنة ،

وعند احتـدام الفتن يُذال المصونُ ويهون العـزيز وتقعُ الفُجاءات

بثينـة : ولكن الله سلّم يا أ كرمَ الآباء .

المـلك : حدثينا إذن حديثَك يا بثينة .

بثينـة : حديثي يا أبتِ عجيبٌ ، محزنٌ ، سارٌّ ، مبكٍ ، مضحكٌ ، حافلٌ بعجائبِ القدَرِ ومدهشاتِ القضاء .

الأميرات : حدِّثينا إياهُ يا أختُ إسرعي .

الرميكيـة : قُصّي علينا يا بنتاه قصّتك .

المـلك : خبريني الخبَرَ يا بثينة .

بثينـة : نظرتُ اليك يا أبي يومَ هجوم المغاربة على أشبيلية فرأيتُك تقاتِلُ وحيداً قليـلَ العونِ والمساعدِ وكأن أشبيليـةَ تحتكَ العـرينُ وكأنك الأسَـدُ يحمى عرينَه شبرًا شِـبرًا ، فقلتُ في نفسي : علامَ تعلّمتُ الضربَ بالسيفِ وعلامَ كنت أركضُ جيادَ الخيـلِ في سهولِ الأندلسِ وحُزونِه إذا أنا لم أقضِ حقّ وطني ولم أحمِ ظهـرَ أبي في هـذا اليـوم العصيب ، ثم جعلتُ على وجهي لِثـاما وتقلدتُ سـيفاً وامتطيتُ جوادا وخرجتُ من القصرِ فلحقتُ بك ، فلم أزلْ أقاتل بجانبك وأحامي عنك حتى امتدّتْ اليّ يد من حديد فاقتلعتْني من سرجي فأُغمي عليّ ثم انتبهتُ فاذا أنا في دارِ رجل من قوّاد المغرب .

الملك [مغضبا] : وماذا لقيت من المغربى الخشن ؟

بثينـــة : لم ألق إلا خيرا يا أبي فقـد كان الرجل دينا وتقيا ، أخذ ما علىّ من الحلىّ .

المــلك : ياله من دينّ تقىّ .

بثينـــة : ... وتركنى فلبثتُ فى داره أياما طريحة الفـراش لا أذوق طعاما ولا أطعمُ رُقادا ، الا ما كان من سَكرات الحمى ، الى أن سخرت لى العناية هذا الشيخ الجليل [وتشير الى أبى الحسن] فلم أدر كيف نُقلتُ الى داره وهى لا تقلُّ رِفْعة عن قديم دُورِنا ولا تقصر بَشاشة نعْمَةٍ عن زائل قصورنا .

الملك [فى قلق وغضب ، مشيرا الى حسون] : وهذا الشابُّ من يكونُ يابثينة؟

بثينـــة : هـذا حسون ابنُ هذا الشـيخ الجليل التاجر أبى الحسن ، وله عنـدنا أيادٍ يذكرُها مِثلُك فى الكرام فقـد قاتل الثوار فى قُرطبة مع أخى الظـافر رحمةُ الله عليه ، وأبلى فى وقعـة الزّلاقة بلاءً كان له خطره وأثرُه فى ذلك الفتح المبين .

ابن حيون [متدخلا فى الحديث] : وقد جُرِحَ حسون يومئذٍ جُرحا بليغًا فحملَ الى دارِه فما بلغها حتى بعثَ اليكَ أيها الملك بالصاعقة ذلك الجواد الأشقر فركبتَه والوطيسُ حامٍ والحربُ مجنونة فكان ميمونَ الناصية ، من صوته نصرتَ ، وفى ركابه غلَبتَ وظهــرتَ .

الملك [مفكرا مهتما] : الصاعقة؟ فرس الباز بن الأشهب لِصّ الأندلس؟

ابن حيون : أجل أيها الملك، وقد كان تحتك فى وقعة الدهر بين الفرنجة والمسلمين، وكان رابع فرس قُدّم لك يومئذٍ وأنت كلما هلك تحتكَ فرس ركبتَ غيره .

العبادية : أعرفتَ محدِّثكَ هذا يا مولاى ؟

الملك : كيفَ أجهلُه أو أنساه، هـذا ابنُ حيون الذى زارَنا فى أشبيلية ونصحَ لنا فلم نَسمعْ منه، فالحمد لله الذى جمعنا به حتى نَستأنفَ شكر إحسانه .

ابن حيون : أطال الله بقاءك يا مولاى وأعانَك على هذه الشـدّة وردّك الى ديارِك وردّ ديارَك اليك .

الملك : وأنتَ ياحسون فقد ذُكر لى بلاؤُك ووصفتَ عندى كثيرا بمحاسن الصفاتِ ومكارِم الأخلاق .

حسون : مدّ الله حياتَك يا مولاى وظلّلك برعايتِه وأمانِه .

بثينـة : إيذن لى يا أبى أن أعترفَ فى مجلسك بأنى كنتُ فى بعض أيام تنكُّرى أجتمعُ بهـذا الشاب النبيل فلا أجدُ إلا أدبًا حسنا ، وعلما جمًّا ، وخُلقا فاضلا ، وشمائلَ قد لا توجد فى أبناءِ الملوك .

الملك : أتذكرين يا بثينة كيف كنتُ معكِ ضدّ القاضى ابنِ أدهم حين جاءنى يخطُبكِ للأمير، سيرى بنِ أبى بكر .

بثينـــة : أذكر ذلك يا أبى ولا أنسى لك فضلك ما حييتُ .

المـــلك : إعلمى إذن يا بنية أن الأوان قد آن وأن الإسلام لا دير فيه ولا رهبانية ،وأن السجن قد يحتمله الطفلُ وقد يُطيقه الكهل ولكنه يرهقُ الشبابَ ويزهقه فلن نرضى لك أن تشاطرينا هذا المنزل الخشن وهذه العيشة الجافيةَ وإن قلبى ليحدثنى بأن ألفةً روحيّة قد انعقدتْ بينـك وبين هـذا الشاب النبيل .

حسون [متدخلا] : أيأذن لى الملك إن عرضتُ أن قوله الكريم إنما يُعربُ عما أكن لسيدتى الأميرةِ من الحبِّ والإجلال وإنى أجدُ أقصى التشريف وغايةَ السـعادة أن يأذن لى الملك فى أن أخطبَ سيدتى بثينةَ اليه .

الملك [ملتفتا الى بثينة] : وأنتِ ماذا تقولين يا بثينة ؟

«الأميرة تغضى حياءً وتسكت»

المـــلك : منَ الصمتِ كلام .

الملك [الى أبو الحسن] : وأنتَ يا أبا الحسن ماذا ترى ؟

ابو الحسن : ما يرى الملك أفضلُ . فبما شئتَ فُزنا يا مولاى ؟

الملك [الى الرميكية] : والملكةُ ما رأيها ؟

الملـــكة : قد أمرتَ يامولاى بما فيـه الخيرُ جعله الله زَواجا مقرونًا بالسعادةِ واليُمْن .

ابن حيون : أيأذنُ الملك لي أنا الآخر بالكلام ؟

الملك : تكلمْ يابن حيون فقد عرفتُ مودّتك وإخلاصك، وتبينتُ نُصحَك واهتمامَك، ولو لم يكن من احسانك إليَّ والى أسرتي إلا تجشمُ هذه الرحلة من أشبيلية الى أغمات لكفى في باب المروءة والوفاء .

ابن حيون : لا شكرَ على واجبٍ يا مولاي . وقد طوّقتني الساعة منّةً لا يَنزِعُها من عُنقي الموتُ بما سمعتَ من بناءِ هذا الفتى الماجدِ الباسلِ بهذه الأميرة التي لم يلدِ الملوكُ أجملَ ولا أكملَ منها : والآن بقي لي ملتمسٌ أرجو أن يُجيبني الملكُ اليه .

الملك : اقترحْ يابن حيون تجد مَلِيًّا مجيبا فيماتبلغه قدرةُ ملكٍ مخلوع .

[يخرج ابن حيون جرابا كان قد شدّه على وسطه ثم يفتحه وينثره عند قدمى الملك فتنتثر اللالىء واليواقيت] .

الملكة : جواهر !

الأميرات : لآلئ ! يواقيت !

مقلاص : يالك من كنزٍ ثمينٍ غالٍ .

الملك [وهو يحنى على الكنز] : ومن أينَ لك يا بنَ حيون كلُّ هذا المالِ؟ فمثلُ هذا الكنزِ لا يكون إلا ذخيرةَ ملِكٍ وابنِ مُلوك .

ابن حيون : هو كما تقول يا مولاي، فهذا الكنزُ كان لملكٍ ووارث

ملوك، فساقته العناية إلىّ، واليوم قد هلك أصحابه وبادوا فأصبح لى وحدي أتصرف به كيف أشاء، وبالأمس قومت هذه الجواهر بما يقرب من ألف ألف دينار وأنا مقسم هذا المال ثلاثة أقسام: ثلث تأخذه أنت يامولاى فتستعين به على ما أنت فيه من الشدة، وثلث يأخذه حسون وزوجته فيعيشان به رغدا، والثلث الثالث يكون لى ولأبى الحسن التاجر هذا [مشيرا إلى أبى الحسن] نؤسس به تجارة ونعقد بيننا شركة نتحدى بها تجارات الفرنجة فى الأندلس .

أبو الحسن : ... الله أكبر أنت والله هو المغربى الذى دخل علىّ دارى وما كنت يومئذ إلا متنكرا محسنا للتنكر فأسوت جرحى وحفظت علىّ دارى واستنقذتنى من عوادى البؤس والفاقة ، والآن ترد علىّ تجارتى وتشاطرنى كرائم مالك ، فبأى لسان أؤدى شكر إحسانك .

ابن حيون : بل اشكر الله يا أخى فإنى لم أعنك بمالى ولكن أعنتك بماله ولا أجدنى صنعت يومئذ إلا واجبا ولا قضيت إلا دينا علىّ للصداقة القديمة وللود الصحيح .

الملك : لكن ما عساى أصنع يابن حيون بهذه الثروة وأنا كما ترانى صيد فى قيد، وأسد فى صفد، وحى فى قبر، ودنيا فى شبر إنها لهبة مشكورة وإن كانت والحرمان سواء .

ابن حيون : لقد أراحَ الله بالكَ من هــذه الناحيةِ يا مولاى وأذهبَ عنك الحزْن ... أما يسُرك يا مولاى أن تنتقلَ من هــذه القلعةِ المظلمةِ الرطبة الى منزلٍ بظاهرِ المدينةِ جديدِ البناءِ حسنِ الأثاثِ تُحيــطُ به الأشجارُ من كل جانب ، فتنزلَه وقد طرحتَ هذه القيود فتستقبل الرّاحة والحرّيةَ وتتمتعَ بالعُزلةِ التى هامَ بها العقلاءُ فى كل زمان .

الملــك : ومن لى بهذا الذى تصفُ يابنَ حيون ؟

ابن حيون : بل هو أمرٌ قــد تمّ يا مولاى فقدْ فُرِغ من شِرائه وتأثيثه وتهيئتِه لنزولِك به فى أهلِك وعيالِك ، وأما النُّقْلة فغــداً أو بعدَه إن شاءَ الله .

الملــك : وابنُ تاشفين ... ؟

ابن حيون : هو الذى أمر أن يكون كلُّ ذلك وقد تذكر كلمتكَ المشهورةَ التى سارتْ مثلا فى فَمِ الأندلس : إذ سئلت أىّ المفزعيْن أحبُّ اليك : ملك الأسبان أم سـلطان المغرب فأجبتَ (رعْىُ الجمال ولا رعْىُ الخنازير) فأمر أن يحمل الَيك فى المنزلِ الجديدِ بعيران من نجائبِ إبلِهِ لترعاهما له فى خميــلةِ الدارِ الجــديدة .

الملك [فى إطراق] : الآن تذكرتُ . لقد سئلتُ مرة فى مجلس الحكم إن كان لابدّ لى أن أخضعَ لسلطان أو أدينَ لملكٍ بالطاعة

فأى الملكين أفضل وأى السلطانين أختار : سلطان المغرب أم ملك الأسبان؟ فأجبتُ : (أرعى الجمال عند أمير المسلمين ولا أرعى الخنازير لملك الأسبان) وأظن أن عبارتى هذه نُقلت يومذاك إلى ابن تاشفين فأعجبْته ووجدَها شريفة.

بثينة : ولكن المكافأة كانت غيرَ شريفة يا أبى .

الملك : تريدين يا بثينة أن تقولى إنَّ مروءة السلطان لم تزد على أن جعلنى راعيًا لجماله بعد ما سلبَ نعمتى واغتصبَ مُلْكى ونفانى أنا وأسرتى فى أغمات .

الرميكية : هذا جهدُ الرجُلِ فى المروءة يا مولاى وهذه غايةُ كَرَمه فلا تكلفه فوقَ قدْرةِ باعه ولا تسألْه ما ليسَ فى طِباعه .

الملك [لابن حيون] : ولكن قل لى يابنَ حيون من أخذ لنا هذا التافهَ القليلَ من ذلك السلطان الشحيح ؟ ومن ذا الذى اجتهد لنا وصنع كلّ هذا حتى غيَّر رأىَ السلطان وصرَفه عن العُنْفِ إلى اللُّطْف ؟

بثينة : هو لاشك ابنُ حيون يا مولاى .

ابن حيون : ما اجتهدتُ ولا صنعتُ شيئا ولكن المالَ صنَع .

[ويشير الى الجواهر] .

الملك : سنذكر لك هذه المِنّة الكبرى يابنَ حيون .

بثينة : وتلك المِنّةُ الصغرى أتذكرها للسلطان يا مولاى، فقد تسمَّحَ فنقلكَ من هذه القلْعة إلى دار غيرها فى أغمات .

المــالك : [ويبتسم ابتسامة تهكم] : أعيشُ فيهـا حرًّا طليقا بينْ أربعـة
جدران وأرعى له فيها الجمال .

بثينــة : أنتَ الذى رعيتَ لله فى أشبيلية قوما شيّدوا حضارَة الإسلام
وشعْبا عزيزا كريمًا طالمـا ناضلَ دونَ عرينه وصَبَرَ على
عَداوةِ الفرنجة وتألّبهم عليه القرونَ الطوال .

ستار الختام

قمبيز

تمهيد

تمهيد

زمن الرواية : القرن السادس قبل الميلاد

مكان الرواية : مصر [منفيس : عاصمة مصر.
صا الحجر : مقرّ البلاط .]

فارس/سوس : عاصمة الفرس .

أشخاص الرواية :

أمازيس : فرعون مصر.

بسامتيك : ابن أمازيس وولى العهد

نفريت : ابنة أمازيس .

نتيتاس : ابنة فرعون أبرياس المقتول .

قمبيز : ملك الفرس .

تاسو : حارس فرعون .

تئى : وصيفة الملكة نتيتاس .

فانيس : كان قائداً فى الجيش المصرى ثم التحق بالجيش الفارسى .

رجال الوفد الفارسي .

رجال البلاط الفرعوني .

قواد ـ جند : من الفرس .

ساحر ـ راقصات ـ أقزام ،
نوب ـ حجاب ـ خدم] مصريون .

الفصل الأول

المنظر الأول

« بالقرب من غرفة فرعون أمازيس الخاصة — »
« تاسو حارس فرعون — الأميرة نفريت ابنة الملك »

تاسو : نفريت ؟

نفريت : تاسو ها هنا ؟

تاسو : وهل أرى إلا هنا ؟
أحوم حول صنمي وحول هذي القدم

نفريت [وتنظر إلى رجلها] :
حول رجلي أنا ؟

تاسو : أجل حول هذا المشهد والزبد والنمير الصافي
ما بك يا نفريت ما هذا الأسى ؟
ما بال عينيك تريدان البكا ؟

نفريت : تسألني ما بي ألم تعلم بما
جرى ويجرى من بخائع القضا

تاسو : ماذا جرى ؟ ماذا لقيت ملكتى
من القضاء؟ مُهجتى لكِ الفِدا
نفريت : كيف لقد كان حسابى أننا بخطبة الفُرْس تحطَّمنا معا
تاسو : إذن فهذا الغمّ من جرائها
وأنتِ تخشَيْنَ الرحيلَ والنوى
نفريت : وأنتَ يا تاسو ألم تحزنْ ؟
تاسو : أنا ! أحزنُ يا سلطانةَ الفُرْس أنا؟
لقد ودِدْتُ لو ملَكتِ كلَّ ما
دبَّ على الأرض وطار فى السما
نفريت : وفُرْقتى تاسو ألم تحزنْ لها ؟
تاسو : ولِمْ وفى الفرس يكون الملتقى
نفريت : فى فارس ! فى قصر زوجى نلتقى !
يا عجبا ماذا تقولُ يا فتى؟
تاسو : لِمَ لا أليسَ فى القصورِ سَعَة ؟ نحن هناكَ مثلُ ما نحن هنا
نفريت : هذا الغَباءُ منكَ تاسو عجبٌ ليس المكانان على حدٍ سَوا
هنا أبى إذا بكَيْتُ رقّ لى وإن شفعتُ لكَ عنده عفا
تاسو : وثَمَّ ؟
نفريت : وحشٌ فى إهاب بَشَرٍ يقتُلُ من يلقى
تاسو : أمون نجّنا !
وماذا اعتزمت ؟
نفريت : اعتزمت البقاء بمصرَ وفى ظلِّ هذى الحُجَرْ

وبالقُرْب منكَ ومن والدىّ ومن إخوتى وذوىَّ الأُخر
وبين وصيفاتىَ المُشْفِقاتِ ومن لاذ بى من بنات الأُسر

تاسو : ولكن تُرى كيف تجرى الأمورُ اذا علمتْ فارسٌ بالخبر
وقيل لقمبيزَ فرعونُ خالَـــــفَ وابنةُ فرعونَ لم تَأْتمر

نفريت : ليجر بما شاء تاسو القضاء ليجر بما شاء تاسو القَدَر
لتُخْسَفْ بقوم عليها البلادُ ليستأخرِ النيلُ أو ينفَجِرْ!
فأما أنا فسأبقى هنا وإن غَضِبَتْ فارسٌ والنمِرْ
فما الفرسُ لى بالصحاب الكرام
ولا لىَ فى مُلْكهم من وَطَرْ

[تدخل الأميرة نتيتاس]

نفريت : من المفاجئ (سيسا) ؟

نتيتاس : نفريت، تاسو سلام
نفريتُ أصغى لقولى فلى إليك كلامُ

نفريت : تكلمى واقتصدى

نتيتاس : ولم أزل مقتصده

نفريت : أتيتنى شامتَةً

نتيتاس : لا بل أتيتُ مُسْعدَه
آمون قد مدّ إليـــك والى الوادى يده
وقد كفى مصرَ البلا ء والخطوبَ المُرْعدَه
وكفَّ عن ربوعنا نارَ المجوس الموقَدَه

نفريت : وكيف نيتيتاس ماذا ما الخبر؟
كيف جرى غيرَ مجاريه القدَرْ؟

تاسو : ماالأمر يا سيدتى !

نتيتاس : وأىُّ شأنٍ فيه لكْ
إن الذى عندىَ لا يُقال إلا للملكْ

نفريت : عجِّلى إذن . قابلى أبى . أسرعى الخطى . اذهبى اذهبى
واسأليه ما . شئتِ واطلبى

نتيتاس : ما ذاك ما ذا تقولين فكّرى يا نَفرْتُ
ما جئتُ أطلبُ مالًا ولا لهذا حضرتُ
ولا بشأنك يا بنتَ آمزيس افتكرتُ

نفريت : ففيمَ إذن جئتِ يا نتيتاسُ وفى أى شأن نقلتِ القدَمْ؟

نتيتاس : أتيتُ لمصلحة الآخرين وجئتُ لشأنٍ جليل العِظَمْ
أتيتُ لأفدى بنفسى البلادَ وأدفعَ عن مصرَ شرَّ العجَمْ
فإنكِ إن ترفضى يزحفوا كزحفِ الذئاب ونحن الغَنَمْ
فأين أبوك ؟

نفريت : تُلاقينَهُ هنالك فى حجرات الصَّنَمْ

نتيتاس : سأمضى إليه

نفريت [بتهكم] اذهبى أفدى البلادَ

نتيتاس : نعم أنا أفدى بلادى نعم

[تخرج]

نفريت : يا ويحها قـد ذهبتْ دعـنىَ تاسـو واذهبِ

[يخرج تاسو] :

« يدخل فرعون الى غرفته الخاصة وهى حجرة صغيرة أرضيتها من الخشب »
« الملون وفيها بضعة كراسى خفيفة الوزن لطيفة الصنع وفى زواياها الأربع »
« تماثيل للآلهة المصرية ، فرعون أمازيس وابنه نفريت مقبلة عليه »

نفريت : سـلامٌ ياضُحى الشمس ويا غُـرَّةَ آبيـس
ويا حامىَ سـايس ويا حارسَ منفيس

فرعون : سلامٌ شبهَ هاتـور سـلامٌ شبهَ إيزيس

نفريت : أبى بـل نادنى يا بنـتَ فرعونَ أمازيس

فرعون : تعـالَىْ أقبـلى يا بنـتَ فرعونَ أمازيس
وفى أىِّ جليـل أو صـغيرٍ يا تُـرَى جئتِ
تعـالَىْ ياابْنَتِى قـولى سَـلى فرعون ما شئْت

نفريت : أبى كُنْ لى فقـد أظلـمت الدنيـا بعينَيَّـا

فرعون : سأجْلُو ظُلمـةَ الدنيـا وأمحـوها بكـفَّيَّا

[تغرورق عيناها بالدموع]

بنتـاه

نفريت : ربّاهُ أبى

فرعون : ما للأمـيرة باكيه ؟

هـلّا ادّخرتِ لمصْرعى هـذى الدموع الغاليَـه

نفريت : لا بـل تعيشُ أبى وتبْـقَ فى ظِـلالِ العافيـه
أبتِ تهيّـأ كـلُّ شى ءٍ للنّـوَى المُتَراميَـه
فغَـدًا تضُمنىَ القصـو رُ بـل القبـورُ الخافيه

فى ألفِ جاريـةٍ لقمـــبيزٍ هنـاكَ وجاريــه
من كل مُرسَلةٍ هنـا لكَ كالبهيمـةِ سائبَـهْ
فبـأىِّ قلـبٍ يـا مليـــكُ تَزُفُّـنى للطاغيَـهْ
أدرِكْ فتاتَك قد ضَعُفـــتُ عن احتمالِ الداهيَه

[تدخل نتيتاس على فرعون أمازيس فتخرج نفريت]

فرعون : مَن أرى؟ إنه لحظٌّ عظيمٌ نتاسٌ بنت الفراعين عندى
نتيتاس : التحايا لعرش مصرَ المُفدّى من أبى ساكنِ السماء وجدّى
فرعون : وسلامُ الذى على عرش مصرٍ لا تؤدينه ؟
نتيتاس : وكيف أؤدّى؟
ليس بين ابنَـةٍ وساقى أبيها غصة الموتِ من سلامٍ و ودٍّ
إن حقدى عليك دَيْنٌ و بِرٌّ ربّ لا يذهبِ العقوقُ بحقدى
فرعون : احملى الحقدَ لى أو اطّرحيه وتمـنّىْ علىّ جاهى ورِفدى
اسألى تسألى أباك
نتيتاس : معــاذ الـــلهِ فرعونُ ليس دنياكَ قصدى
فرعون : فيمَ قد جئتِنى إذن ؟
نتيتاس : فى حقــوقٍ لديارى وواجبٍ نحو مَهدى
كلَّ عامٍ صبيةٌ من بنات الـــشــعب
تُختارُ للفداء فتفدى
تنزِلُ النيــلَ غيرَ عائفــةٍ ما فيه للموتِ من حياضٍ ووِرْد

سمحتْ بالحياةِ فى غير سأمٍ
وسخَتْ بالشباب فى غيرِ زُهدِ
تبتغى الخصْبَ والرخاءَ وتحتا لُ لعيشٍ بنعمةِ النيلِ رَغدِ
سقتِ الناسَ بعدَها لم تقُلْ قو لَ الأنانى: يهلك الناسُ بعدى
فرعون : قد عرفنا فهل تريدينَ منا أن تكونى التى تُزَف ونُهدى
نتيتاس : تلك مدفوعةٌ يقدِّمُها الكُهانُ
لكننى تقدَّمتُ وحدِى
[مستمرة] : جئتُ أفدى وطنى من سيفِ قمبيزَ ونارِه
جئتُ أفدى وطنى من دَنَس الفتحِ وعارِه
فرعون : ما ذا تقولين فيمَ جئتِ ؟ قمبيزُ؟ الفتحُ؟ مصر؟ فارسُ؟
نتيتاس : نفريتُ تأبى المسيرَ هبْ لى مكانَها منك يا أمازِسْ
فرعون : أنتِ التى تذهبين ؟
نتيتاس : لم لا ؟
فرعون : هذا هو النُّبلُ يا نتاتِسْ
بخٍ بخٍ ، بنت أخى
نتيتاس [فى استنكار] : أنتَ يا قاتلُ عمى ؟ ؟
لا ... أبى يا أبى وأمى
فرعون : لا تدفعى نَتيتَ بى ولا تُهيجى غضَبى
نتيتاس [كالمستهزئة] : تقتُلُنى مثلَ أبى!
[تظهر نفريت بالباب]

فرعون : من ذا أرى؟ نفريت، هيّا ادخلى لا تقف الأقمارُ بالبابِ
نفريت : تحيةُ الشمسِ لسارعٍ أبى تحيةُ المعبودِ آمونِ

فرعون : أتيتِ لِوَفْقِ الأمرِ نفريتُ أقبلى
تعالَىْ أُنبّئكِ الجليلَ تعالِى
نفريت : أبى لا جليلَ اليوم إلا مُصيبتى
فرعون : ولكنّها قد آذنتْ بزوالِ
نفريت : وكيف وأنّى ؟

فرعون : أنظرى مَنْ بمجلسى وأىٌّ رسولٍ للسماءِ حيالِى
إلهٌ لعمرى فى قميص أميرةٍ سعى لك يحبو عونَه وسعى لى

نفريت : نتيتاسُ أختى ؟

نتيتاس [لنفسها] : أختُها ما أضلّها متى كان بيتى مجرمينَ وآلِى

نفريت [لأبيها بعد أن سمعت نجواها] :
أبى ألهذا تجمعُ اليومَ بيننا وما لابنةِ الملكِ القديمِ وما لِى

فرعون : لقد بعثتْها الشمسُ من عرشِ مجدِها
شعاعَ هدى من حيْرةٍ وضلالِ
تُزَفُّ إلى قمبيزَ فى موضعِ ابنتى
وفى موكبٍ من وَفْدِه ورجالى

نفريت : نتيتاس

فرعون : قولى بنتَ فرعون

نتيتاس : أعفِها

نفريت : ولِمْ

نتيتاس : ذاك عهدُ يا أميرةُ خالى

فلا يستوى المُلكُ القشيبُ جلالُه

وآخرُ مخلوعُ الجلالةِ بالى

نفريت : أحقٌّ نتيتا ما رَوَى المَلِكُ

نتيتاس : ما رَوَى أبونى صدَى صوتى ورجْعُ مقالى

نفريت : رويدًا نتيتاَ راجعى الرشدَ إنما

تُضحّين يا أختى بأنفسِ غالى

تُضحّين بالدنيا الجميلة والصِّبا وهذا الفضاءِ السافرِ المتَلألى

أحقٌّ عقدتِ العزمَ ؟

نتيتاس : بعد رويّة وأقنعتُ نفسى بعدَ طول نضال

وَمالى لا أعطى الحياة إذا دعتْ بلادى ، حياتى للبلادِ ومالى

ستار

المنظر الثانى

«حجرة عظيمة فى قصر فرعون — وفد من الفرس ينتظر رسول»
«الملك أمازيس ، هنا وهناك فى الحجرة نفر من حاشية فرعون»

رئيس الوفد : لقـد جُلتُمُ فى بلدةِ العجلِ جَوْلةً
وما بَرِحتْ بالزائرينَ تُجابُ
فكيف وجدتم قـوم فرعون ؟
قباذ : أمـةٌ
إذا هىَ قيستْ بالشعوب عُجابُ
لهم مثلُ ما للأُسدِ بالجنسِ عـزّةٌ
ضوارى الفلا عندَ الأسودِ كلابُ
هُمُ الشُهْبُ والنّاسُ الجنادلُ والحصى
وتِبرُ الـثّرَى والعـالَمُون تُـرابُ
وكلُّ الذى صاغوا من الفنّ آيةٌ
وكلُّ الذى قالوا هُدًى وصَوابُ

الرئيس : خطبْنا اليهـم أمس بنتَ مليكهم
فما كان إلا الاحتقارَ جـوابُ
وأشـفق أهـلوها وقالـوا حمامةٌ
دعاها الى الوَكْرِ السحيقِ عُقابُ
[ثم يعرض ببصره رجال القصر من المصريين.]
تأمّل (قباذُ) القومَ وانظروجوهَهم
وجـوهٌ عليهـا للهموم سَحَـابُ
ألستَ تراهُم كلّمـا نقّـلوا الخُطى
لهم جيئةٌ من ريبةٍ وذهابُ
قباذ : ولكنهم ما قصّروا عن ضيافة
طعـامٌ ونُزُلٌ طيّبٌ وشـرابُ
وخمرٌ فنيقٌ بأيدى سُقاتِها لها نفحةٌ مِسكيّةٌ وحَبابُ
وماذا علينـا أن تضيقَ وجوهُهم
إذا لم تَضِـق ساحٌ لهم ورحابُ

«وعلى أثر ذلك يخاطب رجل آخر من الوفد صديقا له»
«في ناحية أخرى من الحجرة وكان عائدا هو أيضا من المدينة»

الرجل : زفيروس، من أينَ ؟

زفيروس : من جولة بمنفيس

الأول : كيف وجدت البلدَ ؟

وكيف احتقارهمُ للغريبِ إذا قام فى شأنه أو قعد
وكيف عيونهمُ حولَهُ إذا حمّلته احتمالَ الرمد
زفيروس : وجدتُ وجوهًا عليها النعيمُ ودُنيا على جانبيها الرَّغدْ
وسوقًا تُفض وسوقا تُقامُ وخلقًا يروحُ وخلقًا يَفد
وشعبًا على خُطةٍ فى الحياةِ ونَظْمٍ به فى الشعوب انفرد
ولم أرَ مثلَ صِناعاتهم سُمُوًّا وبُعدًا على المنتقد
ولا مثلَ أخلاقهم مبلغًا من الفضل أو من خلالِ الرَّشَد
إذا مرّ يافِعُهم فى الطريق بشيخٍ تنحّى له أو سجدْ
الأول : تباركتَ النارُ. كلتَ المديحَ لمصرَ جُزافًا ولم تقتصِدْ
زفيروس : أخى ما الذى أنت ناعٍ علىَّ وما قلتُ إلا الذى أعتقد

الأول [مبتسما] :

لقد سحرتْ مصرُ الفارسىَّ ويا طالما نفثتْ فى العُقَد
ولكنْ زفيروس كيف الجنودُ
وكيف الحديدُ وكيف الزَّرَدْ
وهل كنتَ تلقاهُمُ فى الطريق
وتنظُرُ أظفارَهم واللِّبَدْ

زفيروس : أخى ما رأيتُ بمصرَ الجنودَ ولم يأخذِ العينَ منهم أحد
سوى فتيةٍ من جنود القصورِ وضباطِها فى الثياب الجُدُدْ

يروحون في الخُوَذِ اللامعات
ويغدون في الذهب المُتَّقِد

الأول : إذن هو مُلكٌ بلا حائطٍ رقيق الأواسي ضعيف العَمَد
خلا الوكرُ من صرخات العُقاب
ونامت عن الغاب عين الأسدْ
أولئك لا في حماة الديارِ ولا في العديد ولا في العُدَدْ
طواويسُ في عرصاتِ القصورِ
تروقُ تهاويلُها من شَهِد
ولا يُعجبنك سلمٌ يرفُّ وخيرٌ يفيضُ ومالٌ لُبَدْ
وآثارُ فنٍّ تروعُ العقولَ وأجسادُ موتى تعيشُ الأبد
فما أنتَ راءٍ سوى جَنَّةٍ هي الخُلْدُ أو طيفُهُ في الخُلَدْ
يهُبُّ عليها غدًا عاصفٌ من الفرسِ أنَّى تمشَّى حَصَدْ

ثالث منهم : صدقتَ أخا الفُرسِ قلتَ الصواب
غدًا يعصفُ الفُرسُ أو بعد غَدْ

أحدهم لآخر : أعلمتُم ماذا يُرَدَّدُ في القصـــــورِ وماذا يقالُ همسًا ووحيا

الثاني : ما يقولون هاتِ قلْ
آخر : كيف صدتَ السرَّ في القصر كيف صدتَ النَّجيا
هاتِ قل ما بأرض مصرَ عجيبٌ
مصرُ دنيا وسائرُ الأرضِ دُنيا

الأول : هم يقولون إن بنتَ أمازيـ
سَ عروسَ المليـك تأبَى المُضيّا

الثانى : هازلٌ أنتَ ؟

الأول : بل سمعتُ حديثًا إن يكُن مُفترًى فاذا طيًّا؟

آخر : إنـه يهـذِى دعـوهُ كاذبٌ لا تسـمعوه
ما الذى زخرَف

الثالث : ألـقى كِذبةَ الأجيـال فـوهُ
يزعـم المَلـكةَ تغـربــت ابنـةَ الملكِ أمازسْ
ترفُضُ السيرَ مع الوفـد إلى أقطـارِ فارسْ

آخر : ما خطبُـه ما يـدَّعى إمض بنـا لا تسـمع
يقول فرعونُ مِصـرا لم يرض قمبيز صِهْـرا

الثانى : مَنْ أمازيس ما الأميرةُ ما مصـ
رُ أفى الأرض من بقمبيزَ يهـزا

آخر : أهـذا خـبرٌ يُروى غـبيٌّ أنـتَ واللّـه
أتحتَ القُبـةِ الـزرقا ءِ من يسـخَرُ بالشاه

الأول : اعـزبوا ما لـكم ولى قلّلُوا الشـتمَ والسَّخرْ
ما الذى قـد أتيتُـه؟ ناقلُ الكفرِ ما كفر!
خـبرٌ قيـلَ قـد يصِـحُّ وقـد يكذِب الخَـبرْ

أحدهم : يا صحبُ كيف تُرى تقضون ليلَكمُ
وكيف نومُكمُ فى هـذه الدار

آخـر : أمّا أنا فإذا استلقيتُ طوّفَ بى
شتّى الخيالاتِ من سحرٍ ومحّارِ
وأنت ؟

الأوّل : يغشى الكرى عينى فيصرفُهُ
عنها خيـالُ تمـاسيحٍ وأثوار
من التّوابيتِ حولى كلُّ متنقلٍ
بغـير رجـلٍ ولا ساقـيْنِ دوّار
يُجيلُ من خلفها الأمواتُ أعينَهم
كأنها فى الدُّجَى أحداقُ أنمـارِ
ولا تزال بىَ الأرواحُ طائفةً مناجياتٍ بألغازٍ وأسرارِ

آخـر : أمّا أنا فإذا ما جئتُ مُضطجعى
عوّذتُ نفسىَ قبـلَ النوم بالنارِ
فلا يطوفُ من الأرواحِ بى شَبَحٌ
من خَيِّرينَ وإن جلّوا وأشرار

آخـر : هيّا اسمعوا ماذا رأيتُ أمسِ

آخـر : ما ذاك ؟

الأوّل : صَبْيَةٌ تكلّموا بهمسِ

رأيتُ عصفوراً برأسِ إنسِ أقبلَ حتى صار عند رأسى
فما ملكتُ عندَ ذاك حسّى

آخـر : ثُمّ ؟

الأوّل : صحوتُ فوجدتُ نفسى منطرحاً أغطّ فوقَ كرسى

آخـر : وأنا

ثان : أنتَ ما رأيتَ ؟

الأوّل : أعجبَا مما رأى صاحبُكم وأغربَا
رأيتُ آبيسَ أتى مضاجعى فهزّها بقرنِهِ وقلّبَا
ثم رأيتُ

الثانى : ما رأيتَ ؟

الأوّل : حدقا تقلّبَتْ فى الليل تحكى اللّهَبا

آخـر : ثُمّ ؟

الأوّل : وقال العجل أنتم فارسٌ ؟ قلتُ نعم فقال لى لا مرحبا

آخرون فى دهشة : يا عجبا . العجلُ قد كلّمه يا عجبا

[يدخل تاسو حارس فرعون] :

تاسو : أيّها الوفدُ سلامٌ لكُمُ بنتُ فرعونَ ستأتى بعدَ حينْ
نتلقّاكم بما يزكو بكم من تحايا وتجيبُ الخاطبينْ

رئيس الوفد : أيّها السيّد تاسو أذنُ منا مرحبا بكْ
غبتَ عنا زمنًا حتى اغتممنا لغيابكْ

لم تَسَلْ عنا ولم تبعث رسولًا من صِحابِكْ

تاسو : يا كبيرَ الوفد هذا العطفُ قد أثَّر فيّا

أنتَ لا تجهلُ من أنظمةِ الدِّيوانِ شيّا

شرَفُ الخدمةِ لا يحملُ وفتى بيديّا

فارس [لآخر بصوت منخفض] :

تاسُو ؟ ! ومن تاسُو ؟

الآخر : فتًى في القصرِ مرمُوقٌ جميلْ

نَدْمانُ فرعونٍ وصاحبُه وحارسُه النبيلْ

ويميلُ فرعونٌ إليه وبنتُه أيضًا تميلْ

[حارسان يدخلان فيصيح أحدهما] :

الأول : الملكُ فرعونُ سارِعْ

الثاني يردد : الملكُ فرعونُ سارِعْ

« يدخل الملك والأميرة نتيتاس وكبار الكهنة »

« المصريين فيجلس الملك والأميرة ويقف تاسو »

« وراء الملك ، فينهض رئيس الوفد ويقول »

رئيس الوفد [إلى فرعون] :

بركاتُ السماءِ فرعونَ مصرًا

وسلامٌ من عاهِلِ الأرض كبرى

رُسلُ قمبيزَ نحن لم نألُ إحسا

نَكَ يومًا ولا اهتمامَك شكرًا

قد خطبْنَا إليكَ زنبقةَ الوا
دِى وأعلَى عقائلِ النيلِ قدرَا
نحمِلُ الشامَ إن أردتَ صداقًا
ونسوقُ العراقَ إن شئت مَهْرَا
ونُزَجِّى الكنُوزَ من قيِّمِ اليا
قوتِ والدُّرِّ والزُّمُرّدِ تترَى
إنها فارسٌ وإنا لنرجو
أن سترْضَى بها حليفًا وصِهْرَا

فرعون أمازيس [إلى تاسو] :

قُمْ أجِبْ عنّىَ الدهاقينَ تاسُو

تاسو : سيدى من أكونُ! مولاىَ . عُذْرا

نتيتاس : أبَقِ أعْفِه

ثم إلى تاسو: مكانكَ تاسُو أنا بالفصل فى مصيرى أحْرَي

نتيتاس [إلى الوفد الفارسى] :

مرْحبًا وفدَ فارسٍ رسْلَ قمبيزَ مرحبَا
قد تأخرتُ عنكم وأطلتُ التحجُّبَا
ونهانى مُطَبّبِى فسمعت المطبِّبَا
خبأونى لوَعْكَةٍ ومن البردِ يُخْتَبَا
لم يرَ الناسُ صاحبًا كالعَوافى مُحَبَّبَا

رئيس الوفد: اشكرى الله يا ابنتى   واذكرى فضل ما حبا
كم سألنا بفاءنا   بالذى طمان النبا

أمازيس [إلى تاسو بصوت منخفض] :
مالما تاس اطنبت   ولذا الشيخ أطنبا
تركا خطبة الزوا   ج وقاما ليخطبا

نتيتاس [بصوت منخفض وقد سمعت ما دار بينهما] :
ما الذى ساء والدى   من كلامى وأغضبا
ما لفرعون ساخطا   ولتاسو مقطبا

فرعون [بصوت منخفض] :
اجملى القصد يا ابنتى   لك فى القول مذهبا

نتيتاس للوفد: قد دعوتم أبى لما   يرفع البنت والأبا
إن فرعون كوكب   صاهر اليوم كوكبا
اذكروا لى مقامكم   أترى كان طيبا
أيها الوفد قلما   صاهرت مصر أجنبا
مرحبا وفد فارس

الملك [بصوت منخفض] :   شبع الوفد مرحبا
نتيتاس : أنا إن عشت شدت للنار بيتا مطنبا
فى عيون الوهاد من   فارس أو على الربا
كلما لاح ضوؤه   هزت الأرض منكبا
رئيس الوفد : هلمى يا زكى يا نار   على بنت الفراعين

ويا فارسُ هاتوا الغارْ وجيئوا بالرياحين
وحيُّوا زوجةَ الجبَّارْ على كل السلاطين

[ويثر الفرس الرياحين على الأميرة نتيتاس وهم يتغنون]

الكهنة المصريون يتغنون :

آمونُ قم شاركْ فرعونَ فى العُرسِ
تعالَ طُفْ باركْ فى ملكةِ الفُرس

* * *

نَحِّ الشياطينَ وانفِ العفاريتَ
واحرسْ بعينيْك موكبَ نفريتَ

* * *

آمونُ هىَّ اشتركْ فى عُرسِ بنتِ الملِكْ
وقُم اليها كلِّلِ براحتيْكَ راسَها
واشهد بمصرَ واجتلِ بفارسٍ أعراسَها

ستار

المنظر الثالث

« بهو عظيم من القصر زين بالمصابيح البديعة الألوان المصنوعة من ورق »
« البردى وأغصان الزيتـون ، وصففت الأزهار ... والرياحين هنا »
« وهناك . وفى ناحية من البهو جوقة العزف من حاملات القيثارة ، »
« والعود ، والناى ، والدف . يموج المكان بأعضاء الوفد الفارسى »
« فى ملابسهم الفارسـية الفاخرة وبرجال الحاشـية وخدم القصر من »
« الحرس والكهنة كبارهم وصغارهم وفتيان النوبيين ، وقد وقف قهرمان »
« القصر يصرف الوصفاء والنـدل ويسخرهم فى شؤون الوليمة . وقد »
« مدت الموائد الفخمة وجعلت عليها ألوان الطعام المختلفة من خراف »
« مشوية وباردة وبط صيد ، ومن سمك النيل ، ومن الحلوى بأنواعها ، »
« وسلال الفاكهة . ووضعت هنا وهناك أباريق الذهب والفضـة »
« المملوءة من عتيق الخمر . يجلس على المائدة فرعون أمازيس وبجانبه »
« وأمامه كبار رجال الوفد الفارسى وعظماء رجال الكهنوت والدولة . »
« وينتشر الآخرون على جنبات المائدة يتحادثون جماعات جماعات »

فارسى [لصاحبه] :

فيروزُ . أنظر ترى الخرافا   حُمْرًا لطافًا على الخوان
ذا سمكُ النيل فى الأوانِى   كأنه مِعصَمُ الغـوانى
وأعينٌ تلك فى جُفـونٍ   أم ذلك البطُّ فى الجفانِ

فيروز : ذكرتَ كلّا ولم تُرحّبْ بخمر ساموسَ فى الدِّنانِ
وخمرِ فينيقيا المصفَّى كأنه ريقةُ الحسانِ

فيروز : وخمرِ مصيرفى قصرِ فرعو نَ

ثالث : تلك مجهولةُ المكانِ

الأوّل : فيروزُ ، دَعْني خلّنى الخمرُ ليستْ دَيْدَني
من خمرِ آتينا وسا موس ومصرَ أغْنِني
الأكلُ يا فيروزُ شغـ ـلى وبه تفنُّنى
تشربُ والبطنُ خلِي! يالكَ من مُغَفَّلِ!
كُلْ هَنِيءَ فيروزُ كُلِ

هذا الخوان قد كَمَلْ من كل جانبٍ حَمَلْ
هذا شِوى هذا قُلِى

والبَطُ فى الأطباقِ بطبطُ فى الرقاقِ
من رأسهِ للأرجلِ

ثالث : وهذه الإوَزُّ رجْرَاجَةٌ تهتَزُّ
قد طُيِّبَت بالتابِلِ

فيروز [للأوّل] :

أخى كلانا قد صدَقْ فما لنا لا نتَّفِقْ
آكلُ ما تأكُلُ من طعامٍ ونحْتَسِى معًا من المُدام

الثالث : هذا لعَمرى مُحكَمُ الكلامِ

فرعون [الى رئيس الوفد] :

سيدى لو تقولُ لى كيفَ قمبيزُ والقدحْ

الرئيس : إن قمبيزَ سيدى ملِكٌ كله مَرَحْ

ليس تخلُو قصورُه من سرورٍ ومن فرَحْ

فارسى آخر : لكن له شُغُلٌ عن الـخمرِ بطُولِ غزوتِهْ

فرعون : أينَ تُرى يشربُها

الفارسى : يشربها فى خوذتِه

كعبده ابنِ أمتِه

« ويخلع الفارسى خوذته ويصب فيها خمرا ويشرب »

« بعض صغار رجال الوفد الفارسى يتحادثون فيما بينهم »

أحدهم :

ليتَ شعرى فلستُ أدرى الى أ ىِّ بلاءٍ قمبيزُ يدفَعُ فارسْ

قد فتحنا الفضاء شرقًا وغربًا وملكناه من عُبابٍ ويابسْ

اتسعنا من الفتوح

آخر : يقينًا غيرَ أنَّا لم نفتكر بالحارسْ

خَلِّ «مانى» عنك السياسة دَعْهَا

خَلِّ عنك الفضولَ خَلِّ الوساوسْ

إن شرقَ البلاد ضيعةُ قمبيـزَ وغربَ البلادِ حقلُ أمازسْ

سائسُ العالمين أسعدُ منه رجلٌ للحمار والبغل سائسْ.

ثالث : انظر الحَفلَ « بهارٌ » استخفَّته الكؤوسْ

رابع : وفَدُ قمبيزَ وهذا ... ملِكُ مصرِ آمزيسْ
ذهبُ الأرضِ عليهم ... غرِقَتْ فيه الطقوسْ
ساسَةُ الدنيا وكلٌّ ... غيرَهم فيها مَسوسْ

الثاني : خلِّنا باللهِ من سا ... سَ ودعْنا مِن يسوس
لم تظلَّ الدهرَ مَرْءو ... سِينَ والغيرُ الرئيس
لِمَ « ماني » لا أنا رذْ ... لٌ ولا أنتَ خسيس

الأوّل : كلُّ ما أعجبَ كسرَى ... فهو في الفرسِ نفيسْ
كلَّ حينٍ حاكمٌ يمشي علينا ويدوس
هكذا يختلفُ الحظُّ سعودٌ ونحوس
إنَّ بعضَ الناسِ أذنا ... بٌ لبعضٍ هُمْ رؤوس
منزلُ الأُسدِ الصحارَى ... وعلى المرْعَى التيوس

الأوّل : لِمَ يا « ماني » يسُودُو ... نَ ونبقى لا نسود
ونُقادُ الدهرَ والآخـ ... ـرُ يا « ماني » يقود

آخر : يا أخي نحنُ كلانا ... عاجزُ الرأيِ بليد
هذه الدنيا لِمَن ... يُقدِمُ فيها أو يُريد
سنّةُ الكونِ وما ... عن سنّةِ الكونِ محِيد

آخر : أنا يا « ماني » طموحٌ ... أنا لا أكتمُ عنكا
أنا في الدنيا وفي زينتها أرغبُ منكا
أنا أهوَى سَعةَ العيش ولا أرضاهُ ضَنْكا

الأول : إرْضَ بما كان وما يكونُ أو فانْفَلِق
وهيّ نشربْ قدَحَيْنِ أو فَهَيّ انطلِق
أحدهم : ألقدَحا . ألقدَحا الخمرُ تنفى التَّرَحا
قصرًا أرى أم فَلَكًا وشجرًا أم قُزحا (١)
وغادةً تسق أمِ الظبْيَةَ أم شمس الضحى
وخوذا على رؤوس فارسٍ أم الرَّحَى
ألقدَحا . القدَحا هاتوا الشعاعَ المُفرِحا
هاتِ السَّنَا هاتِ القبَسْ هاتِ الشَّذَا هاتِ النَّفَس
هاتِ سراجَ المهرجان هاتِ شمعةَ العُرُسْ
هاتِ ابنةَ الشعاعِ والظلِّ ابنةَ العَذْبِ السَّلِسْ

أحدهم [رئيس الوفد] :

مولاى ألقِ السمعَ وابعثِ النَّظَرْ
ما ذا ترى ؟

الرئيس : أرى « بهارًا » قد سكِرْ
الأول : فتاكَ غنَّى وفتاكَ قد شَعَرْ
الرئيس : وما الذى ضَرَّ ؟
الأول : صدقتَ لا ضَرَرْ

(١) قوس قزح

الرئيس : ونحنُ ما نصنعُ ؟

الأول : شُربٌ وسَمَرْ

الرئيس : ونحنُ أيضًا بَشَرٌ وهُمْ بشَرْ
فليشربوا من ها هنا إلى السَّحَرْ

أحد الشبان : رئيسَ الوفدِ لا زلتَ لما يَرفعُ تُختارُ
ولا ساواكَ دهقانٌ ولا داناكَ أسوارُ
وغالَى بكَ قمبيزٌ وحلّت جسمَك النّارُ

« يدخل وصيف من وصفاء القصر و بيده مومياء من الذهب »
« يعرضها على الضيفان . ووراءه رجل يقول و يكرر ... »

المُوميا طُوفُوا بها واتّعظوا بخَطْبها
لا تسألوا ما هى مَنْ ؟ نَذكرها طولَ الزَّمَنْ
هَيَّا كلوا هَيَّا اشربوا هَيَّا اسمعوا هَيَّا اطربُوا
تمتّعُوا بالفانيهْ قبلَ الحياة الثانيهْ
خُذوا المُدامَ الصّافِيهْ قبلَ انكسارِ الآنيهْ

فارسى لآخر : خورشيدُ هذا هو البلاءُ كلُّ أحاديثِهم فناء

خورشيد : روايةُ الموت حيث راحوا وقصةُ الموت حيث جاءُوا

[يقترب تاسو من نتيتاس فى ناحية أخرى من البهو و يقول]

تاسو : نتيتاسُ ألا كاسٌ ألا شكوى ألا عتبُ
أيُنْسى فى سُويعاتٍ ويُطوَى ذلكَ الحُبُّ

نتيتاس : دع الحبَّ فلم يُخلق له من لا له قلبُ

تاسو : وما ذنبي ؟

نتيتاس : لقد أحسنتَ لكن لى أنا الذنبُ

أنا أحبَبْتُ عابثًا سادرَ القلب جافيَا
يَعشَقُ الجاهَ والغِنَى لا يحبُّ الغوانيَا

[مستمرة] :

أنتَ كالنعمةِ من قصرٍ لقصرِ
أنت كالنحلةِ من زَهرٍ لزَهرِ

[مستمرة] :

باعدَت الأخلاقُ ما بيننا أينَ أخُو العهدِ من الناكثِ
لعبتَ بى فيما مَضى عابثًا
فالعبْ بغيرى اليومَ كالعابثِ
أقسمْتَ لى فاذهب فأقسم لها
فأنتَ أهلُ القسمِ الحانثِ
أحببْتَ بنتَ الحيِّ حتى قضَى واليومَ أحببْتَ ابنةَ الوارثِ
كم مجلسٍ كان لنا ثالثٌ فيه وقد تَعْمَى عن الثالثِ

تاسو : ما هو مَنْ ؟

نتيتاس : الحبُّ يا مدَّعِى والحبُّ حربُ الظالمِ العائثِ

[يعرض عنها تاسو ويبتعد]

نتيتاس [لنفسها] :

مضى الغادرُ لم يَشْعُرْ بما حمَّلَنى الغدرُ
ولا رَقَّ له نابٌ على جُرحى ولا ظفرُ
تكلمتُ فلم يسمع وأنَّى يسمعُ الصخرُ

لقد غامرتُ فى تاسو وتاسو فى الهوى غمرُ
كم استشفيت بالسِّحْرِ فما عافانِيَ السِّحرُ
وكم ناديْتُ آبائى فما لبَّانِيَ النَّصرُ
وكم جئتُ إلى الصَّبرِ فما آوانِيَ الصَّبرُ
جزاءُ المُعرِضِ التَّيَّا ه منك الصدُّ والكِبرُ
هَبِيهِ نأت الدارُ به أو نزَحَ القبرُ
هَبِي معرفَةَ الغادِ ر لم يأْتِ بها الدهرُ
أقلِّ شُغُلَ الفكرِ فقد أتعبَكِ الفكرُ
هَبِيهِ مرَّت السِّنُّ عليه ومَشَى العُمُرُ
فلم يَبْقَ له نُهْيٌ على الغِيدِ ولا أمْرُ
ولم يبق له فى البا لِ تمثالٌ ولا ذِكْرُ

« مدعو من المصريين يشير إلى نفريت وهى متنكرة فى زى »
« يونانى ويقول لزجل بجانبه ... ... »

المدعو : مَن المرأة ؟
الآخر : مَن ؟
الأول : تلكَ تَرَاها مثلَ طاوُس
تراها مع كاليـاس
الثانى : ومَن ؟
الأول : وارث فانيس
أمير الجيش فى منْف وأسوانَ وسايِيس

الثانى : أجلْ تلكَ التى تظهـــرُ فى أغربِ ملبوسِ
فهـذا الوجـهُ مصرىٌّ وهـذا الـزِّى سامُوسى

[رجل فارسى لآخر يدعى قباذ] :

الرجل : انظـر قبـاذُ ما تَرَى ؟
قباذ : أحسنَ شيءٍ منظـرَا
حمامـةٌ تُطارِحُ الشـجوَ حماماً ذَكرَا
يا ليتَ أذْنى سمِعَتْ من الحديث ما جَرَى
الأوّل : دعنىَ من ذِكرِ الهوَى إنّني مُذْكنتُ لم أعشَقْ ولم أُعشَقِ

قباذ [فى تهكم] :

وأنتَ كالناسِ امرؤٌ عائِشٌ تلك لعَمرِى عيشَةُ الأحمَقِ

الأوّل : قبـاذ قـد عرفتُـه ذلك تاسـو الحـارسُ
قباذ : الحمـد لله علـى أن لم تحـزهُ فارِسُ
إذن لهـامَتْ كاعِبٌ بحبِّـه وعانِسُ

[تاسو يقترب من نفريت] :

نفريت : تاسو هنا ؟ هاتِ اسقنا

تاسو : لبيّْـكِ يا ذاتَ البهاءْ لبيْـكِ يا بنتَ السماءْ
يا ليتنِي كنتُ الرّحيـق وليتنِي كنتُ الإناءْ

[ويناولها قدحا] :

نفريت : تاسُ ، مِنْ أينَ ومَنْ كنتَ من الغيد تُحدِّثْ؟

تاسو : كنتُ أُجامِلُ الضيو فَ وأُلَبِّي المِلِكا

فعارضتنى نيتتا سُ فى خلالٍ ذَلكا

نفريت : وما الذى قلتَ لها تاسُ وما قالت لكا

تاسو : عادَت لذكر حبّنا القديم وعَطفَتْ على الهوَى الذَّميم

وطالَ العتابُ

نفريت : وطالَ السِّبابُ

تاسو : بحق الحبِّ نفريتُ أقِلِّي الشُّغلَ بالأُخرَى

ولا تُلقِى لنا تيتا س لا بالًا ولا فكرا

غدًا تخلُو لنا مِصرُ غدًا يصفُو لنا القصرُ

غدًا ترحلُ لا أرجَعها البَرُّ ولا البحرُ

نفريت : مالكَ تاسُو ولها خَلِّ الفتاةَ خَلِّهَا

للّه ما أعظَمها عِندى وما أجَلَّها

قد أظهرَتْ أمْسِ أمامى فضلَها ونُبْلَها

تاسو : ما فعلَتْ ؟

نفريت : ما أنتَ مَنْ؟ يَقدُرُ تاسُ فعلَها

ألم تصبِر عن الوطن المُفَدّى وتسمحْ بالدّيار وبالشبابِ

وترضَ بأن تُزَفّ غدًا مكانى إلى النمِرِ الأميرِ على الذئابِ

تاسو : صه نفريتُ صهْ لا يسمعونا فتلقَى مِصرُ أنواعَ العذابِ

« فى ضجة الوليمة يقف صاحبان هما : منا، وأحامس، ويتحادثان »
« صديقهما خوفو يقبل عليهما ثم القائد كاليّاس ... ... »

منا : أنظر أحامسُ
أحامس : ماذا؟
منا : فرعونَ بينَ صحابِهْ
أحامس : وما تَرَى من عجيبٍ؟ ماذا بفرعونَ ما بِه
منا : أنظر تجده إلهًا فى عبقرىّ ثيابِه
أحامس : لا تُلقِ بالًا إليه ولا إلى أذنابِه
غدًا يَصبُّ عليهم قمبيزُ سَوْطَ عذابِه
منا : أحامس، استغفر لما قلته فالُ الشياطين ولا فالُكْ
أحامس : قد كنتَ مثلى يامنا ساخطا تلعنُ فرعون فما بالُكْ
[ثم مستمرا] :
تأمَّلْ القصرَ مِنَّا وانظره أرضًا وسَمَا
أنظر ترى الإغريقَ فيه هُمْ لفيفُ العُظَما
أنظر تجدهم كُلَّهُمْ يلقّونَ العجما
منا : ماذا على فرعونَ إنْ رعاهمُ وقدّما
أليس للضيف على ضائفه أن يُكرَمَا
أحامس : وصاحبُ الدارِ إذنْ يموتُ جوعاً وظَمَا
وصاحبُ الدار إذنْ لا يتعَدَّى السُّلَمَا
خوفو : ماذا أثار الصاحبيْن لِمْ وفيمَ اختصَمَا

أحامس : كنْ مُنْصفًا إنْ رُمتَ يا خوفو تكون الحَكَما
تأمَّلْ القصرَ خوفو أفيهِ من مصرَ شيءٌ
أليسَ فرعونُ فيه كأنَّه أجنبيٌّ
فأينَ حفارُ مصرٍ وفنّه العبقرىّ
والجيشُ خوفو

خوفو : خذِ الحِذْرَ يامِنَا يا أحامِسْ
كالياسُ آتٍ إلينا

منا : ومَنْ ؟

خوفو : خليفة فانِسْ

أحامس : اليومَ كالياسُ وأمسِ فانِسُ
احتكرَ القيادةَ الأبالِسُ

[ويقبل عليهم كالياس]

فرعون أمازيس [لتاسو] :

أينَ أقزامىَ ؟ إمضِ جِئْ بأقزامِىَ تاسُ

[يدخل الأقزام فى أزياء المهرجين، فيقولون] :

تحيّاتٌ لفرعونَ سلامُ الشمسِ للملكِ
سلامٌ قائدَ الخيلِ سلامٌ حامِىَ الفُلْكِ

قهرمان القصر [للأقزام] :

هلمُّوا رقصةَ الحورِ إذا طُفْن بهاتورِ
سماءِ العزِّ والنّورِ

أحد الأقزام: نحنُ القُزُم أنصافُ ناسْ
ناسٌ وبالشِّبْرِ نُقَاسْ

ثانٍ : نحنُ الدمَى واللُّعَبْ بنا يتمُّ الطَّربْ

ثالث : هلُمُّوا رقصةَ الموتَى من الكهفِ إلى الكهفِ
ودُورُوا كالتماثيل من الرَّفِّ إلى الرَّفِّ

آخر : ثِبِي جُثث على الجدث ثِبِي ثِبِي
حَبْوَ الصّغارْ على اليدِ والرُّكبِ
هيَّا قِفِي هيَّا ازحَفِي هيَّا العبِي
هنا الطعامْ هيَّا كُلِي هنا الشَّرابْ هيًّا اشْرَبِي

آخر : تعالَ يا دهقانْ أرْقُصْ مَعي
وأنتَ يا «أسوار» قُمْ اطلع
واقْتَبسا الأنوار من سارَع

الجميع : عِشْ يا ملِك مع الزَّمَنْ
مُطَوِّقًا مِصرَ المِنَنْ
وذائدًا عن الوطَنْ
[ثم يكررون عش يا ملك وينصرفون]

فرعون أمازيس [إلى وجهاء الفرس] :

يا وُجهاءَ الفرسِ قالوا لكم مصرُ بلادُ السّحرِ والسّاحرِ
فربَّما سرَّكُم أنّني أجيئكم بالساحرِ القادرِ

وينادى : حوتيب

حوتيب : لبيكَ سارعْ

فرعون : تعالَ لَهُ الضُّيوفَا

حوتيب : سادتى إنِّى فى الكفِّ وفى الجَبْهةِ أقرا
أنا أقرَا لكَ حَظًّا أنا أقرَا لكَ عُمرَا
أنا الذى بسِحرِىَ المبينِ أستطلعُ المكتوبَ فى الجبين

فرعون [إلى تاسو] :
تاسُو اقتربْ

تاسو : لبَّيكَ يا ساراعِ

فرعون : لِمْ أجلبُوا ما خَطْبُهم ما الدَّاعِى

[ضجة وهمس]

فرعون [مستمرا] :
وفِيمَ هذا الهَمْسُ والتَّراعِى

تاسو : مولاىَ إنَّ الوفْدَ فى ارتياعِ

تاسو [فى أذن الملك] :
انقلبتْ عصيُّهم أفاعِى

فرعون : يا لحتيبَ من فتًى صناعِ

رئيس الوفد :
للّه دَرُّ السَّاحِرِ هذا من العباقِرِ

حوتيب : أناةً وفدَ فارسَ لا تُرَاعُوا ولا تُحصُوا دُعاباتِى عليَّا
خُذُوا قضبانَكم وتأمَّلُوها لقد عادَتْ كما كانتْ عِصيًّا

فرعون : حوتيبُ قد سرَّ ضيوفى أن يروْا ويسمعوا

فزدهُمُ فعندك السحرُ الغريبُ الممتعُ

حوتيب : فرعون هذا شرفٌ يطيرُ بى ويرفعُ
أصنعُ ما كان ددَا الساحرُ قبلى يصنعُ

فرعون : وما الذى تصنعُ؟

حوتيب : جيئونى برأسٍ يقطعُ
فإننى أردُّه بجسمِه وأُرجعُ
فمنْ من الوفد برأ سه إلىّ يدفعُ

رئيس الوفد [لرجاله] :

هل منكمُ يا معشرَ الفرسِ بطلْ
عن رأسِه لساحرِ النيلِ نزَلْ

حوتيب : هاتوا الرءوس لا يخافنَّ أحدْ
فكلُّ رأسٍ سيُردُّ للجسدْ

أحدهم : رأسىَ غيرُ هيِّنِ

ثان : رأسى عمودُ بدنى

ثالث : رأسى لدىَّ غالى رأسىَ كلُّ مالى

فرعون : حوتيبُ ما من أحدِ هان عليه رأسُهُ
أنظر إليهم . كلهم عزّتْ عليهِ نفسُه
خلِّ حُتيْبُ الناسَ واختَرْ غيرَهم للتجربه

حوتيب : مُرْهمْ إذن أن يحضروا إوَزَّةً أو أرنبه

فرعون [لتاسو] :

امضِ تاسو جِئ حُتَيْبًا بإوزٍّ وأرَانب

«يخرج تاسو ثم يعود ببضع من الأوز والأرانب . فيقطع حوتيب رأس إوزة»
«و يقول : شال هبد شال هبد لايعجز السحر أحد يا رأس عد الى الجسد»

الفرس : تعالتْ قدرةُ النارِ

المصريون : تعالَ الربُّ آمونُ

فرعون : هيّ حتيبُ امْشِ مابينَ الصُّفُوف
وطالِع الجَبْهاتِ واقرأ الكُفوف

حوتيب : برأسِ مَنْ أبدأُ مُرْنِىَ يا سارعْ

فرعون [مبتسما وملتفتا لتاسو] :

برأسِ تاسُو إقرَا فى جبينِه
وبيِّن المحجوبَ من شئُونِه

حوتيب [وهو يتأمل جبين تاسو] :

هـذا فتًى باطنُه جمادُ
ليس وراءَ رأسِه فؤادُ
رأسٌ عليه وَقف الجلّادُ

تاسو : إخسَأْ كذبتَ وضلّ مخّكْ

فرعون : ورأسى ياحُتيب ألا تراهُ؟

حوتيب : جبينُكَ أعفى مولاىَ منه

فرعون: تعالَ حُتيب

حوتيب: لا . هذا شديدٌ جبينُ الشمسِ تنبو العينُ عنه
يا عجبا ماذا أرى؟

فرعون: ماذا ترَى

حوتيب: دَمٌ جَرَى

فرعون: دَمِي أنا ؟

حوتيب: لا سيدى عُوفيتَ بل دَمُ الورَى

تاسو: إذن ليجرِ كالمطر ما هَمَّنا دَمُ البَشَر
إذا سلِمْتَ يا ملِكْ فليَهْلكَنْ مَن هَلَكْ

كاهن لآخر [بصوت منخفض] :

إنّ هذا الغلامَ فيه قساوهْ

الآخر: قلتَ حقًّا وفيه أيضًا غباوَه

فرعون: وبعدُ ماذا ؟

حوتيب: حربٌ عوانُ يَشيبُ من هَوْلِها الزمانُ

فرعون: وهل أكونُ يا حُتيْبُ فيها

حوتيب: سِواكَ يا مولاى يَصْطَليها

فرعون: وابْنِي بساما يا حُتيبُ ما ترَى ؟
هل يَشهَدُ الحربَ وهل يراها

حوتيب : سيدى ليتَ الأميرَ حاضرٌ أنا لا أقرأُ إلا فى الجبين

[قهرمانة القصر تطيف بالعازفات والحسان وتقول] :

القهرمانة : قُمنَ إلى اللهو يا عذارَى وخُذنَ صَنْجًا وخُذنَ دُفًّا

واهتِفنَ بالشِّعرِ والأغانِى واقطعنَ ليلَ الشبابِ قصفًا

+ + +

وأنشِدْنَ مع القومِ نشيدَ الملكِ العالى

[ينشد الجميع نشيد فرعون مع الرقص وآلات الطرب]

النشيد : فرعونُ أنتَ الرفيعُ أنتَ العظيمُ الشانِ

وأنتَ سدٌّ منيعُ من جارفِ الفيضانِ

+ + +

وأنتَ كالصَّخرِ تحمِى من نكباتِ العواصفْ

مِن قاطعِ الطرقِ يأوِى إلى حِماكَ الخائِفْ

+ + +

وأنتَ من صخرِ طيبه حِصنٌ مشيدُ الجدارِ

يُؤوَى إليكَ ويُلْجَا إلى طلوعِ النهارِ

+ + +

أنت اخضرارُ الرِّيفِ وأنتَ حُسنُ الرَّفيفِ

تَرُدُّ بطشَ القوىِّ وفتكَهُ بالضعيفِ

« فرعون يغادر مكان الوليمة فينطلق »

« المدعون على إثره ولا يبقى إلا نتيتاس »

نتيتاس [لنفسها] :

أفيقِى بنتَ فرعونٍ فما يَزْكو بكِ السُّكْرُ

غـدًا تَذْرُو رياحُ الفر سِ من موتاكِ ما تذرُو
غدًا يُصبَغُ من شَطَّ لشـطٍّ بالـدَّمِ النّهـرُ
غـدًا يُهْتَـكُ عن أربا بِكِ المحـرابُ والسـتْرُ
فـما تاسو وفتيانٌ كتاسُـو فى الحِمى كثر
هـم النّحلُ و إن هابُوا لقـائى وأنا الـزهرُ
يموجون بساحاتى ويَزْهُو بهـمُ القصـرُ
ولكن بينَ جنبىَّ هوًى أولَى به مِصـرُ

سـتـار

الفصل الثانى

فى مدينة سوس الفارسية

« فى حجرة فارسية نخمة مفروشة بثمين الطنافس ومملوءة بالوسائد »
« من الحرير المختلف الألوان، وقد زينت زواياها بالرياحين »
« الكريمة ، الملكة ووصيفتها تتى فى الحجرة المذكورة ... ... »

الوصيفة تتى [وهى تصلح رأس الملكة وتمشط شعرها] :

تبـاركَ الذى خـلقْ　　　أقـولهُـا ولا مــلقْ
ذوائبٌ أمِ الدُّجَـى　　　ومَفـرِقٌ أم الفَـلق ؟
غـدائرٌ فى الكَـتِفيــــن أُسْدِلتْ وفى العنُقْ
كأنها من الحـريـــــر الأسود الخيطِ شُقَق
لم يَخـلُ جـوُّ فارسٍ　　　مُذ ضمَّها من العبـق

الملكة : ما تصنعين ياتِـتِي

تـتى : أُصلحُ مولاتى

الملكة : لمَنْ ؟

تـتى : للـزوج ياسـيدتى

الملكة : لتمر الفُرس الخشِنْ

تــتى : هَبيه ذئبًا مَلْكتى أو نَمِرًا أو كَرْكَدن
أليس للأزواج تلبَسُ النساءُ ما حَسُنْ

الملكة [ملتفتة إلى وصيفتها تتى] :

قلتِ حقا تتى فإن على المرأة للزوج أن تكون أمينَه
وعليها ألا تُقَصِّرَ بشرًا حيث تلقاه أو تُقصّرَ زينَه

تتى الوصيفة : بل تحلّى مليكتي والبَسِى حُلّةَ البهاءْ
وافتنِى مَن بفارسٍ من رجالٍ ومن نساءْ
إن كسرَى وقومَه كلّهم فى الهوى سواءْ
أنتِ كالشمس فى الضحى فانشرى الحُسنَ والضياءْ
لا على القصرِ وحدَه بل على الأرض والسماءْ

الملكة : يا لكِ من وصيفةٍ مُمَلِّقَهْ
عارفةٍ بالجُمَلِ المُنَمَّقَهْ

الوصيفة : لقد وضعتُ ذهبًا فى البوتقَه
ولم أصف بالطيب إلا زَنبقَه
وقلتُ عن شمس النهارِ

الملكة : مُشرقَه

« و يظهر على الملكة التفكير واشتغال البال بغتة »
« ثم تتغنى فى نفسها وهى مقبلة على المرآة تنظر فيها »

الملكة [في نفسها] :

يا ظالمًا أحبُّه جهدَ الهوى وإن غدرْ
ومن هجرتُ وطني لأجله حينَ هجَرْ
قلبُكَ لحمٌ ودمٌ مثلُ القلوب أم حجَرْ
لم يتنصّلْ مرةً مما جنى ولا اعتذَر
جسمٌ كسلسالِ الصّفا على فؤادٍ كالصّخَرْ
وزَهَرٌ أنتَ وتلك النفسُ أفعى في الزّهَر
لم تجنِ يا تاسُو علىَّ إنما جنَى القَدَرْ
ذنبك لا يُغفَر إلا أن قلبي قد غفَرْ
إن غبتَ عن عيني فأنتَ في سوانح الفكَرْ
أراك كلما رأيتُ طائرَيْنِ في الشجَرْ
وكلما بدَتْ لىَ الشمسُ ولاح لى القمرْ
وكلما جئتُ الرياضَ ووقفتُ بالغُدُرْ
وكلما ترنَّم الشادى وحرّكَ الوتَرْ
وكلما دبَّتْ وراءَ الليل نسمةُ السَّحَرْ
ياليتَ شعرى كيفَ أنتَ ما تجيءُ ما تذَرْ
وكيف حبُك الجديدُ هل خبا وهل كبِرْ
وهل وَفيتَ أم غدرتَ بالعشيقات الأُخَرْ

الوصيفة : دَعِي النـاسيَ مولاتى وخلِّيك من السَّـالِى
ولا يخطُـرْ لكِ النـاكــــثُ للعهـــد عـلى بالِ

نتيتاس : هبيــهِ يا تتَـا خانَــ فمـالى لا أفى مـالِى
لـــه خُلُقٌ ولى خُلُقٌ ولكنْ خُلْقِيَ العـالى

تـــتى : هـوَ يا ملْكتى مِثـا لُ ولكنْ منَ الوَحَـلْ
كان يـكفى لبُغضِهِ بعضُ ذاك الذى فعَـلْ

نتيتاس : أنا أفــديهِ يا تِتَـا بحيـاتى وإن قتَــلْ

تـــتى : لـو كان معشوقِى أنـا
نتيتـاس : ما الذى كان يُـلاقِى ؟
تـــتى : آه لا أدرى

بالصَّفعِ أجزيهِ وبالرَّكْلِ أوِ
كنتُ أُريهِ النَّجمَ فى الظُّهر

نتيتاس : الحـبُّ فى ناحيــةٍ وأنتِ ذى فى ناحيــهْ
ما هكذا الحبُّ تِتَـا ما الحـبُّ إلا التضـحيه

[تسمع ضجة وصياح وحركة جنود وراء القصر وصوت استغاثة] :

يقول المستغيث :

العفــوَ يا كسرَى الصـفحَ يا سـلطانْ
أخــــوكَ والنـارِ ومجـدِهـا ما خانْ

الملكة : إسمعى يا تِيتَا ألم يأتك الصو ... تُ ؟

تيتى [وتطل من نافذة] : أجَلْ ثَمّ ضَجّةٌ وعَويلُ

ثَمّ خيلٌ وشُرطةٌ وسلاحٌ

الملكة : ليتَ شِعرِى مَن البرىء القتيلُ

تيتى: أقتيلٌ يا بنتَ فرعونَ ؟

الملكة : لِمْ لا ليس فى أرض فارسٍ مستحيلُ

يا تِيتَا نحنُ فى بلدْ كلُّ قلب به جمَدْ

الحىُّ فيه رخيصٌ والميْتُ أرخَصُ منه

هنا الميْتُ تُنفضُ منه الأكف وتنهىَ الشرائعُ عن دفْنِهِ

ويُطرَحُ ناحيةً فى الفضاءِ على سَهْلِهِ أو على حَزْنِهِ

تروحُ الحِداءُ على رأسه وتغدُو الذئابُ على بطنِهِ

تيتى: ويْحَهُمْ وِيْحَهُمْ أمَا مِن الناسِ هُمُ؟

ذلّتْ وهانَتْ أُمّةٌ ميْتُهُمُ لا يُكرَمُ

الملكة [وهى مطلة] :

تِيتَا هذا هو الحارسْ وهذا مَنْ تُحبّينَا

كذوقِكِ يا تِيتَا لم يَعْلُ ذوقٌ أتمثالٌ حبيبُكِ أم إلهُ

تيتى: ولو فوق الإله يُحَبُّ شىءٌ ويُكرَمُ لم يكُنْ أحدًا سواهُ

تأمَّلِي كَتِفَيْـه تأمَّلِي منْكِبَيْهِ كأنَّ صقرَيْنِ حطَّا فظَلَّلا شاربيْه

الملكة : انتظرى لابُدَّ لى أن أسأله

نـــتى : لا تفعلِي مالَكِ مولاتى ولَهْ

الملكة : يأيّها الحارسُ

الحارس : لبيْـك

الملكة : مَنْ يقتلون اليومَ فى السّاحَهْ؟

الحارس : أختُ المليكْ أتوسيا

الملكة : أختُ الملِكْ ؟

الحارس : أجـل هيـا
اتُّهِمتْ ببُرديا

نـــتى : مَن برديا؟

الملكة : أخو الملكْ! يقطع فى السـاحـة رأس بُرديـا
يا أسفا عاوده جنونُه

نتى الوصيفة [وقد أطرقت الملكة لحظة مفكرة مغتمة] :
ما بـِك مـولاتىَ ما غمُّـك ما هــذا الأسى؟

الملكة : لا شىءَ بى لقدْ وهمــت يا نِتّـا لا شـىءَ لا

الوصيفة : بل أنتِ تكتمينَ غـمًّـا طـافَ أوهمًّا سـرى
هلا ذكرتِ أننا غريبتـان هـا هنـا

أنت لىَ الأهـل ولـكنى أنا لكِ الحمَى
وما على الغريب إن جاءَ الغريبَ فاشتكى

الملكة : صدقت يا تتا أنا | وأنت فى الكرب سوا
قد اجتمعنا بعد قر | ب الدار فى دار النوى

تتى : أين إذن تبسمٌ | كالصبح من فيك يُرى

الملكة : لقد رأيتُ الهوْلَ والـ | ـزّوْلَ وما هدَّ القُوَى

تتى : أضغاثُ أحلام وزو | رٌ من تهاويل الكرى

الملكة : رأيتُ رؤيا يا تتا | هل لكِ علمٌ بالرؤى؟

الوصيفة [بعد تفكير] :

أجلْ تذكّرتُ أجلْ | عندىَ من ذاكَ شذا
قدكنتُ فى الصِّبا على | أبى أقُصُّ ما أرى

الملكة : رأيتنى كأننى | فى قصر آبائى بِصا

الوصيفة : فى القصر من صا الحجر | قصر الجلال والبها

الملكة : رميتُ عينىَّ من الـ | ـقصر إلى أقصى مدى
رأيتُ واديًا كطو | ل البيد أو عرض الفلا
أصفر من شعابه | بنفسجىّ المُنحنى
أحمرُ مثلَ قُزَح | هناك واخضرَّ هنا
رأيتُ ليثًا أحمر الـ | ـجلدة خشنًا كالصفا
فاغرَ فيهِ عن نيو | بٍ مثل مشروع القنا
انقضَّ كالصخر على الـ | ـوادى فأفنى فرنا
ونظرَ النيلَ وقد | عبَّ وماجَ وطغى

وخرجت منه التما سيحُ فُرادى وثُنَى
وأعْوَلت حتى لقد سدّ عويلُها الفضا
فعُقِرَ الليثُ فلا رِجْلًا رمى ولا يَدا
وقرَّ فى مكانِه كأنه بعضُ الدُّمَى

الوصيفة : ثمَّ ؟

الملكة : رأيتُ حنشًا ليسَ له مِصرُ ثرَى
لم ترَ منفُ مثلَه ولا الصعيدُ قد رأى
كأنه صاعقةٌ تحدرتْ من السما
مشى إليه كلُّ ذى قوسٍ وكلُّ ذى عصا

وخرج الكهانُ يتلونَ الصلاة والرُّقَى

الوصيفة : وما الذى حلَّ به؟

الملكة : لم يُصِبْ الوحشَ أذى

الوصيفة : حقَّقْتِه سيدتى؟

الملكة : حقَّقْتُه على الضُّحى

الوصيفة : فكيف كان ؟

الملكة : صورة تُشيبُ أرْؤُسَ النَّشا
كأنه فانيسُ عينَيْنِ ووجهًا وقفَا
حتى تعوَّذتُ بإيزيسَ وآبائى العُلى

الوصيفة : فانيسُ مَنْ ؟

الملكة : نسيتِيه ؟ كيف نَسيتِ يا تِتَا

الخائنُ الذى إلى فارسَ من حينٍ أتى
يَشِى بمصرَ وأخا فُ أن يكونَ بى وشَى

الوصيفة : ما صنعَ الثعبانُ مولاتى

الملكة : من النهرِ دنا

وفحَّ ثُمَّ دَسَّ فى النهر لساناً كاللّظى
فاحتجبَ النيلُ وعا دَ يبَسًا ما كان ما
واحترقتْ مدائنٌ بالضفتينِ وقُرَى

الوصيفة : والليثُ يا سيدتى؟

الملكة : بعد التهيّبِ اجترا

مشى على الوادى فهلْ رأيتِ عاصفًا جَرى؟
يقتَلِعُ اليابس والرَّ طبَ ويفرِى ويَطَا
وكرَّ حتى غادرَ الـ وادىَ قاعًا صفصفا
هو ذا الحُلْمُ فما تفسيرُه نبّئيني يا تِتَا

الوصيفة [لنفسها مضطربة] : ماذا أقولُ؟

الوصيفة [للملكة] :

مَلْكتِي لا تفزعِى

الملكة : كيف تِتَا كيف لا أفزَعُ والحُلْمُ مَهولُ

ينفدُ النيلُ ويذوى شَطُّهُ
وتَغولُ الأهلَ والأوطانَ غُولُ

الوصيفة : رؤياك يا سيدتى من نفسها مؤوَّلَه
نالتك من عَشاءِ أمسِ ثِقلَةٌ ووبَلَه

المـلكة : ماذا أكلتُ مع قمبيزَ وما قُدِّم له؟

الوصيفة : كان العشاءُ ملكيًّا مائدةً محمَّلَه
أكلتِ يا سيدتى من أرنبٍ متبَّلَه
ثم أكلتِ من حَمَلْ وحَمَلُ الفُرسِ جَمَلْ

المـلكة : ثمَّ؟

الوصيفة : جاءوا بالطيرِ فى الأطباقِ

المـلكة : طيرُ مَنْ؟

الوصيفة : طيرُ فارسٍ والعراقِ

المـلكة : ثمَّ ماذا؟

الوصيفة : ثم جاءوا بالسمكْ
فرأيتُ الملكَ فى الأكل انهمَكْ

المـلكة : ثم ماذا؟

الوصيفة : لا أعُدُّ ما حضَرْ من لحومٍ وبقولٍ وخُضَرْ
ثم بالحَلْوَى أتَوْا والفاكهه

المـلكة : كيف كانت؟

الوصيفة : تشتهيها الآلهـة

الملكة : خلَّطتِ تخليطَ العجوز يا تِتَا   فما علاقةُ الطعام بالكَرَى
الوصيفة : الأكلُ قبلَ النومِ ثِقلٌ وأذى   وربمَّا جاء بأضغاث الرُّؤَى

الملكة [لنفسها] :

عرفتُ الآن رؤيايَ   وما خلَّطَ أحلامى
وقد يُغريك بالأكلِ   طُهاةُ الفُرس والشام

[ثم الى تتا] : تِتَا أينَ كنتِ ؟

الوصيفة :   وراءَ الخَدمْ

الملكة :   وكيف عَددتِ علىَّ اللُّقَمْ

الوصيفة : لبِثتُ هناكَ فما من يدٍ   تفوتُ علىَّ ولا مِن قَدَمْ
ولم يخفَ عنِّيَ كيدٌ يطوفُ   ولا وحىُ لحظٍ ولا همسُ فَمْ
أخافُ القصورَ وأخشَى السمومَ   وما منزِلُ السُّمِّ إلا الدَّسَمْ

الملكة : يا لَكِ من رفيقه   محسنةٍ شفيقهْ
مَرْحَى تِتَا كذا تِتَا   فلتكنْ الصديقه

الوصيفة : سيدتى أخجلْتِنِي   ليس بما جئتُ عَجَبْ
ما قُمْتُ يا سيدتى   إلا ببعضِ ما وَجَبْ

الملكة : ولكن يا تِتَا ما أخطَرَ السُّم على بالِكْ
ولى فى فارس عامٌ   فما فكَّرتُ فى ذلك

الوصيفة : أرى قمبيزَ والفرسَ   بمولاتىَ قد جُنُّوا

ولولا ذاك لم يخل من السم لها ذهنُ

الملكة : ولِمْ لا نحذرُ السمَّ أما فى فارسٍ نحنُ

هنا الجلادُ والسيفُ هنا السجّانُ والسجْن

الوصيفة : وماذا ضرَّ ما قلتِ إذا لم يجنِ الجنُّ

الملكة [بعد برهة تفكير] :

أرى قمبيزَ ذلّ ورقّ طبعا بربِّك هل رأيتِ عليه حبّا

الوصيفة : أجلْ هو يقصرُ الخطوات مهلاً وكان يمدُّها خطفًا ووثبا

[ثم فى تلعثم وتردد] :

سأسألُ فاحلمى عنى فإنى أموتُ ولا أراكِ علىَّ غضبى

سؤالٌ ملكتى هل من جوابِ

الملكة : أدونَك يا فتاةُ شىءٌ يُخبَّا

الوصيفة : زعمنا أن قمبيزًا مُحبٌّ فهل تجزينَه بالحبِّ حبّا

الملكة : أحبُّ أنا؟ ضلَّ ما قد ظننتِ وإن خلت ظنّكِ لم يكذبِ

الوصيفة : ولِمْ لا ؟ وقمبيزُ لا بالقبيح ولا بالدميم ولا بالغبى

ولا هو بالملكِ البربرىّ ولا الوحشِ ذى النابِ والمخلبِ

ولكن فتًى خيِّرٌ كالسحابِ وضىءُ البشاشةِ كالكوكبِ

يزينُ السريرَ إذا احتلَّه وإن سار كان حُلَى الموكبِ

الملكة : صدقتِ تتا هوزينُ الشبابِ إلـهُ القنـا قمـرُ الغيهـبِ
إذا غُلِبَتْ فى القتالِ الملوكُ وفى السِّـلمِ عَزَّ فلم يُغلَبِ
يُسيطِرُ كالشمسِ سلطانُهُ على مشرق الأرض والمغربِ
ولكن متَى يا تتَـا دُلِّلَتْ بنـاتُ الفراعين بالأجنبِ

وما نلتقِي فى جلالِ الجدودِ ولا فى العقيدةِ والمذهبِ
بَخٍ بَخْ تتا ألف مرحَى تتا

الوصيفة : حنَانَيكِ عفواً ولا تغضبِى
لقد قلتُ حقًّا وماذا علىَّ إذا قولَةُ الحقِّ لم تُعجبِ

« تنسحب الملكة إلى غرفة مجاورة ويدخل قبيز ... ... »

قبيز [يدخل وعليه أمارات الغضب] :
ماأرى من تتا؟ تتاأين مولا تُكِ فيمَ احتجابُهاأين سارتْ
تى [لنفسها]: ربَّ ماذا به وما هاج قبيـــــز ومابالُ نفسهِ اليوم ثارت
تى [لقمبيز]: هى فى حجرة الملابس

قبيز : لا بل هى قدجاءها النَّبا فتوارت
خبِّرينى من أبوها أ يـرياسُ أم أ مازسْ
وبنفـريتَ تُسـمَّى أم تُسـمَّى بنتـاتس
إحذرى أن تكذبينى إحذرى سلطانَ فارس
تـتى : سيدى ما هـذه الأخـبـار كسرى من رواها
سيدى كيف اتهمتم ملكةَ الفرس النبيله

قمبيز : سأريها كيف تنقا دُ وتأتى لى ذليله
في غدٍ تدخلُ مصراً بنتُ فرعونَ ذليله
وترى السيفَ مُخوفاً وترى النارَ مهوله
وترى النيلَ دماً والـ ـأرضَ جرداءَ مُحوله
لا أناسٌ لا مواشٍ لا بناءٌ لا نخيلَه
الوصيفة : سيدى صبراً تجدْ عا قبةَ الصبرِ جميلَه
سيدى لا تُصغِ إلا لسَجاياك النبيلَه

قمبيز : أنا لم أخلَق لبسط الـ ـكَفِّ أستجدى بخيلَه
أنا للسّيف وللرُّمـ ـح وإخضاعِ القَبيلَه
لا نِتَا . لا . إن بالملـ ـكةِ كبراً ومخيلَه
[ثم بسخرية] :
أنا من تُربٍ خسيسٍ وهى من أرضٍ جليلَه
أنا للطِّينِ سليلٌ وهى للشمسِ سليلَه
الملكة [وهى راجعة] :
ما الصوتُ مَنْ تُكلّمينَ يا نِتَا ؟

الوصيفة : سيدتى . سيدىَ الملْكُ أتى
الملكة [ملتفتة] : الملْكُ جاء حجرتى ؟ كيفَ متى ؟ ؟
[ثم ناهضة ومقبلة على الملك] :
الملْكُ فى مقصورتى يا مرحبا يا مرحبا

الملك [ويقبل على الملكة] :

سلامٌ ملكةَ الفُرسِ وبنتَ العِليَةِ الصِّيدِ

الملكة : سلامٌ سيدَ الأرضِ سلامٌ حيدَرِ البِيدِ

ومن دانَتْ له الدنيا وألقَتْ بالمقاليدِ

[ثم مستمرة]: لم أتعوَّدْ أن أرى مولايَ عندى فى الضُّحَى

قبيز : خالفتُ نظمَ عادتى وجئتُ فى شأنٍ دعَا

الملكة : مالَكَ كِسرَى عابِسًا مالى أراكَ مُغْضبا

الملك [ويصفق] :

أجلْ جِدُّ غضبانَ

الملكة : مِمَّ الغضَبْ ؟

الملك : رُوَيْدَكِ نفريتُ تدرِى السَّبَبْ

الملكة [لنفسها] :

دعانِىَ باسمِىَ لم يَدْعُنِى كمألوفِ عادتِه باللَّقَبْ

تُرَى لم يزَلْ جاهلاً أننى أتيتُ لفارسَ باسمٍ كَذِبْ

قبيز [ملتفتا وراءه خارج الباب وينادى] :

فانيسُ . أَقبِلْ أُدنُ جِىءْ

الملكة [لنفسها] :

فانيسُ ؟ لا . لا يدخُلِ

فانيسُ لا أجهلُهُ ليس لمصرَ بالولِى

عدوُّ قومِى وبلا دِى كيف يُصفِى الودَّ لِى

[ثم إلى قمبيز]: مولاى إنى ما فرغتُ بعدُ من تجمّلِي
فكيف أستقبل فى هذا اللباس المهمَلِ
[لنفسها] : يا ويلتاه ما أرادَ باصطحاب الرجلِ
إيزيسُ ما بالىَ أحسستُ بشرٍّ مقبلِ
الملك : مالَكِ يا مليكةُ لم تُرحّبِي وتَحْفِلِي؟
مالَكِ أجفلت ؟

الملكة [مضطربة] : أنا ؟ لا سيدى لم أجفلِ

الملك : إذَنْ هَيِ الإذنَ لفانيس دَعِيه يدخل
الملكة : لا بأسَ فى أن أراه عندى إن كنتَ يا سيدى مُصِرًّا
لكن أأُنسيتَ أن فانيسَ خانَ بالأمسِ عهدَ مصرَا
وفرّ منها ولستُ أدرى ماذا دعَاه لأن يفرّا
وكان فى الجيش ذا مكانٍ وقادَ بَرًّا وقادَ بحرَا
قبيز : لكنه اليومَ فى بلادى أجلُّ مما ذكرتِ قدرَا
الملكة : وسوفَ يجزيكمُ جحودا كما جزى أهلَ مصرَ كفرا
قبيز : لقد أتانى بكلِّ سرٍّ عن مُلْكِ مصرٍ لم يُخفِ سرًّا
حتى الذى تكتُمِينَ عنّى

[ثم ينادى] : فانيس
فانيس : مَلْكِى لبيْكَ عشرَا
[ثم هو يدخل] :
سلامُ الشمسِ من مصرَ سلامُ النارِ من فارسْ
على الملْكةِ نفريتَ أو الملْكةِ نيتايسْ

الملكة [لنفسها] :

رمانِي النَّـذْلُ بالسَّهـمِ

[ثم لفانيس] : سـلامٌ لكَ يا فانِيسْ

ويا مَن هـو في الفُـرسِ ومصـرَ القـائدُ الفـارسْ

وفي القصرين من سوسٍ وسايِيسَ هـو الحـارسْ

فانيس : وماذا ضرَّ يا بنتَ المـوالِي وإن تأْبَيْ فيابنتَ الأعادِي

أجلْ مولايَ الإغريقُ قومِي أحبُّهُـمُ ويونانٌ بـلادِي

هجـرتُهما إلى مصرٍ صـبيًّا لكَسْبِ معيشةٍ وطِلابِ زادِ

فصدتُ الرزقَ حتى صارَ عندي وجاوزَه إلى المجدِ اصطيادِي

سهرتُ على اللواءِ بمصرَ جُهدي وفرعونٌ وقـومُك في رقادِ

الملكة : كذبتَ فلم تكن إلا مسودًا

فانيس : فسوَّدَنِي ذكائِيَ واجتهادِي

الملكة : أجيرًا كنت عند أبي وقومِي

فانيس : فوَلَّنِي نشاطِي واقتصادِي

جعلتُ الأرضَ كالصحراءِ تحتي وكنتُ الليثَ من وادٍ لوادِي

الملكة : أراكَ عليَّ يا فانيسُ تجْرو أجَرَّأكَ المليكُ على عنادِي؟

ككلبٍ خلْفَ سيّدِه تجـرَّا فواثَبَ رائحًا وسَطا بغادِي

فانيس : بدأْتِ أميرةَ الوادِي بشتْمِي وما أنا يا ابْنَةَ المقتولِ بادِي

لقـد عيرتِني أني غريبٌ ولـوعٌ بالسـفار وبالرِّيادِ

الملكة : لقد هجَمَ الوقاحُ على مكانى وأخشى أن يصيرَ إلى التمادى
[ثم للملك] : مولاىَ قِفْ فانيسَ عند حدِّه أو رُدَّه لا تُلْجِئنى لِردِّه
علمتَ حقدَه على قومى فلا تدَعْه ينفُثُ فى سُمِّ حقدِه

الملك : عَلامَ أُقصيه

الملكة : لأنه أتى يَشى بنا ويفترى كعهدِه

الملك : فانيسُ جاءَ ناقلاً مُبلِّغا وليس ما جاءَ به من عندِه

[ثم مستمرا] :

أراكِ نفريتُ غيرَ منصفةٍ رُوَيْدَ لا شىءَ يوجبُ الغضبَا
كونى مكانى! ؟ ما كنتِ فاعلةً؟ إذن قلبتِ الزمانَ فانقلبَا

الملكة : لا سيدى إن للزمان يدًا قد ضربتْ كفَّ كلِّ مَن ضربَا

الملك : نفريتُ ثُرتِ على قَنبيـس وما حفِظتِ ولاءَه
ونَسِيتِ خدمتَه بعصـر وما ذكرتِ بلاءَه

الملكة : لا سيدى لا . نَحِّه أنا لا أطيقُ لقاءَه

[ثم مستمرة] :
ما بكَ مولاىَ ما أثارَك ما أذاكَ إنى أراك ملتهبا

قمبيز : أثارَنى منكِ أن كذبتِ ونا فانيسُ قد جاءَ يفضحُ الكذبَا

[ثم مستمرا] :
هلمِّى الآن نفريتُ هلمِّى يا نتيتاسُ
بأىِّ اسميك أدعوكِ

الملكة : بذا أو ذاكَ لا باسُ

فيا قمبيزُ لو دانَتْ لَكَ الأيامُ والناسُ
فلنْ تستطيعَ أن تقهرَ نفسًا حلَّها الياسُ

قمبيز : أنتِ مملوءةٌ من اليأسِ مني

الملكة : أجلِ اليأسُ منكَ ملءُ ثيابي

فليكن

الملك : إنني سألت سؤالًا لم إذن هبْتِني وهبْتِ جوابي
كيف أدعوكِ يا عروسُ؟

الملكة : بما شئتَ بشَرِّ الأسماءِ والألقابِ
بالذي أنتَ أهلُه من بَذاءٍ والذي أنتَ أهلُه من سِبابِ

الملك : أنتِ لم تُذنبي بل الذنبُ ذَنْبي
أنا قد شئتُ أن تكوني ركابي

الملكة : ليس ماشئتَ أو أتيتَ غريبًا
قد تكونُ المَهَا ركابَ الذئابِ

الملك : احْذَرِي أيُّها الفتاةُ انفجاري

الملكة : انْفجرْ مابِي انفجارُكَ مابِي

الملك : جئتِ ذنبا تُعاقَبينَ عليه كُلُّ ذنبٍ رهينةٌ بالعقابِ

الوصيفة [بصوت منخفض] :

اكظمي الغيظَ يا أميرةُ

الملكة [وتشير الى قمبيز] :

بل يخرجُ من حُجرتي ومن مِحرابي

الملك [لفانيس والوصيفة] :

انظُرَا واسمَعا تُحاوِلُ أن أبْــــــرحَ قصرى وأن أُفارِقَ بابِى

الوصيفة [للملكة بصوت منخفض] :

راجِعِى الحلمَ ملْكتِى سايِريهِ　　لاطِفيهِ لِينِى له فى الخطابِ
لاتهيجى به الجنونَ فيطغى　　إنّــه آدمٌ بظُفــرٍ ونابِ

فانيس [همسا] :

أَحْسنِى الرّدّ ملْكتِى واحفظِينَا
إننـا هاهنـا ثلاثُ رقابٍ

الملكة : خِفتَ فانيسُ من عذابِ نهارٍ
كيفَ عرّضتَ أنفُسًا للعذابِ
عجبٌ من خرابِ عمرِك تخشى
أنتَ من ساقَ أمّةً للخـرابِ

الملك : بنتُ مَنْ أنتِ يا نتيتاسُ

الملكة : بنتُ الـشـمسِ بنتُ العواهِلِ الأربابِ
والِدِى فى السماءِ فهو إلهٌ

الملك : فلماذا مَرّغتِيـهِ فى الترابِ
قد نبذتِ اسمَكِ الذى كان سَمًّا　　لكِ وجُبْتِ البلادَ باسمٍ كِذابِ

[ثم مستمرا] : نتيتـاسُ تمــرّدْتِ　　فما أبقيْتِ لى صبرًا
وكلّمتُــكِ فى الذنبِ　　فما أبديْتِ لى عُذرًا
وما أجـرأَ ماكنتِ　　عـلى شتمِى ما أجرَا

فما غرَّكِ بالبأسِ وبالسلطانِ ما غرَّا

الوصيفة [بصوت منخفض] :
خُـذى فى اللِّينِ مولاتِى

فانيس [همسا] : خُـذى سيدتى الحـذرَا
فقـد تأخـذُه النَّـوبــةُ حتى يَخرقَ القصـرَا

قمبيز : دَعِى العـزَّةَ بالجنس نتيـاسُ دَعِى الكِبرَا
ولا تُلقِى عـلى إحسا نِىَ النسيـانَ والكُفرَا
أما أحببتُـكِ الحُـب الـذى أنتِ بـه أدرَى
وفضَّلتُكِ فى القصـرِ عـلى البيضـاءِ والسمرَا
وقـدَّمتـكِ فى الأزوا جِ قبلَ الأختِ من كسرَى

الملكة : لقـد كنتَ وراءَ الحُـبِّ تُخـفِى النَّابَ والظُّفـرَا
ومـا أفـرحـنى أنى تقـدَّمتُ عـلى الأسـرَى
ولا أنـكَ تـرْعانِى وتنْسى النعجـةَ الأخـرَى

الملك : ملكـةَ الفرسِ أمسِ
الملكة : واليـوم
الملك : كلا لستِ أهلاً لصحبةِ المالكينَا

الملكة : أنا بنتُ الملوكِ أصلُحُ للمُلْـك جدودى تملَّكوا العالمينَا
الملك : قـد خُدعتُ الشهورَ يا ابْنَـةَ فرعو
نَ ولـولا فنسُّ خدعتُ السِّنينَا

فانيس [لنفسه] :
أحمَدُ الله قد نجوتُ برأسى وأمنتُ المُهوَّسَ المجنونَا

الملكة: ليس فانيس للأمانة أهلاً   إن من خانَ لم يخف أن يخونا
الملك: سترين العقابَ
الملكة: إني تأهبـــتُ فهات العذابَ هات المنونا

الملك: لا . فما ها هنا العقابُ ولكن
الملكة: أين ؟

الملك: في حيث شئتُ لم تسألينا
مصرُ أولى بأن أحاسِبَ فيها   وأحلّ العقابَ بالخادعينا
في غد تدخلينَ مصرَ مع الجيـــش

الملكة: أنا ؟ لا أرافقُ الغاصبينا
الملك: بل تسيرينَ تحت راية فانيـــسَ
وما تصحبينَ إلا أمينا

الملكة: سيدى
الوصيفة: مليكتي دعى العُنفَ
الملك: ماذا ؟
الملكة: كيفَ لقّبْتَ بالأمين الخؤونا

فانيس [همسا] :
صانعى أيها الأميرة

الملكة: دَعْني
فانيس: اهْدَئى حاسنى عسى أن يلينا

توميفة : مليكتى قال سيدى الملكُ الحقّ

الملكة : صَهِ أنت يا تتا تكذبينا

فانيس : ستريْنَ النعيمَ تحتَ لوائى

الملكة : بل أرى البؤسَ تحته والهُونا

الملك : وكأن الوجهين بانا من الوا دى

وزالا سهولةً وحُزونا

أرسلُ السيلَ تارةً وأجيلُ السيفَ آناً وأشعلُ النارَ حينا

الملكة : عُدْ إلى الرُّشد ما جنتْ مصرُ يا قمبيزُ ما ذنبُ أهلها الآمنينَا

[ثم مستمرة] :

أميرَ الفُرس قلنا كلَّ شيء

ولم نقُل الحقيقةَ والصوابَا

الملك : أعندكِ منهما شيءٌ ؟

الملكة : ولم لا

الملك : إذَنْ قوليهما و زِنِى الخطابا

ذكرتِ الحربَ هل تخشينَ منها

الملكة : ولم لا وهى أجدرُ أن تُهابا

الملك : ولكنا ملوكَ الفرس نغشى مخاوفَها ونجعلُها لعابا

أراكِ هدأتِ نا تيتاسُ روعًا

فانيس : وكان الرّشدُ فارقَها فثابا

الملكة : ذكرتَ مليكَ فارسَ حربَ مصرٍ . وأنسيتَ العوائقَ والصّعابا

سيَطْوِي الجيشُ نحوَ حياضِ مصرٍ
بحارَ الملحِ واللججَ العذابا
وأغْبَى الناسِ منشمرٌ لحربٍ توقّعَ أن يُصيبَ ولا يُصابا
ودونَ النيلِ

الملك : ماذا دونَ مصرٍ؟

الملكة : يجوبُ الجيشُ صحراءَ يبابا
ترى تيهًا تجُرُّ الخيلُ فيه قوائمَها وتنسحبُ انسحابا
يَضلُّ الجيشُ هديتَه عليه ويُظمئُه ويوردُه السّرابا
ترى جَلدَ الجمالِ عليه يَفنَى وتحسَبُها من اللّهثِ الكلابا

الملك : لا تُراعي فما على الجيش بأسٌ كلُّ شيءٍ على الحدودِ تهيّا
قد وجدنا الجرارَ في مصرَ والما ءَ ولم نَعدَمِ الرجالَ السُّقيا

فانيس : واشترينا الخفيرَ بالمالِ والحا رسَ والحاميَ الأمينَ القويّا

الملكة [لفانيس] :
كلّ هذا فعلتَه أنتَ يا نَذْ لُ

فانيس : أجلْ ما أتيتُ أمرًا فريّا

إن قمبيزَ بي حفيٌّ وفرعو نُ أمازيس لم يكن بي حَفِيّا

الملكة : وابنُه ماجنَى عليك ومصرُ؟

فانيس : جنيا الطردَ والجحودَ عليّا

أنا كالسيف لم يَصُنِّي كَمِيٌّ قد رمانى فاعتضتُ عنه كَمِيّا

الملكة : وجحدتَ الذى طعمتَ من النعمة

قانيس : لا . ماطعمتُ من ذاك شيّا

كنت كالسيف كلما كافأونى جعلوا السُّمَّ لى طعامًا ورِيّا

الملكة [إلى قبيز] :

وهبكَ بلغتَ يامولاىَ مصرًا

الملك : وماذا عندَ مصرَ

الملكة : تجىءُ غابًا

ترى أُسدَ القتالِ عليه شتّى تقلَّدتِ الصوارمَ والحِرابَا

وثَمّ ترى القبائلَ من رُماةٍ تكادُ قِسيُّهم تَرِدُ السحابَا

إذا نظروا على زادٍ غرابًا أصابُوا بينَ عينَيْهِ الغرابَا

الملك [يبتسم مستهزئًا] :

رُماةٌ ؟

[ثم إلى فانيس والوصيفة] :

حدِّثوها كيفَ أرمى

وكيفَ أصيبُ فى السُّحبِ العُقابَا

الملكة : أأنتَ بجمعهم تُقاسُ كسرَى

وأنتَ الموتُ حيثُ رَمَى أصابَا

الملك : إذَنْ ماذا ؟

الملكة : أخافُ عليك جيشًا

كمركومِ الحصى يُخطى الحسابَا

وأخشى أن يقولَ النـاسُ زوجى
غـــداةَ ذهابِـــه نسِىَ الإيابا

الملك [لفانيس] :

فانِيسُ صَفِّق و ناد يامعشـرَ القُـوّاد

[يدخل الحرّاس والقوّاد]

قمبـيز [للقائد ميجا صاحب الأخبار] :

ميجا تعالَ

ميـجا : لبَّيْـــكَ رَبِّى لك التحيات والسجودُ

الملك [للملكة] :

يامَلْكةَ الفرسِ ذاكَ ميجا يعـلمُ مايحشُـدُ الوجـودُ
خريطـةُ الأرضِ فى يديه السفنُ والخيـلُ والجنودُ

الملك [لميجا] : ميـجا تكلّم ما حالُ مصرٍ ما الجيشُ فى مِصرَ ما الحدود

الملـكة : هاتِ ميجا قل تكلّم

ميجا [فى اضطراب] : ملكَتِي

الملـكة : ما الذى تدرى عن الجيش المجيدْ

ميـجا : جيشُ مولاتِىَ كالعهـدِ به كاملُ العُدَّةِ موفورُ العديدْ

الملك [فى غضب] :

هاتِ ما عندكَ من أخبـارِه
واخْشَ أن تَنقُص واحْذَرْ أن تَزِيدْ

ميجا [مضطربا] :

يا إلهَ الفرسِ لا تبرَحْ فمي
وأعِنِّي . كيف أبدي وأعيد

[ثم للملكة] :

إن وردَ السلمِ من كثرتهِ نسيَتْ أظفارَها فيه الأسود
واختلافُ الجُندِ فيما بَيْنَهُمْ أخذَ البأسَ وإن أبقى الحديد
أصبح الجيش
[ويسكت قليلا]

الملك [لميجا] : تكلَّم

الملكة : قل أينَ

ميجا : كالقطيع اختلفتْ فيه الجلود

حُشِرَ اليونانُ في رايتهِ وتراغى الزنجُ واندسَّ العبيد
وغدا كلُّ طريدٍ لم يجِدْ سببَ الرزقِ أتى الجيشَ يصيد

الملكة [لنفسها] : والخيلُ يا ميجا هناك ؟

ميجا : قليلةٌ في جيشِ مصرَ قليلةُ الفرسانِ

الملكة : أسفًا على الفتيانِ أينَ حماسُهم قتلَ النعيمُ حميَّةَ الفتيانِ

الملك [ملتفتا الى ميجا] :

مليكةُ الفرس ميجا قد اكتفتْ ببيانِك
نخذ مرازبةَ الفرسِ وامضِ ميجا لشانِك

نتيتاس : قمبيزُ ما شئتَ فاصنع إني أراك مُصرًّا
تُغيرُ أنتَ وتغزو ويحفظ الله مصرا

قمبيز : وفارسٌ ياابنَةَ النيل ما لِفارسَ ذكرُ

نتيتاس : لا أيها الملك مالي في غيرِ مهدِىَ فكرُ

قمبيز : نتيتاسُ اسمعي أنتِ تُسيئينَ إلى مصرَا
غدًا يهلِكُ أهلُوها وتُمسى تحتَهم قبرا

نتيتاس : وقاها منكَ آمونُ ولا اسطعتَ لها ضرّا

قمبيز : هذا التجنِّى كثيرُ هذا لعمرى الغرورُ
لقد تحمَّلَ صدرى ما لا تُطيقُ الصُدورُ

[ثم مستمرا] : كفا عَبَثًا بسلطانى وبأسى كفى ما كان نا تيتاسُ منك
غدًا يحدِّثُ الرُكبانُ عنى ويروى الناسُ مايروون عنك
كذبْتِ علىّ ياابْنَةَ أبرياسٍ حذارِ حذارِ من بطشى وفتكى

أنا قمبيز بنُ كسرى أنا جبار الوجودِ
وأنا النارُ أصولِى وبنو النار جدودى
ويل فرعونَ ومصر من جنودى وبنودى

قمبيز [لنفسه] : رباهُ ويحى ويحَ لى رباهُ مالى لا أعى

رباهُ ناراهُ ما الذى أجدُ
كأنما النارُ فىّ تتقدُ

يا نارُ كونى لِى أورمازْدُ كُنْ عونى

[ثم إلى نتيتاس] : انتظرى البطش يا بنتَ فرعون

أنـا قمبـيز بنُ كسرى أنـا وحشٌ أنـا غولْ
لسـتُ بالعجل أبـالى وعـلى النـار أبـولْ

قمبيز [لنفسه] : قـد رجـع الصفيرُ لى يا ليتـه لـم يرجـع
ما بالُ عيـنى أظلمتْ ما بالُ سـاقى جمـدتْ
أين الطبيبُ أزْدَشِـرْ ؟

[ويغشاه الصرع]

الملكة [بعد أن يأتى الطبيب] :

هذا الطبيبُ قـد حَضَرْ

[يدخل الطبيب و يطلب نقله]

الملكة [تدنو منه فى حنو وعطف وتقول] :

يا ويحَ زوجى ويحَـه هـاجَ وعاده الصَّـرَعْ
يا نارُ كونى حـوله أدرِكْهُ يا آمون رَع

[يخرجون به]

فانيس : ألان نتيتاسُ تعـالَىْ إلى الهُـدَى
تعالَىْ إلى الرأى الصـوابِ تعالِى
نتيتاسُ أنتِ اليومَ ملكةُ فارِس
بلغتِ الثُّرَا من سُـؤْددٍ وجلالِ

الملكة : ولكنْ أبِى فانيسُ لاتنسَ ما أبى
وجَدِّى وأنى بنتُ أصيدَ عالِى

فانيس : ولكن ألم يخلعْ أباكِ أمازسٌ
ويفتِكْ به فى ثورةٍ وقتالِ
ويجلسْ على كرسىّ مصرَ مكانَه
ويخلُفْه فى جاهٍ أفادَ ومالِ

الملكة : أجلْ قد خُلِعنا مُلكًا وتصرَّفتْ
بنا سوقةٌ من جُندنا وموالِى

فانيس : إذَنْ فدَعى قمبيزَ يثأرْ لزوجه
ويضربْ بيُمْنَى أو يُصبْ بشمال

دعيه يعاقب سارقَ التاج مثلما
يُعاقَبُ فى منفيسَ لصٌّ لآلِى

الملكة : تأمَّلْ وحقِّق من تخاطبُ يافتى

فانيس : أخاطِبُ عقلًا من وراء جَمالِ
لقد قلتُ قولاً ليسَ يأباهُ عاقلٌ
فلا تنظرينى واسمعى لمقالى

الملكة : ولكن أمامى صورةٌ من خيانةٍ

فانيس : وما لَكِ يا بنتَ الملوكِ وما لِى

الملكة : وأنتِ نِتَا ماذا ترَيْنَ ؟

الوصيفة : خيانةً وأطماعَ قُوَّادٍ ولؤمَ رجال

الملكة : فديتُك من مصريّةٍ

الوصيفة : بل أنا الفِدَى لسيدتى من قدوةٍ ومثالِ

الملكة [لفانيس] :

أتسمعُ كلبَ الصيد؟

فانيس : حمقاءُ غِرَّةٌ وما لىَ أُلقِى للحماقةِ بالِى

الملكة : عمًى لك يا فانيسُ وامشِ بلا عصًا
ودونَ دليلٍ فى رءوسِ جبالِ

فانيس : لكِ الشكرُ مولاتى

الملكة : لكَ الويلُ من فتًى فإنكَ من مَعْنَى المُروءة خالى
أأُوطِئُ خيلَ الفرسِ مهدى ومَلعبِى
وتربةَ آبائى ومنزِلَ آلِى
وأشعِلُ نارَ الفُرسِ فى أيكةِ الصِّبا
وما بوأتْنِى من رُبًى وظِلالِ
وأغمدُ سيفَ الفُرسِ فى صدرِ أمةٍ
نمتْنِى وتُنْمِى أُسْرتِى وعيالِى

إذَنْ لا أوَى جَدِّى السماء ولا أبى
ولا جَلَّ عمِّى أو تبارَكَ خالِى
وأفضلُ منى كلُّ ذاتِ مُلاءَةٍ
وراءَ حُقولٍ أو وراءَ تِلالِ

تَهُشُّ على شاةٍ وتحمِلُ جَرَّةً
وتَمْشي على الوادى بغيرِ نِعالِ

[يدخل قمبيز ثم الحاجب و يقول] :

إله الفُرس

الملك : ماذا ؟

الحاجب : ثَمَّ رُسُلٌ أتَوْا مِن مِصرَ بالنَّبأ العظيم

الملك : وما يقولون ؟

الحاجب : يقــو لــون أمازِيسُ هَلَكْ

الملك : ثُمَّ ؟

الحاجب : يقولون آبنُــهُ بسامتيك قــد مَلَكْ

الملكة [لنفسها] :

مِصــرُ ... ... رُسْــلٌ ؟ ليتَ شِعرى ما الخبَرْ
وطَني يا رَبِّ لا مُسَّ بِشَرْ

قمبيز الملك [ملتفتا للملكة والوصيفة] :

يا مَلْكَةَ الفُــرسِ أصْغِي ويا نِتَا هــل سمعتِ
قــد ماتَ فرعونُ مصرٍ

الملكة والوصيفة [بصوت واحد] :

تعيشُ مِصــرُ وتَبْــقَى

ســتــار

الفصل الثالث

المنظر الأول

«والأميرة تفريت على ضفاف النيل تشكو إليه وتنتحر بأن تلق بنفسها فيه»

ويحى لقد أودَتْ بىَ الأنانيَه
عِشتُ فما أحببْتُ إلا ذاتيَه
ولا افتكرتُ بسوَى لذَّاتيَه
حتى قَذفتُ وطنى فى الهاويه
ألنيل . ألنيلُ بجنبى هاهيَه
أمواجُه تَهتِفُ بى مناديه

+ + +

يا نيلُ يا قِوام كلِّ شئٍ
ومانحَ الحياةِ كلَّ حىٍّ
هىِّ اغسلِ الذنبَ العظيم هىِّ

ثم تلق نفسها

المنظر الثانى

فى منفيس

« جماعة من المصريين والمصريات يتحادثون ويتذاكرون »
« بغى قمبيز وجنوده وبعض ما أصاب الناس من المصائب »
« من جراء الفتح الفارسى — فى ساحة من ساحات منفيس »

أحد الرجال [لزميل له] :

تعـال يا (باطـا) قــل لىَ بالله
كيف ترى الحُكما كيف ترىَ الظُّلما

باطا : أصِخْ أصِخْ يا داذْ اسمع وكن عـونى
قمبـيز فى الظـلم بألف فرعون

[ثم لمجار]: وأنتَ يا مجـارْ ماذا تقــولينا

مجار : آمونُ ذو المَنّ يبُـقى الفراعينا
الفُـرسُ فى مِصرَ طغيَانُهم قـد زادْ
هُمْ صلبـوا التمساحْ على ضِـفاف الوادْ
وكلَّفـوا العصفورْ يمشى مـع الصيّاد

[تقبـل امرأة مصرية عجـوز]

فيقول أحدهم: وهــذه دوبــاره

آخــر : الشـيخةُ الـثرثاره

الأوّل : هلمّـي يا دوبـارا هاتِي اذكري الأخبارا

دوباره : لا تسألوني ما الخبرْ مِصرُ ترى اليومَ العِبَر

لكن صَـهٍ حذارِ لا يـدرينّ دارِى

عارضَني الساعةَ في طـريق

فتىً مليـحُ الحسنِ والـبريقِ

يسألها سائل: مِن الجنـود؟

العجوز : لا! من القوّادِ

عـالى المكان ظاهـرُ الميـلاد

آخــر : ومـا أتى ما فعــلا؟

العجوز : عانَقـنِي وقبّــلا

الأوّل : وأينَ؟ فـوق فِـيكِ الذُّرى

آخــر : أو مِن على جبينِك البـدرى

آخــر : أو فوق خدٍّ مثلِ روثِ البغلِ

الأوّل : أو فوق ذقنٍ مثلِ كعبِ النّعلِ

العجوز : أهـذه نجدتُكم يا فتيـهْ

أهـكذا تُحمَى بمصرَ النّسـوَه

يا أسفًا على القرونِ الخاليـه

يا أسفا على النفوسِ العاليـَه
[وتنصرف مغضبة مهرولة]

أحدهم [ويرى شخصا مقبلا]:
هذا أها، من أينَ جئـْـــتَ ؟

ثانى : كيف أنتَ يا أهـا ؟

أهـا : من ضيعتى

الأول : وكيف هِى؟

أهـا : قــد لَقِيَتْ ما ســاءَها

إوَزِّى كلّــه طـاحَ   وبَطِّــى كلُّــه طـارا
وأخــتى خُطِفت مِـنى   وزوجى جُـلِّلَتْ عارا

الجماعة : إذن لقــد آن أن نثُــور   نَطْـرُدَ قمبيزَ والجنـودا
الغابُ فى شِقوةٍ وبُؤسٍ   فما الذى يمسِك الأسودا

أحد الجماعة : خذوا حِذركم أقبل الطاغيَه   مع الوزراء وفى الحاشيَه
وذا السيفُ فى يدِ جلّادِه   يُسَلُّ على الأرْؤُس العاليَه

آخــر : تـلك مصائبٌ وقـدْ   صُبّتْ على هــذا البـلَدْ
امضُوا بِنَـا امضوا بِنـا   لاَ يسمَعَنّنَا أحَــدْ

« ينصرف المصريون و يدخل قمبيز فى وزرائه وقواده »
« ثم يقبل جنود يسوقون أسرى من النـوب ... »

قمبيز : ماذا يَسُــوقُ الجنــودُ   مَنِ الوجــوهُ الســودُ؟

هــذى عفـاريتُ

وزير : لا . بل مــولاى هـذى قـرودُ

قبــيز : لكنّهم حيثُ دارتْ رَحَى القتـال أُســودُ

بـلَوْتُهـــم فى القتـالِ لمـا حَـوَتْنـا الحـدودُ

قائـد : النـوبُ جُنــدُ بِسَـامَا

قائد آخر: بل هــم أشَــدُّ جنـوده

وأثبتُ الجيشِ يـومَ الـــقتـالِ تحـتَ بنـودِه

قبــيز : ياجُنْدُ حُلُّوا عن الأسرى وثاقَهــمُ

خَلُّوا عن السُّودِ قد أعتقتُ أقرانى

و يابنى النُوبِ مُلْكى لن يضيقَ بكم

من شاءَ فليبقَ فى مُلْكى وسلطانى

والجيشُ دارُكُمُ إن كان يُعْجبُكُم

أن تَلْحَقوا بمُشاتِى أو بفـرْسانى

الأسرى النوب :

يا بنِي النـــوب هَــلُمّ رقصةَ الحربِ لكسرَى

ســيِّدُ الأرضِ عفَـا عــنّـــا فما نحنُ بأسرَى

« ثم يفك وثاقهم فيرقصون رقصة الحرب و ينشدون »

النّــوبُ جيـلٌ ، حُـــرٌّ أصيـلٌ ، يقضِى الديـونْ

نحنُ الأسـودْ ، حُمْـــرُ الجـلودْ ، حُمْــرُ العيـونْ

لنـــا لِبَـــدْ ، من الـزَّرَدْ ، هى الحصـــونْ
نغشَى القتـالْ ، ولا نُبَـالْ ، طعـمَ المنـونْ

نحن شعوبٌ وشِيَعْ وراءَ أسـوانَ نَقَـعْ
عروشُنا من الجـريدْ تيجانُنَـا من الوَدَعْ

نحن قبيـلَ الشُّلُكِ فى العنجريبِ نَتَّكِى
والصيدَ نَهْوَى والقَنَص ونَطَّـلِى بالـوَدَكِ

للحربِ نمشى الهـروله نبعثُ فيهـا الجلجـلَه
ممزوجـةً بالـولـولَه

[و بعد الفروغ من الرقص يقبل عليهم قمبيز و يقول] :

قمبيز : زِه يا جُنودْ زِه يا أسودْ

[كبيرالنوب لخازن الملك] :

زِه زِه هاتِ النقودْ

[يدفع الخازن اليهم مالا فيأخذونه و ينصرفون]

[يتراءى فرسان ثلاثة] :

قمبيز : مَن الغُبار ؟

وزير : رُسُلُ

قمبيز : ما ذا إلينا حَمَلُوا

قائد : وعما هممُو تَرَجَّلُوا

[يقف الفرسان بحضرة الملك]

قمبيز : ماذا وراء الرُّسُلِ

أحدهم : الدعوات للملك

قمبيز : ماذا لديكم ما الخبرْ؟

أحدهم : حوادثٌ ذاتُ خطَرْ

قمبيز : حوادثٌ؟ قل أخا الهيجا تكلَّم

الرسول : بسامتيكُ يا مولاىَ خانَا

الوزير الأكبر :
بَسامتيك خان ؟

الرسول : أجل أميرى

قمبيز : وكيف؟ وما أنى؟

الرسول : نقَضَ الأمانَا

قمبيز : وما برهانُكم

الرسول : كُتُبٌ ورُسْلٌ يُشيرُ بها القُرَى آنًا فآنا

قمبيز : وهل وجدتْ دعايتُه سميعا وهل حلّتْ من الوادى مكانا

الرسول : أجابت دعوةَ المخلوعِ مُدُنٌ ومدنٌ ما جعلنَ لذاكَ شانَا

قمبيز : وأينَ فرعونُ ابْنُمَا

الرسول : فى منف يغدو ويروح

حُرٌّ كما شئتَ له بين القصور والصُّروح

من معبدٍ لمعبدٍ ومن ضريحٍ لضريحْ

وحولَه كهَّانُ منفيس يحُوُّونَ المسُوح

وكلُّهم مُشيرُه

الوزير الأكبر : بئسَ المُشيرُ والنّصوحْ

آخـر : من لم يكن كاهنًا فى مصرَ أو ملِكًا
ولا تراه لهـذا أو لِذَا تَبَعَا
فلا تقيسَنَّ فى هـذى البـلاد به
إلَّا المـواشىَ والأحجـارَ والسَّلَمَا

قمبيز : وزرائى ودَهَاقِينِى انظروا انظروا ذلك فرعون «ابسَّمَا»

الوزير الأكبر :
يدفعُ القـوّادُ والجنـدُ بهِ وهو فى القيدِ يجُرُّ الأدْهَمَا

قائـد : كادَ فرعونُ من استكباره أنفُهُ يدفعُ فى أنف السما

[فرعون يقف بين يدى قمبيز فى عظمة و إباء واستكبار]

قمبيز : بسامتيـك
فرعون : قمبيـز
قمبيز : أتدعـو باسمـه المَـلْكا

فرعون : غدًا تَفقِدُكَ الفُرسُ ويخْلُو عرشُها منكا
ومُلْكٌ قد مضَى عنّى سيمضى فى غدٍ عنكا

[قمبيز يدخل فى الغضب شيئا فشيئا] :

قمبيز : وهذا الفتح يا فرعو ن ؟
فرعون : عدوان وإجـرامُ
أما عنـدَك يا قمبيـزُ للنكبةِ إكرام

قمبيز : عفوتُ عنكَ أمسِ يـا ابْسَّاما فلم تَرْعَ الوفَا
فرعون : يا عجبـا يا عجبـا عبدٌ عن الربِّ عفـا
قمبيز [هائجا] : خـذُوه بالخنـاجِرِ سُلُّوا لسانَ الفـاجِرِ

فرعون [في عظمة وصبر وثبات] :

هاتوا سيوفَ الفُرس هاتُوا القَنا

هاتوا المُدَى هاتوا حبَالَ الحديد

لا تحسَبُونى بشرًا بائدًا فرعونُ حيٌّ خالدٌ لا يبيدْ

قمبيز : إذن خذوه بعيدًا صُبُّوا عليه الحديدا

« يأخذه الجند ويخرجون به »

[يدنو وزير شيخ من قمبيز ويقول له] :

القائد : مولاىَ تلك غضبةُ المقهورِ ونزوةُ الضرغامةِ المأسورِ

مولاىَ بالنارِ بقُدس النورِ اغفر لهذا الصارمِ المكسور

فإنه ضحيةُ الأمور

قمبيز [صائحا بالجند وهم ذاهبون بفرعون بسها] :

إذن رُدّوا الأسيرَ إلىّ رُدّوا فإنّا ما انتهينا منه بعدُ

« يرجع الجند بفرعون ويقفونه أمام قمبيز »

قمبيز : تعالَ فرعون ابتسِما تعالَ منى ناحيه

لقد عفوتُ مرةً وقد تكونُ الثانيه

فرعون : لا مرحبًا أمسِ ولا اليومَ بعفوِ الطاغيه

قمبيز : تأمل هل لبستَ اليومَ ذُلًّا وكنتَ تجرّ أمسِ الذيلَ تيها

فرعون : كذا الدنيا تُغَيّر يا ابنَ كسرى تخفّها إنها لا خيرَ فيها

وهبك قهرتنى أقهرتَ مصرًا

قمبيز : أجلْ ووضعت سيفى فى بنيها

وبعدَ غدٍ أطوّقها بنارٍ تطوفُ على البلادِ وما يليها
وتجعل من هيا كلها رَمادًا وتُنزِلُ فى الأزقـةِ مُترَفيهـا
وتـدعَكُ فى ترابِ الذل أنفـا
يطولُ على النجـومِ ويزدريهـا

فرعون: رويدَك يابنَ كسرَى قف تمهّلْ
فعـادةُ مصـرَ تقهـرُ قاهريهـا

قمبيز: رويدَك أنت يا فرعونُ إنى
إذا حطّمتُ مصـرَ فمن يَقيهـا

أليستْ فارسٌ والأرضُ تحـتى
وأمرى فى الجَنـوبِ وفى الشّمالِ
وقد غطّتْ فضـاءَ الأرضِ خيـلى
وهبّتْ فى السهـولِ وفى الجبـالِ

فرعون: شمختَ بخيلك يا فارسىُّ فـماذا صنعتَ بخيلِ القدرْ
تأمل مكانى وما حـلّ بى ألم تتّعـظ بى ألم تزدجـرْ

قمبيز: ما أنت يا مخدوع
فرعون: فرعونُ اسْما
قمبيز: بل أنت مأسورٌ عليـك قيـودُ

وغدًا ينوبُ عن القصورِ ورحْبِها
سجنٌ يضيقُ ومنزلٌ مسدودُ
وتُدَسُّ فى الأجداثِ غيرَ محنَّطٍ
يلهو بهيكلِك البِلى والدُّودُ

فرعون : قمبيز

قبيز : فرعونُ ابْسَما صلِّ ابتهل
واهتف لعلَّ العجل عنك يذودُ
أنظر إلى أينَ انحططتَ

فرعون : كذبتَ لَمْ
ينحطَّ للشرفِ الرفيعِ عمودُ
إن الجواهرَ فى التراب جواهرٌ
والأسد فى قفص الحديد أسودُ

قبيز : سنرى هلُموا يا جنودُ أسيرَكم
عودُوا به من حيثُ جئتُم عودوا

قبيز [مستمرا] :

وأينَ نفريتُ ابنةُ الكذّابِ قد آن أن ينالها عقابِي

الوزير الأكبر :

نفريتُ من مخافة الحسابِ ألقتْ بنفسِها إلى العُبابِ
وذهبتْ

قبيز [ويضحك ضحكة جنونية] :

لكن بلا إياب

[تحضر نيتيتاس وتقول] :

نيتيتاس : قمبيزُ؟

قمبيز : نيتيتَاسُ ؟

نيتيتاس : أجَلْ

قمبيز : وماذا أتَى بِكْ ؟

نيتيتاس : أتيتُ أنقذُ قومى ومَوطنى من عذَابِكْ

قمبيز : والزوجُ يا نتتاسُ ؟

نيتيتاس : وأنقذُ الزوجَ أيضا

قمبيز [ساخرا] : ومِمَّ ؟

نيتيتاس : من شدةِ البلاء وغضبِ الأرض والسماءِ

قمبيز [فى غضب] :

إذهبى يابنتَ فرعونَ اذهبى

اعزُبى يا حيَّةَ النيلِ اعزُبى

فانيس : تأخرى سيدتى لا تعرِضِى لغضَبه

قمبيز : فانيسُ أنت ها هنا

فانيس : مولاىَ لِى لم ينتبه

نيتيتاس [متهكمة] : مولاكَ كم تخدعهُ

مولاكَ كم تسخَرُ به

قبيز [الى قواده] : أحقٌّ هوَ بى يَهزا

[ثم الى فانيس] : أحقٌّ أنتَ بى تَسخَرْ

وفى الأحلام تبدو لى وهذا الوجه لى يظهرْ

وقد يصفرُّ كالليمو نِ أو يحمرُّ كالبنجر

[ويهجم عليه بالخنجر]

فانيس : أميرى سيّدى ملْكِى

قبيز [ويطعنه بالخنجر] : أغِثْهُ أيها الخنْجَرْ

[ضجة فى صفوف المصريين]

أحدهم : قد هَلك الواشى

آخر : قد هلك الخائنْ

كافاه قبيز شرَّ المكافاةِ

فانيس [بعد أن يضربه قبيز بالخنجر] :

آهِ من الخنجرِ ما أحرَّهْ آهِ من الحِمام ما أمرَّهْ

[لقمبيز] : قبيزُ شلَّتْ يمينُكْ ولا أفاقَ جُنونُكْ

[لنفسه] : ويحى أرى عينى تَغيمُ وساعتى

تدنو وأشعرُ بانقطاعِ فؤادى

الذنبُ لِى أنا قد خرجتُ لفارسٍ

ومنحتُ مجنونًا هناك وِدادى

فانيسُ أنت نشأت جُنديا فَمُتْ
كالجند والقَ مصارعَ القُوّادِ
سيانِ حينَ تُحطُّ فى جوفِ الثرى
موتُ الفراشِ وموتةُ الجلادِ
يا نفسُ لم أحملْ عليكِ دنيّةً
لاقى المنيّةَ بالضميرِ الهادى
يونانُ تغفرُ لى وآلهتى بها
سهرتْ عيونُهم على أولادى
قد خُنتُ مصرَ وخُنتُ ساداتى بها
لكننى ما خنتُ قط بلادى

أصوات [من جانب المصريين] :

فانيسُ لا علم لهُ بما جرَى
قد قتلوا أولاده وما درى

[تظهر الجند يدفعون فتى فيقول قمبيز]

قمبيز : وهذا الفتى مَنْ ولِمْ سقتموه إلىَّ
جندى : فتًى فى النواحى يرودْ
قمبيز : وما كان يأتى ؟
الجندى : يُثيرُ البلاد
ويُغرِى القُرى باغتيالِ الجُنودْ
قمبيز : تنحّوْا به فاقطعوا رأسه عساهُ لأمثالِها لا يعودْ

نتيتاس [تسمع وهي متراجعة ضجة فتنظر فيستوقفها المنظر فتقول] :

ماذا رأيتُ وماذا سمعتُ ؟ مَن يدفعونا
مَن ذا إلى النار ساقوا مَن أوردوه الأتونا
تاسو؟ أجل هو تاسو أتوا به المجنونا
قسا الجنودُ عليه والجُنْدُ لا يرحمونَا

ما بالُه عرف الوفاء وكيف ثابَ إلى الرّشاد
ربيّ . أأشفعُ فيه؟ لا لا كيف أمنعُهُ الجهادْ
لا . لن تحولَ شفاعتي بين الضّحيةِ والبلادْ

هذه ميتةُ عِزٍّ إمضِ تاسُو بسلامِ
قد صفحنا لك عن ذا ك التّجنّي والأثامِ
لا تمُت بالكاسِ والطّا مِ ولكن بالحُسَامِ
سرّني أنك تقضي للحِمَى حقّ الذِّمامِ

وشفاني أنك الذّا ئدُ عن مِصرَ المحامي
زُلْ لتبقى كودادى مُتْ لتَحيَا كغرامي

[ثم تتراجع وتقول] :

والآن إلى طيبةِ والصعيدْ لحشر الدُّعاةِ وحشدِ الجُنود
وقهرِ العدوِّ و إرغامِه وقذفِ المُغيرِ وراءَ الحدودْ

[وتخرج]

[يستجمع تاسو و يقول ، وكأنما سمع ما قالت نتيتاس] :

عفت نتتاس فيا مرحبا بك اليوم يا موت من زائرِ

قمبيز [إلى وزرائه] :

ما الـرأى يا وزرائى فإننى لسـتُ أدرى
ماذا بأبْنـاءِ مِصـرٍ من اختيـالٍ وكِبْرِ

قائـد : نحن بنـو الشيطان وهـم بنـو الإنسان

ثان : والناسُ من طينِ السِّكَكْ وهـم سُـلالةُ المَـلَكْ

قمبيز : أبيٌّ لعمرىَ فرعونُ مِصر ويُشبِهـهُ قـومُه فى إباه
سأَدْعَكُ فى التربْ آنافَهم وأُلْصِقُ بالأرضِ تلك الجباه

قائـد : سـيِّدى لا تُبـد رِفقـا وامض فى الأعنـاق دقَّا

ثان : واهـدِم الأبْراجَ هَـدْمًا واحرق الأجْرانَ حَرْقَا

ثالث : ودَعِ الـوادىَ قاعًا واحاق الشَّطَّيْنِ حَلْقَـا

قائد رابع [عالى السن] :

سـيدى بـل تترَفّـق فهـو بالقـادر أليَـق

قمبيز [يضحك ضحكة جنونية] :

خُـذُوا يا قادةَ الفُـرسِ أخاكُـم إنّـه جُنّـا

قائـد : أميرى خَـرِفَ الشـيخ فلُمْـه أوْ لُـمِ السِّـنّا

قمبيز [يغمد خنجره فى القائد الشيخ و يقول] :

خُذْ طعنـةً فيهـا الشِّفا تَصرِفُ عنـكَ الخـرَفَا

القائد [وهو يتلقى الطعنة] :

يا ويحَه قد عادَه الجُنون بل أنا حين هجتَهُ المجنون

قمبيز : وآبيسُ معبودُهم أين هُو؟

قائـد : هو العجلُ

ثان : وهو الذى ألّهوا

وزير : ترى العجلَ فى حُجراتِ الجلالِ

قائد : وقد نعمّوه وقد رفّهوا

الثانى : وليس إلهًا ولكنّما على الشّعب كهّانُه موّهُوا

أحد القائدين [لزميل له] :

هُمْ يعبدُونَ العجلَ يا أزْدشِر

أزدشر : يالك من أحمق ثرثارِ

ونحن ؟

الأول : ألنّارُ إلهٌ لنا

أزدشر : ما الفرقُ بينَ العجلِ والنّارِ

الأول : أفيلسوفٌ أنتَ ؟

أزدشر : بل ملحدٌ

الأول : أنت؟ إذن عِشْ وامضِ بالعارِ

ما كانت النارُ بمحتاجةٍ إلى قليل الدِّينِ كفّارِ

قبيز : وأين هو العجل ؟

قائد : فى قُبّةٍ تليق لكسرى وآبائِه

قبيز [مغضبا مشيرا] :

أمسِكُوا الكلبَ خذُوه ، أدِّبوه

ما أبِى العجلُ ، بل العجلُ أبوه

القائد : الويل لى جُنّ

صديق له فى أذنه : ما جُنّ إلّا كا
فأنتَ ساوَيْتَ بالعجلِ مولاكا

آخر له : أهكذا يا أحمقُ السلوكُ أهكذا يُخاطَبُ الملوكُ

[يؤتى بالعجل ، فيثور لرؤيته جنون قبيز]

قبيز : والآن ماذا رأيتُمْ وما الذى تُفْتُونا
وما الذى نحنُ بالعجلِ يا تُرَى صانعونا

قائد : يَصُبُّ كسرى عليه من البلاءِ فُنُونا

آخر : عَلِّقْهُ بين الأرض والسماءِ واتركْهُ للغِرْبان والحِداءِ

آخر : إدْفِنْه فى الأرض حيًّا وهِلْ عليه التُّرابَا

الأول : إذبحْه ذَبْحَ الخَرُوفِ

الثانى : أخنقْه خنقَ الدَّجاجَة

آخر [يتهكم] : إصْلِبه فوقَ عمُودِ من هيكلِ المعبودِ

وزير : إحرقْهُ يامولاىَ بالنارِ

قبيز : إخسَأ فهذا أعظمُ العارِ
ماذا يقولُ الناسُ عنا غدًا ألقوْا إلى النيرانِ بالقارِ
قد دنَّسُوها وهى معبودُهم من جُثّةِ العجلِ بأقذارِ

[ويظهر الغضب على قبيز فيقول له قائل منهم] :

قائد : مولاىَ ما ذاك فارٌ بل ألفُ فارٍ وفارِ

آخـر : يا سـيّد الأرضِ أبشِرْ رأىُ الـوزيرِ أصابا
غـدًا يقـولونَ بمَنْفِيس تغـدت النـارُ بآبِيس

قمبيز [مقتنعا ومقهقها] :

أجل غدًا يُقالُ في الأخبارِ العِجْلُ قد باتَ طعامَ النّارِ

[ثم يقبل على أبيس ويخاطبه] :

إلهَ النيـلِ لِـمْ تغْضَبْ لِـمْ تَكْسِرُ جَفْنَيْـكَا
تأمـلْ شَبَحَ المـوتِ ألـمْ يبـدُ لعينيْـكَا
وهـذا خنجري المـاضي نحُذه بينَ قرنيْـكَا

[ويطعنه ثم يتراجع خطوة ويقول] :

إلهـي ما تـرَى عيني خيـالاتٌ وأشـباحُ
وقتْلَى قـد غدوْا حـولِي وقتـلَى غـيرُهم راحُـوا
وجَـرْحَى جـذَبوا ثوْبى وجَـرْحَى غيرُهم صـاحُوا

هـذى عـواقبُ بغْـيٍ هـذا القصاصُ المُتَـاح
لا بُدَّ من عدلِ يوم يـرتَـدُّ فيـه السـلاحُ

قائـد : ويْـحَ لقمـبـيز
آخـر : ويـحَ لـه جُنَّـا

الأول : مَن يُقتـلُ اليـومَ مِن الشَّـقِي مِنَّـا

قمبيز [مستهزئا] :

هـذا أخـي يصيـحُ بى وتـلك أختـى تَنتَحِبْ

وآخرٌ يسألُني أينَ دمي؟ أينَ؟ أجبْ

قائد آخر: هذا ضميرُه صحا هذا ضميرُه انتبهْ

حتى رأى آثامَه ولم يكن لها أبهْ

آخر لنفسه: ثارَ به ضميرُه

[ثم لزميل له همسا]:

وما الضميرُ حيدرُ؟

حيدر [للزميل]:

سريرةٌ تندمُ أحياناً وحيناً تزجُرُ

ويرجعُ الناسُ لها إلا امرؤٌ لا يشعُرُ

الأول [رستم لحيدر]:

وأينَ منزلُ الضمير؟

حيدر: موضعٌ من الجسَدْ

أنظُرْ . هنا يا رستُمُ القلبُ وها هنا الكبِدْ

[ويشير إلى أعلى الصدر وأسفله وإلى ما بينهما (المعدة)]

[ثم مستمراً]:

وها هنا الضميرُ بين القلب والكبْدِ قعدْ

رستم: هنا الدجاجُ والحمامُ ها هنا بلا عَددْ

حيدر: والبطُّ أيضاً والإوَزُّ والحمارُ والوتَدْ

وكلُّ ما تَسرِقُ أو تخطَفُ من هذا البلد

رستم: حيدرُ هل يُجْترَعُ الضميرُ أو هل يُزدَردْ

وهل لـه حوصلةٌ وهل له رِجلٌ ويدْ

حيدر : يا أخى إنّ الضميرَ الــنّــفسُ أو بيتُ الشُّعورْ

وهو فيلٌ فى صدورٍ وهو فأرٌ فى صدورْ

وجبالٌ من حديدٍ أو حبالٌ من حريرْ

وسعيدُ الناسِ من لم يَشْكُ من وخزِ الضميرْ

قمبيز [يقوم هائجا وكأنما يفرّ من شبح شقيقه الذى قتله] :

ماذا بنا ؟ ماذا بنا هــذا شقيقى بُرديا

هــذا شقيق برديا وخنجرى فى صدرهِ

جئتَ أخى تجزى أخا كَ عن قبيح غدره

[ثم يزداد هياجا و يفرّ من شبح أخته التى قتلها] :

أتوسةُ أختى ألا تصفحين أتوسةُ زوجى ألا تغفرين

[ثم ينظر يمينا و يسارا وهو كالمجنون و يقول] :

آهِ لِيَهْ آهِ ليَهْ ما هــذه الزّبانيَهْ

كَتيبةٌ بموضع وعسكرٌ فى ناحيَهْ

وأرْؤسٌ بوَهْدةٍ وأرجلٌ برابيَهْ

كلٌّ يصيحُ ردُّ رو حى رُدَّ لى دمائيَهْ

قمبيز [مع الأشباح] :

ويلى من الماضى ومن أشباحه

هذى خيالاتُ الزمانِ الخالى

عجبُ العجائبِ ويحَ لى ماذا أرى

شبحٌ ، أجَلْ شبحٌ وطيفُ خيال

شـــبحٌ كالمَـــلَكِ الـوا في لِعيـــنَيَّ يـلوحْ
شـــبحٌ كالزنبـقِ الـنا عِـــمِ يغْـــدو ويروحْ
ظَهـــرَ الحسنُ عليـــه وسـرى الطيبُ يفـوحْ

تمثال نيتيتاس حول مذاهبي أحبِبْ بنيتيتاسَ والتمثـالِ

ما بالُه ألقى عـلىَّ سـكينةً وأراحَ وجداني وأنعمَ بالي

زوجاه نيتيتـاسُ ملْكةَ فارسٍ
مالي حُرِمْتُ حنـانَ قلبِـك مالي

يا ليتـني لم أسمـع الـواشي ولم
أخرجِ حيالَك من قـديم ضَلالي

قد ساءَ حالي في غيابِك فارجعي
هيهاتَ بعـدَكِ من يرقُّ لحـالي

أأراكِ عنـدي والأمورُ رخيّـةٌ
وأراكِ عنـد شـدائدِ الأهـوال
باللهِ ياطيفَ الحبيبةِ قلْ لها خلَّفتُ قمبيزاً بأسوأ حال

صِفني لهـا تعِساً كما شاهـدتَني
قـد عادني صَرعي وجَدَّ خَبـالي
يا بنتَ مِصرَ ويا يتيمـةَ تاجِها
عـودي فِداؤكِ دُولـتي ورجالي

[ثم مستمرا] : طابَ وِردُ الحِمامِ يا نفسُ هَيّا
خنجرى خنجرى إلىّ إليّا

[و يطعن نفسه بالخنجر و يقع]

جماعة من الفرس :

يا فُرسُ يا قومَ كسرى — النّازلينَ السّحابا
كسرى مضى للنّارِ — شُقُّوا عليه الثيابا
وحَطِّمُوا فى ثَراهُ — سيوفَكُم والحِرابا

[كبراء الفرس يتشاقون الثياب]

أحدهم لآخر :

هاتِ ثيابَكْ — خُذ ثيابِى
تعالَ خُذ قميصى — وأعطِنى قميصَكْ

[يمزق كلاهما قميص الآخر]

مصرى من الحاضرين [لآخرهمسا] :

أنظر أخى الفُرسَ وما نابَهُمْ — شَقُّوا على المجنون أثوابَهُمْ

الكهان [لجماعة المصريين] :

يأيّها المرضَى اسجدُوا — على دماءِ «آبيس»
ويا أصحّاء انهلُوا — من دَمِهِ المقدّسِ
يا لشقاءِ جَسَدٍ — فى دمِهِ لم يُغمَسِ

المصريون يتشاقون الثياب :

فارسي إلى آخر :

أنظُـرْ إلى أبنـاءِ مِصـــــرَ فإنّ أمرَهُـمُ عُجابْ
أنظـر ألستَ تراهُــمُ شقُّوا على العجلِ الثيابْ

وزير فارسي [يخطب المصريين] :

أيهـا الكُهّان من شتّى الرُّتَبْ
عَظُمَ الخطْبُ فمـا تُغْنِي الخُطَبْ
إن كسرى تغفِرُ النـارُ له
كان في مَصرعِ آبِيس السَّببْ

أيّهـا الشَّعبُ
أميـلوا إسمعُـوا
كيف يُنْشِي المستبدّونَ الخُطَبْ

مصري لرفاقه :

الوزير [مستمرا] :

قـد أتى قمبـيزُ كسرَى ما أتَى
وهـو مدفوعٌ بسلطانِ الغَضَبْ

مصري [لأخيه بصوت منخفض] :

ليتَـه بالَ عـلى نيرانِكم بَوْلَةً تُطفِي لظَاهَا واللَّهبْ

الخطيب الوزير:

نحن لا نُسـألُ عـن فَعْلتِـه
قـد جنَى الرأسُ فمـا ذَنْبُ الذَّنَبْ

أيّها الكُهّانُ قد حلّ على ربكم آبيسَ مقدورٌ غَلَبْ

[ثم ملتفتا للشعب قائلا] :

مالى أرى من جانبِ الشَّعْبِ
بــوادرَ الفتنــةَ والشــغبِ

قائد فارسى : ما أغْضَبَ الشّاةَ من الجـزّارِ
حــذارِ حــلمَ فارسٍ حَــذارِ
لا تقِفُوا لسيْفِها والنّارِ

[تتفرّق الجماعة هنا وهناك ويقف جماعة من المصريين فيقول أحدهم]

أحدهم [لزميل له] :
ماذا جَرَى ؟

زميله : أما تَــرَى؟ عـلى الـثّرَى هذا الـدَّمَا

آخـر : آبِسْ عُقِــرْ آبِسْ نُحِــرْ سَـاءَ الخَـبَرْ ما أشـأَمَا

الثـانى : حَامِى الحِمَـى ما آسْتَسْلَمَا لكن سَمَا إلى السّمَا

آخـر : لقـد وهمتَ يا أخِـى أفِـقْ وراجِـع الرّشَـدْ
أبِيسُ فـارق الـوتَـدْ وسـارَ رحـلةَ الأبَـدْ

الأوّل : ألعمَـى يا أخِـى العمَـى اتـركِ الأرضَ والـدّمَا
وتأمَّـلْ مـعى السّـمَا اتّخِــذَ الجَــوّ سُلَّمَـا
هــو هــذا تَبَسَّــمَا وعـلى الجَمْـع سَـلّمَـا
وإلى الخُـلْدِ قـد سَمَـا

الثـانى : عجِـيبٌ شأن آبِيس لآبِيـس جناحانِ
وهــذا الـرّيشُ من دُرٍّ ويـاقُــوتٍ ومَــرجانِ

وهـــذا هـــو يرعاك   بعينيــــه ويرعانـــى

آخر [لزميلين له] :

أنظر «أبى» إسمع «فتّا»   أبيس بالفرس تحر
جنّ قمبـــيز ولـــم   يـزل بـه حتى انتحر

شيوخ الكهان :

بوركت يا آبيس   يا صاحب المجـد
يا موضع التقديس   ومــنزل الحمــد
ســرك فى منفيــس   وأنــت فى الخــلد

شبان الكهان :

أبيس ســر للســماء   وانـزل مع الخالـدين
وخــل تــلك الدماء   تحاسـب المعتــدين
أنـت سمـاء الجـلال   حمى الديار الأمين
القرن كالشمس طال   وعـــز فى العالمــين
يا صـــورة من فتـاخ   ومن سـناه المبـين
هــذا شـعاع الصباح   أم غــرة فى الجبين

ستار الختام

مصرع كليوباترا

مصرع كليوباترا

تمهيد

زمن الرواية : الأيام الأخيرة فى حياة كليوباترا حوالى سنة ٣٠ قبل الميلاد بين وقعة «أكتيوم» البحرية وانتحار كليوباترا .

مكانها : فى الإسكندرية وأرباضها .

أشخاصها :

(ا) الأشخاص التاريخية :

كليوباترا .

مارك أنطونيوس .

أكتافيوس قيصر .

قيصرون : ابن كليوباترا من يوليوس قيصر .

(ب) الأشخاص الموضوعة :

أنوبيس : الكاهن الأكبر .

زينون : أمين مكتبة قصر كليوباترا .

حابى ..
ديون .. } مساعدو زينون .
ليسياس

هيــــلانة : وصيفة كليوباترا وبينها وبين حابي غرام

شرميون : وصيفة أخرى .

أوروس : رومانى فى معية أنطونيوس وهو عبده وتابعه وصفيه .

أولمبوس : طبيب رومانى فى بلاط كليوباترا .

أنشــــو : مضحك الملكة .

غانمـــيز : ساقيها .

حـــبرا : عرافها .

أيـــاس : شاديها .

أخيــــل : قائد الأسطول المصرى وربان أنطونياد سفينة كليوباترا .

بـــولا : شاعر .

أغا القصر

(ح) النكرات المسرحيـة : جنود وقـوّاد مصريون ورومانيون . راقصات . عزاف .

الفصل الأول

المنظر الأول

« فى مكتبة قصر كليوباترا ـ حابى وديون وليسياس جلوس إلى »
« عملهم . يسمع جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هذا النشيد »

يومُنا فى أكتيُوما ذكرُه فى الأرض سارْ
إسألوا أسطولَ روما هل أذقناه الدمار !

* * *

أحرز الأسطولُ نصرا هزّ أعطافَ الديار
شرفاً أسطولَ مصرا حُزْتَ غايات الفَخار

* * *

صارت الإسكندريه هى فى البحر المنار
ولها تاج البريه ولها عرش البحار

* * *

حابى : إسمع الشعبَ (دُيونُ) كيف يُوحون إليه
ملأ الجوَّ هُتافاً بحياتى قاتليه

أثّر البهتانُ فيه وانطلى الزور عليه
يا له من ببّغاء عقــله فى أذنيه

ديون :

حابى ، سمعتُ كما سمعتَ وراعنى أن الرمّيــة تحتفى بالرامى
هتفوا بمن شرب الطّلا فى تاجهم وأصار عرشَهمُ فراشَ غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئاً ولو استطاع مشى على الأهرام

حابى :

أتذكــر يا ديون إذ انطلقنا إلى الميناء نلتمس الهــواء
وكان البحرُ كالميْت المُسجّى وكان الليلُ للميت الرداء

ديون :

نعم وهنــاك آنسنا سحابا وراء الليــل جللت السماء
فقلت انظر ديونُ ترَ الجوارى يَطأنَ المـاء همساً والفضـاء
وأقبلت البوارج بعد حين سوائبَ لا دليلَ ولا حُداء
رَجَعْنَ رجوعَ قُرصان أصابوا من الغزو الهزيمةَ والبلاء
فلم نسمعْ لمــلّاح هُتافاً يُبشرُ بالقدوم ولا نــداء
ولم نَرَ فوق سارية سراجا ولا من ثَقْب نافذة ضياء

حابى : فماذا قلت ؟

ديون :

قــلت ديونُ إنى أرى الأسطولَ بالويْلات جاء
دخولُ الظافرين يكونُ صبحاً ولا تُرجَى مواكبُهم مَساء
فلما أصبح الصبحُ انتبهنا نَرى الأسطولَ أزْيَنَ ما تَراءى
تبرَّجت البوارجُ بعد عُطْل وهَزّتْ فى ذوائبها اللواء
ورُدِّدَ فى المدينة أن روما عفا أسطولُها ومضى هَباء
فضجّ الناسُ بالبُشْرَى وكدّوا حناجرَهم هُتافاً أو دُعاء
هداك اللهُ من شَعب برىء يُصَرِّفه المُضَلِّلُ كيف شاء

ليسياس [هامساً لحابى] : [تدخل هيلانة]

حابى ، صه قد ظهرتْ هيلانهْ وأقبلت بالطلعــة الفتّانهْ
تَنفَحُ كالزّنبقــة الفَيْنــانهْ

حابى :

ليسياسُ ، أنهاك عن المجانهْ هيــلانةٌ فى القصر قَهْرمانهْ
لهـــا وقارٌ ولها مكانهْ

هيلانه : ســـلام لك يا حابى

حابى : ســـلام لك هيــلانه

هيلانه : أمِرْتُ أن أقول للأمين ستحضرُ المَلْكةُ بعد حين
فبلِّغ الأمرَ إلى زينون

حابي : سيدتي سأفعلُ أمْرَكما ممتثلُ
هيلانه: تَقرنني بربتي! ذلك ما لا أقبَل
حابي : هيلان، أنت مَلكتي وأنت وحدَك المَلَكْ
هيلانه: بل كيلبترا وحدها لم يَحْوِ شمسيْن الفَلَكْ
إنْ أنت لم تُؤمنْ بها فلسْتَ لي ولستُ لك

[تخرج هيلانة ويدخل زينون من باب آخر في هيئة تفكير واضطراب]

حابي : ذاتُ الجلالة سيدي قد آذنَتْنا بالزياره
زينون: هذه حجرتُها لا عدمَتْ طيبَ ريّاها ولا ضوء حلاها
كل يوم تتجلى ساعة هاهنا كالشمس في عز ضحاها
تدخلُ الدارَ فتنسى مُلكها بلقاء الكُتْب أو تنسى هواها
[محدثاً نفسه في ركن قصي من أركان المكتبة] :
أما الشبابُ فقد بَعُد ذهب الشباب فلم يَعُد
ويحي أمن بعد السنين وقد مررن بلا عدد
أو بعد طول تجاربي ومكان علمي في البلد
تجني الحسانُ عليَّ ما لم تَجْنِ قبلُ على أحد ؟

ديون [هامساً إلى زميله] :
حاب ، ليسياس ، أقسمُ أن زينونَ مغرَمُ

فضح الشيخَ حبُّه والهوى ليس يُكتم

ليباس: بمَن الشيخُ مولَعٌ ليت شعرى متيّم ؟

ديون : وبمن جُنَّ يا تُرى ؟

حابى [ضاحكا] : كلُّ خاف سيُعلم

زينون [مستمراً فى حديث نفسه] :

مالى جننتُ فصرتُ أتّهم الشبابَ وأضطهدْ

لم ألقَ رأساً فاحما إلا حَملتُ له الحسد

ووجدتُ لاعجَ غيرة بين الجوانح يتّقد

فكأن ظلمةَ شَعره فى مُقلتىّ هى الرّمد

وكأنما سرَقت ذوا ئبُهُ شبابى المفتقَد

ولو ان لى ولداً فما ت لما بكيت على الولد

حذَراً وخوفاً أن يكو نَ بها تعلّق أو وجَد

شكٌّ يعذِّب مهجتى إن الشكّ فى كَبَد

[يلتفت إلى حابى ويطيل إليه النظر ثم يناديه] :

حابى ، بنىّ

[يأتى إليه حابى]

قل ولا تخْف علىّ ، هل تُحبْ ؟

حابي : أحب ! من قال ؟

زينون: سمعتُ

حابي : من روى لك الكذب ؟

زينون: بُنيّ ، ليسَ بالفتى إذا أحبَّ من عَجَب
مَن لم يُحبَّ لم يُؤدِّ للشباب ما وجب

حابي [متهكما] :

لكن أأدعى الهوى وليس لى منهُ سببْ ؟

زينون: حابي ، بُنيّ لا تَرُغْ منَ السؤال بل أجب
لولا الهوى لم تَكُ فى ظل الشباب تكتئب
ما بال بشْرك امحى ولونك الغضّ شحب ؟
وللدموع من مآ قيك تكاد تنسكب ؟

حابي [ساخراً] :

أفقْ زينونُ واصحُ من الغواني أبعد الشيب تخدعُك النساء ؟

زينون [غاضباً] :

أتعلم يا غلام عليّ عشقاً ؟

حابي : دع الإنكار قد برح الخفاء

زينون: ومن أنباك ؟

حابى : أنت !

زينون وكيف ؟

حابى : تهـذى فتفضحك الوساوس والهذاء

كمحموم يبوح وليس يدرى تكشّف عن سرائره الغطاء

أبعد العطف والإشفاق يشقى بصحبتك الشباب الأبرياء؟

فكلّ فتى رأيت زعمت صبًّا يخامره من الرّقطاء داء ؟

وما كعمى الشيوخ إذا أحبّوا وليس وراء غيرتهم بلاء

زينون [لنفسه] :

إلهى قد فُضحتُ وضَلّ شيبى وضاعت حكمتى وخبا الذكاء

[لحابى] :

صدقت بُنىّ بى داءٌ دخيلٌ وليس إلى الدواء لى اهتداء

علىّ تلوّث الأفعى ، فهل لى من الأفعى ونكزتها نجاء؟

أرى ولهاً وأحسبه جنوناً كسانيه على الكبر القضاء

حابى : وتعطى حين تلقاها ابتساماً وأنطنيوس يعطى ما يشاء

صباحهما مغازلةٌ وصيدٌ وللأقداح والقُبَل المساء

أترضى أن يكون سرير مصر قوائمه الدعارة والبغاء ؟

أتهدم أمةً لتشيد فرداً على أنقاضها ؟ بئس البناء !

أبى ، شيخى ، اجترأتُ عليك فاصفح
فلم أكُ أجترى لولا الوفاء

لقد آن التكاشفُ والتَّواصى بما توحى الكرامةُ والإباء
تعالَ إلى جماعتنا ، فإنَّا جنود الحق يجمعنا لواء
شبابٌ نحن يُعْوِزُنا شُيوخٌ بهم فى المدلهمَّةِ يُستضاء

زينون: كفى ، إنى نفضتُ يدىَّ منها ومُزِّقَ عن بصيرتىَ الغشاء
حابى : أبى زينونُ قد بُحتُ من السر بمكنونى
وما غيرُك زينونُ على السر بمأمون
[يشير إلى ديون وليسياس] :
أخى ، هذا أثينىٌّ وخِلِّى ذاك مَقْدونى
كِلا الخِلَّين للحق كما أدعوه يدعونى
كلا الخِلَّين ذو جَدٍّ بأرضِ النيل مدفون
فليْسا فى هوى مصر وفِى طاعتها دونى
فدينا الوطنَ الغالىَ بالجنس وبالدين
ولم نصبِر على حكم لروميَّةَ ملعون
ولسنا حزبَ أكتافٍ ولسنا حزب أنطُون
ولا نَخْضَعُ للبأس ولا نُخْدع باللين

ولم يبق على الودّ   لروما غير زينون

زينون: معاذ الله ، عدونى   من العصبة عدونى

كساك الله يا روما   لباس الذل والهون

حابى : أبى، أنت الطبيبُ وكلُّ داء   له فى صيدليّتك الدواء

فهىّ لها ابن ساعته وعجّلْ   يعجّلْ فى السماء لك الجزاء

لعل سمومك الزُّعْفَ المواضى   من الأفعى وفتنتها شفاء

[يدخل جندى من حرس الملكة معلنا قدومها]

الحارس : الملكة !

زينون [كأنما يفيق من حلم] :

الملكةْ !   لا برحتْ مملّكةْ !

ودام مجدُ المملكةْ !

[تدخل كليوباترا ومن ورائها ابنها قيصرون بين وصيفتيها شرميون وهيلانة ومن ورائهن أنشو مضحك الملكة وأغا القيصر]

الملكة: تحيّتى لأمناء المكتبه   وشيخهم أعلى الشيوخ مرتبه

زينون : سلام السموات فى مجدها   على ربّة التاج ذات الجلالْ

تمنيتُ رأسين لا واحداً   إذا مسّت الأرضَ هامُ الرجالْ

أطاطىءُ رأساً لمجد النبوغ   وأخفضُ رأساً لمجد الجمال

حابى . ديون . ليسياس [يتلفت بعضهم إلى بعض أسفا] :

أنشو [للوصيفتين وقيصرون] :

أما يغنيه عن رأسيـ   ـن رأسٌ فيه وجهان ؟

فحيناً هـو مصريٌّ وحينـاً هـو يونانى
وفى مجلس يوليوسَ وأنطونيـوس رُومانى
وإن لاقى أغا القصر فنـوبيٌّ وسـودانى

[يدخل الكاهن أنوبيس من باب مقابل]

الملكة: كاهنَ المُلْكِ سـلامٌ لا عَدِمنا بركاتِكْ
صلِّ من أجلى ولا تنـ ـس صغارى فى صلاتك

أنوبيس: رَبَّةَ النيـل التَّحيا تُ الزَّكيَّاتُ لذاتك
حَرَسَتْ تاجَـكِ إيزيـ ـسُ ومدَّتْ فى حياتك

الملكة: هُوَ ذا ابنى قيصرونُ يَتَلـقَّى نفحاتِـك

الكاهن [لنفسه] :

إيزيسُ كيف أُصلى على ابن يوليوسَ قيصرْ ؟
أبوه عال ولكنْ فرعونُ أعلى وأكبر

[يسمع هتاف من خارج القصر وجماعة ترتل نشيد النصر السالف فى أكتيوم]

الملكة [عابسة] :

كاهنَ المُلْك ، سادتى ، هل سمعتمْ رَنَّةَ الصوتِ فى جوانب قصرى؟

أنوبيس : هم رعايا مليكتى

الملكة : ليت شعرى
ألخيرٍ تجمَّعوا أم لشرٍّ ؟

شرميون:

الجماهيرُ يا مليكةُ بالشَّـطِّ يموجون في حُبورٍ وبِشْرِ

سَرَّهم ما لقيت في أكتيومٍ من ظهور على العدو ونصر

لا يقولون أو يُعيدون إلا نبأً بات في المدينة يسري

الملكة:

يالإفْك الرجال ! ماذا أذاعوا كذبٌ ماروَوْا صُراحٌ لَعَمري

أيُّ نصر لقيتُ حتى أقاموا ألسُنَ الناس في مديحي وشكري ؟

ظَفَـر في فم الأمانيِّ حلو ليت منه لنا قُلامةَ ظُفْـر

وغداً يعلمُ الحقيقة قومي ليس شيءٌ على الشعوب بسرٍّ

شرميون:

ربَّةَ التاج ذلك الصُّنع صُنعي أناوحدي وذلك المكرُ مَكري

كثرتْ أمس في الإياب الأقاويـ لُ وظَنَّ الظنونَ من ليس يَدري

فأذعتُ الذي أذعتُ عن النصـ ـرِ وأسمعتُ كلَّ كوخ وقصر

خفتُ في خاطري عليك الجماهيـ ـرَ وأشفقتُ من عدًى لك كُثْر

فاغفري جُرْأتي ، فياربَّ ذنب يتعب العذر فيه مهَّدْتِ عذري

الملكة:

شرميونُ ، اهدَئي فما أنت إلا مَلَكٌ صيغ من حنان وبرّ

أنت لي خادمٌ ولكن كأنا في المُلمَّات أهلُ قُرْبى وصهر

إنما الخادمُ الوفيُّ من الأهـ ـلِ وأدنى في حال عسر ويسر

إسمعى الآن كيف كانَ بلائى ... وانظرى كيف فى الشدائد صبرى
أيها السادةُ اسمعوا خبرَ الحر ... ب وأمرَ القتال فيها وأمرى
واقتحامى العُبابَ والبحرُ يطغى ... والجوارى به على اليمّ تجرى
بين أنطونيو وأكتافَ يومٌ ... عبقرىٌّ يسيرُ فى كل عصر
أخذتْ فيه كلُّ ذات شراع ... أُهبةَ الحرب واستعدّتْ لشر
لاترى فى المجال غيرَ سَبُوح ... مقبل مدبر مكَر مفرّ
وترى الفُلك فى مُطاردة الفُلـ ... ـك كنَسر أراد شرًّا بنسر
وتخال الدُّخانَ فى جَنَبات الـ ... ـجو جُنحاً من ظلمة الليل يسرى
ودَوىّ الرياح فى كل لُجّ ... هزَجَ الرَّعْد أو صياحَ الهِزَبْر
وترى الماء . منه عودُ سرير ... لغريق ، ومنهُ أحناءُ قبر
يغسلُ الجُرحَ شرَّ مَن غسَل الجر ... حَ ويأسو من الحياة ويبُرى
كنت فى مركبى وبين جنودى ... أَزِنُ الحربَ والأمور بفكرى
قلت روما تصدّعت فتىً شَطـ ... ـراً من القوم فى عداوة شطر
بطَلاها تقاسَما الفُلكَ والجيـ ... ـشَ وشبّا الوغى ببحر وبرّ
وإذا فرّقَ الرُّعاة اختلافٌ ... علّموا هاربَ الذئاب التجرّى
فتأملتُ حالتىّ مليّا ... وتدبرت أمر صحوى وسكرى
وتبينتُ أن روما إذا زا ... لت عن البحر لم يسُدْ فيه غيرى

كنت فى عاصف، سللتُ شراعى … منه فانسلّت البوارجُ إثرى

خلصت من رَحى القتال وممّا … يلحق السُّفْن من دمار وأسْر

فنسيتُ الهوى ونُصرة أنطو … نيوسَ حتى غدرتُه شرَّ غدر

علمَ الله قد خذلتُ حبيبى … وأبا صبيتى وعونى وذُخرى

والذى ضيّع العروشَ وضحّى … فى سبيلى بألف قُطْر وقطر

موقفٌ يُعجب العلا كنتُ فيه … بنتَ مصرٍ وكنتُ مَلكةَ مصر

[ملتفتة إلى زينون] :

زينونُ . فصّلتُ الخبرْ … عن القتال والسفرْ

وقلتُ عن إيابى … وخُطة انسحابى

ماليس يعلمُ البلدْ … ولا درَى به أحدْ

فهل لديك الآنا … مايجلبُ السُّلوانا

من الأمالى المُسْليهْ … والصحُف المُلْهيهْ

زينون: عندىَ يا مولاتى … روائعُ الآيات

تسعون ألف سفْر … قد كُتبتْ بالتبر

من كل رَقٍّ عجبِ … فى العلم أو فى الأدبِ

قيصرُ أنطونيو وهب … لنا مناجمَ الذهبْ

وكلَّ غالٍ منتخرْ … من الجواهر الأُخَرْ

أسلابه من حربه وطعنه وضربه
هدية من قيصر لبلدة الإسكندر

أنتو: إذا كانت الكتب في شرعكم نظيرَ الجواهر كفّ النُّضارْ
فإني الغنيُّ بدُرِّ القواق ع حين يُرصّعُ تبر العُقار
وما الكتْبُ قوتي ولا منزلي فما أنا سوسٌ ولا أنا فار

الملكة: حكيمٌ لعمري على جهله ظريفُ الحديث لطيفُ الحوار

زينون [مغيظا] :

ولكنها حكمةُ السائماتِ وفلسفةٌ غيرُ بنت اختبار
وكلتاهما لا تَعَدَّى الشعورَ بحُبِّ البقاء وخوف الدمار

أنتو: رويدك مولايَ بعضَ السِّباب فليس السِّبابُ سبيلَ الكبار
تَعِبِ الليلَ طال فقطّعتَه بدَرْسٍ وأصبحتَ تَفْني النهار
وأقبلت بالكتب تطوي الطِّوالَ وتَنْشرُ في إثرهنَّ القصار
وَزِدْتَ على الأرض علمَ السماء كبارَ كواكبها والصغار
إذا ما نَفَقتَ ومات الحمارُ أبينك فرقٌ وبين الحمار ؟

زينون [غاضباً] :

ماذا تقول السيده ؟

الملكة [ضاحكة] : واحدةٌ بواحده

أبى أنُوبِيسُ ، أرجو

أنوبيس : بل تَأمُرِينَ مُطاعهْ

الملكة [مشيرة إلى باب محراب مفتوح ومتجهة إليه] :

هذا مُقامُ صلاتى وهيكلى للضراعهْ

ولى خطايا كثيره لا تَبرَحُ البالَ ساعه

فادخلْ وصلِّ لأجلى فمنك تُرجى الشَّفاعه

[يدخلان المحراب ويتبعهم الحاضرون ما عدا حابى وديون وليسياس]

ديون [متهكما] :

إسكندريةُ صرت رَفْرَفَ معبد من كلِّ ناحيةٍ عليه ستارُ

اختَصَّ آلهةُ الجلال بسرِّه وتفرَّدَ الكُهَّان والأحبار

ما خَطْبُهم حابى ، وماذا بيَّتوا

ليسياس : ما هذه الألغاز والأسرار ؟

حابى :

أرأيتَ وقعةَ أكتيوم وماجرى فيها وكيف تصرَّفَ المقدارا

ليسياس ، إنك قد سمعت حديثَها كالسحر فى الآذان حين يُدار

تبدو الخيانةُ فيه وهى أمانةٌ ويُرى الثباتُ عليه وهو فرار

وعلمت كيف نجت وكيف انفض عن أنطونيُو أسطولُها الغدَّار

ليسياس :

واليوم حابى، أين أنطونيو وما فعلت بفَلّ جيوشه الأقدار ؟
قل لى : أحيٌّ فى البلاد مشرَّدٌ هو أم له قـبرٌ بمصر يُزار ؟

حابى :

ليسياس ، تسألنى تجاهلَ عارف

ليسياس :

بل جاهلٍ لم تأته الأخبار

حابى :

لم تأت حتى جاء فى آثارها للحبِّ أجنحـةٌ بهن يُطار
ويقال بل أخذته تحت شراعها ونجا به فُلْكٌ لها عصار
تجرى الرياحُ بما تشاءُ قلوعُه ويسـيرُ فى طاغاته التيار
ويُقالُ غضبـانٌ عليها عاتبٌ ويُقـالُ بل حَنِقُ الفؤادِ مُثار
وعلى صفاء العاشقينِ سحابة وعلى سلام الصاحبْينِ غُبار
آلَى وأقسم لا يُرى فى قصرها حتى يُقـوَّمَ مجدُه المنْهار
إن البلاء أجلُّ من ألاَّ يُرَى

ديون :

عجبٌ أتخفَى فى الهشيم النار ؟

حابى :

أنطونيو منـا بأقرب ثُكنة يدعو من الرومان من يختار
ويُعِدُّ أُهبتَه ليـوم حاسم فى البر يُفْصَلُ عنه فيه العار
ويكون ميدانَ الرحى ومدارَها تلك التلالُ وهذه الأسوار

فهناك خاتمةُ الصِّراع وموقف إما الدَّمارُ به وإما الغـار

[يسمع صوت أنوبيس من داخل المحراب مرتلا هذا النشيد] :

إيزيسُ ذاتَ الحجابْ مالـكةَ العالمينْ
شعبُك لاقَى العذابْ من عَبث الظالمينْ

***

يا من خفضنا الجباه لعزِّها ساجدينْ
صُغنا إليك الصلاهْ من أدمع النادمينْ

ســتــار

المنظر الثانى

«فى إحدى غرف القصر الملكى ورحى الحرب دائرة بين أكتافيوس وأنطنيوس على أسوار الإسكندرية — حابى فى الغرفة حيث تدخل عليه هيلانة»

هيلانة : أتدْخُل حابى مَقاصيرَها ؟ بلغتَ من الْجُرْأة المنتَهى
ستعلَمُ أمرَكَ ذاتُ الجلالـ ـة
حابى : بل أمرت أن ترانى هنـا
هيلانة : عجبت لهـــا ولتدبيرها كذلك قد أمرتنى أنا
إذن هى تجمعنـا يا جُحُودُ وتجزيكَ عن سَخَطٍ بالرضى
حابى : هِـلانةُ خَلِّيك من ذكرها حديثُ الأفاعى طويل المدَى
هيلانة : رُويدَك حابى لقد أحسنَتْ فمالى أراك أسأتَ الجزا ؟
حابى : هـلانةُ ، يا طيبَها خَلْوةً وإن قَلَّ فى ظلِّها الْمُلتقَى
تَعـالَىْ هلانةُ نُعطِ الغرامَ عنانَ الحديث ونَشْكُ الجوى
أنيلى يدىَّ يَديْك اللّتين نعيمىَ بينهمـا والشقـا
هَلُمَّ هـلانةُ

هيلانة: حابى أراكَ بِكُنْهِ الأمور قليلَ الهُدَى
من القصر لا تَلتمسْ خَلْوَةً وإن هو من كلِّ حسٍّ خلا
سماء القصور لها أُذُنان وأرضُ القصور بعيْن تَرى

حابى: هلانةُ لا تقطعى نَشْوَتى بقُربِك أو حُلُمى باللِّقا
أمهما تَخَيَّلْتُ صفوَ الحياة خلقتِ على جانبيْه القَذَى؟

هيلانه: حنانَكَ حابىَّ لا تتهمْ ولا تَرمنى بعُقوق الهوى
ولُذْ بالأناة فإن الأناةَ صَديقُ الصَّواب عدوُّ الخطا
فلو كنت وحدكَ شُغلَ الفؤاد لهان البلاء وقلَّ العَنا
ولكن حقوقُ كلوباترة

حابى: وأىُّ حُقوق لها تُدَّعى

[تدخل كليوباترة]

كليوباترا: حُقوقُ الولاية ياذا الغلامُ حُقوقُ الرِّعاية ياذا الفتى
وصبرى عليك لأجل الفتاة

حابى [مأخوذاً]: إلهى لقد سمعتْ ما جرى

الملكة: وسدَّى المسامعَ حُباً بها وأنت تُعينُ علىَّ العدا
وتُرسلُ فى العَرش هُجْرَ الكلام وتُخْفى الحفيظةَ لى والقِلى
ولكنْ لنَنسَ الذى قدمضى فمثلُكَ تاب ومثلى عفا

دع الذود عن مصرَ لى إننى أنا السيفُ والآخرون العصا
ولا تُطع الفتْيةَ العابثين أسُودَ الكلام نَعامَ الوَغى
[يدخل أنوبيس]
[إلى أنوبيس]
أبى : قد أتيت

أنوبيس : سلامٌ عليكِ شُعاعَ المدائن نورَ القرى
الملكة : أبى قد تَلاَقَى هنا العاشقان وكان بتدبيرىَ الملتقى
فبارِكْ فتاتى وبارِكْ فتاكَ وكفكفْ هواه إذا ما غلا
أنوبيس : حياتك حابى كنيسيَّةٌ يشاكلُ أوّلُها المنتهى
مقيَّدة باليقين القَنوع وما أمرَ القلبُ أو ما نهى
الملكة : كزَهر المقاصير لم يتفسْحْ بطول الأديم وعرض الثرى
أنوبيس : وتحسبُ فى الكتب علم الحياة وما منهُ فى الكتب إلا شَذا
حابى : لعلّ كذى الشك فى حرصه يَقيس الطريقَ ويُحصى الخُطا
أرى راكبَ الشك ملءَ المجال طويل العنان بعيد المدى
ولو شكّكتْ فى السراج الفَراشُ لكان سلاماً عليها السّنا
أنوبيس : ولكن تمرُّ على ما تراه تُجاوزُه نحو ما لا يُرى
وهذا الملاكُ [مشيراً إلى هيلانة]
كمولاتِهِ طليق الإرادة حُرُّ الحجَى

تمشّى على جنبات الحياة كما يتمشى شعاع الضحى
يخوض الوحول ويغشى الحلى ويأوى الحضيض ويعلو الذرا
ويخترق العرصات الفساح وينفذ من ضيقات الكوى
ويرتع بين أنوف الأسود ويلعب بين عيون الظبا
الملكة: ولكنه طاهر حيث طاف نقيّ الذيول عفيف الخطا
أبى قد نسينا حديث القتال فمنذ الصباح تدور الرحى
وجيش الحليف وجيش العدو بظهر المدينة رهن الوغى
هنالك يقضى مصير البلاد فإما البقاء وإما الفنا
ومن عجب كاد يمضى النهار وما من رسول ولا من نبا

[يدخل جندى من جنود أنطونيو منهوكا يعلوه الغبار]

الجندى: سيدتى جئتك بالأخبار لقد جرت بسعدك الجوارى
انتصرت جنودنا الضوارى تحت لواء البطل المغوار
قيصر أنطونيو على آثارى

الملكة: يا فرحا ما أعظم البشاره ! حلت على أكتافيو الخساره
«وأكتيوم» قد أخذنا ثاره خذ يا رسول هذه البشاره

[تمنحه بدرة من الذهب فيخرج من باب وتدخل شرميون من باب]

شرميون: سيدتى يا طربا سيدتى يا فرحا !
دارت على أكتافيو وجيش أكتافيو الرحى

هيلانه : مَلْكَتِي هل تسمعين

[يسمع صوت بوق وهتاف من بعيد]

الملكة: [منصتة] صوت بوق وهتاف

[تقوم الملكة إلى النافذة وترهف أذنيها وعينيها]

هو والله نشيدي والمغنُّون جنودي
والخاريقُ التي تخـ ـفُقُ من بُعْد بنُودي
ولديها فارسٌ مُلـ ـتثم شاكي الحديد
يَتراءى في عنان الـ ـجَوِّ كالبُرْج المَشيد
هو أنطنيوسُ ذُخْري وطَريفي وتَليدي

[إلى شرميون وهيلانه]

أيها البنتان هذي ليلةُ العيد السعيد
صَلِّيا مثلَ صَلاتي واسجُدا مثلَ سجُودي

[يسجد الثلاثة لحظة . ثم تنهض الملكة أولا وتتجه نحو النافذة]

هو ذا أنطونيو من جانب الميناء أقْبَلْ
هيكلٌ يحمله من صافنات الخيل هيكل
الرِّداءُ الأرْجُوانيُّ على عطفيْه مُسبَل
مَبسِمٌ يضحكُ من تحـ ـت جبين يتهلَّل
هو ذا يدنو

شرميون : أتى والله

هيلانة : مولاتى ترجّل

الملكة [تبتدر الباب]

أيها البنتان هذى ليلةُ العيد السعيد

[أنوبيس هامساً لحابى] :

حابى،أحيط القصرُ بالذئاب وبى من السُّخط عليهم مابى

[للملكة] :

سيدتى تأذنُ فى انسحابى ؟ وتأذنين مَلْكتى لحابى

الملكة [ضاحكة] :

إلى الأفاعى ؟

أنوبيس : لا إلى المحراب

الملكة : رَأيكما فى المُكْث والذهاب

[يخرجان ويدخل أنطونيو وحاشيته وقواده وتابعه أوروس . أنطونيو يقبل على الملكة ماداً يديه]

أنطونيو : إلهتى !

الملكة : قيصرى !

أنطونيو : سلطانتى !

الملكة : ملكى !

أنطونيو: عندى لك اليومَ يادُنياى أخبارُ

الملكة : عجِّلْ فديتكَ

أنطونيو : لا ، لا بدَّ من ثمن

الملكة : كرائمُ المال ؟

أنطونيو : ما للمـال مقدارُ

[يمد إليها جبينه فى ضراعة]

رُدِّى على هامتى الغارَ الذى سُلبتْ فقُبلَةٌ منك تَعلوهـا هى الغـارُ

[تقبـله]

كليوباترا:

اليومَ تَعلمُ رُوما أن ضَرَّتها تُقَلِّدُ الغارَ مَن تَهوَى و تختار

واليومَ تعلمُ روما أن فارسَها جيشٌ بمفرده فى الرَّوْع جَرَّار

أنطونيو سيدى. هل نحن فى حُلُمٍ؟ أسالمٌ أنت ؟ لا أسرٌ ولا عار ؟

أنطونيو :

أسرٌ؟ وَهمت كلوباترا أَتَظْفَرُ بى أيدى الكُماة وفى كفِّى أظفـار

لو قلت قتلٌ لكان القولُ أشبهَ بى كأسُ المنايا على الأبطال دَوَّار

الحربُ تَعلمُ والأيامُ تَشهدُ لى أنى شديدٌ على الأقران جَبَّار

لو كنت شاهدتِنى والحربُ جارفةٌ والصفُّ تحتى بعد الصفِّ ينهار

قد جُنَّ تحتى جوادى فهو عاصفةٌ وجُنَّ نَصلى بكفى فهو إعصار

رأيت حملة صدق غيرَ كاذبة لا السَّيلُ يحملُها يوماً ولا النار

لما صَدمتُ جناحيهم وقلبهمُ عن الخيام ومن أوكارهم طاروا

وما وجَدتُ لأكتافيو وقادته ريحاً ، ولم أتبيَّنْ أيةً ساروا

ومالت الشمسُ أو كادتْ فراجَعَنى شوقٌ إليك قديمُ الداء سَوّار
حتى رَجَعتُ ولو أنى طَردتُهمُ لباتَ أكتافُ عندى وانقضى الثار

كليوباترا :

تركتَهم لغد ! هذى مجازفةٌ غدٌ غيوبٌ وأسرارٌ وأقدار

[مخاطبة أوروس]

أوروسُ ، أنت بفنّ الـ ـقتال أعـلَمُ منّى
الحربُ فَنُّك أورو سُ والسياسةُ فنى
إن كان « مَرْكُ » إلها فأنت فى الحرب جِنّى
فكنْ بحقّك عَونى وقلْ لقيصرَ عنى
إن المنى لم تُقصّرْ بل قَصَّرَ المتمنى
فلو صَبَرتم قليلا وسِرتُم فى تأنى
أرحتُمونى وروما من الخصام المعنّى

أوروس: سيدتى لم تقصدى لمَّا عذلت سيدى
عَجَّلت فى الحُكم على مالم ترى وتشهدى
لقد حَملنا حملة كمثلها لم يُعهَد
استنفدتْ بأسَ القنا وقُوَّةَ المُهنَّد
فكان لا بد لنا نرجى القتال للغد

أنطونيو: كلوباترا دعينا من ... تجنّيك كلوباترا
أتبكين على الصبر ... وقوم حُرموا الصبرا؟
وبى من صبرك الواهى ... جراح الأمس لم تبرا
لقد مَنَّيْتُ أسطولى ... لدى أسطولك النصرا
حليف كنت أرجو أن ... سأشتدُّ به أزْرا
فَعبّا تحت أعلامـ ... ـك حتى زَحما البحرا
وقد كانا الجناحيْن ... وقد كنتُ أنا النّسرا
وأجرى الفُلْك أكتافيو ... فأجريتُ كما أجرى
صَففْناها وأرسلْنا ... بها تَقتحمُ الجمرا
كلانا مارَسَ الحربَ ... وعانى الكرَّ والفرَّا
فلما آذنتْنا الحر ... ب بالمعركة الكبرى
تَسلّلتِ بأسطولـ ... ـك من غمرتها الحرّى
فقلتُ انسحبتْ ضعفاً ... وقال الناسُ بل غدرا!
ولو كان لهم قلب ... كقلبي التمسوا العذرا

كليوباترا: أنطونيوسُ مَلكى ... أنطونيوسُ سيّدى
ليس العُبوسُ سُنّةً ... لوجهك الطّلْق النّدى
ولستَ من يغضبُ فى ... نيل الشّراب والدّد

ولست للكأس على شاربها بالمفسد
قلبُك كنزُ الحب والـ ـرحمة والتودُّد
وكم حَقَدتَ ثم أصـ ـبحتَ كأن لم تحقد
ألستَ بالأمس وأمـ ـس لفتة لم تبعُد
وَهبتَ لى جـريرتى والصفحُ نصف السُّؤدد
فاطْوِ معى حوادث الـ ـأمس ولا تُجَدِّد
وامض معى فى لَذّة الـ ـيوم ودَعْ هَمَّ الغد

أنطونيو: كليوباترا بحبِّيكِ من التأنيب خَلِّينا
لقد سُقتُ وقوّادى إليك النَّصْر فاجزينا
مُرِى بالكاس والطاس وبالنُّدمان يَسقينا
وبالقَصف وبالعزف وحُذّاق المُغنِّينا
وما طُيِّب ألواناً وما طاب رياحينا
وقولى الشعر عُلْويّا كما كنت تقولينا
وأوحيه إلى شاديـ ـك يُلقيه فيُشجينا
غداً نستأنفُ الحرب ونطويها ميادينا

أنشو: ونَغشاها مَخامِيرَ ونلقاها مجانينا

كليوباترا: مُرْ بما شئتَ قيصرُ وأشِر كيف تأمرُ

لكَقصري وما حوى الْـ ـقصـــرُ كُلٌ مُسخّر
ليس شيءٌ وإن غـلا عن حبيب يُؤخّـــر
لَتكونَنّ ليــلةً آخرَ الدهر تُذكَرُ
لا نُبالى إذا صَفتْ بعـــدها ما يُكدِّر
تحلُمُ الحُلْمَ لستَ تـد رى بماذا يُفسَّـــر

[لوصفائها ووصيفاتها] :

البـدارَ البـدارَ يا وُصفائى ووصيفاتىَ البدارَ البدارا
قيصرٌ قيصرٌ هو الآمرُ النـا هى على القـصر فليكنْ ما أشارا
هو يبغى وليمةً فاصنعوها وانسقوها كما اشتهى واختارا
أطلعوا هذه الشموعَ شُموساً تـذَرُ الليـلَ بالعَشىِّ نهـارا
وأعدُّوا الخِوانَ قد حُمِّل الآلـ ـوان شَتّى وجُلِّلَ الأزهـارا
واجمعوا بالمُـدام شَمْل النَّدامَى وأديروا الـكؤوسَ والأوتارا
واجعـلوها وليمة وبسـاطاً يتبـارى خلاعـــةً ووقارا
مصرُ إن أوْلمتْ سَمتْ بالأغانى درجات وأسمت الأشـعارا
لا تَسيروا على ولائم روما سَرَفاً فى الفُسـوق واستهتارا
كلما أولمتْ أساءتْ إلى العقـ ـل وجَرَّتْ على الحضارة عارا
ولقـــد تجعـلُ التِّمارَ نَداما ها وأسْد العَرينـةِ السُّمّارا

قائد روماني [لزميله غاضباً] :

أتسمعُ ما تقول عَدوٌّ روما   قد اجترأتْ على روما البَغيُّ

أتحت لوائها وبجانبيها   يخوضُ الحربَ من روما كَميٌّ ؟

الآخر :

غداً تَلقى وإن غداً قريبٌ   عقاباً فى البــلاد له دَوِيٌّ

الأول [لأنطونيوس فى عتب وغضب] :

أميرىَ أنطونيو أفى الحق أننا   نَبيتُ سكارَى والعدو مُبيِّتٌ ؟

[ينظر اليه أنطونيو نظرة طويلة ثم ينصرف عنه إلى كليوباترا فيهمس القائد] :

ألا إنه ليــسَ له ما وراءَه   غرامُك حيٌّ فيه والمجدُ ميِّت

ســتــار

الفصل الثانى

«فى حجرة الولائم بالقصر الملكى ، حيث ترى كليوباترا ووصيفتاها هيلانة»
«وشرميون، وأنطنيوس، وأوروس، وبضعة من القواد الرومان، وأولمبوس»
«طبيب الملكة، وأنشو مضحكها، وغانميز ساقيها، وحاجب يعلن أسماء القادمين»

أنطونيو: قياماً نَشرب الخمرا   على حُبِّ كلوباترا

كليوباترا: على حُبك أنطونيو   على الجيش على مصرا

قائد رومانى : على روما

كليوباترا: دَعــوا روما   ولا تُجروا لها ذكْرا

فما أنطونيو منها   وإن كان ابنَها البكْرا

ولكنْ تحت أعلامى   يَقودُ البرَّ والبحرا

القائد : أحقٌّ ماركُ أنطونيو   س من رومية تبرا ؟

[تنظر اليه كليوباترا فيقرأ فى عينيها ما تريد]

أنطونيو: أجلْ أَتبعُ مولاتى   ولا أعصِى لها أمرا

كليوباترا: على حُبكَ أنطونيو

أنطونيو: ثلاثاً أربعاً عَشرا

أنشو : وإن شئتَ فعشرينَ إلى ما فوقها سُكْرا
وإن شئتَ من الدنيا وصَلْنا السُّكْرَ للأخرى

قائد رومانى [لزملائه همساً] :

دَعُوا أنطونيو إنى أرى السُّكْرَ به أزرَى
لقد كان الفتى الفَطِنَ فصار الحَدَثَ الغِرّا

قائد آخر [همساً] :

سنلبثُ ساعةً نحتالُ حتى إذا سُلَّتْ عقولُهمُ انسللْنا
فما المتدلِّهُ السِّكِّيرُ أهلاً لتنصُرَه السيوفُ إذا استُلِلْنا

الحاجب :

أيَّاسُ المُغنِّى وجَوْقَةُ العُزّافِ
وراقصاتُ القصرِ

[يدخلون]

كليوباترا: أهلاً بوفدِ الآلهةْ أهلِ الفنونِ النابهةْ

الحاجب : الشيخُ زينونُ
ربانُ أنطونْياد [يدخلان]

أنطونيو: ماذا عن الأسطول منـ ـكَ يا أخيلُ نَعلمُ ؟
هل خمَدتْ فتنتُه أو لم تزلْ تضرَّمُ ؟

أخيل : مَولاىَ إن البحرَ يُخفى سِرَّهُ ويكتمُ
وما نواه فى غد مثْلُ غدٍ مُستْبهم
فلا أقولُ مُقدِمٌ ولا أقولُ مُحجم
ولا أقول ينبرى للحرب أو يستسلم

كليوباترا: أخيلُ ، دَعْنا من غد إن غداً تَوَهُّمٌ
أخيلُ ، ما العيشُ سوى ساعةِ صفوٍ تُغْنَم
فلا تَكنْ كداخلٍ على الندامىَ يلطم
أتيْتَهم مُنادماً لم تأتهم ليَندموا
اليوم شُربٌ

زينون : وغداً حربٌ

غانميز : كلامٌ مُحكَمَ !

الحاجب : بُولا الشاعرْ حَبْرا الساحرْ

كليوباترا [ضاحكة] :
حبْرا ، أعندكَ سِحرٌ يَشُلُ طاغوتَ رُوما ؟
ويْجعَلُ الناسَ فيها حِجارةً ورُسوما ؟
[القواد الرومانيون يدمدمون]

أنطونيو : سيدتى لا تجرحى فُؤَّادى ولا تَنالى بالأذى أجنادى
وقلّلى السُّخط على بلادى

كليوباترا : أنطونيو ما أنت روماني ... ألم تقل إنك لى جنديّ ؟

أنطونيو : بلى ، وددت أنني مصريّ ... وأنني تابعك الوفيّ

ما فى سوى رضاك لى مُضىّ

أنشو : تلك والله قضيّةْ ... أصبح الراعى رَعيّهْ

حَكم الحبُّ على قيصرَ ... والحبُّ بليّهْ

صار كالشعب وساوَى ... هَمَجَ الإسكندريهْ !

أنطونيو : حبرا ، تَكلمْ ألا عجيبهْ ؟ ... من سحر منْفٍ أو سحر طيبه

حبرا : إلهَ الحرب سامحنى فإنى ... غُلبتُ على أبالسة الغضابِ

همُ لا يجلسون على غناء ... ولا يتحدثون على شراب!

كليوباترا : ولكنْ قيصرٌ يدعوك حبرا ... وقيصرُ لا يُردُّ بلا جواب

وأنت الكاهنُ العرافُ فانظر ... أغيرُ السحر شيءٌ فى الجراب

حبرا : إذا ما شئت مولاتى فإنى ... أطالع فى الكفوف وفى الكتاب

كليوباترا : أُدنُ من قيصرَ حبرا ... وانظُرِ الكفَّينِ واقرا

أنطونيو : تعالَ حبرا وقلِّبْ ... يَدىَّ يُمنَى ليُسرى

لعل أسرارَ كفى ... كواشفٌ لك سِرا

[يتقدم حبرا ويمعن فى كف أنطونيوس]

ألا ترَى لى بقاء ؟ ... ألا ترَى لىَ عمُرا ؟

حبرا : يا عَجَبَ الفال ! مولا ى أعجبُ الناس أمرا
حياتُه بيديْه والناسُ يحيَوْن قسْرا
إن شئتَ عشتَ نهارا أو شئتَ عُمِّرْت دهرا

[قائد رومانى إلى زملائه همساً] :

لو كنتُ منه قريباً لقلتُ فى أُذن حبرا
حياتُه فى يَدَيْه أم فى يَدَىْ كيلوباترا !

كليوباترا : تعالَ الآنَ سَلْ كَفِّى وبَيِّن ما الذى تُخفى

[يتقدم حبرا إليها ويمسك يدها بعناية وشغف]

حبرا : يا لك كفّاً كنقِّ العاج ناعمةٍ كمَخمَلِ الدِّيباجِ
لامِسُها من الجحيم ناجى !

[ضحك]

تفدى الأكفُّ كلُّها يمينا بيضاءَ حمراءَ ترفُّ لينا
كما أظلَّ الشفقُ النِّسرينا

أنطونيو [ضاحكا] :

سمعتِ حبراً مَلِكتى كيف ابتكرْ كلَّف أن يصنعَ سحراً فشعَرْ

بولا الشاعر : السحرُ والشعرُ سواءٌ فى الأثرْ

كليوباترا : لقد أعجبكَ الشعرُ وراقتْكَ معانيه
وما سَرَّكَ أنطونيو سُرورى كلُّه فيه
فما تأمر فى حبرا بأى البر أجزيه ؟

حبرا [لأنطونيو] :

جائزتى يا سيّدى تقبيلُ هذه اليد !

أنطونيو [ضاحكا] :

قبِّل ولا تَتَرَدَّدِ

[يقبل يديها بين إقدام وإحجام] :

حبرا : عَجَبٌ عينىَ لا تَقـ وَى على هـذا الضياء
هذه كفٌّ إلهٍ جاء فى زىٍّ النساء

كليوباترا : خَلِّنى من زُخْرُف المد ح ومن زور الثناء
ما وراءَ اليد يا عرَّ افُ من غَيْب القضاء ؟
أحضيضٌ يومىَ الآ خِرُ — قل لى — أم سماء؟
خاتَمُ الأيام أوْلَى باهـتمام العظـماء

حبرا : ملْكتى يومُك فى الأيا م منشور اللـواء
نابِهُ الصبح كيوم الشمـ س عُـلْوىُّ المسـاء
خَطَرَ العـز عليه ومشى فيـه الإباء
ثم يَتْـلوه بقـاء لم يُطاولْهُ بقـاء

أنشو [لزينون] :

رأيتَ الشعرَ قد أجدَى فـماذا قلتَ يا فار ؟

زينون : إلهـتى وَمَلاكـى كُفِّى المُهـرِّجَ عنى

قد نال مني ولولا ناديك ما نال مني

أنشو : سيدتي عبدُك أنشو قد صدقْ

الفارُ في مَكتبة القصر نطق

يقول إن أسرقْ فزينونُ سَرق !

هَمِّيَ في الجلدِ وهَمُّه الورق

يَسطو على آثار كلِّ من سبق !

أنطونيو : إني أرى أنشو وأمثالَه زادوا على زينونَ في الجُرْأهْ

يا وَيْحَ للشيخ على فضله أصبح في مَجلسهم هُزْأهْ

أنشو : هَبوه في الدرس بحراً هبوه في العلم أُمّه

لا يَخْلُقُ العلمُ نفساً ولا يُنَبِّه همّه

كم عالم في يد الجا هلين مُلقَى الأَزِمَّه

كليوباترا: أقلِّ المَزحَ يا أنشو وأرسِلْه بمقدار

فلولا الجهلُ ما رُحتَ تَقيسُ اللَّيثَ بالفار

زينون : يا سماء احفظي ويا أرض صوني

أظهرتْ عَطفَها على زينون !

كليوباترا: يا غانميز هات النبيذ

هات اسقني واسق الحبيب

واسق الملا

بولا الشاعر : بنتُ الدِّنانْ أمُّ الزمانْ

خبَّأها في قَبْوه

ساقي «مِنَا»

لونُ الفَرَحْ حنَّا القَدَحْ

سِرُّ السرورْ صَفوُ الحياةْ

قُوتُ المُنى

كليوباترا: قيصرُ ، ذي سُلافةُ الفيوم

تُنْمَى إلى عَقائل الكروم

مخبوءة من عهد مصرائيم

قد عُمِّرت كعُمُر النجوم

دِنانُ مصرِ لا دِنانُ الروم

القواد الروم [يدمدمون ويتهامسون] :

قائد : قولوا يا رومانيُّونا تحيا روما

آخر : تحيا

ثالث : تحيا

أنتو [ضاحكا] · تحيا الخمر يحيا السُّكْرُ

القواد : · تحيا روما

جماعة من المصريين : تحيا مصرُ

أنطونيو : أيها الشادى أياسٌ بلغ السُّكْرُ مَداهْ
غَنِّنى شعرَ مَلاكٍ غننى شعرَ الإله
أنا لا أطرَبُ حتى أسمعَ «الحبُّ الحياه»

أياس [مغنيا] :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ما لرُوحيْنا عن الحب غنَى
غَنِّنا فى الشوق أو غَنِّ بنا نحن فى الحب حديثٌ بعدنا

رَجَعتْ عن شجوِنا الريحُ الحنونْ وبعينْينا بكَى المُزْنُ الهَتونْ
وبعَثنا من نُفاثاتِ الشُّجونْ فى حواشى الليل بَرقاً وسَنَى

خَبِّرى يا كأْسُ واشهدْ يا وتَرْ وارْوِ يا ليلُ وحدِّثْ ياسحرْ
هل جَنيْنا من رُبا الأنس الثَّمَرْ ورشفنا من دَواليها المُنَى

الحياةُ الحبُّ والحبُّ الحياهْ هو من سَرْحتها سرُّ النَّواه
وعلى صخراتها مَرَّتْ يداهْ فجرتْ ماءً وظِلًّا وجَنَى

نحن شعرٌ وأغانىٌّ غدا بهوانا راكبُ البيد حدا

وبنا الملاحُ فى اليمّ شدا   وبكَى الطيرُ وغنّى مَوْهِنا

من يكن فى الحب ضحى بالكرى   أو بمسفوح من الدمع جرى
نحن قرّبنا له مُلْكَ الثرى   ولقينا الموتَ فيه هيّنا

فى الهوى لم نألُ جُهدَ المؤثرِ   وذهبنا مَثَلاً فى الأعصُر
هو أعطى الحبَّ تاجَىْ قيصر   لم لا أعطى الهوى تاجىْ مِنا

* * *

صوت : مرحى مرحى يحيا الفنُّ

آخر : يحيا الشعرُ

ثالث : يحيا اللحنُ

[تقوم كليوباترا الى شرفة فيتبعها أنطونيوس]

قائد رومانى [لزميل من زملائه هامساً] :

هلّا نظرتَ إلى الأميرة ؟ إنها   سكْرى تعثّرُ فى خليع عذارها

آخر : وتأمّل المفتونَ كيف جرى على   آثارها وانجرّ فى تيارها

آخر [لزملائه حيث يسمعه أورروس وألبوس] :

وانظرْ إلى أورروسَ فى تردّده   يأبى الهُتافَ معنا لمولده

أولبوس [ساخراً] :

أورروسُ ملءُ يومه ملءُ غده   فتى تَضجُّ الحربُ من مُهنّدهْ
ويَشتهى الأبطالُ فضلَ سُؤدده   قد راعنى فَناؤه فى سيده

بنفســــه وقومه ومولده   يَغلو غُلوَّ الـكلب في توده
يُقيِّدُ الـكلب وراء مرصَده   فيحرسُ الدارَ على مُقيِّده

أوروس :

تلك الدُّعابةُ يا طبيبُ ثقيلة   لحذار ثم حَذارِ من تكرارها
لولا الوليمةُ والشَّرابُ وحُرْمة   لأميرة الوادي السعيد ودارها
لنَزعتُ من أقصى لهاتك مُضْغَة   كثُرَتْ على الأبطال في استهتارها

أولمبوس :
أوروس !

أوروس :

أولمبوسُ صَهْ بَرِحَ الخفا   ورأيتَ نفسكَ في مَفاضح عارها
ماذا خَبأتَ من السُّموم لِلْمَلِكة   غفلَت عن الأفعى ولؤم جوارها ؟
إلّا تكنْ علمتْ فإنك عندنا   جاسوسُ أكتافيو على أسرارها
مازلتَ منذ وفَدتَ تُطلعُه على   أخبار قيصر أو على أخبارها
إنا رجالَ الحرب ليس يفوتُنا   لحظُ العيون ولا خَفِيُّ حوارها

[أولمبوس يحاول أن يتكلم فيمسك به قائد روماني ويهمس اليه] :

أقصرْ أخي إن الجماعة عربدت   فإذا لججْتَ لفتَّ من أنظارها
إسلمْ بنفسك في الظلام ولا تُثِرْ   ريباً أخافُ عليكَ غِبَّ مثارها
إني لأخشى الكأس أن تجري دماً   فتُصيبَ شيئاً من رَشاش عُقارها

أولمبوس [لنفسه وهو ينسل إلى الخارج] :

أوروسُ أنطونيو احسا بُكاغداً   وروما الأبيَّةُ لم تَنْمْ عن ثارها

[يخرج]

أنطونيو [من أقصى البهو] :

أما للرقص هيـــلا   نةٌ فى ليلتنا حصّهْ؟

ألا نَجْمَعُ بين الـكا   س والنغْمةوالرقصه؟

فهذى فرصة الأنس   وقد لاترجع الفرصه

هيلانة : الراقصاتُ يَقُمْنا   الراقصاتُ يَثِبْنا

ولا يدعن افتتانا   ولا يقصِّرن فنا

[تقوم الراقصات ، برقصة مصرية]

أنطونيو [قادماً] :

مرحى مرحى   يحيا الفن

صوت   يحيا الرقصُ

آخـــر :   يحيـا الحسنُ

أنطونيو :

قد انتصف الليلُ أو فوقَ ذاك   وآذنتَـــا بالمُضِيّ الدُّجى

ودونَ الخيـام سُرى ساعة   وعند الصباح تَدورُ الرحى

فهل تأذنين لنـا يا مَلاكُ   فلا بد من سِنَةٍ من كرى

ولستُ أقولُ مَـلاكى الوداعَ   ولـكن أقول إلى الملتقى

كليوباترا :

مكانَك قيصـرُ لا تَذهبَنّ   ولا تبْرح القصرَ أسلكْ أمَنَى

أنطونيو :

ذَريني أُعبِّيء للقتال كتائبي فلي في غد شأنان في البر والبحر
ذريني أهيِّيء للأحاديث في غد فإن غداً يومٌ سيبقى على الدهر
ذريني أزدْ تاجيكِ غارَ وقائعي وأقرن بثعبانيْ جلالهما نَسرى
ولستُ أخافُ الدارعينَ وإنما أخافُ لُجاءات الخيانة والغدر
وليس كمينَ الحرب ما أنا هائبٌ ولكن كمينَ الغدر في ظُلمة الصدر

[لأخيل] :

فيا قائدَ الأسطول هل من مَكيدة تُدبر لي خَلفَ الشِّراع وما أدرى؟

كليوباترا :

إمض إلى الهيجاء أنـ ـطونيو كما يَمضى الأسدْ
إن الأسود في اللبَدْ دونك في هذا الزَّرَدْ

إمض إلى المجد ولا يُقعدْك شُغلٌ في البلد
المجدُ لا يَســألُ عن صاحبة ولا وَلَد
أنت لروما في غد وقيْصرونُ بعد غد
والشرقُ سلطاني الذي إكليلهُ ليَ انعقَد
يا ليْثُ سِرْ، يا نَسرُ طِرْ عُدْ ظافراً أو لا تَعُد

ستار

الفصل الثالث

« معبد فى الاسكندرية ، يقسم جداره المسرح الى قسمين »
« القسم الأصغر خارج المعبد وتنهض فيه شجرة باسقة ، »
« والقسم الأكبر داخله وتظهر فيه حجرة الكاهن الأكبر »
« أنوبيس وعلى جدرانها رفوف نسقت عليها حقاق »
« وقوارير ؛ وهنا وهناك صرر وصناديق يشف بعضها عما »
« فيه من أفاع وحيات — باب خلفى يؤدى إلى المعبد »
« ونافذة جانبية تطل على الفضاء » .

[فى حجرة الكاهن أنوبيس]

أنوبيس [يناجى نفسه] :

يقولون أنوبيسُ وَلوعٌ بأفاعيه
ومشغوفٌ بثعبان من الوادى يُربّيه
وفى ناديه حيّات من الجن تُناجيه
ولو ذاقوا هوى العلم كما ذقتُ فَنوا فيه
ألا يا رُبّ خدّاع من الناس تُلاقيه

يَعيبُ السُّمَّ فى الأفعى	وكلُّ السم فى فيه !

[يخرج من الباب الخلفى]

* * *

[خارج الهيكل — تحت الشجرة — أنطونيوس وأوروس]

أنطونيوس: أوروس إنى جَهِدتُ مَشيا	ومَسَّنى الضرُّ والكلالُ
فمل بنـا نَسترحْ قليلا	من قبل أن يَدهَمَ الرجال

[يجلس أنطونيوس منهوكا على حجر فتأخذه الذكرى] :

أوروسُ، ماذا دهانى؟	حتى نَسيتُ مكانى
أتيتُ ما هَدّ مجدى	وحَطَّ رفعةَ شانى
جلّلتُ نفسى بعـار	يبقى بقـاء الزمان
لما حَمَلتُ جوادى	على الفرار ازدرانى
وضجّ منىَ سيفى	وضـجّ منى سنانى
ووَدّت الأرض تحتى	لو طُهِّرَتْ من عيانى
أنا الذى كان أمضى	من الحـديد جنـانى
الشرقُ يَدرى نزالى	والغربُ يدرى طعانى
كانَ الملوكُ عبيدى	فصرتُ عبدَ الحسان
ولستُ أوّلَ حُـرٍّ	استعبدتْه الغـوانى

[يسكت لحظة ثم يستمر] :

ولم أرَ كالحرب استراح قتيلُها وأفضى إلى القَيْد الأسيرُ المُقَيّد

ولكن شقيُّ الحرب والمصطلى بها

إذا انفضّت الحربُ الطريدَ المُشرّد

ولولا اختلافُ الحرب بالناس لم يَهُنْ

عزيزٌ ولم يمشِ على القيْد سيّد

أوروس :

وقارَك قيصرُ لا تجزعنَّ وخلِّ المقاديرَ تجرى المدَى

تَلَقَّ الهزيمةَ ثَبْتَ الجنَان كما كنتَ تلقى الفُتوحَ العُلا

فما أنتَ أوّلُ نجمٍ أضاء ولا أنت آخرُ نجمٍ خبا

وقد يَنزِلُ الشمسُ بعد الصعود وتَسقَمُ بعد اعتدال الضُّحى

ويارُبَّ غارٍ عَراه الجُفوفُ على هامةٍ قد علاها البلى

أمالك أنطونيو أُسْوة بيوليوسَ قيصرَ أين انتهى؟

رأيتك والحربُ تَبلو الكُماةَ فأشهدُ كُنتَ إلهَ الوغى

وقد كانَ سيفُكَ غُولَ السيوف وكانت قَنَاتُك غولَ القنا

وكنتَ إذا الموتُ أفضى إليك تحدَّيْتَه فانثنى القَهقَرى

وكان جُنودُك شرَّ الجنود عليكَ وخيرُهم للعدا

فخانت أساطيلُ أمّلتَها وجيشٌ عقدتَ عليه الرجا

وخُلِّفتَ فى عَسكر كالنِّعاج كثير الثُّغاء قليل الغَنا
فمن يائس مات قبل القتال ومن خائن فرَّ قبل اللقا

أنطونيو :

إذنْ لم أكن فى الوغى بالجبان ولاخُنتُ أوروسُ عَهدَ الهوى ؟
وتشهدُ أنىَ أنطونيوس وأنى ابنُ روما وأنى الفتى ؟
فإن عشتُ عشتُ نَقىَّ الجبين وإن متُّ متُّ كريم الثنا

[يرى أنطونيو شبحاً فيسأل أوروس مبهوتاً]

أنطونيو : أوروسُ !

أوروس: مولاىَ

أنطونيو: تأمل من ترى ؟

أوروس: هذا أولمبوسُ وقد حَثَّ الخُطا

أنطونيو : تُرَى إلى أين ؟ ومن أين أتى ؟

أوروس: ها هو سار نحونا ها قد دَنا

[يظهر أولمبوس]

أولمبوس: تحيةً قيصرُ

أنطونيو : بل أنطونيو لاغير بل قُل الشَّريدَ المُقتَفَى
لاتخدعونى قادراً أو عاجزاً كفى غروراً بالولايات كفى

أولمبوس: مولاى

أنطونيو :

لستُ اليومَ مَوْلَى أحدٍ أكتافيو السِّيدُ والعبدُ أنا

مررت بالقصر فكيف ناسه؟ هل عن كلوباترا أولمبوسُ نَبا؟
صرِّحْ أَيْنَ، قُلْ غَدرتْ، قُلْ جَدّدتْ بقيصر الثالث دُولةَ الهوى
صَنعتْ بي عند حاجة الوغى ما لم يكنْ يصنعهُ بيَ العدا
أسطولُها إلى مراسيه أوَى وجيشُها ألقى السلاحَ ونجا

أولمبوس: مولاى أعْفنى

أنطونيو: تكلمْ لا تخفْ إنى أرى عليك رَوْعَةَ الأسى

أولمبوس:

مولاى مهلاً فى الظنون واتَّئد إن من الظن اتهاماً وأذى
أنت على مالكَ من مُروءة رميْتَ بالغدر أحب مَن وفى

أنطونيو: ماذا تقول؟

أولمبوس: كيلوباترا انتحرت بطعنة الخنجر فى صدر الضحى

أنطونيو:

يا للسماء! انتحرتْ! أين؟ أَيْنْ ولمْ؟ وكيف كان ذاك؟ ومتى؟

أولمبوس:

مَررْتُ بالقصر ضُحَى اليوم فلم أجدْ له نَظْما ولا حُسناً يُرى
بَدا لعينيَّ خَلاءً موحشا غيرَ عويل ها هنا، وها هنا

أنطونيو:

انتحرتْ! يا للخبرْ! ويا لقسوة القدر!

إنَّ الأمورَ انتقلتْ من خَطرٍ إلى خَطر
ما غَدرتْ وإنما أنا الذي بها غَدر
واخَجْلَتَا من قولهم انتحرتْ وما انتحر !
إذهبْ أولمبوسُ ودعــــنى والهمومَ والكدر
ما بجراحات القلوب للأطبّاء بَصَر

[يذهب أولمبوس]

[لروما] :

روما حنانَك واغفرى لفتاك أوّاه منك وآه ما أقساك !
روما سلامٌ من طريد شارد فى الأرض وَطّنَ نفسَه لهلاك
اليومَ يَلْقى الموتَ لم يَهتِفْ به ناعٍ ولا ضَجَّتْ عليه بواكى
إن الذى أعطاك سُلطانَ الثرى لم تنعمى لرُفاته بــثراك
إن الذى بالآس زِنتِ جَبينَه بالغار عَقَّك جُهدَه وعصاك
يارُبَّ تاجٍ فى جبينك زاهرٍ عَطّلتُ منه مَفارقَ الأملاك
الأمّهاتُ قلوبُهنّ رقيقــةٌ ما بالُ قلبك لم يَلِنْ لفتاك !
أعْرَضْتِ عَضِّى فى الحياة فرحمةً لا تحرمينى فى الممات رضاك
إن كان موتى كلَّ ما تَبغينه فهناك ! هأنذا أموتُ ،هَناك!
يا أمُّ ، عُذرك فى اتهام بُنُوّتى بادٍ وعُذرىَ فى العُقوق كذاك
لولا الجمالُ وفتنةٌ من سحره ما حَلَّ فى قلبى هوى لسواك

صفحاً كلوباترا فرُبّتَ زَلّةٍ قد كنت تغتفرين حين أراكِ
لما لَقيتُكِ في الجمال وعزّه قَهرتْ قُواى الظافراتِ قُواك
فنسيتُ في ناديك ذكْرَ وَقائعي وسَلوْتُ أيامى بيوم لقاك
سجدَتْ لأعلامى الصّوارمُ والقَنا وأبَى مُهنّدُ لحظك الفتّاك
قدتُ الجحافلَ والبوارجَ قادراً مالى ضَعُفتُ فقادنى جَفناك؟
أخرجتِ أمرىَ واختيارىَ من يَدى وتَركْتِنى نفساً بغير مِلاك
خلتُ السلامةَ فى هَواك فذُقتُها فإذا الكوارثُ كُلهنّ نَواك
عاديتُ قومى فى هواك وأضْرمتْ روما علىّ الحربَ من جرّاك
وشَرَدْتُ فى شرق البلاد وجَدّفى طلبى عِداىَ بغربها وعِداك
أغدو على سيف العدوّ وناره وأروحُ بين مكامن وشباك
وتَلمّستْ نفسى السيوفُ ورامنى فى البر والبحر الكمىُّ الشاكى
كانت حياتى للرجال ألِيّةً واليومَ هُنْت فأقسموا بهلاكى
ولقد ذهبتُ من الظنون مذاهباً فذَمَمْتُ عهدك واتّهمتُ وفاك
حتى إذا حُمّ القضاءُ وراعنى عُطْلُ المقاصر من بهاء حُلاك
ضَحّيْتُ بالدنيا وقُلت رخيصةٌ وبَذلتُ أيامى وقلتُ فداك

* * *

أمانا إلهَ الحرب ما أنت صانعٌ ... بهذا الحطام المُستباح المُبعثر ؟
لقد ذلّ من بعد امتناع كأنه ... بقيةُ نَصْل أو رُفاتُ غَضَنْفَر
صَدعتَ أكاليلى وحطّمتَ صارمى ... وجرّدتَنى من أرجوانى المُظفّر
ولم تألُنى هدماً وكنتَ بَنَيْتَنى ... بناء الصَّناع القادر المُتجبّر
ملأت سبيلى بالهوى وصروفه ... ومن يمش فى أرض الهوى يتعثّر
تنكّرتَ حتى اخترتَ لى معْوَل الهوى ... فليتك لم تَغضبْ ولم تتخيّر

أروسُ غلامى ، إن فى النفس حاجةً

أوروس: ... وعندىَ أقصى طاعة العبد فأمُر

أنطونيو :

أوروسُ أرى الدنيا بعينىّ أظلمتْ ... وكانت قديماً كالصباح المنوّر
وضاقت بىَ الأرضُ الفضاء فكلُّها ... سبيلُ طريدٍ ضائع الدّم مُهْدَر
غَويتُ وأوْفَى بى على الحُفرة الهوى ... فخفتُ، ومن يركبْ شَفا الجُرْف يُذْعَر
قُشعريرةُ الخوف اعترتْنى ولم تكنْ ... إذا ما اقشعرّتْ تحتى الأرضُ تعترى
مُلئتُ من الأحداث رُعباً فضُمّنى ... إليك وقرِّبْ من إزارك مئزرى
أرى الموتَ ممدودَ اليدين كمُنْقذ ... لمثلىَ من غَرْقى الحياة مُسَخَّر
دعانى، ولو أنى على النفس مُشْفِقٌ ... مَدَدتُ إليه الكفَّ لم أتأخّر
أروسُ، أرى الماضى يُطيفُ خيالُه ... وتَعرضُ لى أحلامُهُ فى التذكر

ذكرتُ بروما أربُعى وملاعبي وأين ضِفافُ النيل من شَطّ تيبْر؟
وأيامَ يدْعونى الهوى فأُجيبُه وينفخُ فى البُوق المنادى فأنبَرى
فتنتُ الغــوانى بُرْهةً وفتنَّنى ولكننى عنْ سُؤدَدٍ لم أقصِّر
فهمَّةُ قلبي فى شرابٍ وصَبْوةٍ وهمَّةُ نفسى فى عَلاء ومَفْخَر
أروسُ تواقفنا على كلِّ غمْرة وكل مجال ثائر النَّقْع أكدَر
وفى مِهْرجان الفاتحين وعُرسهم وتحت لواء أو على عُود منبر
فمالتْ بنا الدنيا فصرْنا بموْقف شديدٍ على الأبطال بالذل مُشعِر
نرى الأرضَ فيه والسماء تناهتا إلى فلَكٍ نحْس الجهات مُسمَّر
فكيف مُقامى يا أروسُ على الأذى وصبرى على العيش الذليل المكدَّر!

أروس :
أجلْ قيصرُ اعتضْنا من العزّ ذلةً ومن حلْيَة الأعلام عُطْل التنكُّر
فُهنَّا كأنقاض الحصون على الثرى وَضِعنا عليه كالقنا المتكسِّر
يَتيم كأبناء السبيل وطالما أخَفْنا سبيلَ العاهل المتكبِّر
وما منزلُ الأبطال إلا رَحَى الوَغَى إذا هى دارتْ أو رواقُ المُعسكَر

أنطونيو : فماذا ترى أوروس؟

أروس : رأيُكَ أوَّلٌ وعندكَ تُرجَى نظْرةُ الصدق فانظر

لقد عشتُ ظلاًّ لا أرى غيرَ ما ترَى ... ولا خيرَ فى الرأى التَّبيع المُسَيَّر

أنطونيو:

أروس، أنا الأعمى وأنت هى العصا ... فخذ بزمام العاجز المُتحيِّر

أروس:

أرى ما يراه العاجزون إذا جرى ... على النفس محتوم القضاء المُقدَّر

أنطونيو:

وماذا يقولُ العاجزون إذا ابتُلُوا؟

أروس: ... يقولون حُكمُ الله يا نفسُ فاصبرى

أنطونيو:

أروسُ، يقومُ العاثرون وقلّما ... يُقالُ عِثارُ الكوكب المُتغوِّر

أروسُ، ألم تفهمْ؟ هو الذلُّ فاشفنِى ... بضرْبةَ سَيْف أو بطعنَة خنْجَر

فإنك حرٌّ إن فعلتَ وفائز ... بسيفى وأثوابى ودرْعى ومِغْفَرى

أوروس:

مَعاذ خلال البرِّ مولاى! أعْفنى ... فليس يدى تَقْوى ولا السيفُ يجترى

وأنت الذى لو بيعَ بالروح وُدُّه ... ومالى سوى روحى تقدَّمت أشترى

لآلهة الرومان أشكوكَ قيصرى ... ظَلمتَ فلم تُنصفْ ولائى وتَقْدُر

أتجعلُ فى الميزان حُبِّى وطاعتى ... وشَتَّى عروضٍ من ثياب وجَوْهر؟

لقد جادلى بالسيف والدّرع قيصرٌ

[يطعن نفسه بخنجره]

وجُدتُ بأيام الحيــاة لقيصر

أنطونيو :

أوروسُ عفواً قد ذهبتَ ضحيةً وجَنَى عليك تَرَدّدى المقوتُ

فعلمتَ منى كيف يجبُنُ قيصرٌ وعلمتُ منك العبدُ كيف يموتُ

[يطعن أنطونيو نفسه فيخر على الأرض جريحا]

[ينتقل المشهد إلى داخل المعبد حيث يدخل أنوبيس إلى حجرته ويناجى أفاعيه]

أنوبيس :

هلمَّ لكنَّ بنــات التلال وجنَّ الخرائب من صالحجرْ

تبدّلَ من حولكنَّ المكانُ وأين القفارُ وأين الحُجَرْ

يدُ العلم وهى حديديةٌ حَوَتكن من جَنَبات الحُفَرْ

وجاءت بكنَّ إلى حُجرتى أسارَى القوارير رَهْنَ الضَّرر

أرابنىَ الناس فى أمركنّ وصرتُ حديثَهمُ والسَّمَر

وقيل أنوبيسُ حاوٍ تسيلُ إليه الأفاعى إذا ما صَفَر

وما فتنى بجُلودٍ لَكُنّ مُرَقّشَةٍ كإهاب النمر

ولا بهيــاكلَ مثل العصىّ من اللحم لا من فروع الشجر

ولا برءوس كَدقِّ الحصا ولا بعيون كوَقْد الشَّرَر

ولكن أزاولُ علم السموم وعلمُ السموم جليلُ الخَطر
لقــد كان لى فى معُاناته تجـاريبُ أنفقتُ فيها العُمُر
إلى أن نجحتُ ، نعم قد نجحتُ وعاقبـة الصـابرين الظَّفَر
فكم قد شَفيتُ بطيءّ اللّديـــــغَ وأيقظتُ من نَزْعِه المُحتَضر
فقيـل إلهٌ أعاد الحيـــاةَ إلى الميت أو خذْنُ جنٍّ سَحر
صَنعتُ من السم ترياقَــه وقد يختفى النفعُ تحت الضرر
وأنْتُنَّ والنـاسُ قد تلتقون ففيـكُنَّ شرٌّ وفى النـاس شر

[يدخل حابى خلسة]

أنوبيس [مستمراً] :

وتقتلنَ عُمْيَ عيونِ السلاح ويقتـــلُ قاتلهم عن بصر
لسانُ ابن آدمَ أو نابكنّ كلا السائليْن لعـابُ القـدر

حابى : سلامٌ أبت

أنوبيس: حابى ؟ ســلامٌ لكَ يا حابى
حابى : أمشـغولٌ أبى اليـومَ بذات القَرْن والنـاب
وأنطونيوس مهزومٌ وأكتافيو على الباب ؟

أنوبيس[باستخفاف وهو يشير إلى أفعى] :

حابى ، تقهقر ناحيـةْ تلك الخبيثةُ داهيـــةْ

[يتقهقر حابى قليلا بينما يلهو الـكاهن أنوبيس بالحقاق والقوارير]

تلك القوارير وذى الحقاق غوثٌ إلى مستنجد يساق

لكل سمٍّ عندها ترياق

حابى : أبتى ، من للرّعيّه من لأوطانى الشقيه ؟

خلّ حيّاتك فى الأسفاط واشعر بالرزيّه

بعد حين تملأ الوادى الأفاعى البشريّه

أبتى نحن من اليوم عبيدُ القيصريه

أدنِ أذنيك على قدُّ سهما من أذنيه

واسمع البوقَ تجدْ مِن أحرُفِ الرقِّ دويّه

أنوبيس : حابى ، تقبَّلْ هذه القنّينهْ واقبضْ عليها بيد ضنينهْ

فإنها ذخيرةٌ ثمينهْ !

حابى [لنفسه] :

يا للسماءِ لأبى ! تُراه يستهزئُ بى ؟

ويحَ له ، عساه جُنّ أو لعله نبى

أوحتْ له السماء علم غيبها المحجّب

يعلمُ من يُلدَغُ من رقطاءَ أو من عقرب

لأحملنّ حُقّه مثلَ تميمة الصبى

يا لكَ شيخاً طيّباً يأتى بكل طيب !

[مخاطباً أنوبيس الكاهن] :

ربعَ الحمَى أبى فكيـ ـف للحمَى لم تَغضَب ؟
دع الأفاعى واشتغلْ بالأفعُوان الأجنب
الوطنُ المَلدوغُ أو لَى اليومَ بالمُطَبِّب

أنوبيس : وأين كنت يا فتى وأين فتيان الحمَى ؟
وأين فُرسانُ المَقَا ل هل مَضَوْا إلى الوغى ؟
أدَرتُم وجوهَكم ساعةَ دارت الرحى
تركتم أنطونيو سَ وحدَه يَلْقى العدا
من أجلكم سلَّ الحُسا مَ وإلى الحرب مشى
ما كان ضرَّكم لو الـ ـتففتم على اللوا ؟
أبعد أن حلّ على النـ ـيل وواديه القضا
ولم يجدْ من شِيبه ولا شبابه فِدا
أتيتَ تَدعونى كما تدعو العجائز السَّما
الرأىُ ليس نافعاً إذا أوانُه مضى

[يدخل جند من حرس الملكة] :

الجندى : مولاى ، ذاتُ الجلالة

أنوبيس : الملكةُ الآن عندى ؟

[تدخل كليوباترا فى حاشيتها]

كليوباترا : تحيـــةً يا أبت

أنوبيس : سيـــدتى فى حُجْرتى

مُرِى بما شــئت يكنْ وإن تحـــدَّى قدْرتى

كليوباترا :

أبى ، أعلتَ أن الجيشَ ولَّى وأن بوارجى أبَت المضيَّا

أنوبيس :

علمتُ وكان ذلك فى حسابى وذا حابى به أفضى إليَّا

كليوباترا :

وهل نبّاك عن أنطونيوسٍ وكيف جرتْ هزيمتُه عليّا

وما أدرى أأردوْه قتيلا صباح اليوم أو أخذوه حيًّا ؟

أبى ذهب الحليفُ فكنْ حليفى فقد أصبحت لا أجدُ الوليّا

أبى خفتُ الحوادثَ

أنوبيس : لا تُراعى لَباةُ النيل ليس تخافُ شيّا

كليوباترا:

أبى لا العزلَ خفتُ ولا المنايا ولكن أن يَسيروا بى سَبيّا

أيوطأ بالمناسم تاجُ مصرٍ وثمَّتَ شعرةٌ فى مفْرقيّا ؟

أنوبيس [باستخفاف] :

لتأت المقاديرُ أو فلتَذَرْ تعالَىْ كلوبترا ألقي النظرْ

كليوباترا :

أفاعٍ ؟ أبي ، نَحِّها ، أخْفِها ؟ أعوذُ يا نزيس من كلِّ شرّْ

فماذا تريدُ بإحـراز هنَّ وهل يقتنى عاقلٌ ما يضرّْ ؟

أنوبيس :

أتيتُ بهنَّ لدرس السُّموم ولم أخلُ في علمها من نظر

أداوي بها أو بترياقها محبَّ الحياة أو المنتحر

كليوباترا [كأنما تحدث نفسها] :

محب الحياة أو المنتحر !

كُنِ أيها الشيخُ ! بل هات زدْ فما بيَ خوفٌ ولا بي خَوَرْ

وإن تكُ بي خشيةٌ في النساء فلي جُرْأةُ المَلِكات الكُبر

تكلَّمْ فليست سمومُ الأراقـم في الخُبث دون سُموم البشر

فيارُبَّ صفوٍ سَقَيْتُ الرجالَ فلما تَرَوَّوْا سقوْني الكدر

أنوبيس :

قصارٌ وهُن سهامُ المَنون وليس يَعيب السهامَ القِصَرْ

تَمَسُّ الفريسةَ مسَّ السنان وتمضي مَضاءَ الحسام الذَّكَر

وكلُّ الذي لَمَسْتْ مَقتَلٌ ولو أنشبت نابَها في ظُفُر

إذا جَرَحَتْ لم تَقُمْ عن دم كذلك يجرح سهمُ القدر

وماتتها لا يحس المنون كمن مات فى النوم لا يحتضر

كليوباترا [مرددة قوله فى صوت خافت] :

وماتتها لا يحس المنون كمن مات فى النوم لا يحتضر!

ولكن أبى هل يصان الجمال؟

أنوبيس : نعم لا يحول ولا يندثر

كليوباترا: وهل يطفأ اللون ؟

أنوبيس : لا بل يضئ كما رف بعد القطاف الزهر

كليوباترا :

وهل يبطل الموت سحر الجفون ويبلى الفتور ويفنى الحور

أنوبيس :

كعهد العيون بطيف الكرى إذا الجفن ناء به فانكسر

كليوباترا : أبى ، والشفاه؟

أنوبيس : لواق الذبول كما احتضر الأقحوان النضر

وما الموت أقسى عليها فما ولا قبلة من عوادى الكبر

كليوباترا: وما عضة الناب ؟

أنوبيس : وخز أخف وأهون من وخزات الإبر

كليوباترا: وما شبح الموت ؟

أنوبيس : ماذا أقول؟

كليوباترا: تُمثّلُه لي كأنْ قد حَضَر

أنوبيس:

زَعَمتِ ابنتي الموتَ شخصاً يُحَسّ وعَظَّمت من خَطْبه ما صَغُر
وما هو إلا انطفاءُ الحياة وعَصْفُ الردَى بسراج العُمُر
وليس له صُورةٌ في العيون على قُبْح صُورته في الفِكَر
إذا جاء كان بغَيضَ الوجوه وإن جيء كان حبيبَ الصُوَر

كليوباترا :

إذن هذه الرُّقْطُ في ذمتي فصُنْها وأحسنْ عليها السهر
وأقسِمْ لَتــأت إليّ بهنّ ولو أن دوني الظُّبا والسُّمُر

أنوبيس :

يمينــاً بإيزيسَ أحمِلُهن إليك ولو في سلال الخُضَر
إذا بات في خطر تاجُ مصـــرَ سبقتُ إليك بهنّ الخطر

كليوباترا :

أتجعــلُ لي يا أبي آيةً أميزُ الرسولَ بها إن حضر؟

أنوبيس :

هو التــين أبعَثُ حابي به وبالرُّقط بين غُصون الثمـــر

* * *

ابنــتي ذلك سحــرا ني ادخليــه للصَّـــلاة
واسكُبي الدمعَ عسى أن يَقْبَــل الدمــعَ الإله
هــو ذو المُلْك الذي يبــقى ويفــنى ما ســواه

[خارج الهيكل — ثلاثة جنود رومانية]

الجندى الأول : تحيا روما يحيا قيصرْ

الجندى الثاني : روما العُظمى أبداً تنصَرْ

الجندى الثالث : ما ذاك؟ ما فوق الطريق؟ما أرى؟

حيـــهلاَ رفيقَّ معى لننظرا

الأول : هناك مقتولان ضَرَّجا الثرى

الثاني : نعم أرى ثَمَّ دما وخنجرا

وهيكلينْ من حياة أقفـرا

الثالث : جبّارُ يامُصرِّفَ الحروب بارِكْ لنا فى هذه الجيوب!

وابعث لنا بالذهب المحبوب

الأول : ياعَجَبَ الأقدار ! أنطونيوسُ؟

الثاني : أنطونيو ! أجل وذا أوروس!

وأحسَبُ السيدَ مات بيدهْ ثم حذا العبدُ مثالَ سيِّده

لهفى على أنطونيو فى مرقِدهْ

[يئن انطونيو ثم يحرك رأسه ويتبين الجنود]

أنطونيو :

ويحى أحىٌّ أنا جريحٌ؟ ماذا يُريدُ القضاءِ ماذا

جنودُ أكتاف أدركونى يا ليتنى متُّ قبل هذا

جندي :

لا بل جنودُك لكن خانوك حُباً لروما

آخر : وما نَسُوك عليهم تحت اللواء زعيما

ترى بهم مَطلعَ الشمس أو تَؤمُّ النجوما

أنطونيو : يا جنودي بِصحابي ليس ذا وقتَ العتاب

اتركوني وعذابي

[يغمى عليه]

جندي : لَهفي عليه عاده الإغماء وأوشكتْ تَنْزِفُه الدماء

وليس إسعافٌ وليس ماءُ

آخر : هَلُمّاً احملاه هَلُمّاً احملا وجيئا بمولاكما الهيكلا

وأمضي فأُبلغُ أكتافيو الحديثَ أعرّفُه المنزلا

[في حجرة الكاهن ـ كليوباترا والكاهن والحاشية عائدين من المحراب]

كليوباترا: أبي دخلتُ ونفسي حَيْرَى الزِّمام حزينهْ

وقد تركتُ المُصَلَّى وملءُ قلبي سكينه

إن الصَّلاةَ على شدّ ة الزمان مُعينه

[يسمع صوت الجند من الخارج]

كليوباترا: ما تسمعون أصيخوا شرٌّ وهذا بَرِيدُهُ

كان الضجيجُ بعيداً والآن يدنو بعيدُهُ

حابي : أسمعتم ! ضجةٌ صاخبةٌ وجريحٌ وجنودٌ فى الطريقْ

ها هُمُ قد دخلوا الدار به

أنوبيس : دارُنا الشاطئ لا يأبى الغريق

حابي : ها هُمُ قد حضروا

أنوبيس : يا مرحباً أعدوٌّ كان أم كان الصديق

[يدخل الجنديان اللذان يحملان أنطونيوس]

كليوباترا :

ويحَ عينى ماذا ترى ؟ ومن المحـ مولُ كالسيف فى الأكفِّ خضيبا ؟

أيها الجندُ ما بأيديكمُ اليو م ؟

جندى : جريحٌ على الطريقِ أصيبا

كليوباترا :

أفتدرون مَن حَمَلْتم ؟

جندى : حَمَلنا هَيكلا عَزَّ فى الرجال ضريبا

قد عرفناه خَيرَ من هزَّ رُمحاً ونضا صارماً ولاقى الحُروبا

[تتأمل كليوباترا فى وجه الجريح]

كليوباترا :

آه أنطونيو حبيبى أدركونى بطبيب

ما ترَوْن الأرضَ تَروَى من دَم الليث الصَّبيب

أبتى ، أين قوى طبِّكَ والسحرِ العجيب

هو في إغماءة الجُـــر ح فنبِّهْـــهُ بطيب
هو ذا يفتـــحُ عينيـــــه ويُصـــغي لنحيبي

أنوبيس [محاولا إسعاف الجريح] :

تلك أنفاسه توالَى وهذا جسمه لا يزال غضاً رطيبا
هو ذا قد تخلّجت شفتاه وتهيّـــا لسانُه ليَثوبا
أيهـا المَلـكُ ارفُق بجريح بات تحت الرداء جُرحاً صَبيبا
لا تناديه بالدموع مرارا ربمـا ضَرَّ جُرحَه أن يُجيبا

أنطونيو :

كيلُبترا ! عَجَبٌ ! أنت هنـا ! لم تموتي .. هم إذنْ قد كَذَبونْ

كليوباترا :

سيدي روحي حياتي قيصري أنت حيٌّ ؟

أنطونيو : بعد حين لا أكـون

كليوباترا :

من نعاني كَذباً ! من قالها لك !

أنطونيو : أولمبوسُ النـذلُ الخَؤون
مَــرَّ فاستوقفتُـه أسألُه قال ماتتْ فتجرَّعتُ المَنونْ

كليوباترا زوّديني قُبلةً من ثناياك العذاب الشَّبِماتْ
وأضيئ بسَناهـا مُقـلةً يُسْدلُ الموتُ عليها الظُّلُماتْ

سيقولُ النــاسُ عنى فى غد | من أولى الرحمة أو أهل الشّمات:
بَطلٌ لم تَظفَر الحــربُ به | فى الهوى تحت لواء الحب مات

[يسلم الروح]

كليوباترا :

قد تَداعى مِحْوَرُ الأر | ض وميزانُ الشعوبِ
مـال كالشمس جمـالاً | وَجـلالا فى الغـروبِ
أيهـا المجـروحُ لو تـد | رى جُروحى ونُدوبى
أيهــا الذاهب قـد آ | ن عن الدنيـا ذهوبى
أيهــا الخـالصُ وُدّاً | ليس وُدّى بالمَشــوب
أيهـا الصـادق وعـداً | ليس وعدى بالكذوب
عن قريب يَنطوى القبـ | ـرُ علينـا عن قريب
كَلِّلوه بالـرياحيـــــن | وبالغار الرطيب
واهتفـوا فى أذنيـه | بأناشيـــد الحروب

* * *

واحبيباه، جاءه الموت فاستســـــلم لا يستطيع إلا ذهوبا
كان ما خفتُ أن يكون وحَلّتْ | نَكبة لم تفاجىء المنكوبا

[تستوى قائمة]

أيها الجندُ مات قيصرُ فابكوا | معىَ السيدَ الجسورَ الوَهوبا
شَبِّكوا ساعديه من فوق صدر | كان فى الرّوع بالمنايا رحيبا

واعرضوا سيفَه على راحتيْه   واركزوا الرمحَ من يديْه قريبا
لا بل امضوا لشأنكم جُندَروما   ودَعونى وسيفَ روما السَّليبا
أنا وحدى له ديارٌ وأهلٌ   إن دعا دارَه ونادى النَّسيبا

[ينسحب الجنود]

ويحَ لى قد طلبتُ عند طباع النـ   ـناس ما عَزَّ عندهم مطلوبا
خَلَقَ الناسُ للقوىِّ المزايا   وتجنَّوْا على الضعيف الذنوبا
واحتفوْا فى الحياة والموت بالغا   لب فانظرْ هل عَظَّموا مغلوبا
شيَّعوا الشاةَ جيفةً بمُداهم   واتَّقَوْا وهْو فى الرِّمام الذِّيبا

أنوبيس: الوقارَ الوقارَ يا لَبْأة النيـ   ـل ولا تجعلى الزئيرَ النحيبا
وقفى للخُطوب فى عزّة الملـ   ـك وفى كبرْه تُذلى الخطوبا

[يدخل جندى من جنود أكتافيوس]

الجندى: قيصر أكتافيوسُ آتٍ   يعودُ أنطونيوسَ قيصرْ
كليوباترا: قيصر! فرَّ الأسير منه   مَنْ فى حمى الموت ليس يُؤسَر

[يدخل أكتافيوس ومعه جنود]

أكتافيوس:

سلامٌ مَلْكَةَ الوادى   سلامٌ كاهنَ المُلْك
يقولُ الناسُ أنطونيو   هنا لم يَبتعدْ عنك

كليوباترا: نعم لم نَفترقْ بعد   وإن أمعن فى تركى

وهـذا الجسـد الفانى جَـلاءُ الرَّيب والشك

أكتافيوس :

إذن قد قُضىَ الأمرُ وصار الليثُ للهُـلْك

كلوباترةُ لا تَخشَىْ فلن آخذَه منك !

كليوباترا : أبى تهزأُ أم بالمَيْـــت أم بالموقف الضَّنك

إن اسطَعتَ على مالـــك من بَطش ومن فتك

وما حَوْلك من خيـل وما تحتك من فُلْك

تُخذْه من يد الموت ومن عاجـزةٍ تبكى !

[يدنو جندى من جنود اكتافيوس ليتحقق موت أنطونيوس]

كليوباترا :

مكانَك يا عبدُ لا تَهتِكنَّ على سيد الهالكين القنـاع

تُريد لتكشفَ عنه الغطاءَ عسى تحته حيلةٌ أو خداع

عَبَثْتَ به وهو تحت الظِّبا لِـــس مُلقَى السلاح قليـلُ الدفاع

ولم تحتشمْ بُقَعاً من دم عليهنَّ تَحسُدُ مصرَ البقاع

رُوَيْدَكَ ، ما الموتُ مُستبعَدٌ ولا هو مستغربٌ من شجـاع

وإن التماوتَ فعلُ الثعالـــب ليس التماوتُ فعلَ السباع

أكتافيو :

أناتَك سيـدتى إنـه فتى طاهرُ القلب حرُّ الطباع

أراد ليحتاطَ لي جُهدَه … ويُخلصَ في خدمتي ما استطاع

تنحَّ أخا الجند ما أنت والميـ … ـتَ الا يَقْرُبُ الشمسَ إلّا شُعاع!

أتأذنُ سيدتي أن أطيـ … ـفَ بخدن الصِّدام رفيق الصِّراع؟

ومن كنتُ تحت القنا ظلَّه … ومن كان ظلّيَ تحت الشِّراع

وكنا نَشيد لروما الفَخارَ … ونَجني لها الغارَ من كل قاع

ونأتي القلاعَ فنحتلها … وإن بعُدتْ كالنجوم القلاع

ونَركزُ في السهل أرْماحَ روما … ونُطلعُ أعلامَها في اليَفاع؟

بإذنكِ؟

كليوباترا:

قيصرُ لا إذنَ لي … أينهى ويأمر من لا يطاع؟

تصرَّف بجُثمانه كيف شئـ … ـتَ فليس له اليومَ منك امتناع

وما جُثّةُ الليث إلا لَقًى … إذا النابُ طاحت أو الظُّفْرُ ضاع

[يتقدم أكتافيوس فيرفع القناع عن وجه أنطونيو]

أكتافيوس:

لقد حسَم الموتُ ما بيننا … وغَضَّ اللَّجاجَ وفَضَّ النزاع

فمن حقِّ اليومَ بل واجبٌ … على أقدسُهُ أن يُضاع

أُقبِّلُ ما قَبَّل الغارُ منـ … ـكَ وأهتفُ: أنطونيوسُ الوَداع

ستار

الفصل الرابع

« فى القصر الملكى ، فى غرفة العرش ، غرفة مطلة على »
« البحر . كليوباترا متكئة على حافة الغرفة ، شرميون »
« وهيلانة فى أقصى الحجرة تنهمر من عينيهما الدموع »

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

نام « مَرْكُو » ولم أَنَمْ   وتفــرَّدتُ بالألـم
ليت جُرحى كجُرحه   لَقِىَ المـوتَ فالتـأم
قاتَلَ اللهُ ماضيــاً   قتَـل المُفـرَدَ العَلَمَ
أنطوانُ انفُض الكرى   ساعةً وانقُل القَـدم
قم كأسَ اغنَم الهوى   واشرب الراحَ بالنَّغم
وتَخَيَّرْ على المُنَى   وتَمَتَّع من النِّعم
واغمرِ الأرضَ بالقنا   وتَغلَّبْ على الأمـم
وقُدِ الخيلَ فى الوِها   دِ ووثباً إلى القمَم
أيها العين أبصرى   إنما كنت فى حُلُمُ !

[ملتفتة إلى شرميون] :

يا شرميون بلغنا موقفاً حَرِجاً لا الرأيُ ينفعنا فيه ولا الباسُ
لم يَبقَ ثَقبُ رجاء كنت ألمحه إلاّ تَعَرَّضَ حتى سدَّه الياسُ

[تلقى نظرة على الاسكندرية من الشرفة]

نجمى يحدِّثنى بوشك أفوله إسكندريةُ ، هل أقولُ وداعا ؟
وَشَّيْتُ بَرَّكِ جدولاً وخَميلةً وكسوتُ بحرك عُدَّةً وشراعا
وأنا اللَّبأةُ وقد ملأتُك غابةً وأنا المَهاةُ وقد ملأتك قاعا
قد خفتُ من بَعدى عليك مالكا يُطلقْن فيك الفاتحين سباعا
يأتين زرعك بالرياح عواصفاً ويجِئْنَ ضَرعَك بالذئاب جياعا
فإذا الحضارةُ بعد طول بنائها قد دُكَّ رُكنُ بنائها وتداعى

شرميون :

يا ربّة سيدتى بالولاءِ بطول التعاشُر والمُصطحَبْ
بما لى ببابك من خدمة ومن صُحبة تُشبهان النَّسب
على أى وجهٍ أدرْت المصيرَ وَقلَّبت رأيكَ فى المُنقلَب ؟
فهذا السكونُ يُثيرُ الشكوكَ وهذا الهدوءُ يثيرُ الرِّيَب
وماذا اعتزمت؟ وماذا كتمت؟ أبينى فما بيننا من حُجُب
ولى فى حياتك رأىٌ يُساقُ وليس علىّ إذا لم يُصبْ

كليوباترا :

إذن فاذكرى أن خصمى العنيد يخاف انتحارى ويخشى الهرب

وليس الذى يشتهى لى الحياة ولكن له فى حياتى أرب

له فى غد مَوْكبُ الفاتحيـــن إذا أقبلوا فى جلال الغَلَب

يجُرُّون فى رومة الأرجوانَ وقد بَرَزتْ فى الثياب القُشُب

وتزدانُ بالغار هاماتُهم إذا ارتفعت فى الخميس اللَّجِب

يُحاولُ قيصرُ منى المُحالَ ويذهب فى غير وجه الطلب

يريدُ ليَعرضَنى فى غد على شعب روما كأنى سَلَب

ويفضحُ مصر وسلطانَها وتاجَ العصور وعرشَ الحقَب

لقد ساء تدبيرُ أكتافيوسَ ولم يَلْقَ من خُدعتى ما أحب!

[تسمع وطء أقدام]

ماذا وراء الباب ؟

شرميون :

حسٌّ قادِم

هيلانة : أجلْ دبيبُ حارس أو خادم

كليوباترا :

بل حارسٌ جلِفٍ من حَرَس القصر

مُعربدُ الخَطْوِ من نشوة النصر

لا تسعُ الأرضُ رجلَيْه من كِبرْ

شرميون :

مَلْكتى دَعى هذه الفِكَرْ
جندُ رومةٍ يَعْبُدُ البدَرْ
فى سبيلها يركبُ الغَرَرْ

كليوباترا :

شرميون صَهْ إنه حضَرْ

[يدخل حارس]

الملكة : ماذا وراء الجندى؟

الحارس : رسالة من عبد
هل تأذنين ؟

الملكة : أدِّ

الحارس : أيها المَلْكةُ قد جا ء إلى القصر غلامْ
فى ثياب الحقل خلو الشكل ممشوق القوام
جادل الحُرّاسَ فى حذ قٍ ورفق بالكلام
يَدّعى أن أباه كان عبداً للمَقام
ناله بستانُ تين من أياديك الجِسام
فهْوَ يُهدى لك باكو رتَه فى كل عام

الملكة [هامسة] :

شرميونُ ذاك حابى وجَنـاه فى يمينهْ

جاءَ في الميقات يُهدى لىَ باكورةَ تينه

[للحارس]

ألا تَقْبلُ يا حارس مني هذه البَذْره ؟

الحارس: بشكران وهيهات على الشكران لى قُدْرَه

الملكة : والآن لو تُحْضرُ لى الفلاحا لعله يُحدث لى انشراحا

إنى نسيتُ البَسطَ والمزاحا

الحارس :

علىّ السمع والطاعه سآتيك به الساعه

[يخرج الحارس]

الملكة :

يا شرميونُ تعلّى الدنيا ويا هيلانةُ اختبرى الزمانَ القاسى

إن التى حُرستْ بأبطال الوغى باتت تُصانعُ سفْلَةَ الحراس

[يدخل حابي فى ثياب فلاح ومعه الحارس]

هيلانة [همسا] :

حابى ، نعم حابى وتلك نظرتُهْ وهذه مشيَتُه وخَطرتُهْ

يا ليت شعرى ما تكون سَلّتُهْ ؟

حابى : تحيةٌ للملكهْ ونعمَةٌ وبَرَكهْ

ونفسُ عبدها لها وكلُّ ماقد ملكه

سيدتى جئت إلى بحرك أُهدى سمكه

أحملُ تينا ولو اسـ‍ـــــطعتُ حملت عملكه

حابى : سيدتى

الملكة:

أُدنُ فإنــه ابتعـــدْ وقُلْ فما يسمعُ غيرنا أحدْ

حابى : سيدتى

الملكة:

حـابى ، أنوبيسُ اجتَهَـدْ لنا وأنجز الغداة ما وعدْ !

يُريدُ أن يَشفيَنى مما أجد وأن يَقى مملكتى عارَ الأبد

جئتَ كما يأتى لوقته المَدد

وَفَيْتَ لى حابى ولم تـكنْ تَـفى ضع السِّلالَ وانصرفْ لا بل قفِ

حتى ترى كيف يكونُ مَوقفى

[تلقى نظرة على السلال]

ما لى مُلئتُ من المنيّـة رهبةً إن المنيةَ فى رقاب الناس

آسى الجِراح جَزعتُ عند لقائه والنفسُ تجزعُ من لقاء الآسى

إنى طويتُ بساطَ كل مُدامة لم يبقَ إلا شربُ هذى الكاس

يا خادمىّ بل ابنتىّ تلطفا فى البحث حتى تأتيا بأياس

فعسى يُغنّينى نشيدَ الموت أو نغما أجود عليـه بالأنفاس

شرميون :

مَلْكتى نادى أياسا إنه بالقُرب منك
هوفى المقصورة الأخرى مع الباكين يبكى
فكُره فيك ولا يجسُر أن يَسألَ عنك

الملكة :

ياوَيحَ صَحبي بَعد طول سرورهم قعدوا إلى أحزانهم يبكونا
جيئى بهم ياشرميونُ لينظروا جَلَدى فيهَدأ بعضُ ما يجدونا

[تخرج شرميون]

كليوباترا [تنحنى على زنبقة فى أصيص] :

زَنبقةٌ فى الآنيهْ ضحيّةُ الأنانيهْ
جَنَتْ عليها غُرْبَةَ الأسرالأكُفُّ الجانيهْ
وبُدِّلتْ من سَعة النَّـرُّوَة ضيقَ الباطيه
يَسقونها من جَرَّة بعد العيون الجاريه
يا جارتا شأنك لا يُشْبهُ إلا شانيَه
لم يبق من مُلكى العريضِ غيرُ دار خاويه
وكلُّنا ذابلةٌ عما قليل ذاويه
زال النعيم وفرغنا من حياة فانيه

[ترجع شرميون ومعها أياس وأنثو وغيرهم]

الملكة [إلى أنشو] :

أنشو يَعزُّ عليّ أنك ساهمٌ   يبدو عليك الهمُّ والتفكيرُ
أنشو ألا قَوْلٌ يَسُرُّ وضحكةٌ   إن السعيدَ الضاحكُ المسرورُ
قد كان أيسرُ ما صنعتَ يسرني   أعلَيَّ سروري اليوم أنت قدير؟

أنشو : سيدتي جرى بما   فيه سرورُك القدرْ
من لا تسرُّه السما   ءُ لا يسره البشرْ

الملكة: أياسُ، هل من صوت؟   غَنِّ نشيدَ الموت

[أياس يغني هذا النشيد]

يا طيبَ وادي العدَمْ   من منزلٍ من منزل
لم تَمش فيه قدمْ   للعُذَّل وادٍ خَلِ
أنا فيه لحبيبي   وحبيبي فيه لي

* * *

يا موتُ مِلْ بالشِّراعْ   واحملْ جَريحَ الحياهْ
سِرْ بالقلوع السِّراع   إلى شُطوط النجاه

* * *

شراعُك الفضِّي   في لُجِّه التِّبْري
كالحُلْم في الغَمض   يجري ولا يجري

* * *

في ظل ليل ساجْ أقسم لا يَسرى
مُغـلَّل الديباجْ مُطيَّب السِّتر

* * *

في يقظةٍ يَظهـرْ لي أم أرى حُلْمَا
فُلْكٌ من الجوهر يَختـرقُ الظَّلما

* * *

على الدجى لَمَّاح تَحسَـبُهُ نجمـا
ليس به مـلَّاح يسلُكه اليمَّـا

* * *

أضْوَى من الفجر في ظُلمة الأسداف
من نفسه يجـرى لم يُجـره مجداف

* * *

مَدَّ شراعَ النورْ يا حُسنَ ما مدَّا
كاللؤْلؤ المنثور لو يَنفَح النَّـدَّا

* * *

يا لكَ من زورقْ مَلاَّحه الأقـدارْ
ينجـو به المُغرَقْ من لجة الأكدار

[يدخل الحارس]

الملكة: ما وراء الحارس ؟

الحارس: الطـا عة يا ذاتَ الجلالهْ

قائد يحملُ من قيـــصـرَ أكتافو رسالهْ

الملكة: أدخـــله ، أدخلْ رســولَ قيصرْ

[يخرج الحارس ويدخل القائد]

القائد : قيصرُ العـالى إلى سـيـدتى يهـدى التحيهْ

هو فى الشُّـكنة بالقر ب من الدار السنيه

يُظهرُ العَطفَ عليها وهى بالعَطف حَرِيّه

ويقولُ الأمرُ ما تأ مُر فى الإسكندريه

ولها الوادى وما يحـــملُ مُلْكا ورعيّه

وبنوها يَرثون الـــمُلكَ من روما الوصيه

وإذا حلّت بروما وجدت روما حَفيّه

تتلقاها كأغلى درة فى القيصـريه

ما الذى تقترحُ الملكة ما تُملى عليّه

لتقلْ سيـدتى حا جتَها تُقْضَ العشيّه

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

وإذا حلت بروما وجدت روما حفيه!

تتلقاها كأغلى درة فى القيصريه !

[تضحك فى تهكم وألم]

أيها القائدُ أدّيْـ ـتَ فأحسنتَ الأداءْ
بَلّغنْ قيصر عنى كلَّ شكر ودُعاء
ثم زدْ أمنيةً قد بَقِيتْ لى ورجاء
أنا لا أكتُمُهُ ما سَرَّ من أمرى وساء
لىَ سرٌّ كاد عن نفـ ـسىَ يَزويه الخفاء
صُنته عن صاحباتى وصحابى الأمناء
حبذا لو زارنى قيـ ـصرُ فى هذا المساء
وله الشكرُ إذا لم يأت أو إن هو جاء

القائد :

سأذكرُ مولاتى لمولاىَ قيصرٍ وأنقُلُ ما أبديتِ من رَغَبات
ولِمْ لا يُلبِّى دعوةَ الحسن طائعاً ويسعى لهُ مستعجلَ الخطوات؟
وقد كان يوليوسٌ يقومُ ببابه ويَمْثُلُ أنطونيوسُ فى العَتَبات!

كليوباترا [بعظمة] :

أسأتَ أخا الرومان فهم إشارتى

القائد : إذن فَهَبى لى تلك من هفَواتى

[يخرج القائد]

كليوباترا :

أراني لم يُحسنْ إليّ مُعاصري ولم أجد الإنصافَ عند لداتي
فكيف إذا ما غيّبَ الموتُ ذاتي وبدّد أنصاري وفضّ حماتي !
كأنيَ بعدي بالأحاديث سُلِّطت على سيرتي أو وُكِّلتْ بحياتي
وبالجيل بعد الجيل يَروي زخارفاً فمن زور أخبار وإفك رُواة
يقولون أُنثى أفنت العمرَ بالهوى بهيميّةُ اللـــذات والشهوات
فدأ لغرامي بالرجال وحُسنهم غرامُ الغواني أو هوى الملكات
فليس الغلامُ البارعُ الحسن فتنتي ولا الرائعُ الأجلاد والعضلات
ولم يَسْتَثرْ وجدي من الروم فتيةٌ جُنونُ العذارى فتنةُ الخفرات
ولا كلُّ غصن من بني مصر مائل يَطير إليه قلبُ كل فتـــاة
يموتون بي عشقاً ويَشقون بالهوى فكم من حياة في يدي وممات
ولكن عشقتُ العبقريّةَ طفلةً وفي الغافلات البُلْه من سنواتي
كلفتُ بكهل أحرز الأرضَ سيفُه وحيزتْ له الدنيا من الجنبات
إذا هبّ من غرب البلاد تلفّتتْ بلادٌ بأقصى الشرق منذعرات
تعثّرَ حظي بعد طول سلامة وأقلع نجمي بعد طول ثبات
ومن يَمش في وَرد الأمور وشَوكها يَعُدّ الخُطا أو يحسب العثرات

[تنظر إلى السلال]

يامرحباً بالسَّلَّهْ والرُّقُب المُطلّهْ
الكافيات الذِّلّهْ

[ينسحب الجميع مطرقين ما عدا الملكة ووصيفتها وحابي]

كليوباترا :

أدخلى بى يا شرميون على طفلى أُوَدِّعْهُمُ الوداع الرهيبا
فعساهم إذا تحجّب صدرى وجدوا صَدرك الحنىَّ الرحيبا

[لحابي وهيلانة]

ولدىَّ اهجرا القصورَ فإنى قد وجدتُ النعيمَ فيها غريبا
ولها ضجةٌ وفيها فضولٌ يُرهقُ الحبّ واشياً ورقيبا
خلّيا عنكما المدائنَ يا ابنىّ فضوضاؤها تُميت القلوبا
إن لى فى سهول طيبةَ حقلاً طيّبَ الماء والهواء خصيبا
غَرسَتْه يد الشباب فأضحى وارفا كالشباب حُسناً وطيبا
ألّف الحبُّ من نواحيه أيْكا جمع الطيرَ هاتفا ومُجيبا
يُسمعُ البُلْبُلُ العشيقةَ فيه وتُغَنِّى الأليفةُ العَنْدليبا
أفقُهُ لا يُظلُّ إلا محُبّا وثرى لا يُقلُّ إلا حبيبا
إشربا من كرومه واسقياها صافىَ الحب والهوى المسكوبا
والعبا عند كلّ ماء غدير تريا الماءَ للحَباب لعيبا

وسلا الوردَ هل تَنفَّسَ في الورد وهل ناسم البعيدُ القريبا
أدرِكا لذةَ الشروق ولمّا تبلغ الشمسُ بالحياة الغروبا

[تخرج كليوباترا وشرميون]

حابي :

هيلانُ، هذا مقالُ النصح من مَلك فما تَرَيْن وما تَنْوين هيلانا
هَلُمَّ طيبةَ نَنزلْ في خمائلها ونَبْنِ مثلَ بناء الطير دُنيانا
كطائرَيْن على بحـر وعاصفة قد آنسا من وراء الشَّط بستانا
تداركَتْنا أبرُّ المالكات به وأشرفُ الناس إحساساً ووجدانا

هيلانة :

حابي ، عرفتَ الخلال الطيِّبات لها وكنتَ أمس أقلَّ الناس عرفانا

حابي :

خلِّ الجفاءَ حياتي إن ساعَته مضتْ وهذا أوانُ السِّلم قد آنا
اللهُ يشهدُ أني قد سدلتُ على ما كان من نَزَعات الرأي نسيانا
وأنني اليوم أبكيها وأندُبُها ولا أقيسُ بها في الطهر إنسانا
اليوم صَحّتْ وزَكّاها الفداءُ كما زكى المُقرِّبُ باسم الله قُربانا

هيلانة :

إن التي شب في نَعمائها صغرى ونبّهتْ لي في سُلطانها شانا
إن لم أمُتْ دونها أو لم أمت معها فما جَزَيْتُ عن الإحسان إحسانا

حابي :

والحبُ هيلانَ؟ ماذا تصنعين به

هيلانة : إن الصداقة فوق الحب أحيانا

حابي أراها أزْمعَتْ وأرى الفجيعةَ واقعهْ

فاذهبْ فجىءْ بأنوبس فعسى يردُّ الفاجعه

حابي :

وسواءٌ أردَّها أم أبى ذلك القدر

فى غد أيها الملاَ كُ إلى طيبةَ السفر

[يخرج حابى]

هيلانة :

ويح حابى اعتقادهُ أن سأحيا فنلتقى

ليتنى نلت قُبلةً منه قبل التفرُّق

[تدخل كليوباترا وفى أثرها شرميون]

كليوباترا :

بروحى وإن لم تَبْقَ منى بقيّةٌ صغارٌ ورائى ذُوَّقُ اليُتم نُوَّحُ

أذوبُ لبلواهم وأعلمُ أننى جَنَيتُ عليهم ما يَجلُّ ويَفْدَح

وقد أشتهى عيشَ الذليل لأجلهم فلا المجدُ يَرضى لى ولا النُّبلُ يَسمح

فصفحاً صغارى إن شَقيتُم بمصرعى وإنى لأرجو أن تَنضوا وتصفحوا

وَداعا صغاري صَيَّرَ الله يُتمكم إلى خير ما يكفي اليتامى ويُصلح
أطفتُ بكم والنومُ تسري سناتُه على صفَحات كالأهلَّة تَلمَحُ
وما منكُم في الخِزِّ إلا حمامةٌ عليها طليلٌ ناعمُ الفرع أفيَح
تنامُ وما تدري الكرى ما وراءه ولا الصبحُ في ظلِّ الرُّبا كيف يُصبح
أتغدو على الدنيا كأمس طليقةً ضُحى اليوم أم يُغدَى عليها فتُذبحُ ؟

[ملتفتة إلى هيلانة وشرميون] :

فيم هيلانةُ تبكيـــن وأنت شرميون
كفكفا الدمعَ فلا شـدَّ ة إلا وتهــون
واعلما بنتيَّ أن الـ بؤسَ والنعمى دُيون

[تركع أمام تمثال إيزيس]

اليومَ أقصرَ باطلي وضلالي وخلت كأحلام الكرى آمالي
وصحوتُ من لَعب الحيا ولهوها فوجدتُ للدنيا خُمَارَ زوال
وتلفّتتْ عيني فلا بمواكبي بصُرتْ ولا بكتائبي ورجالي
وطئتْ بساطي الحادثاتُ وأهرقتْ كأسي وفضَّتْ سامري ونقالي
إيزيسُ ينبوع الحنان تعطّفي وتلقّي لضراعتي وسؤالي
أنت التي بكت الأحبّةَ واشتكت قبل الأرامل لوعَة الإرمال
إني وقفتُ على رحابك فارحمي ذلَّ الملوك لمجدك المُتعالي
هل تأذنين بأن أعجِّل نُقْلتي وأحُثَّ عن دار الشقاء رحالي

وعُلاكِ ما أدعُ الحيـاةَ جبانةً أو ضيقَ ذرْعٍ أو قطيعةَ قالى
إنى انتفعتُ بعبقرىٍّ جمالها وتمتعتْ من عبقرىٍّ جمـالى
وجمعتُ بين شعوزها وعواطفى وقرنتُ رَحْبَ خيالها بخيالى
ووجدتُها قد خلّدت أبطالَها فبسطْتُ سلطانى على الأبطال
بنتُ الحياة أنا وتَشهَدُ سيرتى ما كنتُ من أمى سوى تمثـال
منها تناولتُ الرياءَ ورائهً وأخذتُ كلَّ خديعة ومحال
وقسوْتُ قسوتَها ولنتُ كلينها واقتستُ فى صَدّى بها ووصالى
ولربما رَشَدتْ فسرتُ برُشدها وغَوَتْ فأغوتنى وضل ضلالى
ووجدتُها حباً يفيضُ ولذةً لجعلتُ لذّات الهوى أشغالى
يوى بأيامٍ لكثرة ما مشت فيه الحيـــاة وليلتى بليالى
ولقد لَقيت من الحياة صَبيّةً ما جل من بؤس ورقة حال
خلعتُ مُلكى طفلةً وشردتُ فى صدر الصبا ورأى المكارهَ آلى
شرعتْ علىَّ السوطَ فى كُتَّابها واليومَ تَضربُنى بدرس غالى
ياموتُ هل حَرَجٌ على مُستنجد بك أن يُسابقَ واقعَ الآجال
يوى أعجّـــلهُ ولو لم أنتحرْ للقيتُ يوماً ما له من تالى

ياموتُ أنت أحبُّ أسراً فاسبنى لا تُعط روما والشيوخ عقالى
ياموتُ لا تُطفِئ بشاشة هيكلى واحفظْ ظواهرَ لمحتى وجلالى

يا موتُ طُفْ بالروح واسرقْها كما | سرق الكرى عينَ الخلىّ السالى
حتى أموتَ كما حَييتُ كأننى | بيتُ الخيال ودُميةُ التمثال
وكأن إغماضَ الجفون تناعسٌ | وكأن رقدتىَ اضطجاعُ دلال
سرْ بى إلى أنطونيو فى نَضرتى | ورُواء جلبابى وزينة حالى

[تقوم إلى إحدى السلال فتكشف التين عن أفعى] :

هَلُمِّى الآن مُنقذتى هَلُمِّى | وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
شرَيتُ السم من فيك المُفدَّى | بسلطانى وزدتُ عليه مالى
على نابيْك من زُرق المنايا | شفاءُ النفس من سُود الليالى
وبعضُ السم ترْياقٌ لبعض | وقد يَشفى العُضالُ من العُضال
دعوْتُ الراحةَ الكبرى فلبتْ | فبُعداً للحياة وللنِّضال
هَلُمِّى عانقى أفعى قصور | بها شوقٌ إلى أفعى التلال
سَطتْ روما على مُلكى ولَصَّتْ | جواهرَ أسرتى وحُلىَّ آلى
فرُمتُ الموتَ لم أجبنْ ولكن | لعل جلالهَ يَحمى جلالى
فلا تَمشى على تاجى ولكن | على جسد بيطن الأرض بالى
وقد علم البريّةُ أن تاجى | نَمتْه الشمسُ والأسرُ العوالى
يُطالبُنى به وطنٌ عزيزٌ | وآباءٌ ودائعُهم غوالى
أأدخلُ فى ثياب الذل روما | وأُعرَضُ كالسّبىّ على الرجال ؟

وأُحدَّج بالشماتة عن يمينى ويَعرض لى التهكمُ عن شمالى ؟
وألقَى فى النَّدىِّ شيوخَ روما مكانُ التاج من فَرْقى خالى ؟
وأغشى السجن تاركةً ورائى قصورَ العزّ والغُرَفَ الحوالى ؟
وتحكمُ فىَّ روما وهى خصمى وتُسرفُ فى العقوبة والنَّكال
يَرانى فى الحبائل مُترَفوها وقد كان القياصرُ فى حبالى
إذن غيرُ الملوك أبى وجدِّى وغيرُ طرازهم عمِّى وخالى
سأنزلُ غيرَ هائبة إذا ما تلمَّظت المنيَّةُ للنزال
أموتُ كما حَييتُ لعرش مصرٍ وأبذلُ دونه عرشَ الجمال
حياةُ الذلِّ تُدفَعُ بالمنايا تَعالىْ حَيَّةَ الوادى تعالى

[تتناول الأفعى وتمهد لها من صدرها فتلدغها ثم ترميها الى السلة]

يا ابنتىْ ودِّى ... هلُمَّا ... زيِّنانى ... ... للمنيهْ
غسِّلانى ... طيِّبانى ... بالأفاويه ... الزكيه
ألبسانى حُلَّةً ... تُهْ جبُ أنطونيو ... سنيه
من ثياب ... كنتُ فيها أتلقاه ... ... صبيه
ناولانى التاج ... تاجَ الشمـ س ... فى مُلْك ... البريه
وانثرا بين يدىْ عر شى ... الرياحين البهيه

[تموت بين وصيفتيها]

شرميون [تتناول من إحدى السلال أفعى] :

كلوبترا ويالهفى عليك يا كلوبترا

وصيفاتُك فى الدنيا وصيفاتُك فى الأخرى

[وتمهد لها من صدرها فتلدغها وتموت]

هيلانة [تفعل ما فعلته شرميون] :

كلوبترا ذهبت اليو مَ بالدنيا كلوبترا

تعالَىْ أيها الأفعَى أريحينى أنا الأخرى

[يدخل أنوبيس وحابي]

أنوبيس :

انسلّت المُهرَةُ من قَيْدها وأفلت الطيرُ من الصائد !

حابي : هيلانَ ، بالهفا على الحبيبهْ على الجمال وعلى الشبيبهْ

على الفتــاة الحُـرَّة النجيبه

[يتحسس جسمها]

يا للحيــاة ما تنى دبيبـا أبى، تأمَّلْ جسمَها الرطيبا

واسمــعْ تَجُــدْ لقلبهــا وجيبــا

أنوبيس : حابى ، نسيتَ حُقَّةَ النجاة

حــابي : هيهات أعصيك أبى هيهات

إنْ أنسَ أشياءك أنسَ ذاتى !

[يخرج الحقة من جيبه]

خُــذْها

أنوبيس : بل اسكبْ فى فم الفتـاة لعلها تصحو من السُّبات

[يشتغل حابي بإيقاظ هيلانة]

أنوبيس [على جثة كليوباترا] :

بنتي رجوتُك للضحية والفدا فوجدتُ عندك فوق ما أنا راجي
إن تُصبحي جسداً فنفسُك حرةٌ وعُلاك سالمةٌ وعرضُك ناجي
سيقولُ بعدك كلُّ جيلٍ مُنصف ذهبتْ ولكن في سبيل التاج

[ثم يلتفت الى جثة شرميون] :

وأنت أيضاً شرميونُ جيفهْ مُتِّ ولكنْ ميتــةً شريفهْ
ما أعظمَ الملكةَ والوصيفهْ !

حابي : أدنُ أبي ألقِ النظرْ يا لعجائب القــدرْ !
أنوبيس: أحــدث ترياقِ الأثرْ ؟
حابي : أنظرْ أبي ترياقَك الــــمحسن ماذا منحا ؟

أنظرْ فهذا مَلَــكي من رقدة الموت صحا
قد فتحَ العينــيْن بعــد اليأس من أن تُفتَحا
وهــــذه أنفاسُــه ريْحانُهــا قد نَفَحا
مولاي قد قَرَّبْت من سـعادتي ما نَزَحا
أنت الذي رَددتَهــا رُوحاً وكانت شَبَحا
يا قلبُ كيف لم تَطِرْ عن الضلوع فرحا

هيلانة : يا وَيحَ لي ! ويحَ ليهْ هل صدَّقتْني عَينيهْ ؟
حابي أفي الدنيا أنا ؟

حابي : بل أنت دنيــاي هنا

هيلانة: منذا جنى عليه حتى بُعثتُ حيّة؟

حابي: أبى الذى شفاك يامَلاكى

أنوبيس: لا بل مَلاكُ الحب قد شفاك

وأدمُعُ الإخلاص من فتاك

هيلانة: أبى لقد مرّ علىّ الموتُ وكنتُ من عذابه نجوتُ

علامَ حُلْتَ بينه وبينى؟ الموتُ لا يُذاقُ مرّتين

[ترى جثة الملكة وهى تتلفت]

رحماكِ آلهةَ الوادى ذهلتُ فلم أذكرْ مَلاكاً وراء العرش مُضطجعا

بالأمس، لا، لا بل اليوم التحقتُ به صُرِعتُ بالناقع السارى كما صُرعا

لقد رَحلنا عن الدنيا الغَرورِ معاً مالى رَجَعتُ إلى الدنيا وما رَجَعا

ليت الطبيبَ الذى داوَى فأخرجنى إلى الحياة على الدنيا به طَلَعا

مليكتى، ربّتى، صفحاً ومغفرةً إن المُروءةَ كانت أن نموتَ معا

الكاهن: بُنيّتى . . .

هيلانة: صَهْ أبى،

الكاهن: لا أنت واهمةٌ

فلستُما فى مُلاقاة الرّدَى شَرَعا

وقفتُما موقفاً فى الخطْب مختلفاً لوجرّبتْ فيه غيرَ الموت ما نفعا

حابي : تعالىْ نحْىَ فى الحقْل مع الطير كما تحيـا

هَلُمِّى الحبّ هيـلا نةُ فالحبُّ هو الدنيا

أبى دونك باركْنا وإن شئتَ فشاركْنا

أنوبيس : إذا فارقتُ محـرابى فمن يبكى على مصرا ؟

سأبقى ها هنا ابْنىَّ إلى أن أقضىَ العُمرا

هَلُمَّا ابنىَّ باسم اللّـــــه سيرا وابنيا الوكْرا

هلمـا جنةَ الوادى هلمـا طيبةَ الغـرَّا

لئن فرقنـا الدهرُ فقد تجمعُنا الذكرى

[يخرجان]

[يسمع صوت بوق]

أنوبيس : البوق دوَّى قيصرُ أقبـلْ

[يدخل حارس]

الحارس : مـــولاى قيصر

[يتنحى عن الباب ويدخل قيصر وفى معيته الطبيب أولمبوس] :

أنوبيس :

ما يبتغى قيصرُ من أسيرتهْ ؟ إن التى أعــدّها لزينتـهْ

يَدخل روما وهى فى كتيبتهْ تَزيدُ فى مَوكبه وقيمته

ماتتْ ولم تنزلْ على مشيئتهْ بُورك فى النيل وَفى عقيلتهْ

قيصر :

آلهةَ الرومان ، ماذا أرى ؟ امرأةٌ تَسخَرُ من قائدِ

قد أبطلَتْ كيْدى على ضعفها ولم تزلْ تَسْخَرُ بالكائد

فى الجسد الحىّ تمنّيتُها لم أبغها فى الجسد البائد

[يركع قيصر عند جثة كليوباترا]

أنوبيس [لنفسه] :

الحادثُ العجيبُ قيصرُ والطبيبُ

يَغدُرُها وعهدُه ببابها قريبُ

أكتافيو :

عجيبٌ يا طبيبُ أرى قتيلاً ولكن لا أرى أثرَ الجراح !

أليست فى الفناء أرفَّ لوناً وأندَى من رياحين الصباح

فهل تدنو فتكشف كيف ماتتْ أبِالسم الزُّعاف أم السلاح ؟

[يقترب أولمبوس وينحنى على صدر الملكة من الناحية التى رميت فيها الأفعى]

أولمبوس :

جبين مُشرقُ الغُرَّهْ ووجهٌ ضاحكٌ نَضْرَهْ

وعينان كأن المو ت فى جَفنَيْهما كَسْرَه

وهذا فمُها تبدو الـ منايا عنه مُفتَرَّه

ولكن قيصرُ ادنُ انظرْ هنا السرُّ هنا العِبره

فبين السَّحر والنحر كمثل الخدش من إبره
مكانُ الناب من صلٍّ شديد البأس والشِّرَّه

[تلدغه الأفعى]

إلهي ، قيصري ، آه لقد مَسَّتْ يدي جمرهْ
سرى السمُّ بأعضائي وعَمَّتْ جسدي فَتْره
وجاءت سَكرَةُ الموت فلاصحو... من السَّكْره

[ثم يسقط ميتاً]

أكتافيوس :

ويل النفوس منْ فُجاءات القدرْ !
ويحَ ألمبوس بالأفعى عَثر

أنوبيس [لنفسه] :

قد وقع الحافرُ فيما قد حَفر

قيصر :

وَداعاً كلوبَترا إلى يوم نلتقي وَتنفُضُ عنها الهامدين المَقابرُ
محا الموتُ أسبابَ العداوة بيننا فلا الثأرُ ملْحاحٌ ولا الحقدُ ثائر
وما استحدثت عند الكرام شَماتةً صُروفُ المنايا والجُدودُ العواثر
ودَاعا وإن نحن اقتتلنا وجَرَّدتْ حُسامَيْهما أوطانُنا والعشائر
تحدَّيتني بالموت حتى قهرتني ومالي سلطانٌ على الموت قاهر
ترفَّعت عن قَيْدي ومتِّ عزيزةً وأيدي المنايا للقيود كواسر

وأنت التي نازعت روما مكانها ... وجرّت بناديك القيود القياصر
لعبت بأنطونيو وبوليوس حقبة ... كما جاء بالمسحور أو راح ساحر
وما أنا إلا سيف رومة باتراً ... أصيب به سيف لرومة باتر
زجرت فلم أسمع فقاتلت مكرهاً ... وفي الحرب إن لم تردع السلم زاجر
وأنطونيو صهري الكريم بمثله ... يطاول أنساب الملوك المصاهر
وداعاً عروس الشرق كل ولاية ... وإن هزّت الدنيا لها الموت آخر

[يخرج أكتافيوس وحاشيته وتزف التحايا له من الأبواق والحناجر خارج القصر]

أنوبيس :

أكثري أيها الذئاب عواء ... وادّعى في البلاد عزًّا وقهرا
أنشدي واهتفي وغنّي وضجّي ... واسبحي في الدماء ناباً وظفرا
لا وإيزيس ما تملّكت إلا ... وادياً من ضياغم الغاب قفرا
قسماً ما فتحتم مصر لكن ... قد فتحتم بها لرومة قبرا

ستار الختام

علي بك الكبير

على بك الكبير

أو

دولة المماليك

تمهيد

زمن الرواية :

حوالى سنة ١٧٧٠ ميلادية .

مكانها :

الفسطاط والصالحية وعكا .

أشخاصها :

على بك الكبير : حاكم مصر ، ويلقب بشيخ البلد .

محمد بك أبو الدهب متبنى على بك والخارج عليه ومن أمراء المماليك

مراد بك من أتباع على بك وأولاده .

ضاهر العمر صاحب حصن عكا وحليف على بك .

مصطفى اليسرجى « الجلاب »

آمال

شمس } إماء معروضات للبيع

زكية

عشاق	شاب شركسى مع الجلاب .
أم محمود	الماشطة والواسطة فى بيع الجوارى .
رزق الله الوكيل	وكيل على بك .
بشير بك	من أصحاب على بك .
عثمان بك	« « محمد بك .

قائد الأسطول الروسى فى عكا .

أمراء .

جواسيس .

قواد .

جنـــد .

فتيات .

أغوات .

خـــدم .

الفصل الأول

فى قصر على بك الكبير

«حجرة من القصر واسعة فخمة على الطراز الشرقى مفروشة بنفيس الطنافس قد نثرت فيها الوسائد والصفف وزين سقفها بثريات الزجاج الملون المشكل وركزت فى زوايا أرضها الشمعدانات الكبيرة ..»

«جلس هناك فى انتظار على بك الكبير، مصطفى اليسرجى (الجلاب) ومعه ثلاث فتيات شركسيات (آمال) و(شمس) و(زكية) وشاب شركسى اسمه عشاق من جنسهن وقرابتهن وأم محمود الماشطة»

زكية : يا أمَّ محمود تلك دنيا ... وهكذا فلْتَكُ القُصورُ
وهكذا شمس فى الليالى ... تنزل هالاتِها البدور
قصرٌ سماواتُهُ الثريا ... وأرضه الوشىُ والحريرُ
أم محمود : ونحنُ ياشمس نحن بؤسٌ ... بيوتُنا الجصُّ والحصيرُ
نُنْقَلُ من حفرةٍ للحْدِ ... تساوت الدورُ والقبورُ
شمس : يا أم محمود خبِّرينى ... أهنا ينزلُ الأميرُ
أم محمود : أجل

شمس : ومن ذا وما يُسمَّى ؟

أم محمود : سلطان مصرٍ على الكبير

شمس : والطيبُ يا أمُّ لم تُشمِّي النَّدُّ والمسكُ والعبيرُ

مصطفى: لا تعجبي هم ملوكُ مصرٍ دنياهمو الطيبُ والبخورُ

زكية : وما الأميرُ يا يسر جي ما له من العمُر

مصطفى: قد جاوز الشبابَ إلاَّ أنه كهلٌ نضر

أم محمود الماشطة :

ما بلدُ العزِّ غير مصرٍ كيف طعمتُنَّ يا بناتُ

شمس : طعامُ شاهٍ طعامُ عُرسٍ لم يَروِ أمثالَهُ الرواةُ

ما القصرُ ما الفرشُ ما الأواني

ما الأكلُ ما الشربُ ما الطهاةُ

مصطفى: هذا هو المُلكُ مُلكُ مصر وهكذا الحظُّ والهباتُ

وأنتِ آمالُ ؟

آمال : خلِّياني ما تلك إلا خُزَعبلاتُ

القصرُ كوخي على جبالٍ جلَّلها الثلجُ والنباتُ

إذا عوى الذئبُ من مكانٍ أجابَه الكلبُ والرُّعاة

زكية : أجل حنَنَّا للجبال الشيبِ وللشتاء القارس العصيب

وكلِّ راعٍ واقفٍ للذيبِ أمَّن خوفَ الحمَل الرعيب

تلمحه كالعلمِ المنصوبِ والوعلِ في الجيئة والذهوب

والديدبان في فم الدروب

مصطفى : بخٍ بخٍ مرحى يا كومةَ الشحمِ

يا جَـزَرْ بلُّوطِ لكن من اللحم

أم محمود : أعرفت يا جلاب أنك جئت بالحمل الثقيل

عن تلك كان لنا غِنًى ما تلك إلا سقط فيل

مصطفى : يا أمَّ محمودَ اقصدي لكل سلعةٍ ثمن

إن سَراةَ الناس في مصرَ يحبون السِّمَنْ

وهذه الكومةُ فيـها سِمَنٌ لكن حَسَنْ

[يسمع أذان العصر بصوت شجي من محراب في دار الامارة فتلتفت شمس بأم محمود وتقول]

شمس : ما هذه الرنة في قبة القصر

زكية : صوت من الجنة يهتف بالعصر

أم محمود : ما زالت السُّنَّة والبرّ في مصر

يا رب أيدها بالعز والنصر

شمس لشاق :

قم غنِّ يا عشاق أغنية المعّاز

وناج بالأشواق أحبّة القوقاز

عشاق بنى: كوخ وراء الجبالِ مُكلَّلٌ بالجليد
فديتُه لا أبالى بكل قصرٍ مَشيد
ما مرَّ يوما ببالى إلا بلغتُ خدودى

* * *

يا منزل القوقازِ عِم من بعيد صباحا
لمعتَ لمعةَ بازى فى الجوِّ سلَّ الجناحا
سلِّم على المعَّاز إذا غدا أو راحا

* * *

وقل له يا راعى فى الناى هات الأنينا
اسمع على البعد راعٍ صوتاً من الغائبينا
هل أنت للعهد راعٍ أم قد تركت الحنينا

« بعد صمت واطراق من الجميع »

أم محمود للبنات :

تعالين بنات الشر كس الغيدَ تعالَيْنَا

زكية : ولِمْ ؟ ماذا ؟

أم محمود: تعالينَ تَزَدُّكُنَّ يدى زَيْنَا
فلا أتركُ لا شَعْرا ولا خداً ولا عَيْنَا

أم محمود لشمس :

تعالى أيها الشقرا وهاتى شعرك التبرى
هَلُمِّى اقتربى منى وألقى الرأسَ فى حجرى

غداً يأخذُك الشارى   وما تدرينَ من يَشرى

أم محمود لآمال :

تعالَىْ أيها السمرا   فان الخيرَ فى السُّمْر

أشَعــرٌ ذاك آمالُ   أم الليلُ إذا يَسْرى

قضـاك اللهُ للوالى   أو الحاكِم فى مصرِ

آمال فى غضب :

دعينى مرأةَ السوءِ   دعينى بومَــةَ الشرِّ

قضـاك الله للجـوع   وللسجنِـ وللقبرِ

أم محمود لمصطفى :

ياسيدى النخاس هذه ضَبُعْ   فارجعْ بها الأكثر ها ولا تبعْ

إلا إذا ساوَمَنا فيها سَبُعْ

آمال الى صاحبتيها :

قوما إليهـا

شمس : وأنت ؟

آمال : لا ، لا أحبّ الفضولا

علىّ ثوب جمال   ما احتاج يوماً ذيولا

شمس : ما الخطب مِمّ غضبتْ آمالُ ؟

زكية : مابالُها ساخطةً ما بالُ

أم محمود : غبيّةٌ ما عرَفتْ ما المالُ

مصطفى همساً لشمس : شمسُ

شمس : يَسْرُجى

مصطفى : انظرى آمال ماذا غمّها

ميلى إليها وخُذى فيما يُسرّى همّها

آمال : بل الحقُّ معى وحدى وأنتُنَّ الغبيّات

سواءٌ نحنُ أم نحنُ نفوسٌ آدمياتُ

أم محمود لزكية:

وأنت يا ضخمةُ يا بدينه يا محملا يخطُرُ بالمدينه

قومى إلىَّ أقبلى للزينه رُزقت عمدة بلا قرينه

ثروته فى داره دفينه يطلب منا امرأة سمينه

مصطفى : يا أمَّ محمودَ أرَى آمالَ جِدَّ مُغْضَبَه

هائجة صاخبة ثائرة مُقَطَّبَه

فى وجهها تكاد تبدو نفسها المعذّبه

مصطفى لآمال:

آمال بنتى استريحى وقللى التفكيرا

لا تحملى هم شىء دعى لىَ التدبيرا

عساى أغنم ملكا أو أستفيد أميرا

فتحكمين بمصر وتنزلين القصورا

مُلْكُ الجمال كبيرٌ زيديه مُلْكا كبيرا

صونى جمالك هذا عن أن يعيش فقيرا

آمال : يا أبي ما تريد بي أنت تلهو وتلعب
مَلِكةٌ أو أميرةٌ أبهذا ألقَّب
حلُمٌ ثم ينقضي وأمانيُّ تكذبُ
كيف تسمو إلى العلا ابنةٌ باعَها الأبُ
ثم مستمرة : أبي .. تاجر كما شئت وكيف أردت فاحترفِ
ولكن لا تَرُم ثمني ولا في هذه الغرَف
فبيعُ الجنس فاحشةٌ أليسَ كذلكَ اعترف
أبي ، شرف على فقر ولا فقر إلى الشرف

مصطفى لنفسه.

يا مالُ ما فيكَ من سحرٍ ومن خطر
لقد نزلت بنا عن رتبة البشر
تاجرت بالجنس حتى صار محتقراً
عند الشعوب وما جنسي بمحتقرِ
ذهبتُ بالشركس الآساد أعرضهم
عرض الرعاة صغَارَ الشاءِ والبقر
لولاكَ ما بعتُ أطفالي ، فما كبدي
من الحديد ولا قلبي من الحجر

مصطفى يقبل على آمال :

طفلةٌ آمالُ أنتِ أنت ما تدرينَ شيَّا
ههنا الدنيا ومُلكٌ لك في الدنيا تهيَّا
آمال : خلِّ عنك المُلكَ والقصرَ ولا تذكر عليَّا
إن ما تصنعُ بي قد بغَّض الدنيا إليَّا

ثم لنفسها :

ربِّ جنّبني شبابَ ذا البلد لا يُصبني منهمو ربِّ أحد
لى أخٌ فى أرض مصر باعه والدى لم يخش من بيعْ الولد
ركب الآفاق فرخاً ماله من جناح الأب والأم سند
فجعَ القريةَ فيه وسقَ أمَّه الثُّكلَ فماتت بالكمد
لستُ أنسى عبرات إثره قد جرَت شيَّعنه حتى ابتعد
وهو يومى بيدٍ من رقةٍ وأبى من غضبٍ يومى بيد
ربِّ ما صار إلى أين انتهى أهو فى الخيل لواءٌ أم وتد
يوسف المسجونُ فى مصر له أم من الجوع ليوسف بحَدْ

زكية : وأين بنو السلطان ؟ لم لا نراهمو
أليس له ابن يغتـــدى ويروح
يرفُّ الشباب الغض من طيلسانه
وينفح ريحان الصبا ويفوح

شمس : فلا خير فى دارٍ إذا لم يطف بها
نسيم شباب أو شعاع جمـــال
ولا خير فى روضٍ بغـــير بهارةٍ
ولا خير فى قاع بغـــير غزال

مصطفى : أجـل له ابنٌ

شمس : ما اسمه ؟

مصطفى . محمد العالى النسب

شمس : لعله أبو الذهب ؟

زكية : لله ما أحلى اللقب
ففيه رنة الذهب

مصطفى : متّبنى الأمير والمتبنّو ... ن بهذى البلاد كالأبناء
نعتوه لنا فقالوا أميرٌ ... أرْيحىٌّ من صفوة الأمراء
تغدق الألسن المديح عليه ... وتفيض الشفاه حسن الثناء
مَلَكٌ سابقٌ إلى كلّ فضلٍ ... نابغ الغرس عبقريُّ البناء

ثم مستمراً : وأنت يا أم محمو ... د ما الذى تعلمينا ؟

أم محمود : محمــدٌ ليس برًّا ... ولا وفيًّا أمينا
بالأمس عقَّ أباهُ ... فكان شرَّ البنينا
واليوم يشهر حرباً ... على الأمير زَبونا
وأما أخوه

زكية : كيف ؟ من؟ هل له أخ ؟

أم محمود : أجل، وهو أيضاً لم يلده أبوه

زكية : إذن فعلىٌّ والد النـــاس كلهم
وكل شبـــاب الضفتين بنوه
وكيف الفتى ياأم محمود، ما اسمه؟

أم محمود : غلام وضىء المفرقين جواد
رأيتُنّه مثلى تذكرنَ ساعة رأيناه

شمس : من ؟ ما اسم الأمير ؟

أم محمود : مرادُ

أم محمود لآمال :

هنـــاكِ آمال ابنتى هنـــاكِ

آمال : ما ذاكِ يا أم اذكرى ما ذاكِ

أم محمود : الحظ يا بنتـــاه قد أعطاك

عُشقت عشقاً سوفَ يُروى فى السِّيَر

عشقٌ له فى مصرَ والشرق خَطَرْ

وعاشق عالى السنـــاء كالقمر

آمال : يا أم محمود هُديت . . ما الخبر ؟

أم محمود : لقيتُ مراداً أمس

آمال : ماذا يهمنى ؟

أم محمود : عجيب ! ألا يعنى النساء مرادُ ! ؟

فتى عَلَمٌ فى مصر . . فى الشرق كله

نبيل كأبنـــاء الملوك جواد

يُحبُّ عَليـًّا جهـــدَهُ ويُحبُّهُ

علىٌّ فبين السيدينْ وداد

كأنى به نال الولاية وانتهت

إليه أمورٌ فى غد وبلاد

يُحبُّك يا آمالُ حُبًّا مُبرِّحاً

على مثله ما انضمَّ قطُّ فؤاد

زكيـة : عرفتُه

آمـال : ومن ؟

زكيـة : فتًى أمس إلى السوق حضَر
ذاكَ الخفيفُ كالقنا ة والوضيُّ كالقَمر
أتى لنـا أمس فما اختص سواك بالنظر

آمـال : عرفتُه ذاكَ الوَقَاحُ فى دعابة الهـذرْ
ذاكَ الذى قلبَّنا أمس كتقليب الحُصُر

شمـس : وكنت أنت قِبلة الـ لحظ وموضع الفكَر

أم محمود : وأنت كنت وزكيـ ة الحصـير المحتقَر

آمـال :أوذاك الذى تقولين يهوانى

أم محمود : أجل وهو أرفع الناس قدرا
هسَّى صهٍ هُس انظرا ها هو ذا قد حضرا

« يدخل مراد بك »
مراد بك عند الباب لنفسه :

ويحَ لى رب ما أرى أمُّ محمـ ودَ إلهى وهذه آمالُ
هى فى القصر كيف جاءت إليه
كيف وافاه مصطفى المحتـال
أتُراها قد حازها لعلىٍّ جبرا جاءوا احتواها المالُ
كيفَ هل بعدُ فى فؤاد علىٍّ
موضعٌ يحتوى عليه الجمالُ

ربِّ مالى أهابُها كلما قمتُ ومالى يردُّنى الإجلالُ
وأنا الذئبُ لم تُسلَّط على قلبى
مَهَاةٌ ولم يُسيطر غزالُ

ثم لأم محمود ومن معها :
سلامٌ أمَّ محمود سلامٌ يا بُنَيَّاتى

أم محمود : سلام لك مولاى

زكية : وعلوُّ التحيات

مراد بك ويشير الى آمال : أمَّ محمود مالها ما لتلك المحببه

أم محمود : مالها سيدى

مراد بك : انظرى كيف تبدو مقطبه
لقيتنى فلم تقُم بلقائى مُرحِّبه
مالها اليوم مثل عهدى بها أمس مُغضَبه

أم محمود : سيدى قد ظلمتها إن بنتى مُهذَّبه
غير أنى وجدتُها مُذ بدا الصبح مُتعَبه

شمس : معذرة ياسيدى لأختىَ المعذَّبَه
نحنُ النهارَ كلَّه كالسلع المقلَّبه

مراد بك : مصطفى

مصطفى فى ناحية وحده : سيدى

« لنفسه » : أهذا مراد؟

ويْحَه ما أضلَّه فيمَ جاءَ

مرادبك: مصطفى هل نسيتَ أنّا التقيْنَا
عند سوق الرقيق أمس مساءَ
مصطفى : سيدى ما نسيت واليوم نستأ
نف فى حجرة الأمير اللقاءَ

مرادبك: والتى اخترت من ظبائك

مصطفى : نرجيها إلى أن يرى الأمير الظباءَ

مرادبك: أتُرى ما تزالُ تأبى

مصطفى : أجـل

مرادبك: ويحَكَ هل يملكُ الرقيقُ الإباءَ

آمـال : سيدى مَنْ عنيْتَ؟ قل لى بمن عَرَّضت؟

مرادبك: أعنى المليحـــة الحسنـاءَ

آمـال : سيدى إننا حرائرُ ما زلنا

مرادبك: ولـكن غداً تصرن إماءَ

آمـال : وغدٌ سـيدى عليه غطاءٌ
أترى عن غد كشفتَ الغطاءَ

مرادبك: قُمْ مصطفى، هذه الحسناء تُعجبنى
أليس يكفيك فيها ألف دينار

مصطفى : ألفٌ ! قبلتُ

مرادبك: إذن تأتيك كاملة

فاخرجْ ببنتك واحملها إلى داري

آمـال : أبي أبي أنت تمضي بي وتحملني

كالشاة ! هذا لعمري أعظم العار

مصطفى : آمال

آمـال : قف أنت عبد المـال يا أبتي

تُلقي البريءَ لأجل المال في النار

لا سيدي ، لا أبي ، لا تذكرا ثمناً

فلست مخلوقة للبائع الشاري

مصطفى لنفسه :

رباه أعظم من وجدي ومن شفقي

على ابنتي اليوم إعجابي وإكباري

وأنتَ تعلم والأفعالُ شاهدةٌ

أن ابنتي حُرَّةٌ من نسل أحرار

يا ألفُ سحقاً ويا مالُ امضِ من سُبُلي

تقطعت منك أسبابي وأوطاري

(ثم لآمال):

آمال هَيِّ اذكري لي كيف أدفعه

(ثم لنفسه): ماذا أقولُ فإني لستُ بالداري

آمـال : أبى أما نحن فى دار الأمير «على»

إنى لجارةُ حرٍّ مانع الجار

لا أبرح القصر إلا عن مشيئته

فحكمُه هو فىّ النافذ الجارى

مراد بك : ويحَ لى قد رُددتُ أقبحَ ردٍّ

وأبَتْ أن تُجيبنى الحسناءُ

لمصطفى : سترى من يفوز بالبنت يا وغد

لآمـال : ومن يقتنيك يا حمقـاءُ

« ويخرج مراد بك »

آمال لنفسها :

ما بالُ قلبي بمراد ... مُذْ تلاقَيْنا اشتغل ؟

لعـلّنى أحبَبْتُه ... لا لا ، فمالى والرجُل

عسایَ قد هِمتُ به ... هـذا لعمرىَ الخبَل

خيالُه فى فـكرتى ... فى كل سـاعةٍ مَثَلْ

مالى أُحِسُّ لاعجا ... بين الجوانح اشتعل

إن فُتح البابُ يُرى ... أولَ إنسان دَخَلْ

أو جىء بالزاد وجـــدته ... بجانبى أكل

وإن شربتُ حَضَر ... الماءَ فعلَّ ونَهَــلْ

قد أخَذتْ صورتُه ... على مشاعرى السُّبُل

وحيث سرتُ طاف بي وأينما حللتُ حلْ

أم محمود تنظر الى الباب وتقول :

أرى الأبوابَ قد فُتحت وأسمَعُ وقع أقدام

مصطفى : علىٌّ جاء قُمْنَ له بإجلال وإعظام

يدخل على بك وفي حاشيته رزق الوكيل . . الأغا مرجان . بعض الخدم

على بك : أضعنا نهارك يامصطفى أطلنا انتظارك لاعن جفا

مصطفى : بباب الأمير ولىِّ النِعَمْ يطيبُ الوقوفُ لأوفى الخدم

على بك [همسا لمصطفى] :

يا مصطفى قد بعتنى من سنوات ولدا

مصطفى : أجل صبي كان من أذكى الصغار محتدا

على بك : ما ارتبت فيه ساعة أن سيكون سيدا

مصطفى : عاش أبوه لا أرى أباه إلا أسدا

على بك : ولكنه لم يَدُر فى البلاد ولم يعرف الناس حتى فسَدْ

فسَلَّ الحسامَ وهَزَّ القناةَ وأصبحَ عزريلَ هذا البَلَدْ

مصطفى : ذاكَ ذنبٌ لم أبغُه حنشٌ غيرى باعَه

بئسَ ما باعوكَ يا مو لاىَ يا شؤمَ البضاعَه

على بك : وأين البنيات ؟

مصطفى : ها هُنَّ قُمْ نَ وقارا لمولاىَ فى المجلس

على بك : تخيير الحسن قبلى فكيف كيف اختيارى
على بك [لرزق] : يارزق ما أنت راءٍ
رزق الوكيل : كذا تكون الجوارى
أم محمود : بل قل ثلاث شموسٍ تنزلت فى نهار

على بك [ممازحا] :

من أنتِ يا شرَّ وجهٍ ومن أحلَّك دارى ؟
أم محمود: أنا يامولاى حُسْنُ الماشطه أنا فى أمر البنات الواسطه
ثم لنفسها: آه من لى بحياةٍ ثانيه ليتنى أرجع يوماً غانيه
ليتنى يا ليتنى يا ليتنى آه لو ينفع قولى : ليتنى!

[أم محمود . تأخذ يد شمس وتأتى بها] :
فهذى كاسمها شمسٌ ولكن حُسْنُها أحسَنْ
على بك : تعالَى اللهُ ما أبهى تعالَى اللهُ ما أفتَنْ
[ثم ترجع شمس وتأتى بزكية] :
أم محمود : وهذه زكية
على بك [معرضاً عنها ومشيراً الى آمال] :
وهذه الحوريه ؟
أم محمود : مهاة فداها الغيد من شركسية
لها سيرة عندَ الملوك تُدارُ
إذا برزت ودَّ النهار قميصَها
يضيرُ به شمسَ الضحى فتَغارُ

وإن نهضَتْ امشى ودّ قوامَها

نساءٌ طوالٌ حولهـا وقصارُ

لهـا مَبْسِمٌ ءِنْ الخليجُ لأهـله

وعاشت لآلٍ فى الخليج صغارُ

على بك : ما اسم هــذى الفتاة ؟

أم محمود : آمالُ الحسناء

على بك لآمال : آمال كيف ألفيتِ قصرى

آمال : جنة الله يا أمير على الأرض و لم لا ألست سلطان مصر

على بك : وهذا الوشى والديبا ج ما موقعه منك ؟

وهانيــكَ المصابيحُ من البلّوْرِ والسِّلْكِ

وهذا الخشبُ المصنو عُ بالصندلِ والمسكِ

لقد طفتِ على فار س والقوقاز والترك

وأدخلتِ قصور العز والــثروة والملك

فهل أبصرت ما يشبه هذا الصنع أو يحكى ؟

ثم مستمراً : وكل ما أبصرت فى قصرىَ من صُنع البَلد

فليس يعــلو الصانعَ المصرىَّ فى الذوق أحد

آمال : لا عَجَبٌ مولاىَ يا طالما قد بلغَ الفنُّ بمصر الكمال

على بك : لكن أرى القوقاز أعلى يداً مَنْ غيره يصنَع هذا الجمال؟

آمال : سيدى .

مصطفى [همساً] :

حاذرى ابنتى قدرى المو قف لا يخطر العقوق ببالك

آمال : لا أبى ، خلنى أبح أشك بثى خذل الصبر قلبى المتهالك

آمال [لعلى بك] : سيدى

على بك : ما أرى ؟ دموع لآلٍ ذهبت فى الخدود شتى المسالك

مم تشكين يا ابنتى ما وراء الدمع ؟

آمال : لا شىء

على بك : بينى ما هنالك !

آمال : سيدى ، غير شأننا بك أولى

هذه السوق لم تلق بجلالك

تشترى النفس أو تباع على الأر

ض ولم يرض فى السماء المالك

مصطفى : قللى الهم يا ابنتى والتشكى

وانظرى الحال وافكرى بمآلك

هذه السوق نعمة الوطن البا ئس منها

على بك : ونحن نعلم ذلك

أنا أيضاً مررت بالسوق يا آما

ل ، حالى يا بنت من مثل حالك

قد وقفنا بهذه السوق نبغي دولا من ورائها وممالك

وقديماً كانت سبيلَ المعالي للماليك أو سبيلَ المهالك

على بك [مستمراً] : لك الله يا آمال، أنت كبيرة

وكل كبير النفس سوف يسود

فداؤك نفسي هذه نفس حرة

وهذا إباء ما عليه مزيد

أتيت بما لم يأت فيما مضى لهم

ملوكٌ على عرش الكنانة صيد

شَرونا وباعونا صغاراً وفتية

كما بيع سودان بمصر عبيد

فما كان منا من رأى الرِّقَّ سُبَّةً

ومن قال عند البيع لست أريد

ثم مستمراً: الخطبُ غيرُ عظيم لا تحزني يا فتاة

وكلُّ جرح يُداوى إن عالجته الأساةُ

آمال : مولاي قالوا رُزِقْتَ نفساً فضائلُ الصالحينَ فيها

بأيِّ دين تحوزُ رقِّي وتشتري البنت من أبيها

على بك : أبوك ! ؟

آمال : أجل والدي

على بك : مصطفى أأنت أبوها ؟

مصطفى : أجل سيدى

على بك : فماذا ترى ؟

مصطفى : فى يديك الفتـــاة

تصرّف لقد خرجتْ من يدى

على بك : دع البيْعَ يا مصطفى والشراءَ

وزوّج فتاتكَ أو فارددُ

مصطفى : بِمَنْ ؟

على بك : بى

مصطفى : إلهى !

على بك : أجـل بِى أنا

مصطفى : سمعتِ فتاتى اشكريه احمَدى

آمـال : علامَ أُجَرّبتُه بعدُ ؟ لا سأعلمُ ما صاحبى فى غد

علي بك : لم تقبلى الرق منذ حين يالكِ من حرة نبيله

والآن تخشينَ من زواج تمشينَ فى ظلّهِ ذليلَه

آمال

آمـال : مولاى

علي بك : هاك قصرى سُوسيه بالنُّبل والفضيله

أم محمود : تحيــةٌ للملـكه من أَمة فى المملـكه

مصطفى : أُقَبِّـلُ سترَ مولاتى

آمـال : أبى ! أستغفـــر الله !

علي بك : وأنت الملكةُ اليومَ مُرى وانهَى على الدار
وحُلّيها حُلُولَ الشمـ ـس في أرجـاء آذار
وكوني قُفْلَ أموالي وأذخاري وأسراري
ولا يَهمُمْك تَرْحَالي ولا تشغَلْك أسفاري
فللمغنم والصيـد خفوف الأسد الضاري
وللرفعة والمجد سفار القمر الساري

آمال : مولايَ هاتها يداً قد طوّقتني خيرَ يَدْ
هات أضعْ في راحتيـك قُبَلاً بلا عَدَدْ

مصطفى : يا للجلال والخطر ويا لتوفيق القَدَر
من البشيرُ بالخبَرْ إلى البيوت والأُسَرْ
حظٌ لعمري قد كَمَل فمن يُبلّغ الجبَلْ
وكلّ دارعٍ نَزَل على الشعاب والقُلَلْ
أنا ظفرنا بالأمل

أم محمود : قمن بنات الشركس للهو والتأنُّس
زدنَ سرورَ المجلس برقصكُنَّ الخمس

شمس : عشّاق ماذا أخرّك لِمْ لَمْ تجردْ خنجرك
قم لاعِب الغيدَ تَرَكْ كيفَ تخوضُ المعترك

عشاق : غدا يُعقدُ للوالي على الحسناء آمال
جبالَ الشركس اختالي بهذا النسب العالي

هلمّوا الفرحَ الأكبر هلمّوا رقصةَ الخنجر
غداً يمتلك الوادى من الحاضر والبادى
فمن طالب أفراح ومن شاهد أعياد
هلموا الفرح الأكبر هلموا رقصة الخنجر
غداً يبتهجُ العصرُ وتُمسى فرحا مصرُ
وتُجلى الشمسُ والبدرُ ويزهو بهما القصرُ
هلموا الفرح الأكبر هلموا رقصة الخنجر

هتاف خارج القصر :

لازلت منصور القنا يا أسد المعارك
أطعمتَنا سقيتَنا يارِبِّ زدْ وبارك

على بك : اسمعوا

رزق : ضجّةٌ

الأغامرجان: أجلْ وابتهالٌ ورجالٌ بسيدى يهتفونا

على بك: من تُرَى الهاتفونَ رزقُ ويامرجانُ أُخرجْ فانظرمَن الصاخبونا

الأغا : عادةٌ تلك كل يوم خميس عندنا ألف جائع يطعمونا

علي بك : امض فاجعل فى كفّ كلّ فقير

ذهباً يطعمونَ منه البنينا

نفحةٌ من أميرة النيل مولاتك

آمال : بل منك سيّدَ المحسنينا

رزق : مولاى

علي بك : من ؟ أوَ رزقٌ ذا ؟

رزق : كم ذا تجودُ وكم تَهَبْ

إن الخزانة أصْبَحَتْ بنداكَ كالجحر الخرِبْ

الفضّةُ انفضّتْ وما قد كان من ذهب ذَهَب

رمضان راحَ بنصفه والنصف راحَ به رجَبْ

علي بك : أجل نحنُ أطعمنا الفقيرولم يكُنْ

له فى قصور المُتَرَفينَ طعام

ونحن سقينا ابن السبيل ولم يكن

يُبَلُّ له فوقَ الطريق أُوامُ

ونحنُ حضَنَّا اليُتمَ نمسحُ دمعهَ

وآواهُ منا محسنونَ كرامُ

ترى الزاد مبذولا وفى كل ساحة

يتامى قعودٌ حولَهُ وقيام

ونَبنى فركنٌ للثقافة والحجا

يُشَادُ وركنٌ للصلاة يُقامُ

ودارٌ يُواسَى البؤسُ فيها ومنزلٌ

تداوى جراحاتٌ به وسَقامُ

ونرفُق بالعجاه نأسو جراحها تُغات على ساحاتنا وتنامُ

على بك للأغا مرجان وهو بالباب :

مرجان ، خيرٌ

مرجان : سيدى «بشيرُ»

على بك : أدخله ليسَ دونَه سُتورُ

[لآمال]: أميرتى لا تُراعى بشيرٌ من أولادى

آمال لأم محمود :

إن مولاىَ شغلهُ بالمهمات قد كثُرْ

أم محمود

أم محمود : ملْكتى ما تُريدينَ ما الخَبرْ

آمـال : شمس

شمس : لبيك ملكتى دونك الشمس والقمر

آمال لزكية: أختُ

زكيـة : أفديك ملكتى زاد فى شأنك القدر

آمـال : جُلْنَ فى القصر جوْلةً وتنقَّلْنَ فى الحُجَر

نحنُ فى الوُدِّ والصفا ءِ كأس الذى غَبَر

عشنَ ضيفاً علىَّ فى الـ قصر ما امتدَّ بى العُمُرْ

« يخرجن مع مصطفى وعشاق .. ويدخل بشير بك فتنحى آمال ناحية »
« من الحجرة تشرف من نافذة فيها على ساحة الدار »

علي بك : ماذا وراءك يا بشيرْ

بشير بك : شأنٌ سأعرضه خطيرْ

علي بك : قل

بشير بك : لا أقولُ لأنه شأنٌ يُسَرُّ إلى الأمير

علي بك يذهب ببشير بك الى ناحية أخرى من الحجرة :

علي بك : عجل وكاشفني بما بَلَغَتْ من الجدّ الأمور
والبورُ

بشير بك : مَنْ ؟

علي بك : أبو الدهب

بشير بك : يأخذُ للشرِّ الأُهَبْ
حاز الأقاليم إليه وتألف العرب
والغُزُّ في ركابه والشعبُ جذلانُ طَرِبْ
فلنرتحل فربما جُنَّ فعجل الطلب

علي بك : أرى الأزْمةَ اشتدتْ وأبطا انفراجُها

بشير بك : فصبراً عساها آذنت بذهاب

علي بك : صبَرتُ طويلا يا بشيرُ فما جلا
ولا ذلّلَ الصبرُ الجميلُ مُصابي

ولو أن رُزْئي بالغريب احتملتُه
ولكن بأهلي نكبتي وعذابي
يُطاردني في الأرض من دَبَّ في يدي
وربِّيَ في حجري وشبَّ ببابي
ومن طلب الدنيا بيأسي وسطوتي
فلما حواها في يديه سَطَا بي
ومَنْ عشتُ أبنيه وأعْمُرُ رُكنه
فَصَيَّرَ هدمي شُغْلَهَ وخرابي
لقد آن أن أسعى وأن أدفع الأذى
بشيرُ امض هيِّء للرحيلِ ركابي
إلى كم قعودي عن عدوي وكيده
وهذا عدوي لا يملُّ طلابي
سأخرج نحوَ الشامِ في فَلِّ شيعتي
فهيِّء جيادي وادع خيرَ صحابي

بشير بك: وماذا وراء الشام ؟

علي بك : أُسْدٌ ضَراغِمٌ
ألفُّهمو حولي لنُصْرة غابي
يزيد بهم جيشي وتقوى عشيرتي
ويشتد ظفري في القتال ونابي

ألان فرغنا

بشير بك : أجل سيدي أأمضي ؟

علي بك : بل ابق انتظرْ يا بشيرْ

إذا أنا قَضّيتُ هذا المساء بقرب الأميرةِ ماذا يَضير

بشير بك: وليلَ غدٍ والذي بعدَهُ

وإن شئتَ فابقَ الليالي الكثير

ونحنُ فنمضي فنأتي العريش

ونبقى بها بانتظار الأمير

نُريغُ الجواسيس طولَ الطريق

ونهربُ من مُنكرٍ أو نكير

وتُدركنا أنت مستمهلا

كثير التواري قليل الظهور

علي بك : بل امض بنا سِر بنا سِر بنا

فما جَلَبَ الخيرَ مثلُ البكور

ثم لآمال: لا تجزعي أميرتي لابد لي من السفر

لقد دعت حادثة من الحوادث الكُبر

آمال : كيفَ زواجٌ وسفرْ

علي بك : مُزاحةٌ من القَدَر

أغيب شهراً واحداً فانتظري

آمال : سأنتظر

على بك : ما أنتِ إلا مَلَكٌ نَهَى بقصرِى وأمر

في ذمة الله يا ربّة القصر

آمال : وأنتَ مولاىَ شُيِّعتَ بالنصر

على بك لرزق : سأصعد يا رزقُ نحوَ الصعيد لشغلٍ

رزق : ولِمْ لا صعودَ القمرْ

« ثم لنفسه : صُعودَ كالدخان إلى ذروة إذا صارَ فيها امَّحى واندثرْ

على بك : وما فى الخزانة أو فى القصور بأمر الأميرة فيه ائتمر

« لآمال : هكذا مصر كل يوم شئون شغلت مصر بالشئون الناسا

وكأن البلاد خيلُ جهاد كلَّ يوم تُبدِّل السُّوَاسَا

رزق الوكيل لنفسه :

لا رحلةٌ ، لا سَفَرٌ هذا لعمرِىَ الهَرَبْ

وما الصعيد يقصدون بل إلى الشام الطلب

أما أنا فقد ملأت اليد من أبى الدهب

إذا الزمان بعلىٍّ بعد حين انقلَبْ

يجعلنى محمد على خزائن الذهب

على بك : سلام على قصر الإمارة والغنى

وإيوان سلطانى ودست جلالى

ووالله ما فارقت مغناكَ عن قلًى

ولا خطرت سلوى الأمور ببالى

وأعلمُ أنى عنك لا بدّ زائلٌ
وأنك منى لا محالة خـال
ولـكن أُمورٌ قد جرَتْ وحوادثٌ
بنقـلةِ دنيـا أو تبـدل حال
فخالفنى من كان عند إشارتى
يصول بجاهى أو يعيش بمـالى
وعقّ الذى ربيت فى حجر نعمتى
ووطّـأتُ أكنافى له وظلالى
تألّف أصحـابى وألّب شيعتى
علىّ وأغرى بالخروج رجالى
لقد جئت بابن ليس لى فـكأنما
أتيتُ بأفعى من سحيق تلال
تفرّق عنّى النـاسُ إلا بطانتى
ولم يبقَ حولى اليومَ غيرُ عيـالى
سأمضى وماعندى لهم إن تركتهم
سوى قوتِ أيام وخُبز ليالِ
وقد زَعَمَ الناسُ الغِنَى فى خزائنى
أنى من حـرام تارةً وحـلالِ
وأُقسمُ لم تُحرز يمينىَ درهماً
من المـالِ إلا أنفقته شمالى

أسير. أجلْ أمضى نَمْ فعسى السُّرى
تَروحُ بنَحْسى أو تجى بهلالى
فما الدهر إلا حالةٌ ثم ضدُّها
والا ليالٍ بعدهُنَّ ليالِ
وتلك التى أحبَبْت أول وهلةٍ
وأشركتُ فى مُلْكٍ وشيكِ زوالِ
أعود إليها فى المواكبِ ظافراً
وفرقَ بالنصر المؤزَّرِ حالى
وأرجعُ حُراً تحتَ النيلُ كله
وما من بنى عثمانَ فوقَ والِ

[يخرج على بك ومعه بشير بك ورزق الوكيل ويبقى مرجان بالباب]

[تسمع ضجة وصرخة من امرأة أمام القصر تقول]

يا ربّة القصر لامسّك الضُّرُّ
هل عندكم غوث هل عندكم نصرُ
لحرةٍ فى وادْ ليس به حرُّ

آمال : مرجان ويحى هذه صيحة وامرأةٌ صارخة باكيه
مرجان أنظر

مرجان : هىَ ذى أقبلت مُعوِلةً صاخبةً شاكيه

[تدخل امرأة مقطوعة الأذن وصارخة]

آمال : ماذا دهى يا خاله أنتِ بشرِّ حاله
ذا الدمُ من أساله ؟

المرأة : جنودٌ وراء كبيرٍ لهم من الدّين قد جرّدوا الخُلُقْ
أتَوْا دارنا فمضى نصفهم أزال العفاف ونصفٌ سرق
ومال على أذنى بعضهم بسكينه طمعاً فى الحلق

آمال تدفع الى مرجان صرة :
مرجان خذ ناول

مرجان : تعالَىْ خذى

آمال : لابأس يا خالةُ لا باسُ
انتظرى عوْدَ علىٍّ غداً ففى غد يرتدعُ الناسُ

« المرأة تأخذ الصرة وتصيح مولولة »

وأذْنى أينَ ألقاها مضَتْ آهاً لها آها
ويا مَنْ عندهَ أذنى أما يكفيكَ قرطاها

« تسمع ضجة ثم تدخل فتاة مذعورة »

الفتاة : سيدتى

آمال : وأنت أيضاً

الفتاة : رحمةً سيدتى

آمال : ما تشتكين ؟ ما دهى

الفتاة : الآن يا سيدتى

يُذبحونَ إخوتى في ساحة الرُّمَيْلَةِ

آمال : ويحَ لهم ماذا جَنَوْا ويحَ لهم

الفتاة : لا شىء

آمال : لا . لا بُدَّ من داعٍ دعَا

النفسُ لا تُقتَلُ يا أختُ سُدَى

الفتاة : صدقتِ يا أميرتى إلا هنا

لا ينزلُ الرأس بمصرَ جسداً

إلا نزولَ المرء فى بيتِ الكِرا

آمال : تذكَّرى قُولى لىَ الحق اصدُقى

الفتاة فى حياء : قد سرقَ الإخوة جحشَ الكتُخدا

سِرْ امضِ . مرجَانُ مع الفتاة

واشفع لدى الحاكِمِ للجناةِ

« ينصرف مرجان مع الفتاة »

يدخل أغا آخر ويقول :

سيــدتى

آمال : وأنتَ ما عندَك قُلْ

الأغا : ابنُ الأمير سيـدى مرادُ

آمال : ابنُ الأمير . ! هيَّ مَجِّلْ جئ به

أكلُّهم لسيدى أولاد

أدخل مراداً واثْنِى بمصطفى

آمال لنفسها: أخافُ إن قلتُ أبي أن يعرفا

[يظهر مراد بك]

آمال لنفسها: ويحى وويحٌ لعلِّي ما أرى

إنى أرى الغَدْرَ على هذا الفتَى

مراد بك: تحيةً سيدتى أتذكرينَ مَنْ أنا ؟

آمال : كل الذى أعرفه ابن الأمير ههنا

مرادبك: أميرتى قد خدعوك ما علىَّ لى أبا

ما أنا إلا صاحبٌ قدَّمه وقرَّبا

آمال : يا عجباً !

مرادبك: ومم يا مالكة القلب العجبْ

وكلُّ ما فى الأمر أن ليسَ علىَّ لى بأبْ

وليس ما يمنعُنى من أن أُحبَّ وأُحَبْ

آمال : تُحِبُّ أو تُحَبُّ قو لٌ لا يليقُ بالأدبْ

نسيتَ للقصرِ ولى ولأبيكَ ما وَجَبْ

مرادبك: قد عرفناك ياأميرتى إننا أمسِ التقينا فى معرض الجلاب

مراد مستمراً: ذهبت لأشرِى فاشترانى وباعنى

غزالٌ بسهم المقلتَين رمانى

هممتُ ولكن صاحبُ الصيدِ ردَّنى

وصيَّر سلطان البلادِ مكانى

ولم يدرِ أنى فوق شأن محمدٍ

وشأن علىٍّ فى الرياسة شانى

إذا ما حوتنى كِفّةٌ رجح الذى

رمى بىَ فى ميزانه لخوانى

وجاء علىٌّ فاشترى

آمال : لست صادقاً بنىَ بى أمير للمكارم بان

مراد بك : وطار عن الوادى

وماذا يَعيبُه ألَمْ تُخلَقِ العِقبانُ للطيران

مراد بك يقترب منها :

آمال لو تعرفينا آمال لو تعطفينا

مصطفى بالباب وقد سمع كلامهما ، لنفسه :

أرى شبحَ الجريمةِ حامَ حولى

كما ناشَ الغريمَ الأفعوانُ

آمال لمراد بك :

لا تدعُنى باسمى ولكن نادنى باللقبِ

مرادُ هذا هَوَسٌ قف عند حدِّ الأدب

مراد ما مقصورتي بمجلس لأجنبي

أخرج

مراد بك : على رسلكِ مولاتيَ

آمال : دعني . إذهبِ

مراد بك : بحقّ الحب مولاتي

آمال : ظلمتَ الحبَّ يا غادر

فما الحبُّ فُضوليٌّ ولا لصٌّ ولا فاجر

ولكن معدن النبل وكنز الخُلُق الطاهر

(تنحسر العمامة عن جبهة مراد بك فيظهر أثر جرح قديم على)
(جبينه كان قد أصيب به في صغره ... ...)
مصطفى بعد أن يرى أثر الجرح وهو بالباب :

إلهي هذا جُرحُه ذا مكانُه

أما كان طولُ الدهر للجُرح لائما

إلهي هذا الجرح فوقَ جبينه

مَضَتْ سنواتٌ ما مَحَوْنَ العلائما

لقد بارز الصبيان بالسيف ناشئا

فصادفَ سيفاً خدَّش الرأسَ صارما

إلهي أرى أشياءَ ثَمَّ مهولةً

وأشْفقُ فيها من عقابك صارما

إلهى لا تجعله حقاً ومُرْ أكُن

بما أنا راءٍ من عذابك حالما

كَفَى غضباً يا ربُّ حسب عقوبةً

وحاشاكَ لم تظلم ولم تَكُ ظالما

إلهى كانت هفوتى عن غَوايَةٍ

نُجِبتُ فكن لى فيهما اليوم راحما

آمـال لمصطفى :

وا أبتـــا

مصطفى : لبيْكِ آمالُ

آمال : إلىّ يا أبى

مصطفى : أحبِبْ بهذا الصوت أحبِبْ بالنداءِ أحبب

آمال : أبى

مصطفى : ابنتى أنتِ هنا ؟

آمال : تعالَ قِف بجانبى

مصطفى : لا بأس يا ابنتى عليـ ـك دونَ ناديك دمى

آمال : أبى لقد ديسَ العرينُ فى غيـــابِ الضيْغَم

مصطفى : مَنْ فى مقاصير الأمير ؟ ما أرى من الفتى ؟

آمال : ذئبٌ بشكل آدم للصيدِ فى الغاب أتى

مصطفى [مبهما] :

خنجري أين خنجري اليومَ مني

يغسل العـــارَ والدنيّـةَ عني

فعسى أن يُريحني من صبيٍّ

عابثٍ ، أو يريحـــه هو مني

هو يطغى بسنه سأريه

أنني الليث ساعدي هو سني

آمال : أبتي ما تقول ؟ ماذا تلمستَ ؟

مصطفى : سلاحي

آمال : لا لا أبي لا تَرُعْني

آمال [لمراد بك] :

يربك إلا حقنت الدماء

مرادبك: دماني أنا أم دماءُ اللعين ؟

مصطفى : أتلعنُني يا أضلَّ الشباب

أتلعنني يا أعقّ البنين

مرادبك: ولِمْ لا وما لكَ من حُرْمَةٍ

مصطفى : ستعلمُ ما جرمتي بعد حين

سأقلع عيناً سمت للبـاة

وأقطَعُ رجلاً مَشَتْ في العَرين

آمال : كنى هوماً أيهذا الأمير

مرادبك : أبي هَوَسٌ ملكتى !

آمال : بل جنون

كنى جرأة

مرادبك : وعلامَ اجترأت ؟

آمال : على امرأةٍ تحفظ الغائبينْ

مصطفى : مراد لك الويل من سادرٍ وقاحِ اللسان وقاح الجبين

هتكتَ على الحزن محرابَهُ ودُسْتَ على عبرات الحزين

ولم تحتشم فى خطاب الشيوخ ولم ترج فيهم وقار السنين

مصطفى [لنفسه وهو يبحث عن خنجره] :

ربِّ ضلَّتْ يدى وحطِّمْ سلاحى

ربِّ لا تقضِ أننى أقتل ابنى

مرادبك : سيسبق سيفى خنجر الشيخ

مصطفى : مرحباً

بسيفك من ماضى الحديد يمانى

فهاتِ مرادُ السيفَ هاتِ منيّتى

أرِحْ من عذاب الحادثات جَنانى

مراد بك [وقد شهر سيفه] :

إلهىَ مالى قد غُلبتُ على يدى

وما بالُ سيفى إذ هممتُ عصانى

وما بال نفسى بعد طول جمودها
قد انفجرت من رحمةٍ وحنان
عَفَوْتُ قِبلْ ياشيخُ مِلْ عَنِّى انطلق
وعش ناعماً فى غِبطةٍ وأمان

مصطفى : أميرىَ ذا رأسى فخذه بضربةٍ [يخرج مراد بك]
عسانى أرى هدء الضمير عسانى

مصطفى [لنفسه ، ويتبع مراد بك] :
أأُنْبيه ؟ لِمْ لا ؟ لا . بل استأن مصطفى
أأذكُر لابنى كيف خِسّةُ شانى

آمال لنفسها: ويحَ لى ويحَ قد قسوتُ عليه
وتجاوزتُ فى العقوبة حَدِّى
ما الذى استوْجَبَ الأميروما أذنَب حتى رددتُه شرَّ ردٍّ
ويحَ قلبى يحبُّه كذبَ القلبُ
وبعداً لحبِّه ألفَ بُعْد
هو مستهْتَرٌ عـــلى حجراتى
وتناسى أمانةَ الزوج عندى
لا . بل القلب شُغْلُه بمراد هو شغلى من الحياة وقصدى
ربِّ مالى أحِسُّ نحوَ مراد
شفقاً زائداً ولوعَةَ وجد
وحناناً كأنه رقَّة العشق جرى فى دمى ولحمى وجلدى

صدق الاولون ألآن أدرى
كيف تجزى القلوبُ وداً بودّ
كيف قلبي تحبُّه كيف تهواهُ
بودّى لو تستفيق بودّى
عبثًا آمُر الفؤادَ وأنهى
وسدىً أستردُّ عقلى ورُشدى
كلّ نُصح يُقالُ للقلب فى الترك
وفى سلوة الهوَى غيرُ مُجد
لم لا أشتهى مراداً وأهواه
ومالى أغالبُ الشوق جُهدى
ومرادٌ ألذُّ فى العين لمحا
من سنا الصبح بعد ليلة سُهد
مَلكٌ جاء حجرتى يشرحُ الحبَّ
أفى الحقِّ أن يُجازَى بطَرد
لمَ لَمْ أتخذه فى حادث الدهر
نصيراً يرد عنى التعدى
لمَ لَمْ أتخذه بعد علىٍّ
ركن دنياى أو دعامة مجدى

لا وربّ الجلال والحقّ «آمال»

ارجعي للصواب «آمال» جِدّى

أنت من أمةٍ تصون حمى الزوج

وتقضى حقوقه وتؤدى

ربِّ لا تجعل العَلاقةَ إلا

من سلامٍ إذا التقينا وردّ

رَبِّ إن البلاءَ منى قريبٌ

وأرى حُفرةً وأخشى التَّردّى

رب لا تَقضِ أن أخون عليًّا

وأَعنِّى على الوفاءِ بعهدى

أنا حَيْرَى وأنت تهدى الحيارى

كيف أهوَى على هوى الزوج عندى

ثم مستمرة: لا لا رويدك يا آمال لا تثبى

على الأمير ولا تجزيه طغيانا

واحمى حمى الليثِ فى أيام غيبته

إن اللباة تحوط الغاب أحيانا

هبيه لم يخلع الدنيا عليك ولم

يُلبسكِ تاجاً ولم يُنزلك إيوانا

هبيه لم ينفجر قبل الزواج ولا
بعد الزواج ولم ينهلّ إحسانا
هبيه سافر فى شأن له جَلَلٍ
يبنى لدولته فى الأرض أركانا
أما هو الزوجُ يُرعى حقُّ غَيبته
وتَجعل الحرّة الفُضلى له شانا
لقد أقامَك فى محرابه مَلَكا
لا تجعلى المَلَكَ المهدىّ شيطانا

ستار

الفصل الثانى

فى قلعة ضاهر العُمر صاحب عكا

« فناء قليل الضوء مبنى من الحجر . انتشرت المصاطب فى جوانبه »
« يطل من بعض جهاته على الميناء حيث يرسو الأسطول الرومي »
« في ناحية من فناء الدار بعض الجند يتحدثون ... ... »

أحد الجند: سمعتْم الرعد ؟

آخر : سمعنا القعْقعه

بربكم هل فى السماء مسبعه ؟
أم فى السماء وقعة ومعمعه

الأول : كجبل من الرخام انشقَّا

أو كالنحاس بالنحاس دُقَّا

الثاني : والبرقُ لمحةُ القبَسْ أو زفرةٌ حرَّى النَّفَس
أو كالدم القانى انبجس

شقَّ الظلامَ وخفَقْ على مُلاءةِ الأُفُق

كأنه خيْطُ الشَّفقْ

حبيش : ضرغام

ضرغام : ماذا يا حبيش ؟

حبيش : العَمَى لك العَمَى

البرد زاد

ضرغام : صه أما في طوبة نحن أما

حبيش : ضرغام انى قد حسدت القوم في جهنما

ضرغام : اصعد إليهم إن أردت

حبيش : كيف ؟

ضرغام : هاك سلما

وانشد حاقى بينهم وطف بها مسلما

حبيش لملاط : ملَّاط

ملاط : لَبَّيْكَ حُبَيْشُ

حبيش : قم أخى لك العَطَبْ

ملاط : وما الذى أصنع يا حبيش

حبيش : جئنا بحطب

ملاط : من أين ؟

حبيش : قم خذ كلما لاقت يداك من خشب

ملاط : كيف أجر الساق والبرد بأطرافى ذهب

كأنني مَيْتُ اليهود نُزِعتْ منه الرُّكب

حبيش : يالك برداً قارساً وزمهريراً لاذعا

لا الصوف فيه واقياً ولا الحرير نافعا

ضرغام : مــــــاالصوف ماالحرير لا لاأعطنا برادعا

حبيش : أنظر قَفا صاحِبنا كأنه بغـل ذُبح

وانظر أهاتيك أنو فٌ في الوجوه أم بلح ؟

كأن كل رجُل في أذنيه قد جُرح

« تسمع فرقعة »

آخر : صوت ؟ !

ضرغام : أجل !

الأول : ما الصوت ؟

ضرغام . تلك فرقعه

الأول : وأين ؟

ضرغام : عند التركِ هل من موقعه ؟

[تسمع فرقعة ثانية]

حبيش : وذاك ؟

الأول : مدفعٌ وتلك بُندقه

اسمع !

ضرغام : وما ذاك !

الأول تلك طقطقه

أقدامُ خيل فی الفضاءِ مُطلقه

ملاط : ربِّی متی ينقضی البلاءُ وتنقضی الحربُ والشتاءُ

حبيش : ربِّی متی تَنْعَم بالسِّلم متی
كم ذا إلی كم نحنُ حربٌ وشتا

آخر : كم أنا كالفار شقی من خندق لخندق
أصحو علی المدفع أو علی صفير البندق

حبيش : قل لنا يا خرابُ ما هذه الحالُ متی تنتهی وأينَ المصيرُ ؟
قدسئمنا القتال واشتاقت الزوج إلی زوجها وحنّ الصغير
وتركنا وراءنا الدور عزّ القمح فيها وقلّ فيها الشعير
وبنو ضاهرٍ شرابهمو العُناب والشّهد قوتهمْ والفطير

آخر : كل حين يجیء من مصر جيش
ينزل القدسَ أو يحلُّ الشآما
وأميرٌ يقاتلُ التركَ فی مصر
أتی شاهراً علينا الحُساما

نحنُ ما بينَ مصرَ والتركِ ضعنا

وَسَئمنَا الحياةَ والأياما

غنم نحن بين راع وذئبٍ

أي هذين جاع كنا طعاما

آخر : وغداً . .

حبيش : ما غدٌ ؟

الأول : بلاءٌ عظيم

حبيش وآخرون : كيف ! ما ذاك ؟

الأول : اسألوا ضرغاما

ضرغام : العَمى للرجال ما تُبصرونَ الفُلكَ فى البحر تُشبه الأعلاما

آخر : فلك من ؟

فُلكُ قيصر الروس فى البحر تَصبُّ الردى وترى الحماما

قِطع من جهنم راسياتٌ قعد الشرّ حولهنّ وقاما

وغداً ينزل الجنود فيحتلون هذى القلاع والآجاما

ملاط : إذن فأهلا بغدٍ إن غداً قد اقترب

آخر : كيف ! وماذا فى غد ؟

ملاط : فيه كرائم السلب

غداً نفوز بالسلاح والملابس القُشُبْ

آخر : وما على الصدور من قلائدٍ ومن صُلُبْ
وعادة الروس ينوءون بصلبان الذهب

[يدخل ضاهر العمر ومعه حسين المصري]

ضاهر : وكيف حال الدار ؟

حسين : غابة الأسل
أو هي وكر النسر في رأس الجبل

ضاهر : وسَهَرُ الدار على الضيف الأجل

حسين : تحفظه حفظ الجفون للمُقَل

ضاهر : والشام ، كيف تجد الشام ؟

حسين : نُزُلْ
يليق في جنة عدن للرُّسُل
أنهارها من لبنٍ ومن عسل لاشيء إلا في ذرا الشام كمل
إن تخلُ من شيء فمن لحم الحَمَلْ

ضاهر [ويصفق] :
غضبانُ صعبُ يا عبوسُ يا نَكد

صعب وغضبان : لبَّيك مولاى اقترح أشرْ تجدْ

ضاهر : امضوا اجمعوا الحملان من سوق البلد
وقدموها للضُّيوف منذُ غدْ

[ينسحب حسين والخادمان]

يدخل خادم ويقول :

مولاىَ

ضاهر : ما ذا . . زائرٌ آخرٌ ؟

الخادم : لا سيدى ، بل هذه زائره

ضاهر : امرأةٌ أنثى ؟

الخادم : أجل سيدى

ضاهر : وما اسمها ؟

الخادم : لم ترض أن تذكره

ضاهر : هلْ صرَّحتْ منْ أينَ جاءتْ ؟

الخادم : أجَلْ منْ مصرَ مولاىَ منَ القاهرهْ

ضاهر : وما سنها ؟

الخادم : غادةٌ فى الصبا تُشبِّهها الزنبق الطيِّبا
وقد لبسَتْ حلَّةً للسِّفار
وشالا كوشى الضحى مُذْهَبا
تريدُ تقابلُ ضيفَ الأمير

ضاهر : تريد عليّاً إذن مرحبا

ثم لنفسه : إلهىَ أنثى لدارى سَعَتْ تريدُ عليّاً فما تطلبُ
تُرى امرأةٌ هىَ أم حيَّةٌ تُريدُ صديقىَ أم عقربُ

[يخرج ثم يعود بشمس]

شمس : سلامٌ لكَ مولاى

ظاهر : سلامٌ جارَةَ الدَّار
فما أنْت وما تَبغينَ من ضَيْقٍ ومنْ جارى

شمس : رسولٌ أنا يامولاىَ قد جئتُ بأخبار
جرى فى مصرِ الدهر بأحوال وأقدار

ظاهر : وما ذلك ؟

شمس : لا أعطى سوى مولاى أسرارى

ظاهر : هيَّ تقدم فتِّش السيده

شمس: لا سيدى يَحسن أن تبعده
مَنْ لا يمدَّ الوحش نحوى يده

الخادم ويتقدم نحوها :
ماضرّ لو زحزحت الـ غادة فضلَ البرقع

شمس : مالك يا وغد ولـ ـبرقع دع عنك دع

الخادم : عمِّى لك ياعمرُ ما ذى غدا رُ لكنها أفعوان قَبَعْ
وتلك الجفون سلاح مضى وسهم أصاب وسيف قطع
وفى الصدر غدارةٌ ههنا وأخرى إلى جانبيْها تَقَعْ
وهذا القَوام كرمح الأمير إذا اهتز فى كفه أو لمع

أميري أأنزع منها السلاح

[يدخل علي بك]

علي بك بعد أن يسمع : سلاح الملاحة لا ينتزع

« ينسل ظاهر »

علي بك لشمس :

أهلا بشمس بالرسولِ ومرحباً
بنسيمِ مصرَ ونفحة الأحبابِ

كيف الأحبةُ شمس هاتِ خبِّري
قد طال بُعدي عنهمو وغيابي

كيف الديارُ وكيف قصري هل تُرى
تركَ القواصدُ والصنائعُ بابي

أتراهمو قدّردهم خدمي وقد منعوا طعامي عنهمو وشرابي
وموائدي ياشمس كيف موائدي
والطاعمون بها وكيف رحابي ؟

شمس : مولايَ طِبْ نفساً فبرّك لم يزل
يجري وخيرُك في يدِ الطلّاب

علي بك : والناسُ شمس ؟

شمس : مع الأمير قلوبهم لكن سيوفهم مع الكذاب

الفرُّ والأمراء حول ركابه

على بك : وكذاك كانوا أمس حول ركابي
والأزهر المعمور ؟

شمس : صاد محمدٌ فيه الشيوخَ وعاد بالطلّاب

على بك : والشعبُ ؟

شمس : سالٍ يا أميرُ كعهده قد مال عن باب وقام بباب
والتركُ قد نصبوه بعدك مرّةً يتصيّدون بظفرها والناب

على بك : والقصرُ كيف القصرُ كيف صديقتي
وشريكتي في شدتي ومُصابي ؟
أرأيتِ آمالا وكيف وجدتِها ؟

شمس : لم نفترق مولاى

على بك : منذ ذهابي ؟

شمس : عزمت علينا أن نقيمَ بقصرها
وتعطّفت وحَنَتْ على الأتراب

على بك : فوجدتها ياشمس

شمس : خيرَ عقيلةٍ وأجلَّ ربة منزل وحجاب
ملأتْ مكانكَ عزّةً ومهابةً
وكستْ حماكَ جلالة المحراب

سَهِرت على ذكرى الأمير وعهده
سَهَرَ اللباة على حريمِ الغاب
لو كنتَ أمسِ ترى رأيتَ أبيةً
غَضْبَى محاميةً عن الأحساب

على بك : غَضْبَى ؟ وممَّ وماجَرَى ماراعها ؟
شمس : من سافل مُتهافت دبّاب
على بك : ما ذاك شمس من الوقاحُ من الذى
نَقَل الخُطَى بمنازلو الغيّاب

شمس لنفسها :
ربّاه ماذا قلتُ لم أُخبّرتهُ
على بك : قولى أجيبى ؟
شمس لنفسها : ربِّ كيفَ جوابى

شمس لعلى بك :
ذنَبٌ فلا تجعله شغلك سيدى
إن القذارة شيمةُ الأذناب

على بك : من ذاك شمسُ ؟
شمس : مراد
على بك : ويح له ولى ويحى من الأتباع والأصحاب
أمرادُ يَصنعُ ذاكَ ماذا غرَّه بخزائنى ما غرّه بثيابى

والزوجُ شمسَ ؟

شمس : استعصمت فى دينها

ورَمَت بزائرِها وراءَ البابِ

على بك لنفسه :

يانفسُ قد خان مَنْ قلّدته ثِقَتى

وكان حولى لواءَ الصحبِ والآلِ

هذا أبو الدهب استولى على شِيَعى

وحازَ دونىَ جاهى واحتوى مالى

واليوم هذا مرادٌ نال من شرفى

ما لا يمر لأعـــدائى على بال

على بك لشمس :

تعالَىْ نَجُلْ يا شمسُ فى دار ضاهرِ

تعالَىْ نرى الجيشَ الحليفَ تعالى

فنحنُ اقتسمنا الحصنَ ثَمَّ عيـالُهُ

على كثرة اللاجى وثَمَّ عيـالى

« يدخل حسين من باب ويدخل سعيد من باب آخر »

سعيد : حسين هنا ؟

حسين : من أرى مَنْ سعيد ؟

سعيد : سلامٌ حُسَيْنُ

حسين : سلامٌ سَعيدْ

سعيد : أأنت هنا لم تزلْ يا أخى تراقبُ فى الشام حالَ الطريد؟

حسين : وكيف اقتحمت فِناءَ العرين

وجاوزت هذا الحصارَ الشديد؟

سعيد : بمالٍ بذلت هنا وهناك وبالمالِ يُعطَى الفتى ما يريد

حسين : متى جئْتَ من مصْرَ؟

سعيد : هذا الصباح

حسين : ومن كان معك؟

سعيد : بغالُ البريد

حسين : وماذا بمصْرَ من الحادثات؟

وهل جدّ فى أرْضِ مصرٍ جديد؟

سعيد : حوادثُ مِصْرَ على حالِها

وأمسِ القريب كأمسِ البعيد

حسين : وكيفَ محمد؟

سعيد : خلّفته كما يشتهى وعلى ما نريد

قبولٌ يحرِّقُ قلبَ الحسود ودنيا تفيض وشأنٌ يزيد

لقد نزلَ الريفُ فى راحتيه وحج إلى قدميْه الصعيد

ترَى الأمراءَ على بابهِ يقومون فيه قيامَ العبيد

وللفقهاءِ على دارِه صباحَ مساءَ زحامٌ شديد

حسين : إذن قُضىَ الأمرُ مصرٌ لنا

سعيد : أجل ملكُنا اليومَ فيها وطيد

حسين : وكُنتي سعيد؟ تجىء الأمير؟

سعيد : أجل وهى موضعُ إعجابه

يشيرُ بها فى أحاديثه وينشُرُها بينَ أصحابه

ونحنُ كلانا على بالِه غداً تتلاقى على بابه

ونَطعم أطيبَ إحسانه ونلبَس أسبغَ أثوابه

حسين : وما أتيتَ يا أخى تصنعُ فى هذا البلدْ

سعيد : ذلك سرّى يا حُسَيْنْ لا يقالُ لأحدْ

حسين : حَذارِ أن تقول أو تفعلَ شيئاً يُنتَقَدْ

نحن بدارِ ضاهرٍ دارِ العديد والعُدَدْ

الجمع يقظانُ بها وإن ظننته رقَدْ

وكلُّ جاسوس هنا عليه عينٌ ورصَدْ

وقد تظُنُّ ضاهراً مبتعداً وما بَعُدْ

وضاهرٌ ليلَ نهار فى السلاح والزَرَدْ

قد جعلَ الشام هى الغاب وطاف كالأسد

« ثم بعد فترة سكون »

سعيد : حسين!

حسين : ماذا يا سعيد قل سلِ

سعيد : أينَ تُرَى أصادفُ الآن على؟

« يقبل علي بك »

حسين : سعيدُ أنظرِ التفت هـذا الأميرُ مقبلا
يمشي الهوينْا ويُخــــالُ الأسدَ المستهلا

سعيد حسينُ ما له انحنى ما باله ترهَّلا
لأمشيَنَّ نحوهُ

حسين : لا ياأخي بل ابْقَ

سعيد : لا

حسين : إياك أن تقولَ ما يغضبه أو تفعلا
فهو مهيبٌ ههنـا كالليث في جوز الفلا

سعيد : لا تخشَ لا أكون إلا محسناً ومُجمِلا
ألم يكن أمس أمـــير البلد المبجَّلا

علي بك لسعيد :
مَن المرء من أين من أرض مصر ؟
فهـذا اللبـاسُ لبـاسُ الوطن

سعيد : أجل مـلـكي من رعاياكمو

علي بك : ومن مصرَ هذا اللسانُ الحسن
وما اسُمك ؟

سعيد لنفسه : ما همّه اسمي !

سعيد لعلي بك : سعيد

علي بك : سعيد تذكرتَ مَنْ أنتَ مَنْ ؟

سعيد لنفسه :

تذكّرنى عجبٌ كيفَ ذاكَا
ولم نجتمع مرة فى الزمَنْ
تُراهُ بىَ ارتابَ ظنَّ الظنونَ
تراه لِما كلّفونى فَطِنْ

على بك : وكيف تركت بمصر الأمور ؟

سعيد : عواصفُ حولَ مراسى السُّفُنْ
وجوُّ الأمور من الحادثات كثيرُ الغُيوم كثيرُ الدُّجَنْ

على بك : وكيف تركت الأمير الجديد ؟

سعيد : سقيمُ الولاية نكدُ الزَّمَنْ

على بك : ولِمْ يا فتىَ هل تولَّى الولىُّ
وخانَ منَ الشيعة المؤتَمَنْ

سعيد : أجل يا أميرُ ودبَّ الخلافُ
وثارَتْ هنا وهناك الفِتَنْ

على بك : حديثكَ يا صاحبي لا يُساغُ
ولا تطمئن إليه الأذن
عساك تبالغُ فيما تقول لعلَّكَ تخلُقُ ما لم يكُنْ
إذن لم يَخُنْ عهدىَ الأمراء ولم يقلب الترك ظهر المجن

ولم ينس أصحابَ الفقهاء   أياديَّ عندهمو والمنَنْ

ولا الشعب ملَّ الأمير القديم

ولا بالأمير الجديد افتتَنْ

بلغتِ المدى أيهذا الفتى   رُوَيْدَ تأنَّ رُوَيْدَ تأن

فما نحن فى فلوات الحجاز   ولا نحن فى ربوات اليمن

ولكن على الشام فوق الطريق

تمرُّ الركابُ بنا والسُّفن

وأخبارُ مصرَ وأحوالُها   هنا سمرٌ للقُرى والمدُنْ

سعيد : وكتب الثقات إلى سيدى

علي بك : وما هى من أرسل الكتب مَنْ ؟

سعيد : كتابان من عمر الچركسى ومن حسنِ

على بك : مَنْ ؟ صديقى حَسَنْ ؟

كتابان من مصر من صاحبيّ ؟

سعيد : أجل سيدى

على بك : سوف أُغلى الثمن

وأين الكتابان ؟

سعيد : خذ سيدى

خذ النعش خذ من يدىّ الكَفَنْ

« وينقض عليه بخنجره فيقبض علي بك على ساعده »

حسين لنفسه: أسفاه على سعيدٍ فما أدرى   إلى أين ينتهى أين يُمسى

نحن سيانِ في البلاء وأيدِ طلبَتْ رأسه ستطلب رأسي

هو في قبضة الأميرين لِمْ لا أتوارى أنسلُّ أنجو بنفسي

« ثم ينسل هاربا »

علي بك : كيف تَرَى يا معتدى لقد وقعتَ في يدي

يدخل ضاهر ويقول :

اتركه لى يا سيدى

اتركه لى فإنه فى دارى سطا بضيفى وسطا بجارى

علي بك : مَن ؟ ضاهرٌ ؟ بالنفسِ أفدى ضاهرا

أكنتَ معنا يا أمير حاضرا

ضاهر : كنت عليك يا صديقى ساهرا

والآن أذهب يا أمير بصاحبى

علي بك : أتريدُ تذهبُ بالأثيم العادى

ضاهر : لِمْ لا وفى دَارى وبين عشيرَتى

شهَرَ السلاحَ على أمير الوادى

دعنى أُحلّ به العقابَ وخلّنى

أمنع حمَى شرفى وحوضَ ودادى

سعيد فى ضراعة :

مولاى !

علي بك : مابكَ قُلْ ؟

سعيد : بمصرَ وحقّها

لا تُلق رأسي في يد الجلادِ

مولايَ سيفُكَ بي أبرُّ فسُلّهُ

إن شئت فاقتلني بسيف بلادي

ضاهر : حَسَنٌ قم انهض يا بنيَّ قم انطلق

فلقد طلبتَ الخير عند جواد

أنا قد وهبتُكَ للأمير وقد عفا

إن الأميرَ بكلِّ فضل بادي

علي بك : ألآنَ سعيد

سعيد : أميريَ قُلْ؟

علي بك : تكلَّم أبِنْ نبِّني مَنْ أمَرْ

ومن بَذَلَ المالَ بي مُغرياً وكيفَ أتاكَ جوازُ السَفَرْ

تكلم أبِنْ

سعيد : سيدي أعفني فلا خير في أن يَذيعَ الخَبَرْ

علي بك : قل السرَّ لا تُخفِه لا تَخَفْ فسرُّك عند صديق العُمُرْ

أليسَ محمدٌ المجترِي ؟ قل الصدق تأمن به كل شرْ

سعيد : مرادٌ أشار بقتلِ الأميرِ وغيرُ مرادٍ به لم يُشرْ

علی بك : مرادُه ؟

سـعيد : أجل إنه المعتدى وما أنا إلا سلاحٌ شُهِرْ

علی بك « ملتفتا بضاهر العمر » :

سمعتَ أخي مايقول الغلام عدوٌّ من الأهل ثانٍ ظَهَرْ

إذا مابغى الأهل والأقربونَ

فكيفَ مِن العالمَين الحذر

« يخرج الضاهر فيتغيب لحظة ثم يعود فيقول »

ضـاهر : أميرىَ

علي بك : مَنْ صاحبي ضاهرُ ؟

ضـاهر : هنالك مولاىَ ضَيْفٌ حَضَرْ

علی بك : ومَنْ ؟

ضـاهر : قائد الروس فی عكَّةٍ أيدخل مولاىَ أم ينتظر ؟

علی بك : أميرٌ على البحر ماذا يقود ؟

ضـاهر : بوارجَ للروسِ مثلَ الجزرْ

علی بك : وماذا ترى أنت مرنى أشِرْ

ضـاهر : تلاقيه فهو جليل الخَطَر

علی بك : ألاقيه ؟

ضـاهر : لِمَ لا وما فى اللقاء إذا ماسمحتَ به من ضَرَر

« يصفق الشيخ ضاهر فيدخل القائد الروسي محاطاً برجال »
« الشيخ ... ويخرج ضاهر وسعيد ورجال الشيخ »

القائد : التحياتُ للأمير

على بك : تحياتٌ وأهلا بسيدى الربّان

أدنُ خذْ مجلساً بجنبي تفضّل

القائد : عِشت مولاى مُولِىَ الإحسان

نحن جاران ياأمير ولكن نحنُ فى منزلين يختلفان

أنتَ كالليث رابضا فى الصحارى

وأنا الحوت فى العباب مكانى

على بك : غيرَ أنى مُقيّد بخطوب حَبستْهمتى وردّت عنانى

القائد : لاتضق ياأمير ذلك أسطولى جلال البحار نور الموانى

سفُنُ القيصر العظيم قصورٌ لكِ إن شئتَ زُينت ومغان

على بك : أشكر القائد النبيل وإنلم يَخفَ مافى خطابه من معان

مستمراً : أنافى دارضاهر وهى دارى مع أعوانه وهم أعوانى

أنا فى دار مسلم عربىٍّ مانعِ الدار مُكرم الضيفان

أنا فى الدار أولٌ منذ هاجرت إليها وصاحبُ الدار ثان

القائد : سيّدى ألقِ ضاهراً وتقلّد نجدةَ القيصرَ العظيم الشّان

لا تروَمنَّ بالعصا مُلكَ مصر واطْلب المُلكَ بالحسام اليماني

كيفَ تبغى سريرَ مصْرَ بشيخٍ

بدوىٍّ بصارم وحصَان

على بك : بكريم من الرجال أبىٍّ عبقرىِّ الوفاء والإحسان
فَزِن القولَ يانبيلُ وأمسكْ لا تنَلْ ذكرَ صاحبى بهوان

القائد : ما أهنتُ الصديق مولاىَ لكن
قلتُ أحسنْ تخيُّرَ الأعوان

على بك : ليست النجدةُ البوارجَ كالأعلام
تطوى اللُّجاج كالطوفان
لَيْسَتْ النجدةُ الحديدَ ولا النار
بأيدى المُشاة والفرسان
لَيْسَتْ النجدةُ اصطفافَ العوالى
والتفافَ العُروش والتيجان

ما النجدة الحق إلا صاحبٌ دمه
عند البلاءِ دمى أو ماله مالى
أخٌ قديمٌ كعرق التِّبر خُلْقُهُ
لم أسْقَ من وُدِّه إلا بسَلسال
وعِرضُه عندىَ الغالى وإن بعُدَت
به الديارُ وعِرضى عنده الغالى

القائد : كصاحبِ الدار؟

على بك : لم لا ضاهرٌ رجلٌ
من المروءةِ لا عُطْلٌ ولا خال

« تقبل شمس »

القائد : والملك مولاى ملك الضفتين

على بك : أجل
الملك يا قائد الأسطول آمالى

القائد : إذن فتلك سفينُ القيصر اضطجعت
على فراسخَ من عكا وأميال
فاركب أميرىَ فيها وائت مصر غداً
فى الدارعين وفى الفولاذ والمال
لعلنا ندخل الوادى معاً وعسى
على لوائك يغزو التركَ أبطالى

على بك : نمضى فنفتح مصراً ثم ندخلها
أمنيّة الدهر تأتى لى وتسعى لى
غداً أحُلّ بأعدائى العقاب على
ما استمر أو أمس من قهرى وإذلالى

« يدخل ضاهر »

على بك لنفسه : ربادماذا يقول المسلمون غداً
إن خنت قومى وأعمامى وأخوالى

يُقالُ فى مشرق الدنيا ومغربها
فعلتُ فعْلَةَ نذل وابن أنذال

على بك [للقائد] : أجل سَمَوْتُ لملك النيل أطلبه
بهمتى وبإقدامى وأفعالى
لا أستعين على الأهل القريب ولا
أرمى الذئابَ على غابى وأشبالى

القائد : مولاى تلك معانٍ تحتها كرمٌ
ليْسَتْ لمن طلب الدنيا بأشغالِ

على بك : بُعداً وسُحقاً لعلياءِ الأمورِ إذا
لم أتمّها بخُلق فاضل عال
الموتُ فى ثمرٍ ترقَى لتجنيَهُ
فى سُلَّم من ثعابينٍ وأصلال

القائد : إذن أميرىَ فالأسطول منتظرى
والبحر يسأل عن شأنِ الأميرالِ

على بك بصوت منخفض :

إذهب فما أنتَ دارٍ ماغدٌ فعسى
يُغيرُ الله من حال إلى حال

« ينصرف القائد ويشيعه ضاهر وأتباعه »

على بك لنفسه :

رباه ما بالى أبعدَ محمد وعقوقه أشقَى بكيدِ مرادِ

أنا صخرةُ الوادي يُراوحُ عاصفٌ
ركني ويبكُرُ عاصفٌ فيغادي
حمَلَتْ كواهلَ الخطوبَ كما حوَتْ
هوجَ الرياح مناكبُ الأطوادِ
ولقد تركتُ ورائيَ الوادي وما
بالضفّتَيْنِ فتًى يحوطُ الوادي
لم يبقَ في مصرٍ ومصرُ عزيزةٌ
من قائلٍ هذي البلادُ بلادي
الذئبُ يرتَعُ في الديارِ ويرتمي
والشعبُ يسرحُ كالقطيع الهادي
نقَلَ الزمانُ زمامَه ورمى به
من فاتحٍ باغٍ لآخرَ عادي
ويحي فما وقف الرجالُ كوقفي
من ظلم أحبابٍ وكيد أعادي
فهناكَ في فسطاط مصرَ محمدٌ
جَشِعُ العداوة لا يَمَلُّ طِرادي
حتى حوى بيدٍ مواكبَ دولتي
وحوى بأخرى طارفي وتِلادي
مالي محمدٌ الأثيمُ يكيدُ لي
ومرادٌ الباغي يدوس وسادي

عجبُ العجائب مصرُ صارت ضيعةً
لمحمدٍ ورفاقهِ الأوغادِ
ذئبٌ أتى الأتراكُ فى الوادى به
خلعوا عليه إمارةَ الآسادِ
وبقيتُ فى أرضِ الشآم مُشرَّداً
حيرانَ ليس لحيرتى من هاد
قد نمتُ عن حقٍ وتاركُ حقِّه
لاقى الخسارِ على الندامةِ غادِ
مالى قعدتُ وتركيا مقهورةٌ
والروس حولى يخطبون ودادى
أسطولهم بيدى وقائدهم معى
سأصيبُ جُندى عنده وَعتادى
لا يا علىُّ رُوَيْدَ فى الغضب اتئد
ما تلك خُطةُ حكمةٍ ورشاد
ماذا جنتْ مصرٌ علىَّ وأهلُها
إن الجناةَ علىَّ هُمْ أولادى
ماضرَّ مصرَ وضرَّنى إن لم تكن
مهدى وكان بغيرها ميلادى

بلدٌ رعانى فى الصبا وأحلَّنى بعد الشباب مراتب القواد

ودخلتُه عبداً كيوسفَ مُشترىً

فاعتضتُ تيجاناً عن الأصفاد

لا يا علىُّ اسمع نُهاكَ ولا تُصِخ

لوساوسِ الشهواتِ والأحقاد

لا ترمِ بالروس الشداد جماعة

ضعفاء مهزولينَ غير شدادِ

لاتنس موضع مصر واذكر مالها

من أنعمٍ سلفَتْ وبيضِ أياد

لا تنسَ ماذا ألِّفتْ من سامرٍ

لك فى الشبابِ وهيأت من ناد

شمس : أميرىَ

على بك : شمسُ سمعتِ النجىَّ ؟

شمس : أجل سيدى وعلمتُ الخبَرْ

على بك : فماذا ترَيْنَ ؟

شمس : أرى الخطبَ جلَّ وأنتَ عليه جليلُ الصَّبرْ

ومازدتُ علماً بحلم الأمير ولا خُلقهِ الأريحىِّ العطِرْ

دع الروسَ لاتنتصرْ بالغريب وبالله بالأقربينَ انتصِرْ

علي بك : وأينَ همو شمس ؟

شمس : هم فى يديْك وتحتَ لوائك مُر قل أشِر ..
أصِخ لسجاياكَ فالخير فيكَ

علي بك : وليسَ يُقابَلُ إلا بشَرّ
أبو الدهب الغِرُّ بالترك لاذَ
وفى مصر فى غدِها ما افتكَرْ
وكم قد غزاها على رايتى وكم من سلاحٍ عليهم شَهَرْ
وكنا خططْنَا انتشال البلاد
وإنقاذها من عتُوّ التتَرَ
وأن نستقل بسلطانها ونُنهضها فى النواحى الأخَرْ

شمس : تركت ورائى ما تبتغى من العون والمدد المنتظَر

على بك : جموعٌ ؟

شمس : هناك على الصالحية جمعٌ كسربُ الجراد انتشَرْ
وينتظرون ركاب الأمير كمثل انتظار النبات المَطَرَ

« يعود ضاهر »

ضاهر : ضاهرٌ عند ظن مولاى فيه

على بك : مَنْ ؟ صديقى أخى حليفىَ ضاهر ؟

ضاهر : قد سمعت الذي جري ولست الفضل والنبل والسجايا الطواهر
عِزوتى سيدى ونفسى ومالى
فى الذى شئتَ ما الذى أنتَ آمر

نحنُ إلفان يا أميري على الأرضِ
وإلفان في مُتون الضوامرْ
ومعي مدفعانِ من سلَب الترك
وتلٌّ من السيوف البواتر
والمواشي كثيرةٌ في ضِياعي
والطريقُ الطويلُ بالخير عامر
كلُّ شيء كما تُحبُّ مُهيَّا فتى الظّعن سيدي مُرْ نسافر
علي بك : غداً الظعنُ يا أخي قُم تأهَّبْ
إنما الغُنْمُ للخفيف المبادر
ضاهرُ اسمع هناك في مصرَ
ضاهر : ماذا ؟
علي بك : أُهبةٌ يا أخي وجيشٌ مناصر
من صحابي المُشردينَ وأتباعي ومن كل حافظ العهد ذاكر
إن جمعنا إليه جيشَك سرْنا وأخذنا محمداً أخذَ قادر
وانتزعنا البلادَ من قبضةِ
الترك ومن كل فاسق الحكم سادر
آن أن تُنقذ البلادَ فماذا أنت راءٍ
ضاهر : هَلُمَّ والجيشُ حاضر

علي بك : حاضرٌ ؟ فلنَسِرْ إذن

ضاهر : بعيون الله فى حفظه بأيمن طائرْ

ثم يصيح: عَرَبَ الشام تلكَ مصرُ دعتكم

جماعة من عرب الشام : ألفَ لبّيْكِ مصرُ لبّيْكَ ضاهر

ستار

الفصل الثالث

« الوقت بعد الغروب — في سرادق محمد بك ابو الدهب »
« بالصالحية حيث دارت رحى الحرب بينه وبين على بك . »
« فى الوجه محمد بك راقد على سرير وعثمان الجاسوس التركي »
« يكبس قدميه . فى أحد جوانب السرادق جماعة من البكوات »
« يتحدثون ويلعبون الشطرنج . فى الجانب الآخر خادمان مصريان »
« مشغولان بتنظيف ملابس محمد بك ابو الدهب ... »

أحد الخادمين للآخر :

ولدى زعزوع أنصتْ أصغ للحقِّ المبين
نحن فى أيام جهلٍ وبلاء وجنون
نحن فوضى من مراح الشاة للخدْر المصون
فى زبون من حروب الأهل فى إثر زبون
ورؤوسٌ فى الصوانى نُزِعَتْ منها العيون
وعزيزٌ هان ما كان ببالٍ أن يهون
أصبح الناسُ على الوادى بلا دنيا ودين
حركات كالسكونْ وحياةٌ كالمنُون

وقف الحاكمُ من كل رخيصٍ وثمين
مثلَ ما قد وقف الدائن من مال المَدين
وشريك الشعبِ فى كدّ يديه والجبين
وشريكا فى الأوانى وشريكا فى الصحون

الآخر : يا شيخُ هذا بلدٌ أحمالهُ بلا عدد
من سُلَفٍ وكُلَف ومن نكوسٍ وفِرد
وكلّ يومٍ مطرٌ من الضرائب الجُدُد
وتَلِدُ الفردة ما لا يعلمون من ولد
على الحمار فِرْدَة وفِرْدَة على الوتد
وفردة على اللجام وهو حبل من مسد
وفردة على برادع الحصير واللبد

مستمراً : يا شيخ لى نعجةٌ غرامى وكل همى كانا إليها
الأول : ما صنعت ما الذى دهاها
الثانى : قد ضربوا فردة عليها
فضقتُ ذرعاً بذاك حتى ذبحتُ شاتى وطفلتيها

الأول : ما قد دهاك دهانى ومثل شأنك شانى
أتيت طنطا لشغلى وكان تحتى أتانى
خرجتُ منها مع الليل مُسبلاً طيلسانى
فمرّ فوق طريقى من لا أرى ويرانى
أغاً عليه سلاح فى صورة الشيطان

فصاح بي قف ترجّل لقد سرقت أتاني

الثاني : وما جرى ؟

الأول : قلت له بل الأتان لي أنا

فقال ذاك أمس إلا أنها اليوم لنا

بل هي لي وحدي فدَعـــها ليّ وامض من هنا

ثم رماني بيدٍ كأنها كفُّ النمِّر

ثم اعتلى ظهر الأتان

الثانى : ثم ؟

الأول : لكن لم يسر

حتى سمعت هَدَّةً وصرخةً من النَّهَر

وأبصَرَتْ عيني وراء الليل آية القَدَر

حمارتى تجبرتْ مثل تجبّر البشرْ

فأغرقت راكبها وغرقت على الأثر

عبيش بك لعثمان بك [في تهكم واستهزاء] :

لقد رأيناك ضحَى اليـــوم تجِى من الجبل

فوق حصان كالـــغزال رقّةً وكالحمَلْ

عثمان بك [في غضب] :

كذبتمو قد كان تحـــتى سيد الخيل « بطل »

لا حَمَلٌ ولا غزال هـــو لكن الوعل

كالأفعوان فى الشعـــاب والشهاب فى القُلَلْ

مميش بك : وقد تمايلتَ على السر ج تمايلَ الثمِلْ

وقد تدلّى بطنك الضخمُ عليه وانسدل

كأنك المحمل والحصـــان تحتك الجمل

عثمان بك: مميش عِبت حصانى ولم تدع لى اعتبارا

هذا جزاؤك عندى خذ هاك منى عيارا

« ويطلق عليه غدارته »

محمد بك : عثمان

عثمان بك : ملكى

محمد بك : لا ترُعْ قد كان من حزب على

كفيتنيه فتولّ اليوم ما كان يلى

هيوا. احملوا جثته هيوا اذهبوا بالرجل

« يخرج به البكوات والخدم »

« عثمان الجاسوس وهو يكبس قدم محمد بك »

عثمان لنفسه : خدمتُه والله ما خدمتُ إلا دولتى

كبّسته والله ما كبّست إلا حاجتى

خادمُ تركيا أنا ما أنا خادم الغبى

كم من حرير فى نواحى صُدرتى وذهب

هاتيك ألقابى وتلـــك شُرُطى ورتبى

مما بلغتُ فى رضا اللـــه وطاعة النبى

وتحت أعلام السلا طين السيوف القُضُب
أقمتُ في مصر سنيـــن أنزوي وأختبي
وأنا حيناً ماهنٌ وأنت أحياناً صبي
أرمي أخاً على أخٍ وأصدم ابناً بأب
لم آلُ حكم الغُزّ . جُهد الباحث المنقِّب

« يفيق محمد بك ويتمطى ويتثاءب »

محمد بك : ماذا يقولون عنا في مصرَ يا عثمان ؟
عثمان : عهد الأميرِ رخاءٌ وغبطةٌ وأمان
فمصرُ راضٍ بنوها والناسُ فيها لسانُ
يقول إن أميري يحبه السلطان
محمد بك : والأمراءُ أمنهم مخالفٌ غضبانُ
عثمان : الأمراء جميعاً ببابكم أعوان
لا يذكرون علياً وبيته مذ بانوا
فما لغيرك صيتٌ ولا لغيرِكَ شان

محمد بك : صدقت هم حيث كـــان الجدُّ في مصر كانوا

يقبل جندي ويقول لمحمد بك :

مولاي عندي أخبارُ سوءٍ وقَفْن في فيَّ فهو حائر

محمد بك : أنت رسولٌ ؟

الجندى : أجل

محمد بك : خبِّر بيِّنْ إلامَ القتال صائرْ ؟
الرُّسلُ لا يُسألونَ عما بعد المناعى ولا البشائر

الجندي : مولاىَ

محمد بك : ماذا ؟ عجِّل . تكلَّم

الجندى : دارتْ على جيشنا الدوائر

محمد بك : وما الذى كان من علىٍّ ؟

الجندى : أُعينَ فى أمره بضافرْ

محمد بك : وفاز ؟

الجندي : فى أول التلاقى بقوة الشام والعشائر

محمد بك : إذن هلكنا ؟

جندي آخر وهو داخل: لا يا أميرى بل أنتَ ناج بل أنتَ ظافر

محمد بك : من قال ذا ؟

الجندي : شاهدا عيانٍ

محمد بك : من أين ؟ ممَّن ؟

الجندي : من العساكر

« يدخل الجنديان ويتبعهما خدم يحملون صينية كبيرة »

الجندي : ها هما

محمد بك : مرحبا

الجنديان : عوافٍ حياةٌ

محمد بك : أوجزا

الجنديان : نحنُ موجزان المقالا

هُزِمَ الجيشُ صُبحَ أمس ولكن

عادَ نجمُ العدو ظهراً فالا

فحملنا عليه حملةَ صدقٍ وحوينا الرجال والأموالا

محمد بك لأحدهما :

زِدْ ، أبِنْ

الجندي : ما قَصَّرَ الجيشانِ ضربا وطِعانا

« يقبل البكوات »

محمد بك للجندي :

وأبو مَيْلَةَ(١) ؟

الجندي : غشّى ساحةَ الحربِ دُخانا

أحد البكوات :

قد رأينا من هنا ظُلمتَه واللمعانا

وسمعنا من هنا رَجَّتَه والدَوَرانا

---

(١) مدفع من صنع واختراع محمد بك أبو الدهب .

محمد بك : اختراعي مدفعي قد ظهر اليوم وبانا
ومُرادٌ ؟

الجندي : كان كالليث لحاظاً وجنانا
شد بالإرة والوثبة في الحرب قُوانا
كلما انهار حصَانٌ تحته احتلَّ حصانا

محمد بك : ثم ؟

الجندي : رمى بنفسه على عليٍّ في الرحى

محمد بك : ثم ؟

الجندي : تجالدا فلم يدعه حتى جُرحا

محمد بك : أين هو الآن

الجندي : على آثارنا على سرير لينٍ مُظلَّل
يخدمه الناسُ ويُعنون به
كالولد الممهَّد المدلَّل

محمد بك همساً لعثمان :

عثمانُ هذا علوي لاتنسَ رأسَه غداً

محمد بك للجندي :

تلك رؤوس شيعته . ومن سعى لنصرته . من بيته وعزوته

« يأخذ الجيش في العودة من ميدان القتال في أزياء شتى بين »
« الضجيج المتواصل من الطبل والزمر، وتقبل طائفة طائفة »
« فيمر بخيمة محمد بك ، وكلما طافت به جماعة خرج إليهم »
« البيك فينثر عليهم الذهب وهو يقول »

محمد بك : خذوا خذوا خذوا خذوا إني أنا أبو الذهبْ
خذوا املأوا أيديكم من الشعاعِ المنسكِب

الجماعة : سلمت يا أبا الذهب وعشتَ تُعطي وتهَبَ
أخجل جودك السُّحُبْ

الجيش والنظارة يهتفون معاً :

بني الوادي قفوا حيّوا اللواء
وغطوا الأرضَ ورداً والسماء
رَجَوْتُم من وراءِ الحرب نصراً
وهـذا النصرُ بينَ يديْه جاءَ
هو الرمزُ المُقدسُ فاتبعوه وموتوا في القتالِ له فداءَ
عليه ضجةُ الفرحِ ابتهاجاً بطلعته الحبيبة واحتفاءَ
كأن وراء هيكله خيالا
من الشهداء والجرحى تراءى

على قدم حيُّوا العَلَمْ
حيُّوا الشعار حيوا الفخار
رمز الوطن مجد الديارْ

أحد القواد القادمين :

سيدى فُزت بالمُنى هو ذا الجيش قد رجَعْ
وهَبَ الله نصرَهُ للمريدين والتَّبَع
وعلىٌّ وجيشه شبعَتْ منهما الضبُعْ
ليس يُجدى أمات أم فى يد الجُند قد وقع

محمد بك : أجل أرى الجيش اقتربْ نشوانَ بالغَ الأرَبْ
يرسل رنَّةَ الطرَبْ

فريق من الجند يتغنون من خارج الخيمة :

سلمتَ يا أبا الدهبْ وعشتَ تُعطى وتهَبْ
أخجل جودُكَ السُحُبْ

جماعة أخرى من الجنود والنظارة يهتفون :

يا عسكر النيل بالسلامه يا عسكر النيل بالسلامه

ظفرت بالنصر كلَّ حينٍ وفُزتَ بالعزّ والكرامَه
فى يوم سلمٍ وفى قتالٍ وفى رحيلٍ وفى إقامه
فما شهدت القتال إلّا رفعت للصفّتين هامه
أبليتُمو قادةً وجُنداً بوركَ فى الجندِ والزعامَه
قد شيّد الله مجدَ مصرٍ والجيشُ من مجدها الدعامه

جماعة آخرون :

هلمَّ خيلَ الوطن تخايلى فى الرسَن
اليوم أنت مطلقه حمحمةً وطقطقه

محمد بك ابو الذهب وينثر الذهب :

خذوا خذوا خذوا خذوا إنى أنا أبو الذهب
خذوا املأوا أيديكم من الشعاعِ المنسكب
الجماعة : سلمت يا أبا الذهب وعشت تعطى وتهب
أخجل جودك السحب

أحد البكوات :

مليكى

محمد بك : ما جرى ؟

الأول : تأمّلْ أسيرٌ

سيدى من عواهل الشامِ كهْلُ

محمد بك : من يسوقُ الرجالُ ضاهرٌ الشاميُّ

عانٍ عليه قيدٌ وغُلُّ

« يدخل ضاهر يحوطه الجند »

محمد بك : ويحهم ذاك ضاهرٌ ما لجندى

قد غووْا ما لقادة الجند ضلُّوا

كثر الجندُ فى الحديد عليه

وهو كالليثِ فى الحديد يُدِلُّ

محمد بك ، ويتقدم منه :

ما أرى ضاهرٌ يُساقُ أسيراً

أنتَ من ذاكَ يا أمير أجلُّ

أيها الجند ضاهرٌ صار لى ضيفا

خلُّوا سبيلَ ضيفىَ خلُّوا

من فلسطينَ أنتَ ضاهرُ أم من أرز لبنان أم لك الشام أصلُ ؟

ضاهر : كل هذا هناك مولاى أصل

واحدٌ يجمعُ الرجالَ وفصلُ

عربٌ كلنا ومنطقنا الفُصحى

وآباؤنا نِزارٌ وذُهلُ

محمد بك للجند :

ما صنعتم بسيفه ؟

أحد الجند : هو عندي

محمد بك : هاته فهو محرم لا يحل

محمد بك ويناوله السيف :

خذ تقلد والله ليس لهذا الظفر
إلا يد المصور محل
أنت خِل للبائسين وفي وهو أيضاً لهم صديق وخل

ضاهر : لست أنسى لسيدي الفضل ما عشت

محمد بك : وهل في رعاية الحق فضل
قد رددنا على السموءل سيفاً
كان دون الوفاء أمس يسل

ضاهر : كيف أمشي في الشام أو في سواها
ألبس العز حين جاري يذل
ذاك سيفي فأين إكرام ضيفي
مالي اليوم غير ضيفي شغل

محمد بك : من ! علي ؟

ضاهر : أجل ومن كعلي ملك ما له على الأرض مثل
سيدي قيل في خلالك بر ليس يحصى وفي سجاياك نبل

قد تركت الأمير في شدة الـ
ـكرب وغادرتُ جمعنا وهو فَلّ
ما الذى أنتَ صانعٌ بعليٍّ ؟

محمد بك : غايةُ الخيرِ فهو للخيرِ أهلُ
هو فى قصرِهِ كأمسِ المفدّى
بينَ أولاده الأميرُ الأجلُّ

شاهر : أسرونى ولو بقيت طليقاً

محمد بك : ماالذى كنت صانعاً ؟

شاهر : كنت تبلو
كيف أبنى اللواء حول حليفى
وأرمُّ الصفوفَ إذ تضمحِلُّ

محمد بك : بل ستبقى بمصر ضيفاً علينا
مصرُ دارٌ للأكرمينَ وأهلُ

شاهر : ورجالى

محمد بك : سيلحقونك فيها لك عندى وللعشيرة نُزُلُ

شاهر لنفسه :

ذلك الغدرُ والمماليك فيهم
من قديم الزمان غدرٌ وخَتْلُ

« يشير محمد بك الى جماعة من رجاله فيخرجون بضاعر »

« يقبل مراد في جماعة من الجند »

محمد بك : مــا أرى ؟ ماترون ؟

أحد الحاضرين : هذا مرادٌ

محمد بك : هو ذا جرَّ ذيلَه إدْلالا

مرادبك: التحياتُ للأمير

محمد بك : مرادٌ مرحباً مرحباً تعالَ تعالا

مرادبك : ألف بشرى مولاى .

محمد بك : أهلا وسهلا أدنُ مِنّى أعانق الرئبالا

« يعانقه »

مرادبك: قد بلغتَ الآمالَ

محمد بك : لم لا وماعلقت إلا بسيفك الآمالا

كيف كان القتالُ؟ أينَ تركتَ الجيش ؟

مرادبك: خلفي مُظفراً مختالا

بعد حين يمرُّ من ههنا الجيشُ على سيدى رِعالا رعالا

محمد بك : وعليٌّ

تركتُه في يد الآسِينَ قد ناء بالجراح ثقالا

بعد حين يأتى به الجندُ محمولا مُسجًّى إذا استطاعَ انتقالا

« جماعة من الجند يتغنون خارج السرادق »

سلمت يا أبا الذهبْ وعشتَ تُعطى وتَهَبْ

أخجل جودُك السُّحُبْ

« يخرج محمد بك فى جماعته لتحيتهم »

«فى هذه الأثناء يتقدم مصطفى اليسرجى جريحا من مراد بك زاحفا على الأرض»

مراد بك: يالعجائب الحياة ما أرى هذا اليسَرْجىّ

مصطفى اليسرجى: اليسرجِى مصطفى

مراد بك: أنتَ الذي برزتَ لى من ساعة

مصطفى : أجل لألقَ من حُسامك الردى

مراد بك: لقد جُرحتَ من يدى لِمْ لَمْ تَمُتْ

مصطفى : إنى أحسُّ أجلى الآن دنا

مولاى لا تقطع حديثى وانتظرْ

عجائبُ الحياة فوقَ ما ترَى

مراد بك: وهل عجائبُ الحياة غيرما يجرى هنا الآن؟

مصطفى : أجل وما جرَى

مراد بك: قمْتُ إذن وأعفنى

مصطفى : لا بل أقمْ

واسمع فقد ينجيك ما أروِى هنا

مراد بك: سرٌّ ؟

مصطفى : أجلْ وقد ينالُك الأذى

من أن أموت أنا والسرُّ معا

مراد بك: إذن فقم إبقَ تأخّر ساعةً قل مالديك ثم مُت كيف تشا

مصطفى : أهكذا ربّاك جافٍ خَشنٌ من المماليك مُضيّعُ الوفا

ليتك عشتَ راعياً فى وطن مُهذبِ الفتية صالح النشا

مراد بك: دَع الفضولَ واحترس يا مصطفى

أنت غبيٌّ لستَ تدرى مَن أنا

أما كفاك أمسِ أن أخرتنى أنا وقدمت علياً فاشترى

مصطفى : أنت تُحبُّها ؟

مراد بك : أجل

مصطفى : أنت

مراد بك : أجل

مصطفى : حَذارِ يامرادُ مَن هذا الهوَى

مراد بك مضطربا :

ولِمْ ؟ وما آمالُ ؟ أهْىَ من دمى ؟ أم هى لحمى

مصطفى : هى والله هُماَ

مراد بك : أختى ؟

مصطفى : أجل أختك

مراد بك: ياللى ولها من هول ما كنتُ عليه مقْدما

مصطفى: مراد أنت في صعيدٍ واحدٍ

ضربت بالسيف المُربِّ والأبا

مرادبك: ومن أبوها وأبي أنت ؟

مصطفى: أجل أنا الذى باعَ الفتاةَ والفتى

أنا الشقُّ بائعُ ابنيه

مرادبك: أبي مابعتنا إلا لندركَ الغنىَ

مصطفى: مرادِ أدركني

مرادبك: فداك يا أبي

رُوحي وإن قلّت لك الروحُ فدىَ

مصطفى: أنظر مرادُ أنا في النزع وما يُغني المُفَدُّون إذا النزعُ أتى

سُقتُ لك الرقَّ وسقتَ الموتَ لي

والرقُّ والموتُ على حدٍّ سَوا

مرادبك: أُعفُ أبي عني أتعفو يا أبي ؟

مصطفى: القلبُ عنك وعن السيفِ عفَا

بل اعف أنت يامراد عن أب

باعكَ طفلاً كبديعة الدُّمى

مارحمَ الدمعَ بعينيكَ ولا رقَّ لذلك البُكى ولا رثى

مرادبك: واأسفي وا ندمي أبي عليك قد غُمي

أفق أبي تكلّمْ

مصطفى : مراد ! لا يقوى فمي

« ويموت مصطفى »

مراد بك: ماتَ انتهى ربِّ ارحمِ

« مراد بك يلقي عليه عباءته ويرجع باكيا »

تدخل آمال فيلمحها مراد بك ويقول لنفسه :

آمال أختيا أجلْ أجلْ هيا

لا كفيْتُهـــا تلك الضواريا

آمال لنفسها :

مالَهُ مضطرباً يرمقُني بالرضا حيناً وحيناً بالغضب

مابه ؟

مراد بك: آمال

آمال : مهلا سيدي ادعُني حينَ تُنادي باللقبْ

مرادبك: اسمعي آمال أختي

آمال لنفسها : أخته ؟

ربِّ من أينَ متى هذا النسبْ

ثم لمراد بك :

كيفَ من نبَّاك

مراد بك: نبّأني أبي أنّنا ياأختُ من أمٍّ وأبْ

آمال : وأبي ؟ أينَ أبي ؟ أين مضى ؟

مراد بك: هو هذا جثّة

آمال : مات أبي

مراد بك: احملي الجثّةَ ياأختُ معي هيَّ نحجبُها عليَّ نحجُب

آمال بعد أن تقف أمام الجثة وتتأملها :

حنانيْكَ ربِّ أبي رمةٌ يَمُرُّ عليها الترابُ الخشنْ

أبي كيف صرت وراء التراب

إلى جسد بالبلَى مرتَهنْ

أبي مالأذنك قد أبطأَتْ وكنتَ إليَّ سريعَ الأذُنْ

وما بالُ حظي مَنكَ الصدود وكان نصيبي اللقاءُ الحسَنْ

وأين يدٌ سمحةٌ طالما مسحتَ بها عبراتي الهُتُنْ

أحقٌّ أبي دهمتْكَ المنون

أجل وجَرَتْ فيك كبرى السُنَنْ

ذهبتَ كما ذهب الأولون قتيل الحياة جريحَ الزمن

مراد أخي

مراد بك: أختُ لا تحزني فماذا يَردُّ البكا والحزَنْ

آمال : أحقٌّ أخي أنه قد قضى وأنافقدنا الندا والركُنْ

قضى في معارك لم يجنها

غريب التراب غريب الوطن

ثم مخاطبة الجثة :

تمنيت أني أقيكَ الردَى بنفسي ومن يدفعُ الموتَ مَنْ

وأجعل غُسلك ماء الشئون

وأصنعُ من هُدب عيني الكفن

وأختطُّ بين حنايا الضلوع صوانا ولحداً لهذا البَدَن

جُعلتُ الفدا لك مما دهاكَ وممّن رَمَاكَ وممّنْ طَعَنْ

وليتَ جراحَكَ بي يا أبي

مراد بك : رويدكِ أختُ أقلّي الشجن

ولا تكثري حسرات الصديق

ولا تُشمتي الكاشحَ المضطغنْ

آمال : وكيف مراد وهذا أبوك لَقيٌ في التراب كأن لم يكن

[يخرج مراد بك وآمال بالجثة]

[يؤتى بعلي بك مجروحا محمولا على سرير من جريد فيوضع في ناحية من الساحة]

علي بك لنفسه :

ويحي تفرّق عسكري وخيامي

وطوَى الزمانُ وريبُه أعلامي

أحتالُ والأحداثُ تُفسدُ حيلتي

وأروم والأيام دون مرامي

لما طَوَت مُلكَ الكنانة راحتى
لم يكفنى فطلبت مُلكَ الشام

صيَّرتُ حربَ الترك وجهَ سياستى
حتى اقتنيتُ عداوة الأقوام

وكفرت إحسان الذين خدمتهم
حتى تجرّأ خادمى وغلامى

فى الصالحية مالَ صرحُ مطامعى
وكذاك ركُن بنايةِ الأوهام

النصرُ غابَ وكان طاف برايتى
حيناً وحام على شباةِ حسامى

وحُمِلت فى سُرُرِ الجريد بلدةٍ
وطئتْ جواهرَ عرشها أقدامى

قد عشتُ بالدنيا العريضةِ حالماً
حتى انتبهتُ فلم أجد أحلامى

دنيا أردتُ من العروش حُطامَها
جعلَتْ سرير القشّ كلَّ حُطامى

بالأمس جلّلتُ التراب مواكبي
والبومَ لا خلفي ولا قدامي
اليومَ أرسفُ في دمي وجراحتي
وغداً أجرُّ منيتي وحمامي
أنا قد جعلتُ العزَّ مهبط نعمتي
وخصصتهم بمنازل الإكرام
فلُدغتُ من صِلّينْ منهم عقَّني
هذا وذاك أضاعَ حقَّ ذمامي
وتتابعَ الأمراءُ في أثرْيهما
يستمرئون عداوتي وخصامي

« يقبل محمد بك ابو الدهب في حاشيته »

محمد بك ابو الدهب :

يا ويحَ لي ماذا جرى   هذا أبي وسيدي
سيعلمُ المغْرى به   كيف عقابي في غدِ

« ويتظاهر بالأسف ويتقدم لملاقاة الجريح »

محمد بك ابو الدهب :

يا أسفا عليّ علي يا أسفا   على أبي وسيدي وموئلي
يا أسفا على الكريم المفضل

أحد البكوات همساً :

ماذا يقول ؟ سيده ! شلّت يده شلّت يده

علي بك لمحمد بك :

محمد اسمعْ مراد غادرْ

اقضِ عليه وأنتَ قادرْ

محمد بك: لا . بل تعيش سيدى ويديك تقتــله

سيدى انس اليوم وافكر فى غد

على بك : ليس للمغلوب غيرَ الذل غد

محمد بك : بل غداً تبرأ من جُرحك

علي بك : لا قلما قام من الجرح الأسد

أحد الحاضرين همساً لآخر :

الذئبُ جرّب فى العَرَبىّ ظُفُرَه فأصابهُ

لا تحوِ دارُك أرقاً حتى تحطِّمَ نابه

على بك لمحمد بك :

محمد اطلب لى قليل ماءٍ إنى أحس حرقة الظماءِ

محمد بك : مولاى لا باس فداؤك النــاس

محمد بك لعثمان ويناوله حقاً :

عثمانُ جيءْ بالشراب أغثهُ بالعُنابِ

على بك : عجّلْ وأطفىءْ لهيبي أسرع وخَفّفْ عذابى

« يذهب عثمان ثم يعود بالماء »

علي بك لمحمد بك ويتأمل الكأس :

أغريتَ في الصبح بي عَقوراً ما أنا من جرحه بصاحِ

والآن أرسلتَ كلبَ سوء يدسُّ لي السُّمَّ في القَراح

وهكذا تجرحُ الأفاعي وتُفرِغُ السُّمَّ في الجراح

علي بك لعثمان :

عثمانُ ما دسَسْتَ لي في الكاس

عُشْبَ القفار أم تُرابَ الماس

السم أحيانا طبيبٌ آس

« ويشرب »

محمد بك لعلي بك :

أبي وأميري كفى سوءَ ظَنٍّ

علي بك : محمدُ نَلْ كلَّ ما شئتَ منِّي

ومالي ألومُكَ والسُّمُّ فنِّي

أخذتَ الخيانة والغدر عني

« محمد بك يبتعد في حاشيته فيختلط بالأمراء الآخرين »

علي بك وقد لمح آمال ومراد بك قادمين :

أرى ويحَ لي ماذا أرى ؟

توالَتْ جراحاتي وطالَ عذابي

مرادٌ وآمالٌ . عدوِّى وزوجتى
فيا زمنى هل من جديدٍ مصاب !
يُعذبُنى يا رب أنى أراهما
قد اختلطا من جيئةٍ وذهاب
إذن هى تهوى النذلَ وهو يحبها
إذن ليس ما خُبِّرتُه بكذابِ
إذن فرادٌ لم يَثِبْ بىَ وحدَه
ولم يقتحم سترى ويسطُ ببابى
ولكن أعارته الخبيثة نابها
وما فى ذراها من نقيع لعاب
أجلْ هَدَمَا عشِّى معاً وتعاونا
على ثلم محرابى وهتك حجابى

آمال لنفسها :

إلهى أعنْ زوجى وبُلَّ جراحَه
فما باله مستوفزاً لعتابى
رمانى بعين قلّبت عن كراهة
وعن نظرات كالشَّرار غضاب
تُرى ظنَّ بى سوءاً تُرى ارتابَ فى أخى
ففكر فى جُرمى وكيف عقابى

له العذر فى حال أضاعت صوابه
فإنى أنا الأخرى أضعت صوابى

وتتقدم من على بك :
سيدى مولاى

على بك : من ؟ أنت ؟
آمال : أجل
على بك : أعزبى عَنِّىَ خلّينى اعزُبى
الأقاويلُ إذن صادقةٌ الرواياتُ إذن لم تكذبِ
آمال : ما أذاعوا سيدى ما نقلوا ؟
على بك : خبّرونى امرأتى تعبَثُ بى
آمال : مع مَنْ أعبثُ، مَعْ هذا الفتَى ؟
مع شقيقى وابن أمى وأبى

على بك لمراد بك :
مراد

مرادبك: مولاى
على بك : اعزُبِ لا بل تعالَ اقتربِ
مرادبك: أبى
على بك : سؤالٌ يافتَى أَصْغِ إلىَّ أجب
مرادُ كنتَ لا ترى غيرى فما غرَّكَ بى
أنتَ الذى اشتريتُه بفضتى وذهبى
ولم أقصّر معه عن واجب المؤدّب

مراد بك: مولاىَ خلّنى إلى ضميرىَ المُعذب
أعفُ فأنتَ أهلهُ هبْ لى جرائمى هب

على بك : مرادُ

مراد بك: مُرْ

على بك : أوصيك خيراً بالملاك الطيِّب
أما تراها أصبحتْ من غير زوج وأب

ثم مستمراً: مرادُ بنىَّ أصخْ أصغِ لى تعلَّمْ من الذاهبين استفد
مراد بك: تكلم أبى هات قل سيدى وبيّنْ كدأبك سُبْلَ الرشَدْ
على بك : بناء المماليك واهى الأساس وسلْطانهم مُضمحلُّ العَمَدْ

وضيعتهم بعد طول الإباء عوى الذئب فيها وصاح الأسد
إذا فَسدَ الخُلُقُ فى أمة فقل كلُّ شىء لهم قد فَسَد
وصاحبكم ذهَبَتْ نفسهُ فكلُّ عنايته بالجَسَدْ
يحبُّ النساء ويهوى الطعام ويبنى القصورَ ويُغنى الولد
بفضل التعاون سُدنا البلاد ولولا تعاوُنُنا لم نَسُدْ
إذا قام بانٍ إلى غاية تعثَّر بالهادم المجتهد
وأُولعَ بالعُصبة العاملينَ رجالٌ كسالَى مُنوا بالحَسَد
فلم يرَ واحدُهم همةً وفضلا لآخرَ إلا حقَد
يميناً مرادُ لماَ فى البلاد سوَاكَ يليقُ لحكم البلد
يَلُمُّ المماليكَ من فرقة ويوقظُ من حزمهم مارقَدْ

ويُرجعُ للطاعة المارقينَ ويكسرُ من شرَّة المستبدْ
فثِبْ بالفتى غدًا ثبْ به وقم أنتَ فاحمِ الحمى بعد غدْ

« ويغمى عليه »

مرادبك: ويحَ للمجد حلّ بالماجد الموتُ وأخنى على الكريم الحمامُ
رحمتاهُ له مضى وتولّى واستردت جمالَها الأيامُ

آمال : مات ! لا يا مرادُ قل هو حيٌّ
قل أخي تلك ضجعةٌ ومنامُ
فرحي يا عليُّ ما أنتَ راءٍ مأتمٌ بين ناظريْكَ يقامُ
فرحي مثل يوم نحرٍ عليه من دم البر لحة وابتسام
ضحت الحادثات فيه بكبش
لجمع الشرق فيه والإسلام
قد أُصبنا من العيون كلانا أدركتني وأدركتك السهام

أحد البكوات لآخر :

أرأيتم أسمعتم جرأةٌ تلك يا ويحَ مراد ويحَ لهُ
ماله استهتر في موقفه ومضى يفعلُ فعلَ السفلة
أنظروا فهو عليها مُقبلٌ وهي بالسمع إليه مُقبله
تركا المقتولَ لم يكترثا لدمٍ من حوله قد جلّله
أتُرى يطمع أن يخلُفَه وهي هل تطلبُ زوجًا بدله

آمال وتلتفت حولها :
مراد أخي

مراد بك: لبيك آمال

آمال : النا ومتنا عيونُ القوم من كلِّ جانب

وإنى لشكلى مرَّتَين وما دَرَوْا
تولَّى أبى عنِّى ولم يبقَ صاحبي

مرادبك : كذاك فضولُ الناس شُغْلٌ بحاضر
كما قد شغلناهم وشُغْلٌ بغائب
ومن ألسُن تجرى بسوءٍ وهَمُّها
فوائدُ عند الغير أو فى مصائب

آمال : صدقتَ مرادُ انظر تأمل فضولَهم
لقد رمقونا بالعيونِ الشواغبِ
يَرَوْنَ عجيباً أننا ههنا معاً
وأنك تمشى يا أميرُ بجانبي

أحد البكوات يتقدم :
مرادُ من الحسناءُ؟

مرادبك : ما أنت ؟ ما الذى
يهمُّك من أمرِ الحسانِ الكواعبِ

« ثم لآمال :
أأبصرتِ يا أختُ الفضولَ

البك لنفسه : أخته عجيب فلم نعلم له من أقارب

« لمراد بك : وأينَ تُرى كانت ومن ذا أتى بها ؟
رواية غاوٍ أو مقالةُ كاذبِ

« مراد بك يهم ويلطمه بيده لطمة شديدة »

آمال لمراد بك:

ترفق أخي سامحه

البك لنفسه : تدعوه يا أخي إذن لم يكنْ فيما دواه بلاعب

مرادبك: تعلَّمْ إذن أن الفضولَ وقاحةٌ

وأن عقابي عنك ليسَ بعازب

البك : وأنت تعلَّمْ أن سيفي منيَّة وغدارتي محشوَّةٌ بالمعاطب

مرادبك: وقوسك ؟

البك : قوسي ليس يخطيء سهمها

مرادبك: ورمحك ؟

البك : مثل الأفعوان المواثب

مراد بك :

وقلبُكَ إني لا أرى القلبَ حاضراً على أنه أمضَى سلاح المحارب

وإلا فذا صدري فضع فيه ما تشا

وسدِّد إليه ماضياتِ المضاربِ

البك : وكيف اجترائي سيدي وابنَ سيدي

معاذَ أياديكم معاذَ المواهب

مرادبك: إذنْ خلِّ شأنَيْنا ولا تَشْتَغِلْ بنا

وطر في فضاء الأرضِ ذاتِ المناكب

آمال : مرادُ أخى

مرادبك: آمال هـــذا محمدٌ

يلاحظنا فى الجمعِ لحظَ المراقب

ولابدّ مِنْ إنبـائه بالذى جَرَى

آمال : وما ضرَّ سرٌ قابـله كُلّه خاطب

محمد يقترب ويقول :

مرادأرى شَغْباًوأسمعُ ضجَّةً بنىَّأهذاموضعٌللتصاخب

ونحن على موتٍ وحولَ جنـازَةٍ

وفى مأتمٍ فخمٍ وشيكِ المواكبِ

مراد !

مرادبك: أميرى !

محمدبك : تلك والله ريبة

مرادبك: تفضل أميرى واستمع ثم عاتب

محمد بك: أما هذه عرس الكبير فما أتى بها ههنا بين ازدحام المناكب

مرادبك: بلى يا أمـــيرى وهى أختىَ

محمدبك : أخته ! حنانيك ربى تلك إحدى العجائب

مرادبك: أجل سيدى أختى اجتمعنا من النوَى

على قدرٍ من صنعةِ اللهِ غالب

ولم ندر قبلَ اليوم أنا قرابةٌ وأنا التقيْنا فى كريم المناصب

محمد بك: ومن قال للصنوين هذا ؟

مراد بك: أبوهما

محمد بك: وما هو ؟ مَنْ ؟

مراد بك: بعضُ التُّجارِ الجوالب

محمد بك: وأينَ فأدعوه فأُعْلِي محلَّه وأرفعه وابنيه فوقَ الكواكب

مراد بك: تعيش وتبقى .. مات

محمد بك: مات أبوكما ؟

مراد بك: أجل . هو ذا يدمى وراء العصائب

محمد بك: جريح ؟

مراد بك: أجل لكن قضى من جراحه

محمد بك: قتيلٌ ؟

مراد بك: أجل ثاوٍ وراء السباسب

محمد بك: وما تصنعان الآنَ ؟

مراد بك: ما أنتَ آمرٌ

محمد بك: هنالكَ حراسي وثَمَّ ركائبي

خذها إلى الفسطاط حتى تجيء بها
إلى قصرِها محفوفةً بالرغائبِ

وبعد غدٍ تجري على القصرِ نعمتي
ويأتيه برٌّ كالغيوثِ السواكب

آمال وهي منصرفة :

وداعاً أبي !

محمد بك صبراً جميلا أميرتي

ولا تفعلي فعل البواكي النوادب

آمال : عفا اللهُ عنه كان شيخاً مصلّياً

محبَّ اليتامى راغباً في المثاوب

لقد طلب الدنيا بمصر فنالها

فولّى إلى الأخرى وجوه المطالب

ستار الختام

الست هدى

السنن هدى

تمهيد

زمن الرواية : سنة ١٨٩٠ م
مكان الرواية : حى الحنفى ـ القاهرة
أشخاص الرواية :

السب هدى
الست زينب : صديقتها
خديجة
أسماء
بهية
اقبال
(من فتيات الجيران)
عبد المنعم المحامى : زوج الست هدى
حلمى : كاتبه
السيد العجيزى : من أعيان الريف وزوج آخر للست هدى

محمد أحمد عامر الشيخ الحلبى مصطفى النشاشقى	من أصدقاء «السيد العجيزى»

ألماز : أغا

رضوان : خادم

سلمان : مراب

الفصل الأول

« في دار صغيرة مؤلفة من : « مندرة » في الطبقة السفلى ، ومن سلم يصعد منه إلى قاعة صغيرة ، وثلاث حجرات ... والمنزل مطل على مسجد « أبي الليف » بحي « السيدة زينب » ! ... » .

« الست هدى » وجارتها « زينب » في إحدى الحجرات ... » .

الست هدى : كيفَ يا أختُ أنتِ؟...

زينب : نحن برَغْدٍ كلُّنا مابقيتِ أنتِ برَغْد

الست هدى : أنتِ يا «زينبُ» الوفيَّةُ بالعَهْد

زينب : ولِمْ لاَ أَفِي وخَيْرُكِ عِندِي ؟

نحن من أربعينَ عاما على خَيْرِ جوارٍ بين اثنتين وَوُدٍّ

الست هدى : لاَ ، بلِ العهدُ لايزيدُ على العشرينَ . . .

خَلِّي حِسابَه ، لا تَعُدِّي ! .

اسمَعي زينبُ ، اسمعي يا صديقي.لك هذا الدبُّوس

زينب : لِى أنَا ؟...

الست هدى : بَعْدِى

أنا أعطَيْتُ كلَّ صاحبةٍ شيئاً
وأنصفتُ فى الوصيَّة جُهدِى
مايقولُ الجيرانُ «زينبُ» عنى ؟

زينب : اترُكيهم ، لا تَحفِلى بالردِّ

الست هدى : يقولون فى أمرى الكثيرَ وشغلُهم
حديثُ زواجى أوحديثُ طلاق
يقولون إنى قد تزوجتُ تسعةً
وإنِّىَ واريتُ الترابَ رِفاقى

وما أنا «عِزْريلُ» وليسَ بمالِهم
تزوجْتُ ، لكن كان ذاكَ بمَالِى
وتلكِ فَدَادِينِى الثلاثونَ كلّما
تولَّى رجال جئْنَنى برِجالِ

فما أكثرَ عُشّاقى وما أكثر خُطّابى !..
ولولا المالُ ما جاءوا أذلاءَ إلى بابى ...
لستُ ما عشتُ ناسِيهْ لستُ أسلُو حَيَاتِيَهْ
أول البختِ «مصطفى» «مصطفى» كان سَارِيهْ

حـينَ يمشي تظنُّه نخلةَ « السَّرْج » ماشِيَهْ

رحمـةُ الله عليـهِ لم يكن يطلبُ مالِي
تلكِ « أبْعَادِيتِي » وَهْيَ جنونٌ للرِّجال
لم تـكن تخطر فى العـام له يوماً ببـالِ

لم يكن يَعنيهِ من ذَاكِ سوى قبضِ الإجارهْ
جعـل الله تعـالى جنةَ الخُلد قَرارَهْ

ماتَ فكدتُ أموتُ حزناً وكانَ عمرى عشرينَ عاما
ثم تزوجتُ بعد خمسٍ من ذايرَى فلتى حَراما؟!.

زينب : أجل!. تَعيشِينَ وتَدْفِنينا حتى تصيبي مِنهُم البنِينا

الست هدى : وزوجىَ الثانِي « عَلِي » ولم يَكنْ يصلُحُ لِي
يَالَيْتنِي لم أقبَـلِ

ذاكَ ، لِمَا لى اختارَنِي واختَرْتُهُ لمـالِهِ
ما كان إلا مُفلِسًا وقَمْتُ فى حِبالِهِ

يرحمُه الله ، وكان ذَا بَخَرْ
وكان إنْ يقعدْ وإنْ يقُمْ نَخَرْ
وإن مشَى تخرجُ أصواتٌ أُخرْ

يرحمه الله لقد عشنا معاَ
من السنينَ الصاخباتِ أربعاَ
ثم مضى لربه لا رجَعاَ

رحمةُ الله عليه جُنَّ بالنسل جُنوناَ
ثم لمَّا مَات، ما خلَّف لى إلاَّ دُيُوناَ

وماتَ لم تبكهِ عُيونِى وكان عُمْرى عشرينَ عَاماَ
ثم تزوجتُ من سِواهُ من ذا يرى فعلتى حَراما؟!.

زينب : أجل!.. تعيشين وتدفنينا حتى تُصيبى منهمُ البنينا

الست هدى : ولستُ أنسى زوجِىَ الرابعا
لا نافِعاً كان ولا شافِعا
قالوا: أديبٌ لم يروْا مثلَه ولقَّبوه الكاتبَ البارعا
قد زيَّنوه لىَ، فاخترتُه مااخترتُ إلاعاطِلاضائعا

رائحٌ أكثرَ الزمان على الصُّحْف مُغْتدِى
يكتب اليومَ فى «اللِّوا» وغداً فى «المُؤيَّد»
ليلَه أو نهارَه فارغ الجيبِ واليَدِ

ويُعجبُنى عند المُباهاةِ قولُه:
بنيتُ فلانا أو هدمتُ فلاناَ

وقد يُصبحُ المُبنيُّ أوضعَ منزلا
وقد يصبح المهدومُ أرفَعَ شانَا

رحمةُ الله عليه كان لا يحقِر مالاَ
كان إن أفلَس لا يسألُني إلا ريالاَ

ثم تزوجتُ بيوزباشي « قرْ »
نهَى كما شاء هَوَاه وأمَرْ
لقد وددْتُ أنه زوجُ القُمُرْ

لا عفا اللهُ عنه ، لا غفرَ اللهُ له ، لا ارتقَى لرُتبَةِ «صاغ»
لا عفا اللهُ عنه، قد كان لصًّا، لم يُردْني لكن أراد «مَصَاغي»

وطالما زَيَّنَّ لي أنني أبيعُ أو أرهَنُ أطياني
من اجل «يوزباشي» ؟ لقد ضلَّ ، لاَ
لاَ أشتري جيشا بفدَّانِ

لحاهُ الله كان مُنَى فؤادي
وفاكهتي ورَيحانِي وراحِي
وكنتُ أحبُّه ويحبُّ طيبِي
ويحلمُ بالقِلادة والوِشاحِ
وكان مُقامِراً شِرِّيبَ خمرٍ
يجيءُ البيتَ في ضوء الصباحِ

يكادُ إذا تورَّطَ في قِمـارٍ
يُقامِرُ بالنُّجوم وبالسِّلاحِ

عشنا ثلاثاً ثم افترقنا وكان عُمري عشرين عاماً
طلَّقني فالتمستُ زوجاً من ذا يرى فَعْلَتي حراماً؟!.

زينب : أجل تعيشين وتدفنينا حتى تصيبي منهمُ البَنِينا

الست هدى : وعشتُ عامين دون زوجٍ ثم تزوجتُ بالموظفْ
لم أنسَهُ منذ ماتَ يوما
ما كان أبْهَى!. ما كان أظرفْ!..
كان خفيفاً وكان حُلْوًا
ومن نسيمِ الربيعِ ألطفْ!..

ما كنت أدرى إذا تولَّى
أجبيُه أم قفاهُ أنظفْ!..

يرحمه الله مات ما وجدوا
في جيبه غيرَ قِطعتَيْ ذهَبِ!..
وسُبحةٍ من خزانتي سُرِقت
كانت على الرفِّ من وفاةِ أبي
وسَّمت في دفنه ومأتمهِ ولم أضِقْ عليه في رَجبِ

رحمةُ اللهِ عليه كان «جَخّاخاً» كبيرَا
كلَّ يوم يدعُ البيتَ رئيسًا أو وزيرا
ثم لا يرجعُ لي إلاَّ كما كانَ صغيرا

رحمةُ اللهِ عليه كان مشغولا بِطِينِي
كلَّ يوم بزبُونٍ أو بسمسارٍ يَجيئنِي
وفدادِينِيَ عندِي هي في الحفظِ كَدِينِي

ما كان في وجنَتِي يقبِّلُني بل همُّه في يدِي يقبِّلُهَا
وعينُه في خَوَاتِمِي أبداً يحدِّثُ النفس كيفَ ينشِلُهَا

ثم اقترنتُ بفقيهٍ عالمٍ في البلدِ
لا في الشيوخِ القُدَمَا ولا الشيوخِ الجُدُدِ
كهلٌ أخُو خمسينَ لكنْ في نَشَاطِ الأَمْرَدِ

زينب : عرفتُهُ ، ذاكَ الفقيهُ «الشيخُ عبدُ الصمدِ»
قد كانَ في « الخُطِّ » وجيهاً ومُقَبَّلَ اليَدِ
وكل من مرَّ به خاطَبَه بسَيِّدِي ! . . .

الست هدى : يرحمه الله لقد أدَّبنِي
حتى عرفتُ كيف تخضَعُ النِّسَا ؟

زينب : أنتِ ؟...

الست هدى : أجلْ ! .. أدَّبَنِي بيدهِ ورجلهِ وبالعصَا

زينب : كيفَ ؟... متى ؟

الست هدى : رأى غُباراً عالِقاً بجبهتي
ولم أكنْ أعلمُ من أينَ أتى ؟

فقالَ هذا التربُ من نافذةٍ
مَنْ كنتِ منها تنظرين يا ترى ؟..

وهاجَ حتى خِفتُ أن يقتُلَني
وشمَّر الذيلَ وجرَّد العصا

وجاء بالنجّار من ساعتِه
سدَّ الشبابيكَ وسمَّر الكوى

فقلتُ يهوَاني وتلكَ غيرةٌ
يا حبَّذا الزوجُ الغيورُ حبَّذا !..

وقبلَه لم أرَ من غارَ ولا
من ظَنَّ في قلبي لغيرِه هوى

يرحمه الله لقد مات على
سَحْري ونحْري بعدَ ما صلّى الضُّحى

مات ولم يرقُدْ له جَنبٌ ولا
بدَتْ عليهِ علةٌ ولا اشتكى

رحمة الله عليه لم يكنْ فهُ يذكرُ « أبعاديتي »
وإذا ماجاءني أوحشتُه لم يُقلِّبْ عينَه في « صيغتي »

لـكنه مُنذُ كنّا ما حلّ عقدةَ كيسِه
يفضّل الأكلَ منْ غيـــرِ مالِه وفلوسِـــه
كأنَّ الأزهرَ المعمورَ بيتي
هناكَ «جرايةٌ» وهُنا «جِرَايه»!.
خَلّفَ الشيخُ من الأولاَدِ ما يملأُ حَارهْ !...
قُسِّمَتْ ثروتُه فيهمْ فنَالَ الطِّفْل بَارهْ !...

عشتمع الشيخ نصفَ عامٍ
وكان عمـرى عشرين عاماً
ومات فاختارنى سِـوَاهُ
من ذا يَرى فَعْلَتِي حرَاماً ؟!...

زينب : أجل تعيشين وتدفنينا حتى تُصيبي منهمُ البنينا
الست هدى : أتذكرينَ بعـدَه من جاءَ بَيْتِى يخْطُبُ؟!.
زينب : منْ ذَاكَ ؟ منْ ؟
الست هدى : أنتِ الَّتِى جِئْتِ بهِ يا زيْنَبُ!..
زينب : «مهْدِى» القاولُ الثَّرِي المْتَلِي مِنَ الذَّهبْ
الست هدى : قد ذَهَبَ اللهُ بهِ أَجَلْ!. إلَى النَّارذهبْ!.

لم ينسَ أن يذكرَ «أبْعَادِيَّتى»
ما للغبىِّ ، ولطينى مَالَهُ ؟!

ولم يكن عند الطعام يَستَحِى
يأكل مالِى ويعدُّ مالَهُ !...

يرحمه الله وإن لم أر لَونَ قرشهِ
عشتُ اثنتين معهُ لم أنتفعْ بفَرْشِهِ
لو لم يَمتْ لمتُّ من جَخِّــه وفَشِّــه
كأنَّما تسرَّبتْ عمارةٌ فى كِرْشِهِ
يَدِبُّ كالحلُّوفِ فى خُرُوجِهِ من قَشِّه
وما استرحْت ليلةً من طَحْنِهِ ودَشِّه
ومن تِلالِ جيرِهِ وَمنْ جِبالِ «دبْشِهْ»
ظللْت عامين فى بلاءٍ وكان عُمرى عشرين عاماَ

ومات « مهدِى » فاعتضتُ عنه
من ذا يرى فَعْلتى حرَاماً ؟!..

زينب : أجل تميشين وتدفنينا حتى تُصيبى منهمُ البَنينا

الست هدى : ثم اقترنتُ بمُحامٍ عاَطِلٍ
شِرِّيبِ خمْرٍ يحتسِيها فى الضُّحى
قلّتْ دعاويهِ وقلَّ مالُه
وأصْبَح المَكْتبُ منهقدْ خلا!..

عبد المنعم الحامى: « زوج الست هدى ، وهو سكران ، يصعد السلم » :

هدَى ، ضلالٌ ، أين أنتِ ياهدَى ؟
أين العَجوزُ ؟ أين جدّتى هدَى ؟

الست هدى : وَاَنَــكَدا « زَيْنبُ » واداهيَتاَ
لقد أتى لم أَدْرِ من أيْنَ أتى ؟!.
يشتمُ فى السُّلَّم

زينب : خلِّيهِ دعى لاتفرِضيهِ غيرسكْرَانِهذَى!.
رأيتُه ،

الست هدى : و كيف ؟

زينب : منْ تحتُ وقدْ
كانَ من السقْف أطلَّ وانحنى
وكانتالحارةُمنّاً امتلأَتْ فأرسلالقيْءعليناَورمى!.

الست هدى : القىء ؟ ماذاَ قلتِ ؟

زينب : قلتُ ما رأتْ عينىومامرَّعلى رَأْسىوَماَ

عبد المنعم : « وهو بالسلم »
هدى ، عجوزَ النَّحْس ، أنت قردةٌ
خطوطُك الوحلُ وكُحْلُك العَمَى

الست هدى : سمعتِ يا زَيْنبُ ؟

زينب : خلِّيهِ ، دعى

لا تفرِضيهِ غيرَ سكرانَ هذى

ومرةً جاء « أبا الليف » ضُحًى

أذَّنَ فى الناسِ يُصلُّون العِشاَ

فضيحةٌ فى الخطِّ !

الست هدى : وَافضيحتاَ

زينب : ما شهدُوا فى « الحَنفىِّ » مثلها

عبد المنعم : « وهو بالسلم »

هدى تعالَىْ يا عتيقةُ اظهَرِى

عندى لك النَّعلُ وهذه العَصاَ

الست هدى : سمعت يا زينب ؟

زينب : خلِّيه ، دعى

لا تفرضيهِ غيرَ سكران هذى

الست هدى : دعيهِ يهذى ما يشاَ غداً ترينَ زينبُ

فى غـدٍ لى وَله شأنٌ ، غداً يُؤدَّبُ

زينب : وماَ الذى عـزمْتِ ياَ حبيبتى أن تصنَعى

الست هدى : أقذف فى القسم به وأشتكى وأدّعى
إن رجال القسْم ، والنّائبَ والقاضى معى !..

«لزوجها»

لَتندَمنَّ يا لُكعْ يا من يَقومُ ويَقعْ

عبد المنعم : « وهو بالسلم »
ماذا سَمِعتُ ؟ صوتها ؟ أأنتِ بومتى هنا ؟ !..
الآنَ لجُمّيْزةَ « الخطّ » أُريكِ مَن أنا ؟ ...

زينب : هُدَى ، حبيبتى اسمعِى تعالىْ اهربى مَعى ! ...

الست هدى : أنا ؟

زينب : اسمعِى ، دَعِيهِ ،

الست هدى : لاَ

زينب : دَعيهِ يا هُدى ، دَعِى ! ...
لا تُغضبيهِ إنهُ مُمتلئ ، ليس يَعى ! ...

عبد المنعم : « وهو بالسلم »
هدى ! . هدى ! أين هدى ؟
أين العَجُوزُ الباليهْ ؟ ...
أين مضيْتِ بومَتى ؟ أين ذهبْت خفّتى ؟
خدّاكِ ضِفْدِعتَانِ قدْ أَسنّتا
وأُذُناكِ عقْرَبَانِ من قِنا

وحاجباكِ وَالخطوطُ فيهما
كدُودتَيْنِ اكتَظَّتا منَ الدّما

وبينَ عينَيكِ نِفارٌ وجفاَ
عَيْنٌ هناكَ خاصمتْ عيناً هناَ !..

الست هدى : دعِيني أُقطّعْ عليهِ الحذَاء وأجْزِ الوَقاحَ على ذنبهِ
دعيني أَضْرِبْهُ حتى يُفيـ
قَ فلابدَّ زينبُ من ضرْبِهِ ! ..

زينب : قد جاء ... هيَّ نتقي جنونَه وهَوَسَهْ
في يمينِه العصاَ وفي الشّمال المِكنَسَهْ
سكرانُ يضربْ إذن لنهربْ هلمَّ زينبْ
هذهِ حجرةُ نومي أسرعي زينبُ فيهاَ
نحنُ يازينبُ لا نكبحُ سكرانَ سَفيهاَ

« تدخلان الحجرة ، وتستتران وراء الباب »

عبد المنعم : « وهو داخل يترنح »
هدى ذاتُ القداديِن هدى

الست هدى : فكِّرْ في طيني

عبد المنعم : من لىَ بالزبرجدِ ؟ من لىَ بالزُّمُرُّدِ ؟
ياليتَ ذاكَ في يدي ! ...

الست هدى : سمعتِ ؟ عبدُ المنعمِ قد هام في خواتمي

« يجتاز « عبد المنعم » القاعة إلى حجرة نومه »

الست هدى : زينبُ انظرى ما الذى صنعْ ؟

زينب : جاءَ حجرةً ثمَّ فاضْطَجَعْ
فلندعْهُ فى النـــوم فلْندعْ
الآن أستودعك الله هُدى
محفُوظةً ،

الست هدى : لا تُهمليني زينبُ ! ...

« تخرج زينب »

« تسمع ضجة بالسلم ... »

الست هدى : ما الصوتُ ؟ . . .ما أسمعُ ؟ من يا تُرى ؟
ما هذه الضَّجَّة فى السُّلَّم ؟

هذا خطُوطى وكُحْلى وتلك صبغةُ شعرى
لم أنس حُمرةَ خدِّى لم أنس زينةَ صدْرى

وهذا الثوبُ ما أبهى !. وهذا الخُفُّ ما أحسنْ !.
ومنديلى على رأسيَ ما أحْلى ! .. وما أزْيَنْ !...

وهــذه خَواتمى بهـا يدِى مُرَصَّعهْ
وهــذه قلائدى فى لَبّتى مُلَمَّعهْ
اقترب الصوت وتلك أرجلُ
تَدِبُّ عند البابِ ، مَنْ ؟

أصوات : هل ندخُلُ ؟؟

الست هدى : ادخُلْنَ ! .. أهلا وسهلا ومرْحباً بالحبائب

« تدخل أربع فتيات من بنات الجيران : « خديجة » و «أسماء » و « بهية » و « إقبال »

خديجة : صباح الخير يا عمةُ

الست هدى : صُبِّحْتُنَّ بالخيرِ

« خديجةُ » ابنتي هُنا ؟ هذا هو التفضُّلُ !..

خديجة : إنْ أنا بالعمَّةِ لم أسلْ ، فعمَّنْ أسألُ ؟..

الست هدى : أنتِ ابنتي ستأخُذِينَ خاتَمِي الزُّمرُّدا !..

خديجة : اليوم يا عمةُ ؟ ..

الست هدى : لا ! ..

خديجة : متى إذن متى ؟ !

الست هدى : غدًا ! ..

من بعدِ موتى ،

خديجة : لا تموتى ، أنا عمتى الفِدا ! ..

الست هدى : « لأسماء »

: وأنت يا أسما إذا متُّ غدا

أخذْتِ هذا الخاتم الزبرجدا

أسماء : لا كان يا عمةُ عشتِ الأبدًا ! ..

اقبال : أسماء يا عمةُ مخطوبةٌ ،

الست هدى : لِمَنْ ؟

اقبال : لشيخ عمدة في الصعيد !

الست هدى : حـــذارِ يا أسماء أنْ تَفعَلِي

أسماء : أنا ؟ أبي يَختارُ لِي منْ يُرِيدُ !...

الست هدى : قُولِي لهُ : العُمْــدَةُ جَرِّبْتُهُ

أسماء : أقولُ ؟ مَنْ يَسْمَعُ أوْ مَنْ يَعِي ؟...

إن أبي صعبٌ ولا أجترى

الست هدى : إذَنْ دَعِيني أنَا أفعل ، دعِي !...

« لبيبة »

وأنت يا ابنَتِي ؟

لبيبة : خُطِبْتُ من زَمَنْ

الست هدى : مِنْ زَمَنٍ ؟ تبارَكَ اللهُ، لِمَنْ ؟...

لبيبة : لضابطٍ في الجيش !

الست هدى : ضابطٌ ؟

لبيبة : أجلْ ! ...

الست هدى : أحْسَنْتِ ، أحْسَنْتِ ، تَخيَّرْتِ الرجلْ ! ...

لبيبة : ما اخترت يا عمّتي ولكنْ أبي وأمّي تخيّرا لِي !...

بناتُ مصر يُخطَبن لكِنْ لا يتناقشْنَ في الرجالِ !...

نُباعُ يا عَمّتي ونُشْرى ما نحن إلا عُروضُ مالِ !

الست هدى : «لأسماء»

وكيف أختُك «بنبا»

أسماء : تقبِّلُ اليدَ

الست هدى عشتِ

أسماء : مخطوبةٌ هيَ أيضاً!...

الست هدى : ماذا تقولين بنتي؟ .

مَنِ الكبيرةُ؟ «بَنْبا» أمِ الكبيرةَ أنتِ؟...

عمرُكِ بالتَّخمين

أسماء : لستُ خالتي مُخَمِّنَهْ

في رجبَ الّذي مضى أتممْتُ عشرينَ سَنَهْ

الست هدى : عشرون أنت يا ابْنَتي إذنْ فما عُمْري أنا؟

أسماء : ستُّون يا خالَةُ؟

الست هدى : صَهْ لم أرَ مِنْكِ أرْعَنا

أسماء : خمسون يا سيِّدَتي؟!

الست هدى : كذبْتِ كِذْباً بَيِّناً

أسماء : إذن ففي العشرينَ يا خالةُ أنتِ وأنا!

الست هدى : هذا الحديثُ عَبَثٌ خُذِي بنا في غيرِهِ!

كل امرئ داخلها برزقهِ وعمرِهِ

خديجة : أُسكُتى أسماء خلِّى السنّ ما هذا الفضُولْ ؟ ...
هى يا خالةُ حمْقى ليْس تدرى ماتقُولْ ! ...
أنتِ يا خالةُ فى وجْهك قد خُطَّ القَبُولْ ! ...
لا مشيبٌ لا اصفرارٌ لاغُضونٌ لا ذُبُولْ ! ...

الست هدى : سمعتِ أسماء ؟ علِّميها ما القوْلُ ؟

خديجة : بل أنْت عَلِّمينا ! ...

الست هدى : صُنَّ جمالَ الوُجُوه صوْناً فالسنُّ بالوجهِ لاالسِّنيناً !.
« يسمع صوت خارج الحجرة »

ماذاك عنـد الباب ؟ صوتُ رجلٍ ؟

القادم : سيدتى ! ... أَدخلُ ؟

الست هدى : « ألماز » ، ادخُلِ ! ...
« ألماز »أغا ! ...

الأغا : سيِّدتى ! ...

الست هدى : يا مرحباً يامرحباً ! ...

الأغا : أرسلَتنى حرمُ الباشاَ

الست هدى : أعِدْ

الأغا : أرسلتْنى حرمُ الباشاَ إليكِ

الست هدى : هذا أغا الباشاَ اقتربْ ماذا وراء القادمِ ؟

الأغا : أحمِلُ يا سيِّدتى تحية الهوانمِ ! ...

الست هدى : بالله « ألْمَازُ » إلا جلستَ بالقُرْب منِّى
تُحِبُّ بنىٌّ مُجَرَّب بُنٌّ السَّراى وَيُنِّى

« تناوله قهوة »

ما للهوانم « ألمــازُ » ليس يسألنَ عنى ؟!...

الأغا : نسيتِ يا سيِّــدتى أمسِ ، أما كُنَّ هُنَا؟...
الست هدى : ومن أنا حتى تزورنى الشُّمُوسُ منْ أنَا ؟ ! ...
الأغا : واليوم يا سيِّدتى أرسلْتَنِى بالمرْكَبَهْ
الست هدى : جئتَ إذنْ فى طَلَبى ؟
الأغا : أجلْ ، وتحتُ الْعرَبَهْ
الست هدى : أيّتهنَّ يا أغَا ؟
الأغا : « فيكتُوريا » ، القفلهْ ؟
ذاتُ الرَّفَارِفِ الخفَافِ والسُّتُور المسْدله ؟

ركوبةُ الهانمِ فى الأعْيَـادِ والمـواسم ؟
إلى السرايات مِنَ الإنشَا إلى الهيَاتم ؟

الست هدى : « للفتيات »

«الجَوانْتى»هُنَاكْ « أسما » انظُرِيه
أُنْظُرِى يا « خديجةُ » الْفرَجيَّهْ

« وهى تلبس »

انظُرِى « إقبالُ » ما أجمل هذى الفرجيَّا
انظُرِى شالىَ « أسما » كيف حلَّى كتفيَّا

ثم انظرا هناك يا بنتيَّ فوق الكنبه
مروحةً من النعام بيدٍ مذهبه
وخليا هناك لى مروحةً
عاجاً وأخرى كلها من الصدفْ

خديجة : « همساً »
أسماء ! ...

أسماء : أختى ! ...
خديجة : أبيتٌ أم معملٌ من مراوحْ ؟ ! ...
أسماء : ما تصنعينَ خالتى بهذه المراوحِ ؟ ! ...
الست هدى : أنا ابنتي مولعةٌ - بها وبالروائحِ ! ..
ذكرتنى « أسماء » لا تنسَى الوردَ -
على الرفِّ ولاَ الياسمين

أسماء : خالةُ ماذا ؟
الست هدى : كلُّ شيء عندى
أسماء : أأنتِ سمانُ أم اللاوردى ؟
الست هدى : « أسماء » تعالَى انظرى
كيف ترَيْنَ رجليَا ؟ !

هذا الحذاء هل ترُى
يليق للفكتوريا ؟ ! ...
أسماء : خالة لا تُبدِّ لى
هذا الحذاء « مملكةٌ » ! ...

الست هدى : الله يا بُنَيَّـتى
يطرح فيكِ البَرَكَهْ ! ...

« للآغا »

« أَلماز » هيَّ ننطلقْ طالَ وقوفُ العربَهْ
لا أحدٌ في الخُطِّ إلاَّ استوقَفَتْهُ العَرَبَهْ
لخَـارة قاعـةٌ وحارةٌ مُنقلِبَهْ

الأغا : سيدتي لا تخافي مركبتي لا تَحزَنْ
الست هدى : «أَلماز» أنتَ ظريفٌ ومركباتك عِـزْ

« الفتيات »

قد آن أن أجيبَ دعوةَ الأغا
هيَّ ابنتَيَّ هيَّ أَلبسانِي

« الفتيات يشتغلن بلباسها ... »

الست هدى : « لخديجة وأسماء »

أنت ابنتي وهذهِ فتاتِي بناتُ جاراتِي وصاحباتِي
إذا حُرِمْتُ النسلَ هنَّ بناتِي

وكل ما فوقَ صَدْرِي وفي يدِي من «مصاغِ»
وكل شيْءٍ ببيتي لَكُنَّ بعدَ دماغِي

ســتــار

الفصل الثاني

« في قاعة الدار »

« عبد المنعم يتناول طعام الفطور ... الست هدى »

« عبد المنعم ينادي حلمي الكاتب وهو تحت . . . »

عبد المنعم : حلمي ! . . . تعالَ ! . . .

حلمي : سيِّدي ! . . .

عبد المنعم : تعالَ يا ابني إصعدِ

« يحضر حلمي »

تعالِ قرِّبْ « شَلْتَةً » تعال هُهُنا اقعُدِ

صُبِّحْتَ بالخيرِ أهلا

حلمي : يا صَبَّحَكَ السعادة ؟ . . .

هذا الفَطورِ سيدي بصحةٍ وعافيهْ ! . . .

عبد المنعم : تعال جرِّب هذه الصناعهْ

حلمي لقد أكلتُ الفولِ منذُ ساعهْ

عبد المنعم : تلك بضاعةٌ وذى بضاعَهْ

حلمى : « وهو يأ كل »
الفول يا سيـدى لذيذٌ

عبد المنعم : الفولُ من حارة النصـارى
والعيش من مخبز الزمالى

الست هدى : والزيت من مَعْمل «البَدَارى»

عبد المنعم : البدارى ! ما تِلْك ؟ لا تِلْكَ سوقٌ
قد سمِعْنَا بها ، ولا تلك حارَهْ ! . . .

حلمى : وليمـونُكِ يا هـانمُ

الست هدى : كالشهـدِ وكالسُّـكرْ

حلمى : ومن أين به جئ ؟

عبد المنعم : من الجنّة والكَوْثرْ ! . . .

الفول يا حلمى لذيذٌ فكلْ
وخلِّ ما تسمع من دَشِّها
فما على الدنيا سوى أكلها
ولا على الأرض سوى فَرْشِها

كلْ ، كلْ ، ولا تُصغِ لها فإنها مُمَخرِقَهْ
وكل شىء لم يكنْ قادرةٌ أن تخلقَهْ

الست هدى : لا أيها الفاضل ، لا ما أنا بالحاميَهْ ! . . .
أثير من شقشقة زوبعة فى آنه ! . . .

حلمى : وما ذاك يا سيِّدى فى يديك ؟

عبد المنعم : ألذّ من اللّبن المزبدِ
زبيبٌ ! ! . . .

حلمى : على الرِّيق ؟ ! . . .

عبد المنعم : لا يا غبىُّ ! . . .
على الفول ! . . .

حلمى : أفْطرُ يا سيِّدى ! . . .

الست هدى : نحن ياحلمى هلكْنَا أصبحَ المنزل حانَهْ
صار لا يكفى المحامى كلَّ يومٍ «جدانَهْ» !...

زينب : « لدى الباب »
الموافى ! ...

عبد المنعم : صوتُه لدى الباب

الست هدى : هذى زينبُ جارتى ، تعالَىْ تعالىِ
« لزوجها »
خبِّىء الخمرَ أخْفِ ما أنت فيه

عبد المنعم : دعْنى ، دعْنى ، ما لكنَّ ومالى ؟ . .

الست هدى : ادخُلى جارتى ادْخُلى ، هىَّ خُشّى
« لزوجها » خبِّىء الخمر ! . . .

عبد المنعم : أتْرُكينى وحالى

الست هدى : أدخُلي زينبُ ادْخُلي لا تَهابي

زينب : مَنْ هُنا ؟ قد سمعت صوت رجال ! . . .

الست هدى : الأفندي وسِكرتير الأفندي

ادخُلي ، لا غريبَ زينبُ عندي

زينب : الأفندي وتقولين ادخلي ؟

الست هدى : ادخلي ليس سواه ها هنا ؟ . . .

ما الذي تخشَين ياأخت ادخلي

زينب : لا ، دعيني ! . . . أنا لم أنْس العَصا

«زينب تنصرف مذعورة ، ويظهر «ألماز أغا» لدى الباب»

ألماز أغا : صباح الخير يا هانمُ

الست هدى : مَن ؟ صُبِّحتَ بالخير

«لزوجها»

هذا أغا الباشا أتى وفيم جاء يا تُرى ؟ ...

إرم الزبيب من يديك فهو من أهل التُّقى

عبد المنعم : لينصرف لشأنه فما لَه وما لنا ؟ . . .

الست هدى : إرم الزبيب قلتُ

عبد المنعم : لا

الست هدى : يستهزئ الناس بنا

قم امض حلى بالزبيب ، بل به أمضى أنا

« تخبيء الزبيب ... فيدخل الأغا

الأغا : سيدتِى ، عندكِ ناسٌ ؟

الست هدى : ماسوَى زوْجِى هُنا

أغا : « للزوج »
عافيــةً ياســيدى هذَا فطورٌ أم غَدا؟...

عبد المنعم : ادْنُ تفضَّل ، كلْ معى فولٌ لذيذٌ ياأغا

الأغا : بصحة يا سيدى أكلتُ من وقتٍ مضى

عبد المنعم : لا ، لا ، بل ادخُل ياأغاَ ادخُل مكاناً غيرَ ذَا
هذا المـكانُ قذرٌ خذيه ثمَّ يا هُدَى

الأغا : ياحبَّذا المجلسُ لولاشُغُلٌ داعٍ لقضَّيتُ النهارَ ههُنا

حلمى : وما الذى يشغُلكَ الآن ؟

عبد المنعم : ومايعنيك يا أحمقُ من شأنِ الأغا ؟
الأغواتُ تنقضِى أعمارُهم بين السَّرايات هناكَ وهنا

« همساً »
اتركه يمضي يا غَبِى فلا أريدُه هُنا

حلمى « للأغا » : أنت ظريفٌ ياأخِى

الأغا : أنت الظريفُ لا أنا
« للمحامى »
مـاسم أخينـا ؟

عبد المنعم : ذاكَ « حلمِى » كاتبى

الأغا : الســكرتيرُ ؟.... مَرْحَباً يامَرْحَبَا

والآنَ في حراسة الله

حلمي : انتظرْ ياسيدي ! ...

عبد المنعم : «همساً»

دعهُ ! . . .

حلمي : انتظرْ نَخْرُجْ معاً

عبد المنعم : وأين ياحلمِي؟

حلمي : أشيِّعُ الأغاَ

الأغا : لا سيدي بالله

حلمي : لا ،

الأغا : بل ابْقَ !

حلمي : لا ! . . .

الأغا : لي كِلْمَة ياسيِّدِي أقولُها للهانِم

عبد المنعم : «مبتسما» اذهبي مع الأغا هُدى

الأغا : ياسيدي الهانمُ أختي. لا تخفْ

حلمي : أنظر إليه ما أخفَّه دماً ! . . .

عبد المنعم : إمضِي هدى هلُمَّ شيِّعي الأغاَ

الأختُ ياهدى تشيع الأخا

«السيدة والأغا يخرجان»

الحمـــد لله على نعمتـــه زال العـنا

أشربُها ؛ فلا هدى ولا الطواشيُّ هنا

لي ساعةٌ ما ذاقَها أنفِي ولا ذاقَ فمي

«ويخرج الكأس من مخبئها بين قدميه»

حتى لَكِدتُ من ظَمى أشربها بقدى
حرمت منها ساعةً وأنتَ كنتَ السبَبا
سبحان من لم يُعطِك الفهْم وأعطاكَ النَبأَ
الآن تأتى هدى فكن فطناً حلمى وكن ثعلباً وكن حذرا
إن هدى ذئبة

حلمى : علىَّ أجِلْ
سوف ترى ما أكون ، سوف ترى

ما ذاك أولُ نصب جرَّبتَ فيه صبيَّك

عبد المنعم : احفظ لسانك حلمى فالُ زوجىَ مالى
حلمى صهٍ هاهى ذى عائدةٌ

حلمى : من يفتحُ الحديث ؟ أنتَ أم أنا ؟

عبد المنعم : بل أنت ثم خلِّ لى تمامَه

حلمى : ولِمَ لا نقتحم النارمعا

« تدخل هدى »

عبد المنعم : هدى

الست هدى : لقد كنتَ غليظاً جافياً
ولم تعظِّم الأغا

عبد المنعم : قد كنتُ مشغولا بلقمتى هدى

الست هدى : تماقرُ الخمر ضُحى ! . . .

ولو رآكَ لجرتْ فضيحة

عبد المنعم : لـكن مضى وما رأى ! . . .

حلمي : رأيتِ سيدي وكيف ساسَهُ وكيف دارىَ واتّقى ؟!
لأجل عينيكِ رمى الزبيب منْ يديْهِ

الست هدى : ألرِّجْسَ رمى ! . .

عبد المنعم : الآن أَصغِي يا هدى مسألة آن بها أن يُعتنى

الست هدى : وبمْ تريدُ أَعتنى ؟

عبد المنعم : بمكتبى ،

الست هدى : وما الذى له جرى ؟

عبد المنعم : يكادُ مكتبى يكون مقفلاً

الست هدى : ما ضَرَّنى أن يُقفلا ؟!..

حلمي : سيدتى المكتب «أبعادية» هل تتركانه سُدى؟!
غلَّته ألفان كلَّ سنةٍ

الست هدى : وكيف ذاك ؟ ومتى ؟

حلمي : بل زاد عن ذلك يا سيدتى
بالأمس ، من عامٍ مضى

الست هدى : وما الذى تريدُ أن أصنعَه ؟

حلمي : مُدّى لزوجك اليدَا

الست هدى : وكيف ياحلمى ؟

حلمى نبيعُ الطينَ أو نرهنُه إلى مدى

الست هدى : طينى أنا أبيعُه، أرهنُه ؟ ماذا تقول يافتى ؟ ..

حلمى : لقد عرضتُ صفقةً رابحةً

إن أُنقذ المكتب أنقذْنا الغنى

الست هدى : حلمى تعقّل ! ..

حلمى : دعيني « المترُ »[1] أُغرق دينْنا

كنا نقيمُ الدعاوَى صارتْ تقامُ علينا

فى كل يوم يطلبون « المتر » بالمقدَّم

ويلى عليك سيدى ويلى على معلّمى

غدا ترىْ سيدى فى قفص التّهم

الست هدى : « لنفسها »

أتسمعين يا هدى ؟

إبكى هدى ، انْدُبى ، الطِمِى ! ..

غدا يقولون : هدى تزوجت بمجرمِ

حلمى : المحامى عليه للناس دينٌ

تصلحُ الحالُ حين نخلْص منه

دَينُه أنت تقدرين عليه

مائتا ليرةٍ[2] ؛ فأدِّيه عنه ! ..

---

(١) أى الأستاذ المحامى

(٢) الليرة الجنيه

الست هدى : أؤدى الدينْ ياحلمى ؟ ومن أين ؟

حلمى : من الطِّين

الست هدى : وماذا بعدُ يبقى لى إذا بعتُ فدادِينى ؟

« لنفسها »

لولا فدادينى وغلاتُها ماطاف إنسان على بابى

بهاتزوجتُ وفى قطنها كفَّنت أزواجى وخُطَّابى

« لحلمى »

أنا أؤدى الدين عنه ، أنا

ما تستحى يا شابُّ ما تخجلُ ؟

حلمى : ألست يا سيدتى زوجه والزوجُ عن صاحبها تحمل

الست هدى : أحمل عن مستهترٍ يومَه وليلَه سكران لا يعقل ؟

« تنادى »

رضوان !...

« يدخل رضوان »

رضوان : منْ ؟ « ستى » ؟

الست هدى : « همساً » رضوان !...

رضوان : مولاتى !...

الست هدى : اذهب على الفور أدعُ صديقاتى

« يخرج رضوان »

« عبد المنعم يتمشى مغضبا »

عبد المنعم : «لحلمي»

قد قلتَ ياحلمي الصواب إسمي هذا هو الصدق هدَى
مكتبيَ الثروةُ مكتبي الغنى لا مكتب إلا أنا

الست هدى : أنت ؟ لأَنت حانة تنقلتْ وأنت برميل مشى
وأنت شيء في الرجال ضائعٌ وعالةٌ على النسا

حلمي : سيدتي لا تشتمي سيدني لا تغضبي
طينك قد تُرجمه قضيةٌ في المكتب

عبد المنعم : إنيَ لم أخطبْكِ يا هدَى لفرط حسنِكْ
ولا تزوجتُك يا صغيرتي لسنكْ
ولا وقعتُ في البلا ء لسوادِ عينِكْ

الست هدى : إذن لطيني بي تزوجت ؟

عبد المنعم : أجلْ لطينكْ ! ..

الست هدى : وأنا يا محاميَ الشوم ما اخترتُك للقبح والحيا العميمِ

عبد المنعم : هذر بيِّنٌ وقولٌ هراءٌ لِمْ إذن قد قبلْتِني لك بعلا

الست هدى : ذكر الخاطبون فضلك عندي
فإذا أنت لست للفضل أهلا

عبد المنعم : إذن دعي الزبرجدا لي ودعي الزُّمرُّدا
وكلَّ ما حلَّيتِ منه الكفَّ والمقلَّدا

الست هدى: : ولمْ ؟ قل لى : أمالُ أبيكَ هذا ؟
أأمك خلفتْ هذِى الحُليّا ؟

عبد المنعم : ألستُ الزوجَ ؟
الست هدى : لا ما أنت زوجٌ
عبد المنعم : فما أنَا ؟
الست هدى : بل طُفَيْلىٌّ عليًّا

عبد المنعم : هاتِ مصوغك !..
الست هدى : لا
عبد المنعم : إذن لابد لى من فلْق رأسِك

الست هدى : تضربنى ؟ أهكذا يكون شكرُ الحسنَهْ ؟
« وتتناول عصا »
تضربُنى أنـا التى تأكل زادى من سنهْ

عبد المنعم : حلمى !... تقدّمْ نحوها خذ العصا من كفها
حلمى اختطف منها العصا

حلمى : ما حاجتى بخطفها ؟
أما تراهـا كاللّبـاة فى مشـار عُنفهـا

عبد المنعم : طِرْ ياجبان ، وانتزع من الخبيثة العصـا
حلمى : بل الجبانُ من يُجرِّدُ العصـا على النِّسا
تريد أن تأخذ بالقوة منها مالها ؟
فما لها لا تستميت فى الدِّفاع مالها ؟

الست هدى : يا ويلتا واخجلى وعارى لى رجلٌ بأذُنْ حمار
أضحوكةُ الجارةِ شغلُ الجار لم يُرَ إلا طائفاً فى الدار
ثيابُه كفُوطة الخمّار تنضحُ بالليل وبالنّهار

عبد المنعم : أتسمع حلمى كلام العجوز ؟ وماتقذف الرِّمّةُ الباليهْ ؟
أخذتُ عصاى لتأديبها فجُرَّ عصاك وقفْ ناحيهْ

حلمى : رأيت رجالاً يضربون نساءهم
فشلّت يمينى يوم تُضرب زينب(١)

« تدخل زينب ثائرة ووراءها نساء من الحارة »

زينب : من قال تُضربُ زينبُ ؟ من قالها ؟ أنا أضربُ ؟
: من قال ذلك ياهدَى ؟ لأريه كيف يؤدبُ ؟..

الست هدى : ما قالها كاتب المحامى وإنما قالها المحامى
زينب : إذنْ هو السكّير يا أختْ
الست هدى : أجلْ

زينب : ماتستحى تقول ذاك يارجلْ ؟
منذ متى فارق وجهك الخجلْ ؟

الست هدى : دافعى زينب عنى شاركينى ما أقاسى
منذ حين أوعدَ السكّيرُ أن يَفلق راسى
إن أنا لم أعطه دُرّى وياقوتى ومَاسى

---

(١) بيت قديم ..

زينب : إذن دعيني هدى دعيني أُنزِلْ على زوجك انتقامي

عبد المنعم : حلمى تأملْ هــذه عصابةٌ
من خدم البيت ومن بعض النِّسا
قد نظرتْ في البيت حتى جمعتْ سلاحها من ههنا وههنا
زحَّافةٌ مكنسة مِغْرفة ونحن ما في يدنا غيرُ العصا
حلمى تأهَّبْ إستعدَّ دافعِ

حلمى : قفْ أنت ، عن رأسك حامِ ، رافعِ . ا .
أسامعٌ أم أنت غير سامعِ ؟

انظر إلى الزَّحافهْ تدور في لطافهْ كعنق الزَّرافهْ

عبد المنعم : وتلك ؟

حلمى : تلك المِغْــرفة كالعقْرب المؤلَّفــهْ

النساء : « يضربن المحامى ويقلن »

اضربْنَــهُ حــتى يقــعْ
اضربْنَــه ، خــذ يا لُــكَعْ
كيف ترى ؟ أين الوجــعْ ؟

عبد المنعم : أجِرْنىَ حلمى تعالَ احمنى

حلمى : أنا ؟ خلِّنى ، خلِّنى ، أهربِ
علىَّ من اليوم لا تعتمد
فإنى استقلتُ من المكتبِ

عبد المنعم : « لحلمى وهو منصرف » :
قف يا جبانُ تعالَ !... قلتُ
حلمى : لا تنتظرنى إنى استقلتُ
أنت تمرضت لذا إبق!... خذ الزبرجداً..
وأنت كنت المعتدى أقم!... خذ الزمرّدا..
إنىَ مستعفٍ
عبد المنعم : والأجر ؟ ننساه ؟
حلمى : الأجر قد ضاع يعوّض اللهُ ! . . .
الست هدى : زينب تلك صخرةٌ بغير حسٍّ فاضربى
« تضربه »
أسما خديجةُ اضربا رضوانُ أدِّبْ أدِّبِ
هذا هو الفولُ فكلْ هذا الزبيب فاشربِ
خذ من يدى الزبرجدا خذ من يدى الزمرّدا
وخذْ إن اسطعْت اليدا
عبد المنعم : حسبى هدى كفى كفانى ضربا
قد كان هذا اليومُ لى مُخبّا
سلّمتُ رايتى فكفّى الحربا
الست هدى : إن أنا خلّصتكَ ماذا تصنعُ ؟
عبد المنعم : أذهبُ ! . . .

الست هدى ثم ؟ . . .

عبد المنعم : أبداً لا أرجعُ !..

الست هدى : اخْرجْ إذن وَلِّ القفا يا لُكَعُ

قف يا عجابى لِى استمعْ واسمعنَ يا مَنْ ههُنا

النــذلُ قد ردَّ الطلاق لشيئــتى أنـا

« تخرج عقد زواجها »

عصمتى منكَ فى يدى شهدتْ لى الوثائقُ

إمض يا نذلُ لا تُعدْ إنكَ اليوم طالقُ !..

ســتــار

الفصل الثالث

« بحجرة بالطبقة العليا من دار المرحومة « الست هدى » . « السيد العجيزى » من أعيان الريف وزوج المرحومة « الست هدى »

العجيزى : « لنفسه »

المـالُ صـار يا عجوزُ مالِى
وأصبحَ البيتُ وما حوَى لِى
من بَعْدِ عشْرةٍ من الرِّجال

نَعم رجال كثيرٌ ماتوا بحسرةٍ مَالِكْ
كنتُ الموفَّقَ وحدى لمـا ظفِرْتُ بذَلِكْ

الطينِ فى « بَنها » كافيلَ لِى
من أجوَدِ الأطيانِ فى الناحيهْ
وفى الضواحِى ياعجيزِى ابتهِجْ
ما قيمةُ الفدان فى الضاحيهْ ؟

والبيتُ مِلكٌ قيِّمٌ وإن مشى فيه القِدمْ
مُهَندَمٌ مُنَوَّرٌ من رأسه إلى القَدمْ

بأيسر البياضِ والترميمِ يحيا من عَدَمْ

ما قيمة البيت يا عجيزي
وما يساوي إن يبع يوما ؟

قد قيل لِي هي ألفٌ
وقيل ألفٌ ونصفُ

والفرشُ شيء حسنٌ الفرشُ لا بأس بهِ
لا بدَّ من تنجيدِهِ لا بدَّ لي من قلبهِ

الكنبَاتُ خشبٌ زانٌ وسنديانُ
قيِّمَةٌ يبدو على صانعِيها الإتقانُ

وهذه سَجادةٌ نادرةٌ ذاتُ ثمنْ
وهذه أخرى علَيها قد تقادَمَ الزمنْ

وصيفَةُ العجوزِ والحليْ
أين تُرى موضعُها الخفيْ ؟

أسْأَلُ « رضوانَ » فمالِي غيرُهُ من مُرْشدِ

« ينادي »

رِضوان ! . . .

رضوان : من ذاكَ يناديني ، أأنت سيدى ؟

العجيزى : رضوان أنتَ صادقٌ تعالَ «رضوان» اصعدِ!

« يحضر »

رضوانُ قل يا وَلَدى أين مكان الصيغَةِ ؟
فى أى موضع تُرى جواهرُ الميّتَةِ ؟

رضوان : « مَصَاغُهاَ» يا سيدى ليسَ هنا

العجيزى : أيْنَ إذَنْ ؟

رضوان : فى منزلِ الباشا « صفَرْ »
قد ذهب الأغا به فى عُلْبةِ

العجيزى : منذُ متَى ؟

رضوان : من نحو شهرٍ قد غَبَرْ

العجيزى : فى المرضِ الأخيرِ ؟

رضوان : فى أوّلهِ

العجيزى : وأين كنتَ ؟

رضوان : كنتُ فى بعضِ السفَرْ

العجيزى : أمانةٌ ثم تُرَدُّ

رضوان : سيّدى أعلم منّى بالدخائلِ الأخَرْ

العجيزى : وكنت أنت حاضراً ؟

رضوان : أجلْ حضرتُ يومَ ذاكَ ، وخدمْتُ منْ حَضَر

« صوت من الطبقة السفلى »

يا صاحبَ المنزلِ

العجيزى : مَنْ

الصوت : ثلاثةٌ محمدٌ وعامرٌ وأحمدُ

جئنا نراكَ ساعةً فقُلْ لنا

تنزلُ أم نحنُ إليكَ نصعَدُ

العجيزى : قد حللتم بداركمْ اصعدوا عِنْدِىَ اصعَدُوا

« لرضوان »

رضوان أجلسْهم هنا وحيِّهم حتّى أجِي

وجِئْهُمُ بقهوةٍ من عزَبانَ «القهوَجي»

« الثلاثة يصعدون »

رضوان : تفضلوا يا سادَتى الآن يأتى سيِّدى

« ويخرج »

محمد : ثروة ضخمة

أحمد : وخيْرٌ كثيرٌ

محمد : كلُّ هذا إلى العجيزىِّ آلاَ

أصبحَ الكلبُ بعد أن كانَ يمشى

ينفض الجيب أكثرَ الناسِ مالاَ

أحمد : و « المصاغُ » « المصاغُ » بالروح أفديه
فاذًا من لؤلؤ وزبرجدُ !؟ .

محمد : وهل نسيتَ يا أخى خاتمها الزمُرُّدا ؟!
فهم يقولون يساوى مائةً وأزيدَا !

أحمد : قد ارتدَى المُغفلُ الحريرًا
محمد : واتخذ الشاهِىَّ والكشميرَا
أحمد : إذا مشى حسبته أميرًا
وحذاؤه ، أرأيته ؟
محمد : لا ، كيف ، كيف حذاؤهُ !
أحمد : تسبيك رقته ويأخذ ناظريك بهاؤهُ ! . . .
والحزام الحزام ، رقعة كشميرٍ تمنيت أن أُكفَّن فيها
وكم وكم من قيِّمٍ قد اقتنى بعد السَّعَهْ
ذاكَ الحمارُ تحتُ مثلُ الشمعة الملمَّعَهْ

محمد : لا ياأخى الحمار شىءٌ من شهور أربعَهْ
قد اشتريتُه له وكنتُ فى السوق معَهْ
إن زاد شىء فاللجامُ أو يكون « البردعَهْ »

أحمد : الطين ياعامرُ الطين عجبْ !...
الطين أبعاديةٌ من الذهبْ

والبيت ياسيدى محمدْ البيت فخم البناَ مُشَيَّدْ

محمد : كم يا تُرى الأرض والمبانى ؟

أحمد : ألف ذراعٍ وقيل أزيدْ ! . . .

محمد . عامرُ لِمْ سكتَّ لِمْ وما ابتلاك بالبَكَمْ ؟ !

عامر : صهْ فى غدٍ أستأجرُ الطينَ

محمد : وكيف وبِكَم ؟

عامر : ذاك فنّى

أحمد : مذ كان يُستأجَر الطين

عامر : أجل تلك صنعتى يا عزيزى

فى غد تكتب الشروط وأمضى

نحو « بنها » أحتلُّ طينَ « العجيزى »

محمد : ما كالعجيزى رجلٌ يَدْرى اغْتنامَ الفرصِ

إنَّ « هدى » دجاجةٌ باضت لَهُ فى القفصِ

أحمد : وقد رأيتَ كيف كان دفنُها

قد دُفنت مثل فقيراتِ النِّسَا

عامر : لا ياأخى ظلمته إن الذى قام على المأتم والدفن الأغَا

جاء من الباشا ومن زوجَتِهِ

أخرجها « خرجة » عزٍّ وغنى

« يدخل العجيزى فيقول : »

العجيزى : يا مرحبا بالأحباب يا مرحباً بالصّحاب
: كذا أنْسَى، كذا أجنَى كذا عمّى لا يسألْ ؟

محمد : بنا شوق ولكنّا نرى المشغول لا يُشغَلْ

أحمد : ياعجيزىُّ عزاءً مرّةً أخرى عزاء
أنتَ قد أحسنتَ واللهِ وأظهرتَ الوفاء
مثل ما قد دُفنت ما دَفَن القومُ النّساء

محمد : وما الذى أنفقتَ ؟

العجيزى : خمّنْ ، قلْ على التوهّمِ ؟

محمد : أمِائةً ؟

العجيزى : فى الدفن ثم مثلَها فى المأتمِ

« زائر ينادى من تحت »

يا صاحبَ البيتِ !...

العجيزى : « لنفسه » قد صار لى بيتُ

الزائر : يبقى لنا الحىُّ ويُرحَمُ الميْتُ

العجيزى : « لنفسه »
: يرحمكِ اللهُ هدى خيرُكِ هذا عمّني

الزائر : تهانئي يا عجيزى لقد وَرِثتَ جليلا
تهانئي يا صديقى قد نِلتَ خيراً جزيلا

المجيزى : مَنْ ؟

الزائر : « مصطفى النشاشيبي »

المجيزى : أجئتني بعُلبتي ؟

الزائر : أجل ! ...

المجيزى : تعالَ اصعَدْ بِهاَ إصعَدْ ، معِي أحبّتِي

الزائر : معي الفقيهُ الحلبي

المجيزى : يا مَرحباً بهِ ، اصعدَا

« للحاضرين »

ذاكَ فقيهٌ من سبيل دينه عَلَى هـــــدى

أتعرفون الشيْخَ ؟

أحمد : قلْ عامرُ

عامر : سَلْ مُحمدَا

محمد : في « الزينَبيّ » قد سمعناهُ يرُجُّ المسْجـــــدا

ذاكَ الفقيهُ ليس بعدَهُ أحَدْ لـكـنه عندي مُزوِّرُ البَلَدْ

كم حلَّ بالفتوَى و بالفتْوَى عقَدْ

أحمد : ياحلبيُّ أنتَ حبلُ المشنقه

كم لك في الحارات من معلَّقهْ

لم يخل بيت لك من مطلَّقهْ

« يدخل النشاشيبي والشيخ »

العجيزى : هذا هوَ الشيخُ أتى يا مرحباً يا مرحباً

« الحاضرين »

استقبلوه وقِفُوا بين يديهِ أدَباً

« لرضوان »

البنَّ يا رضوانُ

الشيخ الحلبى : لا .. شيئاً من الكراوِيَهْ

العجيزى : اذهبْ جىء الشيخَ بها عاطرةً وصافيَهْ

النشاشقى : « همساً فى أذن العجيزى ، ويناوله العلبة : »

هذا النَّشُوقُ من نَشوق المُفتِي

يليقُ للوَارث زوجِ السِّتِّ

آخر : « ينادى من تحت »

صاحبَ البيتِ

العجيزى : سيدِى

الزائر : عِمْ صبَاحاً أنا عبدُ اللطيف شيخُ الحاره

العجيزى : مرحبًا مرحبًا تعالَ تفضَّلْ

« الحاضرين »

رجلٌ لا يرَى ثيَابَ الجارَه

الشيخ : « عند وصوله »

ولكن أنا ما قَدْرِى ؟ وهذَا مجلسٌ عالِ

العجيزى : « همسا »
تعالَ ، ما يقولُون ؟

الشيخ : صنوفَ القِيلِ والقَالِ

يعزُّونكَ بالمَيْتِ يهنُّونكَ بالمَالِ

« وهو ينظر إلى جوانب البيت »

تعالَى اللهُ ماأبْهَى ! ... تعالى اللهُ ماأوسعْ ! ...

مكان الأنسِ والبَسْطِ وبيْتُ النسوةِ الأربعْ

يرحمُها الله لقد كانت ملاكا محسناَ

ولم تقابلْ رجلاً في بيتِها إلّا أَنَا

فَكَمْ طعِمتُ وشربتُ وكُسِيتُ ههنا

البيت لما اشترتْه كان أبي شيخَ حاره

ولم تزلْ كلَّ عام تُجِيل فيه العماره

العجيزى : وأنْتَ ؟ . .

الشيخ : كنت ابن خمسٍ فلستَ أذكرُ شيًّا

إلا ليالِيَ عُرْسٍ لعبتُ فيها صَبِيًّا

لم يدخلِ البيتَ زوجٌ وفارَقَ البيتَ حيًّا

العجيزى : إذن فعمرُ البيت ستون سنَه

الشيخ : ومن يقولُ مائةً ماغَبَنه
فهم يقولون « الفرنسى[1] » سكَنَهْ

العجيزى : إذن فلقّبوه بالعتيقِ

أحد الحاضرين : والأرض والموقع يا صديقى ؟
آخر : البيت كله على الطريقِ

الشيخ : بل منزلٌ مباركٌ تسكنه فى عافيهْ
يكفيه ما حلّ عليه من جلالِ الناحيهْ
فأنت بين الحنفِىْ[2] والبتول الزاكيهْ[3]

لاتنس مَن جارُكْ إنك جارُ (الحنفِى)
الحاضرون : وكلنا خادمه وكلُّنا فى الكَنفِ

آخر : « يزعق من السلم ويقول : »
ياعجيزى ياصديقى

العجيزى : « فى اضطراب لنفسه »
ذاك داودُ المَنَفّى
ربما خلّط حقىْ
أضحك المجلس منى .

(١) المراد بالفرنسى نابليون . (٢) السلطان الحنفى رضى الله عنه .
(٣) السيدة زينب رضى الله عنها .

داوود : « من تحت »

أيها الوارث قل لى

أأعزّى أم أهنّى ؟

العجيزى : « للحاضرين »

ذاكَ داودُ المغنّى

قد أتى يسألُ عنّى

داود : لقدأتيتُ ومعى حميدهْ لكىأريها دارَك الجديده

العجيزى : « لنفسه »

الويلُ لى الويلُ لى حميدةٌ فى منزلى

كيف أوارِى خَجَلى ؟ !

العجيزى : « للحاضرين »

أتسمعون ؟ معه زوجتُه

أحد الحاضرين : ومـا لداودِ وللتـفرّجِ

آخر : أصعِدْه ، دعه ياعجيزىُّ يَجى

العجيزى : لا ومقامِ (الحنفىّ) لن يَجِى

آخر : قابْلِه لاتُضع عليهسعيَه ليسَ علىأمثالِهِمن حَرَج

العجيزى : لا، لن يطا لىعَتَبهْ سـوف أريـه أدبَهْ

« وينزل فيصرف « داود » ويعود »

زائر آخر : « يصيح من تحت »

الزائر : سيدى ! سيدى ! . . . أأنتَ هنا ؟

العجيزى : مَنْ ؟

الزائر : أنا سلمانُ ياعجيزى أأصْعَدْ ؟

العجيزى : «لنفسه»

ذاكَ سلمانُ جاء يطلبُ بالدينِ
وقد جُن أمسِ حتى تهدَّدْ

أحد الحاضرين : سلمانُ مَنْ ؟

مصطفى : تجهلُه ؟ ذاكَ مُرابى الناحيةْ
استرجَعَ الخمسينَ منى بعد شهرَيْن مِيَةْ

محمد : مُسْلِمٌ ؟

مصطفى : وابنُ مسلمٍ ولَه جَدٌّ بقلب الصعيد شيخٌ ولىٌّ
لم يدَع لليهودِ فى « الخط » رزقا
ليس فى « الخط » غيره رِبَوِىٌّ

يا يهودَ الأرضِ قد أصبحَ يشقى العالَمون
من بنى الإسلامِ سلمانٌ ومنكم « سالمون »

محمد : «همسا» ومالَه والعجيزى وما الذى جاء يصنعْ ؟

أحمد : أليست الزوجُ ماتتْ فالوارث اليوم يدفعْ

العجيزى : سلمانُ يا إخوانُ لمْ يأتِ لدَيْن أو سندْ

عامر : وما يضر الدينُ لم يخلُ من الدينِ أحدْ

العجيزى : لا ، بل علاقتى به علاقةٌ من البلَدْ
آباؤه كانوا وآبائى شيوخاً وعُمَدْ

محمد : نادِ إذنْ يصعدْ فلا بأس فى
مجيئه

العجيزى : سلمانُ سلمانُ
تعال سلْمانُ فما ههنا إلا أحباء و إخوانُ

« يدخل سلمان ويقول للعجيزى »

سلمان : قيل لى عنك مطلَقُ البطْن شاكٍ
كيف ياسيدى العجيزىُّ حالُكْ ؟

العجيزى : أحمدُ الله قد تعافَيتُ فاجلس

«همسا»

لا تخَفْ ، فى غدٍ يوافيك مالُكْ

سلمان : أمامَكَ شهران حتى تفيقَ
وتهدا فلمْ لاتمدُّ الأجلْ ؟ ! . .
وتدفعُ خمسين فوقَ الحساب
إذا الإرثُ من كل وجه كَمَل ؟!.

دواتى علىَّ وفيها اليراعُ وأنتَ بخير وهذا السنَدْ
فخذ فضع اسْمكَ

العجيزى : سِرْ فى الرواقِ لا يطلعَنّ علينا أحد

« ينصرفان »

محمد : قد دخلا فى الرّواق سرًّا وفاز بالوارثِ المُرَابى

أحمد : وبين هذا وذا حسابٌ ويعلم الله بالحسَابِ

« يعودان »

سليمان : « هما لمصطفى »

يامصطفى يانشوق

لَبّيْكَ سلمانُ أهلا

سليمان : لى كِلمةٌ فادْنُ منى لا تنسَ دينك حلاًّ

العجيزى : ماذا يقول المرابى ؟ وما أسرّ إليكا ؟

مصطفى : يريد منى نشوقًا مما رأى فى يديْكا

الحلبى : الحق أنه نشوقٌ طيبٌ

مصطفى : وفيه يا فقيهُ عرقُ العنبرِ

الباشوات كلهم قد أقبلوا عليه والمفتى وشيخُ الأزهرِ

وسيدات « الخط » من حين إلى

عامر : « فى سخرية » آخر يبعثن الأغا فيشترى

السيدات ؟ أأنثى

على النّشوق تطوفُ ؟

مصطفى : لِمْ لا ؟ أما هُنَّ خلقٌ أما لهُنَّ أنوفُ ؟

لا تنس يا عامر ! . . .

عامر : ماذا مصطفى ؟

مصطفى : لا تنس يا أخي أعزَّ الناسِ

أمك كانت من غرامها به تأخذُهُ منّيَ بالأكياسِ

عامر : أي أنا يا رجلًا لا يستحي نشاشيقُ يذكر الحذّره

« يتناول كل من مصطفى وعامر عصاه »

مصطفى : وأي عارٍ بالنشوق إنما

العارُ كلُّ العار شغل السمسره

شيخ الحارة : خذوا العَصا من « عامر » و« مصطفى »

إني أخافُ أن تكون « مجزَرَه »

عامر : دعوةٌ لي لابد من تحطيمه

مصطفى : خلوةٌ لي لابد أن أكسَرَه

العجيزي : وحرمة الميْتةِ تنسيانها وحق بيتي لاتراعيانهْ

غدا يقال عنكما قد سخرا من العجيزيِّ ومن ضيفانِهْ

مصطفى : تلك العصا طرحتُها ياسيدي حُبًّا بِكَا

عامر : وأنا أيضا قد رميت بالعصا لأجلكا

« صوت من الخارج: »

دستوركم يا أهلَ هذا المنزل

المجيزى : مَن ؟ . .

الصوت : الأغا ! . .

المجيزى : ألماز أغا ؟ .. تفضّلِ

الأغا : « يدخل باكيا مولولا ... ويقول : »

آهِ على صديقتى آهِ عليكِ ياستى

قدخُرِّبِ البيتُ فليتَ لك عينا فترى !

أين جبينٌ كان كالبـــدر سناءً وسَنا ؟

وأين « أهلاً » كلَّما جئت وأين « مرحَبا » ؟

وأين ما قد كان لى عندكِ من طيب اللقا ؟

وأين صوتٌ كان كالسحرِ ينادى يا أغا ! . .

المجيزى : ماذا دهاكَ سيدى هَوِّن عليكَ يا أغا ! . .

الأغا : « مستمرا » قد ذهب البيتُ ، لبيتِ الله وحدَه البقَا

قد ذهبَ المال ، فسبحانَ الذى له الغِنَى ! . .

المجيزى : أفِقْ تجلّدْ يا أخى ليسَ البُكاءِ التُّقَى

الأغا : أبكيكِ يا هدى وإن لم يُرجِعِ الميتَ البُكا

« ويقع مغمى عليه »

مصطفى : « للأغا »

جرِّب تَشـوقى مرةً خذ تجدِ الحزنَ هدَا

العجيزي : رُشْوةُ بالماء يُفْــــتى

« لرضوان » رضوانُ هاتِ كوزَ ماَ

الأغا : « يرفع رأسه قليلا ويقول : »

وَلْيكُ عَـذْبًا بارِدًا إني أحِسُّ بالظَّمَا
ليتكِ ماتت وليتَ الميْــــتَ ياهُدى أنا ! ؟ !
هُدَى تعالَىْ انظرِي البيتُ منكِ قد خلا

« العجيزي : »

سيدى أصْغِ لى :

هدَى رحمة الله على روحِها وألفُ سَلَامِ

يا أسفا على هدَى يا أســـفاَ يا أســـفاَ
مالى يخونُنِي فمِي ؟ مالِى تخونُنِي القُوَى ؟

« ويتمايل الأغا ثم يسقط »

محمد : لقد رجِعْناَ فوقَعناَ في البـلاء والعَناَ

العجيزي : « للأغا »

قم ياأخى انْهَضْ قل تكلَّمْ هاتِ بيِّنْ ياأغـــــا
ما نحن في مأتمِها مأتمُها قد انقضى
وكل حيٍّ ميِّتٌ يوماً و إن طالَ المدَى

الأغا : تركتْ عندَنا وَصاةً

العجيزى : وما ذا ؟

الأغا : كِتَبَتْها قبل الزّوَاجِ بعامِ
كتبتها وأشهَدَتْ مُفْتِي القُطرِ عليها وقاضِيَ الإسْلامِ

قد تركتْ يرحمُها اللهُ امسكوني لا أقعْ ...
« ويتمايل كالنشوان »

العجيزى : قم خلفه يامصطفى أ ...

مصطفى : دعْه لساعِدَيَّ دَعْ

الأغا : قد تَرَكَتْ فى عُلبة «مَصَاغَها» عشرَ قطَعْ
من جوهرٍ مُبرَّإٍ من الخُدُوشِ والبُقَعْ

العجيزى : لمن ؟ . .

الأغا : لعشرٍ من نساء الحارهْ من كل جارةٍ و بنتِ جاره

العجيزى : وعيَّنَتْهُنَّ ؟

الأغا : أجل ، و بيَّنَتْ

العجيزى : يالىَ ، ياالغَبن والَخسارة ! ...

يا أسف العمرِ على جواهرى يا ندماً

مصطفى : مالك يا أخى ؟

العجيزى : أحسُّ أنَّ ظهرى انقسما
عوقِبْتِ يا هدى ولا أُخرجت من جهنَّما

« يغمى عليه »

محمد : لا. بأس لا بأس إنى أرى به إغماء

شيخ الحارة : رضوان طرْ جئ بكوزٍ

الحلبي : صُبُّوا عليه الماء

العجيزى : « وهو يفيق »

والبيت يا أغا أجبْ البيت ما أصابَهْ؟ . .

الأغا : وَقَفْته لبنت أول زوجٍ

الحلبي : إن هذا قضاه حقٌ قديم

العجيزى : أترى البغى والتعسُّف حقًّا

يا كثيرَ التحليل والتحريم

قلَّبتْنى هدى على النار حيًّا

قلّب الله جسمها فى الجحيم

« للأغا »

وأثاثُ البيت هذا ؟

الأغا : جاء أيضاً فى الوصيَّهْ !

أصبح البيت وما فى البيت مِلــكا لبهيّــه

العجيزى : إرمِ يا دهرُ بالمصائب إرمِ

ظلمتنى هدى فما كان جُرمى ؟

شيخ الحارة : بقى الطين فانتظرْ رحمة الله

ولا يدخلنَّكَ اليأسُ منها

إنها خلَّفتْ ثلاثين فداناً بينها وأنت تعرف بنْها

الأغا : لا ، لا تصدق سيدى

فما درى ، ما عرَفا

المجيزى : ماذا جرى إذنْ ؟ أينْ

الأغا : الطينُ أيضا أُوقفا

المجيزى : لمن ؟

الأغا : لبيتِ الله والروضةِ قبرِ المصطفى

المجيزى : يارب بيتُك غنيٌّ وعن نصيبى غنىٌّ

وقل لقبرك يُرجعْ لى ثروتى يا نبىٌّ

الطين أيضاً قد مضى وكل شىء انقضى

يا لأعاجيب القضا

الحلبى : اصبرْ أخى ، تعزَّ ، ما هذا الجزعْ

هب أن ذلك الزواج ما وقعْ

ليس الحياةُ غير رِىٍّ وشِبعْ

المجيزى : « وهو يهجم عليه »

هبْ أن رأسك انفلقْ هب أن مخّك اندلقْ

حتى جرى على الزلق

سليان : الطينُ أيضاً قد مضى ياويح لى ، ويْحَ لِيَهْ !..
ضاعَ علىَّ تعبى وضاعتْ الحسميهْ !..

هــذا العجيزىُّ مزيج من غبـاءٍ ونـكدْ
قد جاء مصر هارباً من الديون فى البلدْ
ومـاله من عمـل فيهـاً ولا له أحـدْ
لكنْ عليه سند

النشاشق : إذهبْ ، كل ، اشرب السند
الجميع : إذهبْ ، كل ، اشرب السَّندْ ! . . .

ستار الختام

البخيلة

البخيلة

تمهيـــد

زمن الرواية	سنة ١٩٠٧
مكان الرواية	القـاهرة

أشخاص الرواية

الست نظيفة	(البخيـلة)
جمـال	حفيـدها
حُسنى	خادمتهـا
عبد السلام	طبيب
رشـاد	سمسـار
عزيز	من أبناء الذوات

الفصل الأول

« قهوة « جميل » بميدان « لاظ أوغلى » . « جمال » و « رشاد »
« على مائدة يتحادثان ، وآخرون متفرقون . يدخل صبي القهوة »
« بصينية عليها المطلوب من المشروبات فيتناول الزبائن ، ويقول : »
« هنا سادة ، هنا القرفة ، هنا الشاي ، ثم ينتقل إلى مائدة « جمال » »
« و « رشاد » ، ويقول : خشاف سيدى . والبازهيران[1] ؟ »

جمال : البازهير لى أنا

رشاد : وشيشتى يا مصطفى

الصبي : طلبتها يا سيدى

[يمر بائع جرائد مناديا]

اللوا[2]

---

(١) الليمون

(٢) جريدة « اللواء » التى أسسها الزعيم مصطفى كامل

رشاد : اللــوا تعال يا ولد

البائع : إقرُوا حديث مصطفى[1] إقرُوا خروج المتمَد[2]

رشاد : كُرومَرْ ؟ خروجه متى ؟

البائع : غدا أو بعد غد

رشاد : من قال ذاك ؟

البائع : [ويمشى]

مصطفى

رشاد : التفّت الأفكار حول مصطفى كالقائد

جمال : وصارت الأخبار عند باعة الجرائد

رشاد : آمِنْ معى بمصطفى كفى تمنّنا كفى

والعقلاء

جمال : كُلُهمو

رشاد : والأذكياء

جمال : اشربهُمو

---

(١) الزعيم مصطفى كامل

(٢) اللورد « كرومر » ، المعتمد البريطانى

رشاد : ما أنت ؟

جمال : لستُ منهمو

إنى أنا مع البلدْ إنْ قام قمتُ أو قعَدْ

لم يرنى فيه أحدْ

[اثنان على مائدة يتحادثان عن جمال] :

الأول : تأمّل المُكثِر من إعجابهِ بنفسه ينظر فى ثيابهِ

تلفُّتَ الطاووسِ فى إهابهِ

الثانى : لله ما أظرفَ ، ياله فتى قد أبدع البارى تعالَى شكلَهُ

لو كان هذا ولدى وواحدى خرجتُ قبل الموت من مالى لَهُ

الأول : من الفتى يا أخى ؟

الثانى : جمال هذا الذى يخلف البخيلهْ

على الدكاكين والضِّياع والثروة الضخمة الجليلهْ

هذا الذى يفترس الأكياسا ولا يرى الأحلام إلا ماسا

فإن صحا شكا لك الإفلاسا

يأخذ من هذا وذاك بالرِّبا يُعطى نحاسًا ليردَّ ذهبا

وقيل شىء فوق ذا

الأول : وما يقولون ؟

الثانى : عَجَبْ

الأول : ماذا ؟

الثانى : بلاطُ بيتِها مركَّبٌ على الذهبْ

الأول : وذلك الآخَرُ من ؟

الثانى : ذاك من السماسرِ

يبيع كل عامرٍ يصيبه وغامرِ

وكم وكم زوَّج أو طلَّق من حرائرِ

تلقاه فى كل طريق كالغبارِ السائرِ

من قهوةٍ لبيرةٍ لمنتدّى لسامرِ

ويدفع الشباب فى الوُحولِ والمخاطِرِ

فمن يدَىْ مسلِّف إلى يدَىْ مُقامِرِ

ومن سموم حانة إلى لُعاب عاهرِ

لا يُبغِض اللهُ ولا رسوله

من العبادِ كالمرابين فئهْ

الأول : أىّ رباً يشـــترطون يا تُرى ؟

الثانى : عشرون أوما فوق ذاك فى المـائهْ

أنظر إلى السمسار يسحر الفـــتى

وانظر إلى الغلام كيف استحسنهْ

عنـــدىَ ألفٌ ما ملكتُ غيرها

مَن لى بهـا ألفين إن فاتت سـنهْ ؟

الأول : عندك ألفٌ أنت ؟

الثانى : ألفٌ ذهبا

الأول : تريـــد تعطيهـا بفـاحش الربا ؟

إذن لقـــد كنت تُرائى يا أخى

ولم تكن تقـــواكَ إلا كَذِبا

[جمال يرفع صوته] :

باللهِ مِن ذا الحـــديثِ دَعْنـا

وانظـــرْ معى هـذه الكُرُنبَـــهْ

[ينظر إلى رجل وجيه ملفف بالثياب ومعمم] ويقول :

ومن يكون الوجيه ؟

رشاد : هذا مقاول يُكبرون كَسْبَهْ
وكلّ يومٍ عليه نعلٌ وكل يوم عليه جُبّهْ
تراكم المال فى يديه من حبةٍ أمس صار قُبّهْ

جمال : وما فتن الحظّ بالكركدنّ وما أعجب المالَ من سِحنتِهْ ؟

رشاد : ومن عجبٍ بعد هذا المشيب
بَنَى باثنتين على زوجتِهْ
ورام الزواجَ ببنت النقيبِ ؟
فما قبلوه على ثروتِهْ

جمال : وماتلك ؟ من هى بنت النقيب؟

رشاد : فتاةٌ هى البدرُ فى ليلتِهْ

جمال : وما بيتُها ؟

رشاد : قصرُ آبائها
طويلُ العمادِ عريضُ الغرَفْ

جمال : وما مالُها ؟

رشاد : القصرُ عنوانُه
أليس القصورُ رموزَ الترَفْ ؟

جمال : وما سمعةُ البيتِ ؟

رشاد : ماذا تقولُ ؟

أما فى قديم البيوتِ الشرفْ ؟

جمال : وَلِمْ أبَت الشيخَ وهو الغنىُّ

رشاد : وهل كل ما فى الزواج المهورْ ؟

وهل يملأ التيسُ عينَ المهاةِ

وهل تحمل الكركدنَّ القصورْ ؟

جمال : رشاد أهى حلوةٌ ؟

رشاد : وذات قصرٍ ، وكفى

جمال ، ما ضرَّ لو أنَّنَى صاهرتُ الغنى والشرفا ؟

أتعرف البنتَ يا رشادُ

رشاد : وأعرف الأمَّ يا جمالُ

جمال : كيف ومن أين ؟

رشاد : لى ببيتِ النقيب من نشأتى اتصالُ

أمِّى كانت إليه تغدو

إذ أنا طفلٌ . ولا تزالُ

جمال : ماذا ترى رشاد إن طلبتها ؟

ترى تردنى إذا خطبتها ؟

رشاد : أصغ لى . أنت مثل ما تتمنى

«زينب» تجمع الغنى والجمالا

جمال : الغنى يا رشاد ؟ إنك تهذى

رشاد : أنا أهذى ؟

جمال : أجل . وتخلط

رشاد : لا . لا

أنت فوق النقيب دخلا وريعا

بعد حين وأنت أكثر مالا

جدة تجعل الحديد على الما

ل وتحمى الأبواب والأقفالا

جمال : لكنها يا صديق أشد منى ومنكا

رشاد : صبرا فعما قليل سيفرج الله عنكا

جمال : وجمالى ؟

رشاد : [ويخرج مرآة]

أفي جمالك شكٌّ ؟

خذ تأملْ . أنظرهُ في مرآتي

سوف تَسبي فؤاد زَينبَ

جمال : من « زيـــــنبُ » ؟

رشاد : هذا يا صاحبي اسمُ الفتاةِ

جمال : رشاد ، اسمع . عقدتُ العزمَ فاذهبْ

وأمَّكَ فاخطبا لي اليومَ زينبْ

رشاد : إذن أعطـــني ليرة من حِسابي

وبعـــد غـــدٍ نلتقي ها هنا

جمال : [يناوله الليرة] :

قبلتُ خُـــذْ

رشاد : [بعد أن ينظر أمامه] :

إنتظر يا جمالُ بربِّكَ فالحــظُّ قــد أحســـنا

فهـــذا أخـــو زينبٍ مقبلًا

فسر حيث شئتَ ، ودعني أنا

[يجلس عزيز فيتقدم إليه رشاد]

رشاد : عزيزُ ؟ مَنْ ؟ أهلاً أخى منذ شهورٍ لم أرَكْ

عزيز : رشادُ أنت ها هنا ؟

مَن ذا الذى كان مَعَكْ ؟

رشاد : أنظر إلى ثيابِهِ ولونِها كيف اتَّحَدْ

أنظر إلى حذائه من النظافة اتَّقَدْ

والبنطلون مُسْتَوٍ لم ينكسِرْ . لم ينعقِدْ

أعِرْنِىَ السمعَ أعِرْ عندى لكم شىءٌ يَسُرْ

عزيز : ما ذاك ؟ هاتِ . ما الخبرْ ؟

رشاد : هذا جمالٌ وحيدُ جَدّهْ

بخيلةٍ يا عزيزُ ، جِلْدَهْ

عزيز : وعمرُها يا رشادُ ؟

رشاد : يربو على الثمانينَ

عزيز : تلك مُدّهْ

والمالُ ؟

رشاد : ما شئتَ من فدادينِ

ومن بيوتٍ ومن دكاكينِ

والذهبُ الصبُّ كلّ ناحيةٍ

في البيت ، مِن مُخبّأ ومدفونِ

عزيز : والآن ماذا تبتغي؟

رشاد : أُريدُهُ لِزينبا

عزيز : وكيف؟ هل يقبلُها؟

رشاد : كلّمتُهُ فما أبَى

فامضِ إلى أمّكَ يا عزيزُ بلّغها النبَا

لقد وصفتُ القصرَ لِلـ أبلهِ وصفاً عجَبا

ولم أزلْ أطرِي له الـ ـجَدَّ وأمدحُ الأبَا

وأنعتُ المجدَ القديـ ـمَ وأُحلِّي النسَبا

وقلتُ عن أُمّكَ خيْراً وامتدحتُ زينبا

عزيز : وقد نسيتَني أنا ؟

رشاد : لا . بل أطلتُ الكذِبا

عزيز : وما الذي قلتَ عنّي؟

رشاد : قُلت : فـتًى ما أفاقا

بالليـلِ يَغشَى الملاهِي وبالنهارِ السِّباقا

تسألني عزيزُ رأيي

عزيز : لِمَ لا ؟ ألستَ منذُ زمنِ المهدِ أخا ؟

رشاد : أتم عزيزُ يا أخي في أزمةٍ

ولا يَفُكُّ ضِيقَكُمْ إلا الغِنى

المالُ فيه وحدَهُ خلاصُكم

لا بدَّ منه اليومَ أو لا فغدا

عزيز : أجلْ . بغيرِ المالِ لا عَيْشَ لنا

وكيف ؟ من أين يجيءُ ؟ أفْتِنا

رشاد : مما نخوض فيه منذ ساعةٍ

مِن الفتى . من موتِ جَدَّةِ الفتى

عزيز : وما الذي نصنع كي نصيدَهُ ؟

لا بد من مَصيدَةٍ

رشاد : تلك أنـا

اسمعْ أخي عزيزُ أنتم أسرةٌ

لم يبقَ من وجودِها إلا شَفا

قصرُكمو من قِدَمٍ مُهدَّمٌ
قد خاطَ فيه العنكبوتُ وبَنَى
سكنتموه ها هنا وهاهنا
كالبوم . . كل بومتَيْنِ فى فَضَا
ملأتموه خدمًا أشداقُهم
دائرةٌ على الرغيف كالرَّحا
أنظر إلى القصور كيف أصبحتْ
لم يبقَ من مقدَّمٍ ولا أغا
احتجب القوم وراء ظلها
لا يُسألُ البوابُ إلا قال : لا

عزيز : كفى رشادُ صِفةً لبؤسِنا . كفى . كفى
ولا تعذِّبْ مهجتى ولا تهِجْ لِىَ البكا
وامضِ اجتهدْ رشاد فى تزويج أختى بالفتى
إذا كان لها أهلا

رشاد : ولِمْ لا يا أخى ؟ لِمْ لا ؟
فتًى لم يحكه الشبا نُ هندامًا ولا شكلا
ولم يُنكِرْ له الإخوا نُ لا ظَرْفًا ولا عقلا

ومن بيتٍ يرى الناس عليه الخيرَ والنبلا
أبوه كان إنسانا

عزيز : وهذا كله فضلا
عما وراء جدَّتِهْ

رشاد : وعن عظيمِ ثروتِهْ
يا ليتنى فى حالتهْ

اسمع عزيزُ يا أخى أنا وأنت لا نَرِثْ

أَمْلَطُ يارب كما خلقتنى راضٍ على قلّةِ ما رزقتنى

عزيز : دعنا من الهزل . هلا أخذت فى الجدِّ ساعهْ ؟
رشادُ أنت صديق ماذا ترى فى البضاعهْ ؟

ادخلْ بنا فى الجِدِّ يارشاد متى تراه ؟

رشاد : فى غدٍ أراه

عزيز : لم تقل لى عن الفتى . ما أبوه ؟

رشاد : كان نَخْوَ الرجال .. كان مديرا

[ثم لنفسه]

كان والله يسكعُ الصبح والليل إلى كل حانةٍ سِكِّيرا

عزيز : والفتى . كيف شغلُه ؟

رشاد : في الدواوين

عزيز : إذنْ قد نراه يومًا وزيرا

رشاد : لِـمَ لا ؟

[ثم لنفسه]

قلتُها ومن أين أدرى ؟ ربما صار حاجبًا أو خفيرا

[ثم لعزيز]

لا تسلْنى ما أبوه يا أخى أو مَن الأمُّ وسَلْ ما جدَّتُهْ

لا ولا ما شغله ؟ ما جاهه ؟ في الدواوين ولا ما رتبتُهْ

فجمالٌ في غدٍ أو بعده بوزيرين تساوى ثروتُهْ

[بعد لحظة]

وَلِـمْ لا وجدَّتُهُ نملةٌ

إذا وقفتْ او مشتْ حصَّلَتْ

وتُدخل في بيتها ما تُصيبُ

ولا يُخرج الدهرُ ما أدخلَتْ

لو انقلبتْ من جميع الجهات

على القشِّ في فمها ما انفلَتْ

ترى المـال فى بيتها فى العاف
وتحت البلاطِ وحشوَ الشَّلْتْ

عزيز : عجبتُ . يأتى البخيلَ المـالُ وهو يرى
أنَّ البخيلَ إليـه غيرُ محتاجِ
وقـلَّ ما جاء حرًّا ماجـدًا ومشى
إلى الكريمِ الكثيرِ الهمِّ والحاجِ

آهِ ما أكثرَ حاجى مَن بحـاجاتى أُناجى ؟
أزمـةٌ دُرتُ فلم ألــقَ لهـا وجـهَ انفراجِ

رشاد : عزيـزُ أنت مفلسُ

عزيز : ما شئتَ فى ذاك فقُلْ

رشاد : على البـلاط يا عزيـزُ كُلُّنـا ذاك الرجلْ

عزيز : إذن جمـالُ صفقةٌ رابحـةٌ لنـا كلينا

رشاد : قد فهمتَ مأربى
ولستُ أنسى فضلَكم عندى ولا
ما طوّقتْ أُمُّكَ أمّى وأبى

عزيز : إذهبْ إذنْ رشادُ فاخطبْهُ

رشاد : لمن ؟

عزيز : لى ، ولزينبٍ ، وأمّ زينبِ

رشاد : للأمِّ والإبنِ وللبنتِ ؟

أجل

عزيز : وكلّ مَن مَتَّ لنا بالنسبِ

رشاد : أصبتَ يا عزيزُ أنتَ فَطِنٌ

عزيز : لا . بل هو البؤسُ يفطِّن الغبي

رشاد : وَرُكوبى يا صديق وذَهابى وإيابى ؟

عزيز : إمضِ أنفقْ ما تشا واصبِرْ إلى يوم الحسابِ

أنا لو بيع بفَلْسٍ لم يجدْ سوقًا جرابى

كلانا رشادُ على زورقٍ كسيرٍ وموجٍ عنيفٍ شقِى

فإن ننجُ ننجُ بخيرِ المتاع وإلا غرقنا مع الزورقِ

* * *

« ثلاثة آخرون جلوس على مائدة بالقهوة . »

« أحدهم يقرأ جريدة ، والآخران يتحادثان »

الأول : مَن ذلك المُطِلُّ من لحيتِهِ

كالبغل من وراءِ بخلاءةٍ رنا

الثانى : تسألُ عن ذاك الذى انحنَى على

صحيفةٍ يقرا وولّانا القفا ؟

الأول : أجل. أجل هذا القفا

الثاني : هذا هو الدكتور

الأول : مَنَ ؟

الثاني : عبدُالسلام مُرتضَى

يقرأ ما صادف من جريدةٍ
من سطرها الأول حتى المُنتَهَى
وتستوِى صُحُفُ الصباحِ عنده
وصُحُفٌ ظهرنَ من عامٍ مضى
تذاكُرُ الدفنِ التى يكتبها
فى الشهر أضعافُ تذاكرِ الدَّوا

وعيبه البخلُ

الأول : فيه بخلٌ ؟

الثاني : أبخلُ من جارَتى نظيفهْ

الأول : من يا أخى هذه ؟

الثاني : عجوزٌ فى (الخط) من أسرة شريفهْ
ليس لها فى الحياة إلا عبادةُ المالِ من وظيفهْ

حتى لقد صارت حديثَ الحارهْ

وضحكَ الجارِ وتُخْزَ الجارهْ

كلُّهمو يحسدها بمالِها ويتمنى حاله كحالِها

وهكذا الأنفس في ضلالِها

الأول : ما غِناها يا أخي ؟

الثاني : أكثرُ هذا الخُطِّ مالا

الأول : ومن الوارث إن ماتت

الثاني : فتًى يُدعَى جمالا

الأول : وذلك الدكتورُ ؟

الثاني : هذا « مادرٌ »[1]

الجوعُ يا أخي ولا الأكلُ معَهْ

لقد دعاني للغَداء مرّةً

فقدّمَ البيضةَ بين أربعَهْ

وجوهٌ بالشواءِ

(١) أبخل العرب ، ويضرب به المثل في البخل .

الأول : قـلْ ماذا جرى ؟

الثانى : أوْمَا إلى خادمه أن يرفعَهْ

رأى فيه عيبًا وإن لم نجدْ
على الجسم عيبًا سوى قِلّتِهْ
فقد كان أنضجَ لحمٍ رأيتُ
وقد كان كالمسك فى نكهتِهْ
ومن بخلِهِ تُفتحُ القهواتُ
وتُغلقُ ، وهو على « شيشتِهْ »
يُقضّى بها طَرَفَىْ يومه
ويُمضى بها طرفَىْ ليلتِهْ

الأول : ومرضاهُ ؟

الثانى : يلقاهمو فى الطريق حينًا ، وحينًا على قهوتِهْ

[غلام يدخل القهوة صائحًا]

الغلام : أين هو الدكتور ؟

أحدهما : ذاك

الغلام [للدكتور] : سيّدى أخى سَقَطْ
تحت الترام

الدكتور : فليكن أو تحت وابور الزلط

فما الذى أصابه ؟

السلام : إنفلق الرأس

الدكتور : فقط ؟

هيّا ولو أنّى ما عالجت فى الشارع قطّ

السلام : اللهُ فى عونِ الجريح منكَ جرّاحَ القِطط

« ستار »

الفصل الثانى

[فى منزل السيدة نظيفة]

« حجرة بها دكة عليها شلتة ومخدات ثلاث — السيدة »

« نظيفة تلبس جلابية من الشاش الأبيض ، ومتعصبة »

« بمنديل ، وفى رجلها القبقاب »

نظيفة : [تتكلم وحدها فى الحجرة] :

منزلى حولى نظيفٌ وأنا الست نظيفهْ

وبلاطى ذاك أنق بكثير من صحيفهْ

كل ما كلفنى ما ء وصابون وليفهْ

لا بساطٌ لا كليمٌ لا حريرٌ لا قطيفهْ

غير هذى الخشبات الـخيزُراناتِ الخفيفهْ

ليس بيتى كبيوت الناس أحالاً كثيفة
أنا بيتى فى الهواء الطَّلْق والشمس اللطيفة

ودكتى تلك أغلى لدىَّ من ألف صفقة
كم مال زوجى عليها وكان يقطر خفة
جلستُ فيها عروسا واليوم إذ أنا قفة

[بعد أن ترى « حسنى » الخادمة داخلة عليها وبيدها شىء]

تعالىْ يا ابنتى جيئى بماذا جئتِنى « حُسنى » ؟

حسنى : لقد جئتُ بفنجانٍ

نظيفة : خُذيهِ جربى البُنّا

وهذا شُبُكى(1) هاتى

حسنى : أجل بالعود(2) قد جيتُ

وفى الكيس مع الدخا ن زَندانٍ(3) وكبريتُ

نظيفة : سلمتْ حسنى يداك

(1) أداة التدخين .

(2) عود البخور .

(3) مثنى « زند » ، وهو ما تقدح به النار .

حسنى : أنا مولاتى فداك

والآن هل آخذ خَرْجَ[1] النهار

نظيفة : إمضى خذيه إنه فى (الكرار)

حسنى : هيّأته سيدتى ؟

نظيفة : أجل

حسنى : وما أخرجتِ لى ؟

نظيفة : رأسٌ من الثوم وخمسٌ من صغارِ البصلِ

حسنى : والسمن مولاتى تُرى ؟

نظيفة : كأمس . لم أقلّلِ

أوقيّةٌ

حسنى : والأرز ؟

نظيفة : لا لا يدخلنّ منزلى

لقد غلا سعرًا ولا يُعجبنى السعرُ الغَلِى

حسنى : ليتك بالزيت اكتفيت والدقيق والعسلْ

نظيفة : ولِمَ ياحُسنَى أراك اليومَ عادَكَ الخَبَلْ ؟

(١) ما تخرجه « نظيفة » عادة من مواد لإعداد الطعام .

نسيت أنَّ هاهنا وتحت هذى الكنبَهْ
العشراتِ من قديم الكعك والقُرَيْبَهْ ؟
حسنى : لم أَنْسَ يا سيدتى
ظليفة : أنت إذنْ مخروبهْ
حسنى : قد اشتهيتُ لُقمةَ القاضى
ظليفة : اشتهتك عقربَهْ ؟

وما الذى اشتريت يا « حسنى » لنا من الخضَرْ ؟
حسنى : « الباميا » كأنها الزُّ مرُّدُ الخامُ الحجَرْ
ظليفة : « الباميا » ؟ منذ متى هذا الخضارُ قد ظهرْ ؟
حسنى : جديدة .. قلت عسى سيدتى بها تُسَرْ
نادَى المنادونَ عليها منذ أسبوعٍ عَبَرْ
ترفلُ فى شوكتِها وفى شبابها النَّضِرْ
ظليفة : أجل لقد أكلتُها فى منزل الشيخ « عمرْ »
كالذهب الإبريزِ والشومُ عليها كالدرَرْ
حسنى : واليومَ تأكلينها
ظليفة : أمرّ من طعم الصَّبِرْ
اشتُرِيَتْ غاليةً مثلَ البواكيرِ الأُخَرْ

حسنى : هدية لك

نظيفة : ومِمَّنْ ؟

حسنى : مِن قريبٍ لى حضَرْ

نظيفة : من أين جاء ؟ ومتى ؟

حسنى : من الصعيد قد بَكَرْ

نظيفة : وبِمْ تُرى جَزَيْتِه ؟ بقبلةٍ مستعجلهْ ؟
امضى لشأنك واطبخى « دقيَّة » مكمَّلهْ
كأنها خليَّةٌ من عسلٍ محمَّلهْ
والثوم فيها لؤلؤٌ وهى به مكلَّلهْ
والعظم ..

حسنى : واللحم ..

نظيفة : احذرى يُتعبنى أن آكُلهْ

حسنى : اللحم يا سيدتى فى « الباميا » ما أسهلَهْ

نظيفة : « حسنى » انظرى

حسنى : سيدتى

نظيفة : على البلاط وسَخُ

حسنى : الآن أغسل البلا طَ ثم أمضى أطبخُ

[تنزل السيدة إلى حجرتها .. يدخل جمال]

جمال : حُسنى

حسنى : جمالُ سيدى ؟

جمال : أنتِ هنا ؟

حسنى : أنتَ هنا ؟

جمال : ما تصنعين ؟

حسنى : صنعتى اليومَ وصنعتى غدا

على البلاط أنحنى أغسله كما ترى

جمال : يارب لِمْ خلقتَ للعذابِ هذه اليدا ؟

حسنى : لا .. لا عذابَ سيدى إنى أحب العملا

جمال : وأين جدتى فإ نّى لا أراها ها هنا

حسنى : أظنها مضتْ تعدُّ فى الخزانةِ الضحى

جمال : لله أو للمال يا حُسنَى تُرى ؟

حسنى : كما تشا

مالى وما تعمله ؟ لكلّ عبد ما نوَى ؟

جمال : [لنفسه وقد رأى كيسا على الدكة] :

ما ذاك تحتى ... كيسٌ؟ بشراىَ . هذا جرابُ
أعامرٌ ليت شعرى جرابها أم خرابُ؟

كيسٌ ؟ أجل كيسٌ وحُسنَى لا ترى ... لا تسمعُ

[ثم يقبله] :

كيس وفيه ذهبٌ آخُذُهُ أم أَدَعُ؟

[يتركه مترددا]

لا ... لا ... ألصٌ أنا ؟ لا ليت يدى تنقطعُ

[يتناوله] :

لننظرْ ما حوى الكيسُ

[يفتحه ويعد ما فيه]

جنيهان . . . ريالانِ
وهذا فصٌّ ياقوتٍ وذى سُبحةُ مَرجانِ

[يخرج ما فى جيبه]

لننظرْ ما حوى جيبى أقرشانِ ونصفانِ؟
حرامٌ شدة البخل حرامٌ طولُ حرمانى

[يرد نقوده ، و ينظر إلى الكيس] :

فإن مددتُ نحو كيسها اليدا سرقتُ نفسى ما سرقتْ أحدا

ولا أرى سارقَ نفسه اعتدَى

لا يا جمالُ .. ما رأى رأيَكَ فى الناس أحدْ

من قال مالُ الوالدين مُستباحٌ للولدْ ؟

[حسنى ، وقد نظرت إليه خلسة فرأته ، وهو يسرق]

يا أسفا على جمالٍ ما صنعْ ؟ جاء إلى الكيس مرارا ورجعْ

حام عليه برهةً ثم وقعْ

[لنفسها] :

ويحَ جمالٍ جَروٌثْ على الحرام راحتُهْ

ما كان لصًّا إنما جَنت عليه جدّتُهْ

[جمال يدس الكيس فى جيبه] :

ولِمَ لا ؟ والمال مالى بعدَها وإنْ تصرفتْ بمالى وحدَها

ودِيعتى حتى تموتَ عندَها

[يخرج مسرعا]

حسنى : يا ألفَ ويلى على جمالى انسلّ كاللصّ فى الظلام
الفقر والبخل صيّراه من ابن بيتٍ إلى (حرامى)

هو لصٌّ وسارقٌ غيرَ أنى أُحبُّهُ
حرمتْه القليلَ من حقّهِ .. أين ذنبُهُ ؟

إنى بعينى هذه رأيتُه مرددا
لما أحسّ المال جُنّ وأضاع الرّشَدا
على الضمير والعفا فِ والحيا تعوّدا
لو ملأتْ جدّتُه يديه ما مَدّ اليدا

[ثم تسمع ضجة فتقول] :

قد رنّ فى الحجرة قبقابها
صلّتْ وعادت من مُصلّاها
وما درتْ وهى تصلّى الضحى
أنّ جمالًا من ضحاياها

[تدخل السيدة نظيفة بدون أن ترى « حسنى »]

[فتقول حسنى لنفسها] :

تسرع نحو كيسها لم ترَنى .. فلننتظرْ

ماذا تُرى تفعل؟ هل تبكى دماً أم تنتحرْ؟

[نظيفة لنفسها] :

كيسىَ كان هاهنا من ساعةٍ .. شىءٌ عجبْ !
من ياتُرى طَيّرهُ ؟ كيف اختفى ؟ أين ذهبْ ؟
فيه ريالان وفيه قطعتان من ذهبْ
وضعتُه هنا وغبتُ عنه .. ليت لم أغبْ
كيسى حبيبى أين أنتَ؟ كيف ألقاكَ ؟ أجِبْ !

كيسىَ .. يارب أعدْ لى كيسى وخذه لى يارب من إبليس
وكلِّ لص فاجر خسيس

إن عدتَ لى فشمعةٌ للحنفى أو شمعتانْ
قرش يعود لى به من القروش مائتانْ

وشمعةٌ للسيدهْ توضعُ فى مسجدِها
تبيت فيه مُوقدهْ بالقرب من مَرقدِها

لا .. أنا فى فقرٍ إلى شمعةِ
سيدتى « زينبُ » بى عالمهْ

ولم يرَ الناس ولم يسمعوا

سيدةٌ تأخذ من خادمهْ

[ثم بعد أن ترى «حسني»]

نظيفة : حُسني

حسني : مُري

نظيفة : أنتِ هنا ؟

حسني : أجلْ

نظيفة : تعالَي اسمعي

خلِّي البلاطَ

حسني : ما جرَى ؟

نظيفة : دعِيه ساعةً دعِي

حسني : ماذا جرى سيدتي ؟

نظيفة : ما لم أكُنْ أنتظرُ

مصيبةٌ .. فاجعةٌ

حسني : ماذا دهَى ؟ ما الخبَرُ ؟

نظيفة : كبيرِي كان ها هنا طيَّره المُطَيِّرُ

حسنى : ما كان فيه ؟

نظيفة : ذهبٌ وسُبحةٌ وجوهرُ

حسنى : وهل ظننتِ السوءَ بى سيدتى ؟

نظيفة : أستغفر الله ابنتى أستغفرُ

« حُسنَى » ابنتى خادمتى تسرقنى ؟

ذلك ما ليس ببالى يخطرُ

فى ذمةِ الله كيسى عوّضنى اللهُ عنهُ

واللصُّ لا بد يوما يقتصُّ لى اللهُ منهُ

حسنى : سيدتى مسرفةٌ سيدتى مضيّعَهْ

إن الجرابَ لم يكنْ هذا المكانُ موضعَهْ

نظيفة : إذهبى يا ابنتى عرفتُ غريمى

أنت لا تجهلينه فهو منّا

حسنى : مَن تُرى؟ مَن ؟

نظيفة : سلى ضميرَك عنه أنتِ منه مُلئتِ قلباً وذهنا

حسنى : مَن ؟

نظيفة : جمالٌ

حسنى : ماذا تقولين يامو لاتي

نظيفة : الصدق

حسنى : بل تظنين ظنا

مَن ؟ جمال ؟ هذا محال فظنى

بى أنا السوء

نظيفة : أنت؟حاشاك«حسنى»

حسنى : إذن مَن ؟ قطةٌ فى البيت لمّا لَمْ تجد لحمًا

مضت بالكيس ظنته هو الجلدَ أو العظما

نظيفة : [مستضحكة]

إمضى اذهبى ياخَباثْ يا نكبةً فى الإناثْ

أوشكت تدخل الضحى .. الهمى الفو

طة « حسنى » طيرى إلى الكانون

واحذرى الطبخ أن يشيط وسُدّى الـ

ـباب دون الأنوف .. دون العيون

حسنى : سيدتى ها أنا ذى ذاهبةٌ لشانيا

انتظريني ساعةً ثم انظُري طعاميا

[تخرج]

نظيفة : [لنفسها]

قد ذهبتْ لشأنها اليوم يومُ « الباميا »

« حُسنَى » اذهبي إنى لفى شكٍّ وإن

أظهرتُ أنّى بكِ جِدُّ واثقهْ

قد سُرِقَ الكيسُ وما من أحدٍ

سواكِ فى البيت فأنتِ السارقهْ

ولكنى أداريكِ فَأُخْفِى خبرَ البئرِ

وكم سيدةٍ قيّدَها الخادمُ بالسرِّ

[جمال يدخل] :

نظيفة : مَن ؟

جمال : جدتى ... هذا أنا

نظيفة : مَن ؟ وَلَدِى جمالُ ؟

جمال : ما صنعَ الزكامُ يا جدةُ

نظيفة : لا يزالُ

وأنت ما تصنع يا جمالُ ؟ كيف الحالُ ؟

جمال : الحال يا جدّهْ زفتٌ وقطرانْ

نظيفة : كيف ؟ انفضْ الجيبَ

فيه جنيهانْ

جمال : أنا ؟ جنيهانِ ؟ ومن أين له ؟

جيبيَ حتى من ريالين خَلا

جدةُ

نظيفة ؟ روحي ... تكلّمْ ماذا ؟ فَداكَ البَنونا

جمال : أقول لكن مِدينِي جدةُ لا تَغضبينا

نظيفة : إلا النقود فإنى حلفتُ أمسِ يَمينا

جمال : إذن أمضي كما جئتُ إذن لا شيءَ يا جدهْ

على أنّيَ لم أظفرْ بشيءٍ منك من مدّهْ

نظيفة : والثلاثون ريالا ؟

جمال : قد مضى شهرٌ عليها

تلك شمّتْها يدُ النشالِ فانسلّتْ إليها

نظيفة : لا حَرَمَ اللهُ اللصوصَ خيرَكا

ما بالُهُم لا يسرقون غيرَكا

لم تَلْقَنِي وتنصرفْ بمالى إلا وعادتْ قصةُ النشّالِ

كأن مالى ليس بالحلالِ

جمال : لم أقلْ مالكِ يا جدّةُ سُحتٌ أو حرامْ

فلقد يُسرق مالُ اللهِ والبيتُ الحرامْ

نظيفة : العينُ يا جمالُ

جمال : لا تقولى فما إلى مالكِ من سبيلِ

لعين حاسدٍ ولا فُضولى

مالُكِ فى اللحافِ والمنديلِ

مالُكِ فى القفّةِ والزنبيلِ

وتحت ماءِ البئرِ فى برميلِ

نظيفة : فى البئر ؟ إنّ ذا عجب ماذا تصوغ من كذبْ ؟

[فى اضطراب]

جمال لا تَنْسَ الأدَبْ

في البئرِ يا ابني؟ هـذه   ما خطـرتْ ببالي
لِمْ لا تقـول المـالُ قد   خبِّـئتُ في سِروالي؟
لكن هَبُـوني قد فعلتُ   ما لَـكم ومالي؟
ألستُ يا ابـني حرّةً   بصـيرةً بمـالي؟
أصنعُ ما شئتُ به   أصنع ما بـدا لي

جمال : هَوِّني جدتي عليك فإني   لم أنازعك هذه الحريّهْ
خبِّئي المـالَ حيث شئتِ من المنـ
ـزِلِ في السقفِ أو وراء حَنِيّهْ
ادفنيـه في مطـبخ أو كرارٍ
أو لحـافٍ أو شلتةٍ أو حَشِيّهْ
أو فَـواريهِ في قَـرارةِ بـئرٍ
ذاتِ عمـقٍ عن الظنونِ خفيّهْ

جدتي هـذا كثـيرٌ   ما الثـلاثون ريالا؟
هي يا جدة ليست   عنـد أمثالي مالا
لا يمينًا ملأتْ يـو   مًا ولا أغنتْ شِمالا

ظريفة : عند أمثالك؟

جمال : أىْ واللهِ

ظريفة : ما أنتم رجالا

هى تبنِي ثروةَ المرءِ إذا كانت حلالا

إسمع جمالُ

جمال : سامعٌ يا جدتى

ظريفة : جَدُّكَ يا بُنَىَّ كان مُفلسا

جمال : مثلِىَ يا جدةُ ؟

ظريفة : لا يا ولدى بل كان أشقى حالةً وأتعسا

أسَّسَ من شروى نقيرٍ ثروةً

جمال : لم تذكُرى جدةُ كيف أسَّسا

ألم يكنْ سكناهُ رَبعًا دارِسا ؟

ألم يكن طعامه المدمَّسا ؟

ألم يكنْ على البلاطِ نومُهُ ؟

ألم يُحَرِّمْ نَفسه أن تَلبسا ؟

ظريفة : ومَن نبَّاكَ أو مَن ذا

رأى جدَّكَ عُريانا ؟

جمال : هَبِيهم لم يُنَبِّئونى كفانى بك عنوانا

جدتى ما رأيت قطُّ على جسـ
ـمِكِ مذ كنتُ غير هذى الثيابِ
بدِّلى ثوبَكِ القديمَ أهذا
كفنٌ يُرتَدى ليومِ الحسابِ ؟
وعلى الرأس ذلك الشاش و (الأو
يَةُ) مَلَّا تَطَاوُلَ الأحقابِ
قد عفا رقعتيهما النشر والطـ
ـىُّ وطولُ المدَى وطولُ الخضاب
لَم يَرِ الناظرونَ رجليكِ إلا
كعصِىِّ الحمَّامِ فى القبقاب

ظليفة : قد توحَّشْتَ يا جمالُ

جمال : دعينى

اتركينى (أفشُّ) جدةُ ما بى
والدى مات فى الشباب من الحسر
مات واليومَ تقتلين شبابى

نظيفة : لا تـذكّرني العزيز جمالٌ
وَدَعِ الجرحَ . لا تحرّكْ مُصابي

جمال : اقتليني كوالدي

نظيفة : بعُدَ الشرُّ بل اسلمْ وحُطّني في التراب
إن يا ابني الجرابَ والمالُ فيه لكَ

جمال : مَن لي ببعض ما في الجراب ؟
ما انتفاعي به ؟ كُليه .. اشربيه
بعد ما آذن الصِّبا بذهابِ

[تغرورق عيناه بالدموع]

إصفحي جدةُ عما كان مني واغفري لي
وَائذني أيتها الجدّةُ أمضي لسبيلي

نظيفة : لقد نسيتُ يا جمالُ وطويتُ ما جَرى
والآن أدعوكَ

جمال : لما ذا ؟

نظيفة : للغَداء .. ما تَرى ؟
إبقَ جمالُ نقتسمْ لونًا جديدًا غاليا

إبقَ بني كُلْ معي اليومَ عندي (باميا)

جمال : « الباميا » جديدةٌ ؟ من قال يا جدّتيا ؟

ظريفة : أكلْتَها ؟

جمال : أجل مراراً عند أصدقائيا

ظريفة : في (الباميا) خَلِّ الطها ةَ وخُذ الطّواهيا

وطبخُ «حُسنَى» يحفظُ الشّبابَ والعوافيا

إجلسْ جمالُ ساعةً وناجِني بحاجتِكْ

جمال : ماذا أقول جدّتي ؟

ظريفة : قُلْ ما تَشا لجدّتِكْ

جمال : أنا يا جدتي كبرتُ ولا أطلب إلا الزواج

ظريفة : عندي صبيّةٌ لكَ

جمال : الخادمُ ؟ لا . كم قلتُ : لا

ظريفة : لا تَدْعُ « حُسنَى » خادماً

جمال : إبنةُ من ؟

ظريفة : بنتي أنا

جمال : لقيطةٌ ربّيْتِها أنت . أليس هكذا ؟

ظريفة : تذاكرنا الزواج تعالَ ننظرْ

زواجَكَ كم يكلِّف يا جمالُ

جمال : قليلاً جدتى

ظريفة : كم؟

جمال : نصف ألفٍ

ظريفة : أعندك ما لنصف الألفِ بالُ ؟

[لنفسها]

ماتمَّ مصرٌ لا يَبقى عليها ولا يَبقى على الأفراح مالُ

[ثم إلى جمال]

اشرحْ جمالُ ما يكو نُ المهرُ

جمال : عُدَّيه مِيَةْ

ظريفة : من الجنيهات ؟

جمال : أجل ليست ريالاتٍ هِيَةْ

و « شبكة » تصلح أن تُهدَى وأنتِ المُهدِيَةْ

ظريفة : وكم تُساوِى ؟

جمال : مئةً

ظريفة : أخرِجُها من ماليَةْ ؟

جمال : ومئة كِراءَ بيتٍ للعروس ولِبَنْهْ
نملؤه أمتعةً وحلية وآنيَهْ
ومئةً لفَرَحي ومئَةً لجيبِيَهْ

نظيفة : واحيرتي ! واضيعتي ! «جمالُ» .. واخرَابيَهْ !
إنْ أنا زوجتكَ يا ابني بعتُ ما ورائيَهْ

جمال : إذن فاعلمى جدتي أنني خطبتُ

نظيفة : وما لِي ومَن تخطبُ ؟
أحقا خطبتَ ؟

جمال : أجل جدتي

نظيفة : ومن تلك؟ ما بيتها؟ ما الأبُ ؟

جمال : فتاةٌ من « الخُط » بنت النقيب

نظيفة : بلا والدٍ واسمها « زينبُ »
هنيئاً لك البيتُ بيتُ العفافِ

جمال : و بيتُ الغِنى ، والغنى يُطلبُ

نظيفة : أأنتَ تعرِّفُني من تكون
وما مالُها ؟ إنها تكذِبُ

لأنت أسعدُ منها وأنت أكثر مالا

جمال : أنا ؟ انظرى ذاك جيبى هل تُبصرين ريالا ؟

نظيفة : بل تلك « حسنى » فتاتى أتمُّ منها جمالا

وربما صارت على فقرها أكثرَ منها فى غدٍ مالا

وكيف وجدتَ المالَ يا ابنى ؟

جمال : اقترضتُهُ

نظيفة : وممن وكم يا ابنى وكيف رِباه ؟

ومن أين تقضِى الدينَ ؟

جمال : يقضيه قادرٌ

على الشيءِ لا يقْضِى الديونَ سواهُ

نظيفة : إزعق « جمالُ » نادِ « حسنى » أُدْعُها

[ثم تنادى] : يا بنتُ

جمال : حُسنَى

نظيفة : بنتُ

حسنى : [تدخل] مولاتى

نظيفة : عندي « جمالٌ » يتغدّى معي

هاتي حديثَ « الباميا » هاتي

حسني : سوف ترى ياسيدي صَنعتي

وسوف تنسى « كفتة الحاتي »

نظيفة : حُسني بذلتِ كثيراً وما رفَقتِ بمالي

أكفتـةٌ بيمينٍ وباميا بشمال

حسني : سيدتي لاتغضبي لالحمَ في المطبخ لا كفتةً لا كبابا

العظمُ لاغيرَ ملأتُ « الباميا » منه ... فطابت نكهةً وطابا

نظيفة : يَسلمُ فُوكِ يا ابنتي

[ثم لجمال] : إسمع لها

« جمالُ » ... كيف تُحسنُ الجوابا

جمال : جدتي هل فكّرتِ في أمرِ « حسني » ؟

نظيفة : كيف ؟ ماذا ؟

جمال : كم افتكرتِ بأمري

زوجيها

نظيفة : أزوّجُ البنتَ ؟

حسنى : لا . . . لا سيدى ... ذاك لم يمرّ بفكرى
أنت ياسيدى « جمال » كثير المزح فاجعل محلّ مزحك غيرى
أنا لا أقبل الزواج بإنسا ن ولو ساق مال قارون مهرى
أنا ماعشت لا أفارق هذا البيت إلا الى قرارة قبرى

تلفية : عشت « حسنى »

[ثم لجمال] :

سمعت كيف أجابت ؟
كيف لم تنس لى حنانى وبرّى ؟

[وتهم السيدة تليفة بالوقوف] :

جمال : أين يا جدة تمضين

تليفة : قريبا . . خطوتين
أنا قد خبأت أمس لك يا ابنى موزتين

[تمشى وتخرج] :

جمال [لحسنى] :
بعدت جدتى تعالى أقبلـ
ـك تعالى حبيبتى قبّلينى

حسنى : بعدت فليكن عفافى وديـ
ـنى حول عرضى لا يبعد الله دينى

إن اكن خادما فنفسىَ فى خِد
رِ من النبلِ والعفافِ مَصونِ
إدعُ يا سيدى سواى لما تد
عو له اليوم من خسيسٍ ودُونِ

جمال : هى حُسنىَ لايذهب الوقتُ
حسنى : دعنِي
وقتُ مثلى بجانب الكانونِ
جمال : قبلةٌ ها هنا على الجيدِ «حُسنىَ»
أو على الوجنتين أو فى الجبين
حسنى : ما الذى قلتَ يا جمالُ
جمال : طلَبتُ الحقّ
حسنى : حقّ المهوَّسِ المجنون
لكَ يا سيدى جمالُ شئونٌ
فامضِ فيها وخلِّنى وشئونى

جمال : إلى أين ؟ قفى (حُسنىَ)
حسنى : إلى الكانون والنارِ
إلى الشغل الذى يَنهى عن الريبةِ والعار
[وتمشى .. السيدة نظيفة تدخل]

نظيفة : جمالُ يا ابنى

جمال : جدتى

نظيفة : [لحسنى] : ما لكِ توجعينا
الموزتان يا جما لُ صارتا عجينا

جمال : ألقيهما يا جدتى الـ ـفي العَفَن الثّمينا

نظيفة : اشربْهما يا ابنى عسى أن يُورثاك لينا

جمال : أنا يا جدة لا أقوى على هذا العلاجْ
إن فى البيت دجاجًا فاطرحيه للدجاجْ

« ستار »

الفصل الثالث

المنظر الأول

« الست نظيفة على فراش أرضى فى قاعة من منزلها ، »

« وحولها « حسنى » وجماعة جئن للسؤال عنها من الجارات »

زائرة [وهى داخلة] :

العوافِى أمّ الأفندى العوافى

حسنى : اخفِضى الصوتَ . . أَمسِكى يا خالهْ

الزائرة : ما لها ؟ ما بها ؟ عفا الله عنها

حسنى : هى من ليلتين فى شرِّ حالهْ

زائرة : أمُّ الأفندى عوفيتْ من قلبها تحبنى

ما كان أندَى يدها على الفقير والغنِى

شفاها الله للبيتِ وللجارِ وللجارهْ

جَــرى إحسانهــا كالسيــــلِ حتى أغرق الحــارهْ

قــد وقعتْ عيـنى عليهـا مرّةً فى « السيدهْ »

أخرى : فما رأيــتِ ؟

الأولى : نخــوةً وكرمًا ما أزيــدهْ

جاءت وراحت تُقرِضُ اللــه وتُعـطى مســجدَهْ

وكلما مَــدّ فقيـــرٌ يـــدَهُ

الثانية : عضّتْ يدَهْ

يا أختُ أين ذلك المدحُ العَطِرْ؟

وأين جُودها الذى كان المطــرْ؟

الأولى : [لحسنى]

أنظرى خلفِكِ « حُسنى »

حسنى : مَن ؟

الأولى : هى الشيخة « بنبــهْ »

[الشيخة بنبه تتقدم] :

بنبه : كيف حال المأتم اليوم ؟

حسنى : انظـرى . الحــالةُ صــعبهْ

إحدى الزائرات :

« حسنى » اطرَحِى الغمَّ ولا

تستسلمى إلى الكَدَرْ

رأيت رؤيا أمس

أخرى : ما ذلك

حسنى : خيراً . ما الخبرْ ؟

الزائرة : رأيتنى فوق طريقٍ فيه طينٌ ومطرْ

مشتْ به أم جمالٍ تَنْثَنِي وتَفْتَكِرْ

تحملُ حِملَ جملٍ أو جملين من تَجَرْ

حسنى : ثُمّ

صاحبة الرؤيا :

إذا فوقَ الطريقِ ثَمّ شيخٌ قد ظَهَرْ

كأن نورَ وجهِهِ تحت العمامةِ القمرْ

قد طرحَ الأحمالَ عنها بحَجَرتْ على الأثرْ

حتى لبثتُ ساعةً عجبتُ كيف لم تَطِرْ

سمعتِ يا شيخةُ رؤياىَ ؟

الشيخة : سمعتُ العَجبا

رؤيا كأنها الفَلَقْ　　تبارك الذى خلَقْ
أم جمالٍ أعيَتْ　　وزال عنها العناءُ
وذلك الشيخ قطبٌ　　على يديه الشفاءُ
أخرى : أم جمالٍ بخيرٍ　　قد أُلقِىَ الحِمل عنها

[يظهر الدكتور مقبلا]

إحدى الزائرات :

ماذا ؟ من الداخل ؟ من يا تُرى ؟

أخرى : هذا هو الدكتورُ عبدُ السلامْ

الأولى : أبعدَ هذا .. القطبُ يؤتَى به ؟

الثانية : وأىُّ قطبٍ ؟

الأولى : هلْ نسيتِ المنامْ ؟

أخرى : ماذا تقول ؟ تظنُّ هذا القطبَ ؟

الأولى : ذاك هو العمَى

هذا الطبيبُ مُطربَشٌ　　والقطبُ كان معمَّمَا
شتَّانَ بين القمرِ المنوَّرِ الململَّحِ
وبين تيسِ الجبلِ المفلفَلِ المملَّحِ

ما تلك فوق عينه ؟

الثانية : زجاجةٌ مُدَوَّرَهْ
تَقِيهِ ضوءَ الشمسِ أو تمنعُ عنه الغَبَرَهْ
كأنها غمامةٌ تحجب عيْنَى بقرهْ

الأولى : ولِمْ تَغَطَّى بالثيا بِ السودِ رأساً لقدم ؟
كأنما أُخرِجَ من زكيبةٍ من الفَحَمْ

الثانية : سود الثياب بمصرٍ صارت ثيابَ الإمارهْ
فلا تَرَيْنَ بياضًا إلا على شيخ حارهْ

الأولى : وما يغيبه ؟

الثانية : إسألى حُسنَى

حسنى : يغيبه « تُوسكَنَهْ »

الأولى : مسكينٌ الدكتورُ قد أصبح فُوهُ مدخنَهْ

الدكتور: العوافى أمّ الأفندى العوافى

حسنى : هى فى غَشْيةٍ ونومٍ عميقِ

الدكتور: كيف حسنى؟ما حال أمّ جمالٍ ؟

حسنى : هى فى الكُرْبِ خفَّفَ الله عنها

الدكتور: ودوائى؟

حسنى : لـمـا تعاطتْهُ نامت

نومةً لم تَقُـمْ إلى اليـوم منهـا

ما بهـا يا سـيدى ؟ ما داؤها ؟

الدكتور: تُخمـةٌ من أكْلَـــةٍ ذاتِ دَسَمْ

حسنى : تخمةٌ ؟ لا سيدى الدكتور . . لا

نحن لا نعـرف فى البيت التُّخَـمْ

الدكتور : إذن بهـا ضعفٌ

حسنى : ومن أين جا ء الضعفُ

الدكتور: من قلّـــةِ ما تَطْعَمُ

حسنى : وما يقوّى الضعفَ ؟

الدكتور: الأكل يا حسنى

حسنى : وكيف الأكلُ؟ أين الفمُ؟

الدكتور: رحـم الله زوجهـا إنه كان صاحـبى

كان فى كل منزل وطـــريق بجـانبى

[ثم ينتقل الدكتور بغتة لمخاطبة إحدى الزائرات]

« خضرةٌ » أنت هنا ؟ ما تصنعين يا ابنـــتى ؟

خضرة : فى كل ساعةٍ أجى أسألُ عن سيدتى

الدكتور : و« حسنٌ » زوجُك ما يصنعُ ؟

خضرة : فى البيت انطرَحْ

منذ تناول العلاجَ بالأوانى ما بَرَحْ

الدكتور : وما له لم يَجئْنِى ؟

خضرة : بأىِّ رجلٍ يَجيئكا ؟

الدكتور : [إلى مرجانة] :

ما ذاك يا بيضاء ماذا أرى ؟

مرجانة : تورَّمَ الخدُّ من الدُّمَّلِ

الدكتور : [يخرج مشرطا من جيبه]

هاتى أريه .. إصبرى ساعةً أفتحُهُ

مرجانة : لا . يفتحُ اللهُ لى

أخرى : دعيه يفعلْ تستريحى

أخرى : اقْعدى حَذارِ « مرجانةُ » أن تفعلِى

[يدخل جمال]

الدكتور: من ذاك ؟ أنت جمالُ ؟

جمال : من ؟ سيدى الدكتورُ ؟

كيف وجدتَ جدتى ؟

الدكتور: تسير نحو العافيَهْ

جمال : وكيف وهى من ثلاثٍ لم تُفِقْ ؟

حسنى : بل إنها من أربع كما ترَى

وارحمتاهُ لك يا سيدتى

ولطفَ اللهُ بنا فيما جرَى

جمال : حُسنَى أقلِّ الحزنَ .. يعفو اللهُ عن

أزَيد من هذا ويَشفِى أكثرا

الدكتور: دَعَا . . لا تخافا ولا تحزَنا

فما الأمر لليأسِ بالصائرِ

وكم فاقدِ الرشدِ لا غائبٍ

ورائى تركتُ . . ولا حاضرِ

وآخرَ لا راقدٍ فى الفراشِ

إذا قلَّبوه . . ولا ساهرِ

حسنى : أمرضاك كلُّهمو هكذا ؟

وهل يستفيقون يا سيدى ؟

الدكتور: تقوم عليهم يدى بالشفاءِ

قيامَ المسيح على المُقعدِ

حسنى : [لجمال]

وأنت سيدى جمالُ قوّني

علّمْنِيَ العزاءَ والتصبُّرا

زائرة : « مرجانةُ » انظريهما

الأخرى : يحبها

الأولى : تحبُّهُ

الثانية : وبيديه قلبُها

الأولى : وفى يديها قلبُهُ

« يخرج جمال ، وتخرج مرجانة وبعض »

« الزائرات ، وتدخل إحدى الجارات تدعى زهرة »

زهرة : ما حال أمِّ الأفندى ؟

حسنى : سيدتى فى العذابْ

مضى عليها أربعٌ في كُربةٍ لا تُفرَجُ
في النزع لا وعيَ لها والسرُّ ليس يخرجُ

زهرة : لديَّ خاطرٌ خطَرْ

حسنى : ما ذاك ؟

أخرى : ماذا ؟ ما الخبرْ ؟

زهرة : اصغينَ .. مما جرَّبوه في الأُسَرْ

صوتُ «الفلوسِ» عند رأس المحتضَرْ

إن كان في دنياه بالبخل اشتهرْ

يسمعها فينطفي على الأثرْ

وكلما تأخرتْ عنه انتظرْ

حسنى : إذن قُومي أريحيها إذن من هذه الحالَةْ

زهرة : وأين الشاشُ والفضةُ ؟

حسنى : من مالِيَ يا خالَةْ

زهرة : مالُكِ أو مالُ سواكِ كلُّ مالٍ قد حضَرْ
القصدُ أن يَقرَعَ صوتُ المالِ سمعَ المحتضَرْ

« حسنى » اسمعى لِىَ أصغِى

هـاتى مـلاءةَ فـرشِ

والآن فليُـلقِ كلٌّ منكنَّ فيها بقرشِ

ثم لحسنى

« حُسنَى » خُذِى من طرَفِ

ثم لأخرى وأنتِ من ذاك الطـرَفْ

للجميع

وأنا أبـقَى هـا هنـا

لصبى موجود

وأنت قُـم خُذْ لا تخَـف

والآن فلنقـمْ إلى الفـراشِ

ومثلَ صُنعِى فاصنعوا بالشاشِ

يدخل جمال

جمال : ما الحال حُسنَى ؟ وكيف أمستْ ؟

حسنى : فى النزعِ والكَرْبِ لا تزالُ

« يذهبون بالشاش حتى يقتربوا من فـراش المحتضرة ، وهم »
« ممسكون بجهاته الأربع ، فتخـرج الأولى نقودا وتلقيها فى »
« الشاش ، فيعمل الباقون مثلها ، يتقـدم « جمال » بغتة »
« ويخرج من جيبه نقودا ، ويقول : »

جمال : وأنا أيضا أشترك هاكِ خُذِى ما أمتلكْ
وضعتُ كل فضتى كى تستريحَ جدتى

« يلق النقود »

« الأربعة يهزون الشاش بالنقود بينهم »

« وتقول الأولى مخاطبة المحتضرة »

الأولى : إمضِى ولا تُفكِّرِى فى المالِ وانسَىْ حديثَ القرش والريالِ
أنتِ وما ملكتِ للزوالِ

هزُّوا معى . . هزُّوا معى يا أيها الروحُ اطلعى
إلى النعيمِ الأوسَعِ

وديعةَ الله اذهبى إمضى ولا تُعذِّبى
لله عُودى والنَّبى

إحدى السيدات [بعد وفاة الجدة] :

قد انقضى الأمرُ قد خرجَ السرُّ
« حسنى لكِ الأجرُ

حسنى [لجمال] :

الصبرَ . . واخرجْ سيدى جمالُ

لمثلِ ذا لا يصلحُ الرجالُ

المنظر الثانى

« فى منزل المرحومة الست نظيفة . »

« تظهر « حُسْنَى » فى ثوب أسود »

حسنى [لنفسها] :

عَيني أحقٌّ أنني فى منزلى ؟

لا هو كان لى فوهبتُهُ لجمالِ

غاليتُ فى شَغَفِ الفؤادِ بحبِّهِ

حتى وهبتُ له الثمينَ الغالى

أعطيتُه ما كان أصبح فى يدى

من مال جدته .. فليس بمالى

لم يرضَ قلبي أن أعيش سعيدة

ويعيشَ فى بؤسٍ ورقة حالِ

أتُراه يقدرُ خدمتى ومحبتى

أو لا يمرُّ له الصنيعُ ببالِ ؟

رحمة الله على سيدتى
وسقى اللهُ ثراها وجزاها
حرمتنى الشاشَ حتى ذهبتْ
فكستْنى الخزَّ فى الموتِ يداها
وحمَتْنى الماءَ حتى احتجبتْ
فسُقيتُ الشهدَ من فيض نداها
صار لى من بعدها مترلُها
والدكاكينُ وآلتْ ضيعتاها
ثروةٌ قد نهص الجوعُ بها
ومشى الحرمانُ فيها فبناها
وهبتْ لى كلَّ ما قد ملكتْ
لم تدَعْ من ذاك شيئاً لفتاها

[بعد لحظة]

لا .. ذاك مالُ جمالٍ تركتُهُ لجمالِ
وعدتُ ما كنتُ مِن قبْلُ ، فوطنِي هى مالى

أجل أنا الخادم والطاهِيَهْ
وما أنا السارقةُ الباغيَةْ

ولا على الناس طفيليّةْ
أجعل أموالَهمو ماليّةْ

سمعتُ حديثَ البخلِ حتى صحبتهُ
زمانًا أراه كلّ حينٍ وأسمعُ
يروح ويغدو بين عينيَّ صورةً
ويأتى حِيالى بالحياةِ ويرجِعُ

سيدتى وبخلُها في (الخُطِّ) سارا كالمثَلْ
وانتقلتْ وذكرُها بالبخلِ فيه ما انتقلْ
يرحمها الله فما أنسى لها تلك الجُمَلْ
في غضبٍ عند الحوا رِ واضطرابٍ و (زعَلْ)
وما اختلفنا مرةً في حَمَلٍ ولا جَمَلْ
لكنْ لأجلِ الثومِ كا
نَ الخُلْفُ، أو حول البصلْ
ولم نكنْ من الدقيــق ننتهى ولا العسَلْ

يرحمها الله وإن لم تأتِ يوماً بحسنْ
عاشت بثوبٍ واحدٍ كالميْتِ عاش بكفَنْ
أما أنا . . فالشاش أو ما دون ذاكَ في الثمَنْ
وبذلتي وفوطتي طال عليهما الزمَنْ
وأجرتي عشرون قرشاً مع كثرةِ المهَنْ

البئرُ لا أبرحُها خارجةً وداخلَهْ
صاعدةً كالدلوِ كلَّ ساعةٍ ونازلَهْ

طبَّاخةٌ أصنع من لا شيء شيئًا نأكلُهْ
وأنحني على البلاطِ كلَّ حين أغسلُهْ
وكلُّ دكانٍ علىَّ أجرُها أحصّلُهْ

[تدخل زهرة]

زهرة : ألعوافي يا ابنتي

حسنى : من جاءنا ؟ خالتي زهرةُ ؟ أهلًا مرحبا
أدخلي

زهرة : [لنفسها في حسد وحقد] :

يا لك من طبّاخةٍ نثرَ الحظُّ عليها الذهبا

[ثم لحسني]

يا هَناكِ المالُ حسني

حسني : مالُ من ؟

زهرة [لنفسها] : هي تُخفي

حسني : بلغُوكِ الكَذِبا

زهرة : عَجَبًا .. أنت إذن لم تَرِثِي

مال مولاتِكِ ؟

حسني : لا . لا . عَجَبا

أنا يا خالةُ لستُ لِصّةً

لعنَ اللهُ الغِنَى المُغْتَصَبا

زهرة : إن للجيرانِ « حسني » ألسُنًا تَهذِي طِوالا

حسني : ما الذى قالوه ؟

زهرة : قالوا أنتِ جَرَّدتِ جمالا

حسني : كذبوا واللهِ لم ألمسْ له باليدِ مالا

[تخرج « زهرة » وتتبعها « حسني » ، يدخل « جمال »]

[تدخل « حسني » فترى جمالا]

حسنى : مَن ها هنا ؟ أهْوَ جمال سـيدى ؟

جمال : أجل . أنا الغـريبُ فى بيتِ أبى

أنا الذى قـد سـلبوه مالَـهُ

لم يبـقَ من مالِيَ ما لم أُسْلَبِ

قـد ضربَتْنى فى الحياةِ جـدتى

وفى الممـاتِ

حسنى : ألف لا . لـم تُضْرَبِ

اجلسْ . تفضلْ . استرِحْ

هَوِّنْ عليـك سـيدى

جمال : لم يبـقَ من مالِكِ يـا

جدةُ شىءٌ فى يـدى

ضَيَّعْتِ أمسِى ثم لم يَكْفِ فضيَّعْتِ غدى

« حسنى »

حسنى : « جمال »

جمال : افترقنا

حسنى : كيف ؟ لا . أبدا

جمال : تغـيّرَ الأمرُ من حالٍ إلى حالِ
أنتِ الغنيةُ « حسنى » والفقيرُ أنا
المـال مالُكِ منـذُ اليـومِ لا مالى

حسنى : المـالُ يا جمـالُ ؟ ألفقرُ ؟ الغِـنى
ماذا تقول سيدى ؟ ماذا جرى ؟

جمال : أليس حرمـانِىَ لـونًا متقنّـا
طبختِه أنتِ وجـدتى معا ؟
« حسنى دَعِى الخُبْثَ ولا تَجاهَلِي

حسنى : أتعـلم الخبثَ علىَّ والرِّيا ؟
حُـرمتَ مِمَّ ؟

جمال : من تراثِ جدتى

حسنى : إذن من الوارث

جمال : أنت لا أنا

حسنى : أنا أراك سـيدى تهـزأ بى
كفى جمـالُ محقَـرًا منى كفى

أُقسمُ هذا الأمرُ لم أعمَل لَـهُ
وإننى آخِرُ من دَرَى بِهِ

جمال : أما رأيتِ كاتبا معمَّماً

وشاهدَيْنِ يعملون ها هنا ؟

وشيخةً تُملِي عليهم سخفَها

تُحَرِّمُ ذا قُربى وتعطِي أجنبا

كمينِ ربوةٍ تخطَّى خيرهُا

إلى الوهاد مُستحقَّاتِ الرُّبى

حسنى : جمالُ سيدى تعالَ نحتكمْ

إلى الحقوقِ والصوابِ والنُّهى

هَبْ ما تقول يا جمالُ قد جرى

جمال : لقد جرى

حسنى : هاتِ الكتابَ فامْحُ ما

تشاءُ ، واثبتْ ما تَشَا

بَدِّلْ وغَيِّرْ فى كتابِ وَقْفِها كما ترى

أنت غِناىَ . . إنْ غضبْتَ ما انتفاعِى بالغنى ؟

أمضى فابغِى سيداً أو ابتغِى

سيدةً أطهو لها

جمال : ماذا أرى ؟ تبكينَ حسُنَى ؟ مِمَّ ؟

حسنى : لا

جمال : كَفَى ابنتى كفى بُكا

حسنى : خُذْ مالَها وخلِّنى أعِش كما
كنتُ أعيشُ أوّلا

جمال : بحياتى قُولِى الحقيقةَ حُسْنَى
أتحبِّينَنِى ؟

حسنى : أجلْ . مِلْءَ قلبى

جمال : مثلَ حُبِّى ؟

حسنى : جمالُ أحببتَنِى اليو مَ ؟

جمال : قديمٌ وحقِّ عينيكِ حُبِّى
كنتُ أهواكِ طفلةً تملأينَ الـ
بَيْتَ والحوْش من صياحٍ ووثب

كنت أُهواكِ طفلةً في الكوانينِ نافخةْ
كنت أهواك خادماً كنت أهواك طابخةْ

[ثم يمسك يدها و يقول]

كم اشتهيْتُها يدًا ما فرغَتْ من العمَل

كنت أراها كَيِّـــدِ الـــــمَلْكَةِ أهــلًا للقُبَـــلْ
واشـــتهى رائحـــةَ الـثّـــومِ عليهـــا والبصـــلْ

حسنى : سيدى أنت خطبتَ

جمال : لا

حسنى : نعم بل خَطَبْتَ امرأةً ذاتَ يَسَارْ
وأبـوها كابرٌ ذو لقبٍ وله زرعٌ وضرعٌ وعَقَـارْ

جمال : وما تريدين "حسنى" ؟ أأ نفضُ اليـــد منهـا ؟
الله ربُّ جمـــالٍ يغُنيـــهِ عنـــكِ وعنهـا

[امرأة تريد الصعود]

المرأة : أأحدٌ فى المـــنزلِ ؟

جمال : [من أعلى]

مَن هذه ؟

المرأة : أمُّ " على "

أنتَ هنا ياسيدى ؟

جمال : أجل . تفضّلى ادخلى

أم علي : [تصعد]

دستورَكُم

جمال : تفضّلي لا أحدٌ في المنزلِ

حسني : [لجمال]

من تلك من ؟

جمال : إمرأةٌ مِن بيتِ أصهارِي الجُدُدْ

صديقةٌ قديمةٌ في كل أمرٍ تجتهدْ

حسني : ماذا تُريد يا ترى ؟

جمال : الآن نعلم الخبَرْ

أما أنا فليس لي في بنتِ إنسانٍ وَطَرْ

حسني : كرهتَ سيدي الغني ؟

جمال : أجل

حسني : وهكذا أنا

[ثم وهي خارجة]

لا يأخذُ الإنسانُ مِن دُنياهُ إلا الكَفَنَا

[تدخل أم علي]

جمال : يا مرحبًا أمَّ علي ماذا حملتِ من خبرْ ؟

أم علي : كنتُ رسولَ الصفوِ واليومَ أتيتُ بالكدَرْ

جمال : ماذا ؟

أم علي : أَصغِ يا سيدي أُمُّ العروسِ جُنَّتِ

جمال : كيف ؟ ولِمْ أمَّ علي ؟

أم علي : تريد فسخَ الخطبةِ

جمال : كذا أنا

أم علي : وأنت أيضًا ؟

جمال : تلك كانت نِيَّتِي

قد سمعتْ لا شكَّ أنَّني قد خسرتُ ثروتي ؟

قد علمتْ بأنني قد حرمتني جدتي ؟

أم علي : أجل

جمال : فقالت مفلسٌ ليس يليق لابنتي

أم علي : وهذه (الشبكةُ) ياسيدي

انظر . تأمل . خاتمٌ لا يُعاب

وهذه قيمةُ ما جاءنا

من (سَبَتِ) النقلِ وغالى الثيابْ

خمسون خُذْها. عُدَّ . مِنْ عادتى

جمال : [يأخذها]

أَنْ تَغْلَطى يا خالتى فى الحسابْ

[ثم ينتهى من العدّ]

أم على : هى خمسون سيدى

جمال : هذه خمسةٌ لَكِ

اذهبى . لستُ ناسيًا أَبَدَ الدهرِ فضلَكِ

[تخرج أم على ثم تدخل حسنى]

جمال : [بعد أن يراها]

رَبَّاهُ . . ما ذاك ؟ تلك حُسنَى ؟

من أين حُسنَى ؟

حسنى : مِن الستارَهْ

سمعتُ ما قالت العجوزُ

ولم تَفُتْنِى لها عِبارَهْ

خُذْ سيدى

جمال : ما ذلكا ؟

حسنى : ذلك وقفُ أسرتِكْ

[تناوله ورقة]

كانتِ شروطُ الوقفِ لى

فاستُعمِلَتْ لخدمتِكْ

وما ظننتُ ثروتى ما كان غيرَ ثروتِكْ

ذاك اتفاق قد جرى بينى وبين جدتِكْ

ما أرصدتْ لجهتى حوّلتُهُ لجهتِكْ

جمال : جدتى فى تمامها برّةٌ بى ومحسنَهْ

فعلتْ فىَّ فعلةً نبهتنى من السَّنَهْ

ساء فى المال مذهبى فرأت أن تُحَسِّنَهْ

وأنتِ « حسنى » أتحبيننى ؟

حسنى : أأنتَ فى ذلك ترتابُ ؟

قد كنتَ دنيا مغلقاً بابُها

دُونِى .. فكيف انفتحَ البابُ ؟

جمال : الآن «حسني» أقبل تُجز حديثَ ما مضى
كيف وجدتِ جدتي؟ وما مكاني عندها ؟

حسني : تحبُّك الحبَّ الذي كانت تحبُّهُ ابنَها
وتكتبي إن غبتَ عنها أو بَعُدْتَ الوَلَهَا
تكاد لا تسمعُ إنْ غِبْتَ.. تكادُ لا ترى

جمال : فما لها كانت تُذيقُني الجفاءَ؟ مالَها؟
فلو سألْتَها العَمَى ضَنَّتْ عليَّ بالعمَى

حسني : سيدتي بخيلةٌ

جمال : أعلمُ يا حسني بِذَا
وهي إذا قيستْ إلى جَدِّيَ.. كالغيثِ نَدَى
علَّمها جَدِّي .. وكا نَ أجمدَ النَّاسِ يدا

حسني : وأنا أيضًا سيدي أُصِبْتُ بالبخلِ أنا !

جمال : حنانيك. ماذا قلتِ «حسني» أخفْتِني
أقدَّرَ ربي أنْ يطولَ عذابي ؟
أأعداكِ حُسني بُخلُ جَدِّيَ. إنني
إذنْ من مصابٍ صائرٌ لمُصابِ

حسنى : لا تخشَ بخلى سيدى .. لستُ مَنْ
تبخلُ فى حقٍّ ولا واجبِ

جمال : ويحى ! أأرميك بالبخلِ ؟ قبّحَ اللهُ ظنّى
وقد رأيتُ بعينى وقد سمعتُ بأذنى
فأنتِ أرجعتِ مالى وكان قد ضاع منى
فما سوى اللهِ «حُسنَى» يقدرُ يجزيك عنى

- ستجمعنا الدنيا غدًا .. كيف يا تُرى
يكونُ طعامى أو يكون شرابى ؟

حسنى : سنشرب الماء فى أوانٍ
غاليةٍ حلوةٍ نضيدهْ
وبيرةً كل ظهرِ يومٍ
توضع فى الثلج والبرودهْ

جمال : والأكل ؟

حسنى : ماشئتَ من شواءٍ
ومن دفينٍ ومن عصيدهْ

جمال : نسيت « حسنى » ما ليس يُنْسَى

حسنى : ما ذَلك ؟

جمال : « البامية » الجديدهْ

هذه « الشبكةُ » التى أرجعتْهــا المقفَــلَهْ
خاتمٌ قــد وضعتُهُ فى البنــانِ المُقَــبَّلَهْ

[يلبسها الخاتم ويقبل يدها] :

حسنى : والمهـــر ؟

جمال : [يشير إلى النقود المردودة]

تلكَ هى لَكْ أَعْطَى جمــال ما مَــلكْ
ما المــالُ مهرًا للمَــلَكْ

حسنى : ومهرُكَ سيدى ؟

جمال : مهرِى ؟ تُــرانا
تزوجنا على دينِ النصارَى ؟
دَعِى حُسنَى المِزاحَ

حسنى : أقُــول جِــداً
ولِمْ تأبَى ؟ أتحسبُ ذاك عارا ؟

وكم من مسلماتٍ سُقْنَ مهرًا   وإنْ دُعِىَ الأباعدَ والعقار!

جمال : إذن هاتى اذكرى مهرى   وسمّيه على قدرى

فقد تعطينى قرشًا   وقرشين . . وما أدرى

حسنى : بلِ الدنيا وما فيها   وما جلّ عن الحصْرِ

جمال انزل إلى البئرِ   تجدْ مهرَكَ فى القعرِ

جمال : مَهْرِىَ فى البئرِ ؟

حسنى : أجلْ

جمال : كيف هوَى ؟ كيف نزَلْ ؟

أنزِلُ ؟ هذا خَبَلْ !

حسنى : ننزلُ إنْ شئتَ معا

لكى أريكَ الموضعا

هناك تُبصِرُ العَجَبْ

جمال : ما ذاكَ ؟

حسنى : صُندوقُ خَشَبْ

مُمتلئٌ من الذهبْ

جمال : هناك الذهبُ الحلوُ إذن طِيرى بنا طِيرِى

قبلتُ المهرَ يا حُسنىَ إلى البيرِ إلى البيرِ

(ستار)

جبل التوباد حياك الحيا	وسقى الله صبانا ورعى

فيك ناغينا الهوى في مهده	ورضعناه فكنت المرضعا

وحدونا الشمس في مغربها	وبكرنا فسبقنا المطلعا

وعلى سفحك عشنا زمنا	ورعينا غنم الأهل معا

ما لأحجارك صماً كلما	هاج بي الشوق أبت أن تسمعا

كلما جئتك راجعت الصبا	فأبت أيامه أن ترجعا

قد يهون العمر إلا ساعة	وتهون الأرض إلا موضعا

(من مسرحية مجنون ليلى)



